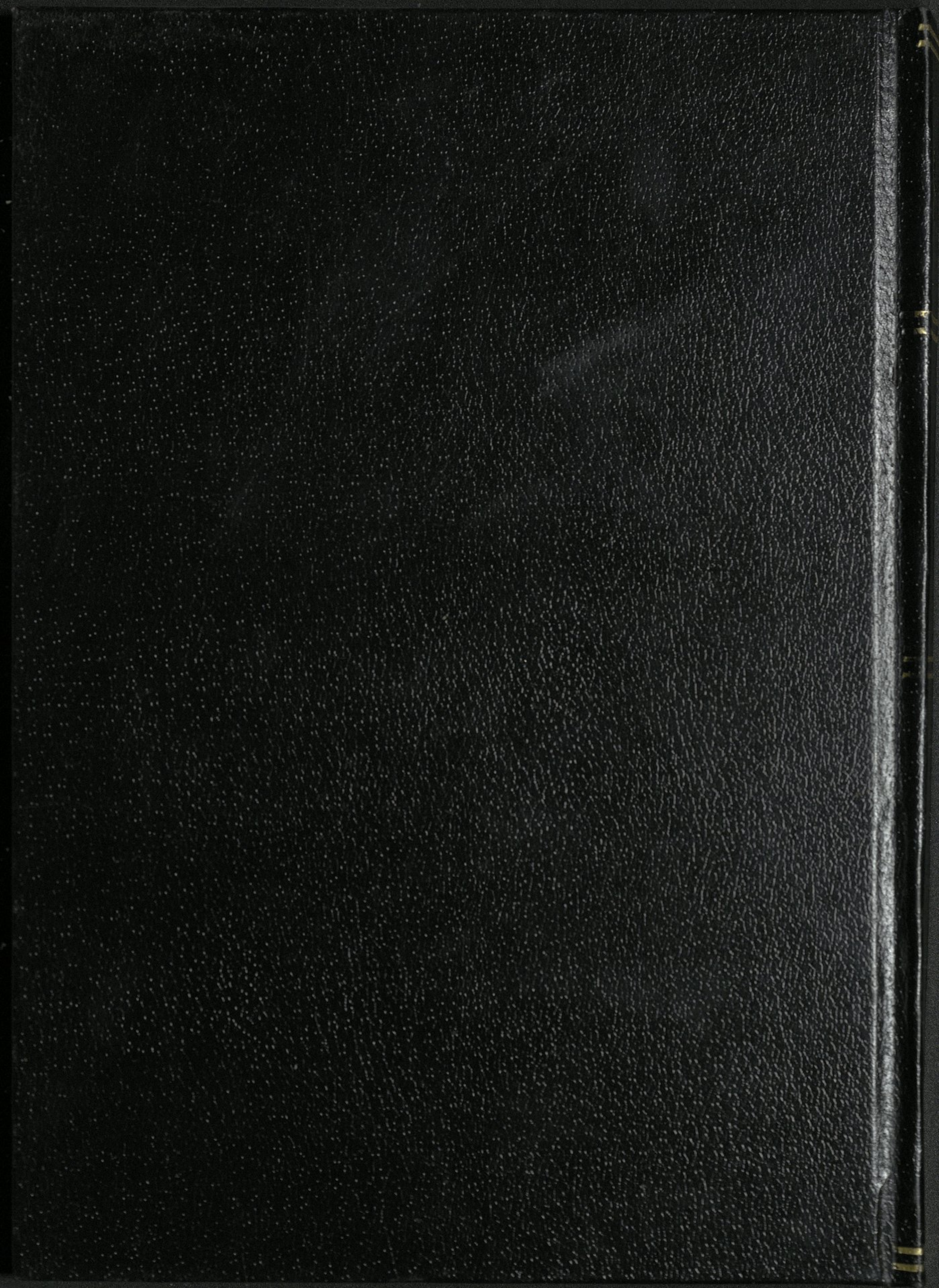
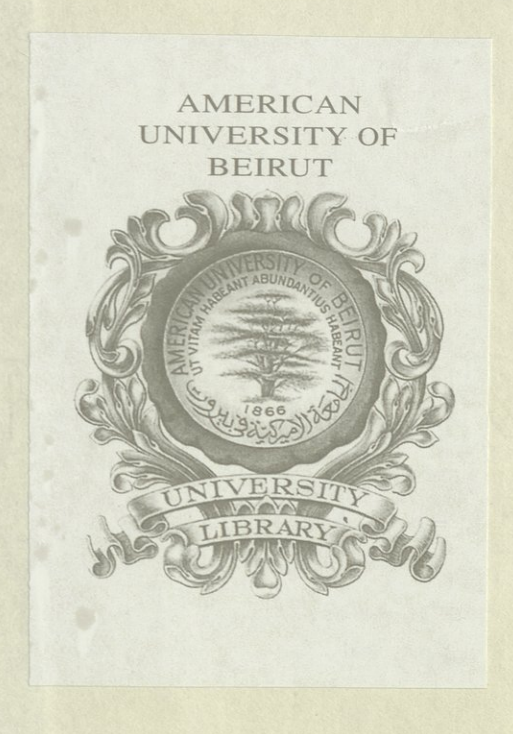
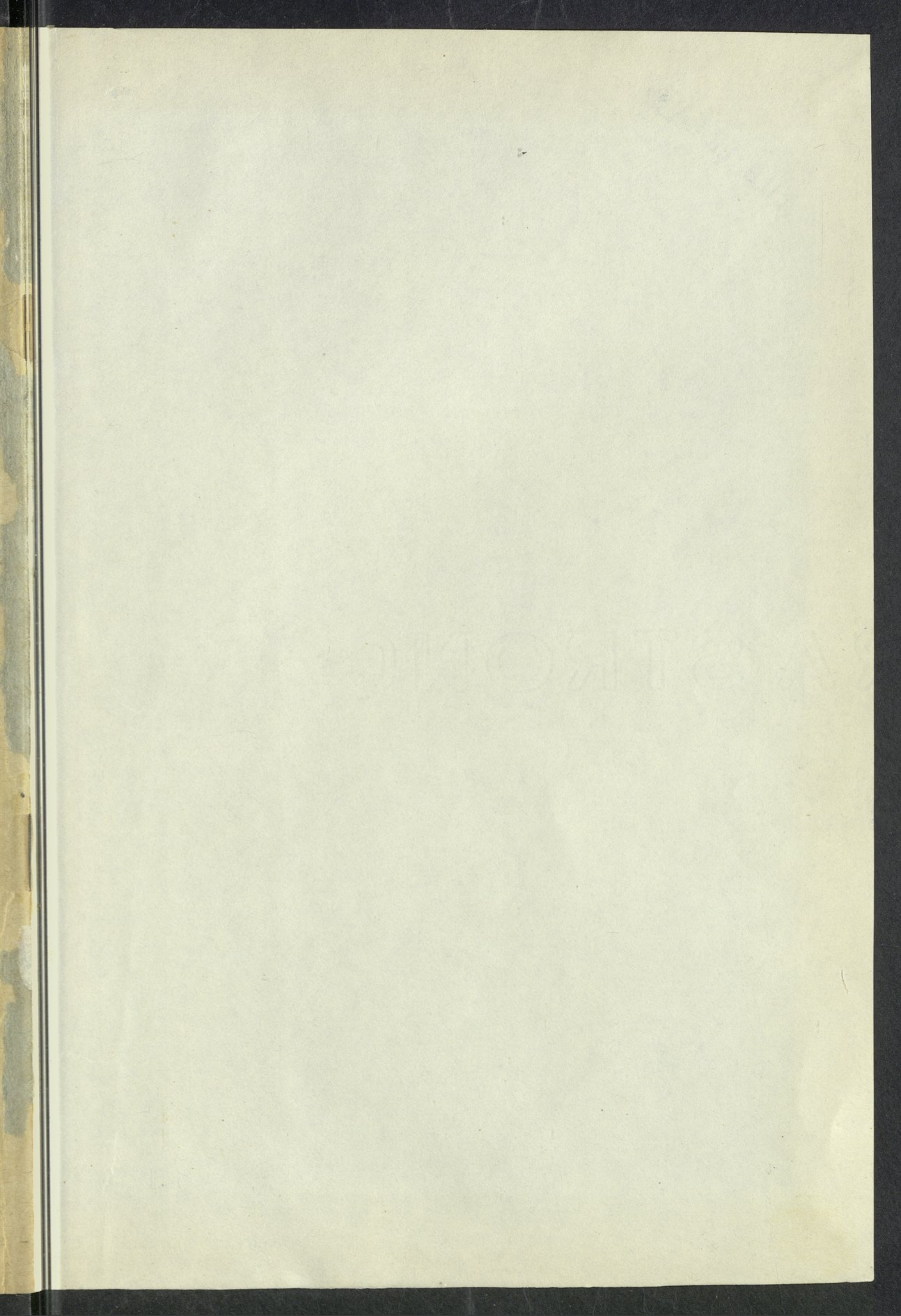



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت
UNIVERSITY
LIBRARY



البهي الخولي

تذكرة الدعاة

ملتزم الطبع والنشر
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

« إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا »

[قرآن كريم]

الطبعة الأولى سنة ١٩٤٠ م

« الثانية « ١٩٥١ م

« الثالثة « ١٩٥٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الله أكبر ولله الحمد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ، أفضل الداعين إليه على بصيرة ، والمجاهدين فيه بإحسان ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

« وبعد » فقد طالعت هذه التوجيهات ، بل المحاضرات فى أساليب الدعوة وتكوين الدعاة ؛ فأعجبت بها ، وهششت لها ، وشمت فيها بوارق الإخلاص والتوفيق إن شاء الله ، ودعوت الله تبارك وتعالى أن يجعلها نافعة لعباده ، موجهة لقلوب الناطقين بكلمته ، والهاتفين بدعوته .

وليس ذلك غريباً على كاتبها وملقيها ، الأخ الداعيـــة المجاهد ، الأستاذ بهى الخولى ؛ فهو بحمد الله صافى الذهن ، دقيق الفهم ، مشرق النفس ، قوى الإيمان ، عميق اليقين ؛ أحسن الله مثوبته ، وأجزل مكافأته ، وبوأنا وإياه منازل من أحب من عباده ، فرضى عنهم ورضوا عنه ، « أُولَـٰئِكَ حِزْبُ اللهِ ألا إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحون » آمين ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ؟

حسن البنا

الفقير إليه تعالى

القاهرة { المركز العام للاخوان المسلمين
فى غرة رمضان سنة ١٣٦٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه .

أما بعد : فقد طلب إلى بعض إخوانى الفضلاء ، أن أتحدث إليهم فى بعض الوسائل التى تبلغ بهم أن يكونوا دعاة إلى الله عز وجل ، فى صفوف الإخوان المسلمين ، وراق لهم أن يسموا أنفسهم « كتيبة الدعاة » ؛ وقد هممت أن أعتذر لأن تلك منزلة لايرشحنى لها علم ولا موهبة ؛ ولكنى عدت فقلت : آخذ بحسن الظن كما أخذوا ، والله يسلك بى وبهم ما يشاء . وسرنا فى الطريق معاً ، فكانت تلك الأحاديث التى أقدمها اليوم للقراء ، أو التى يقدمها هم ؛ فهم الذين أرادونى على طبعها ، والإنفاق عليها من أموالهم الخاصة ، ونشرها بين الناس ، وتقديمها لمن لم يشهد إلقاءها من الإخوان .

وأنا أعتذر سلفاً لكل قارىء عما لا يرضيه فى هذه الأحاديث ، فما وجدت من زلة فاسترها يا أخى ، وما وجدت من قصور أو تقصير فأنت جدير بغض الطرف عنه .

ليس كتاباً للخطابة

وإنى أقرر من الآن أنه ليس كتاباً يعرض للخطابة ، فيستوعب قواعدها العلمية ، ويستقصى أصولها الفنية ، ويبنى على تلك القواعد ما يريده العلم ، ويفرع من تلك الأصول ما يوحى به الفن ، ويجد فيه الراغبون ما يشبع رغبتهم ، ويمتع عقولهم وقلوبهم ؛ إنما هى نظرات فى كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتجارب خاصة ، عرضت لى فى ميدان دعوتنا العظيمة ، ولفتات قبست فيها من عبقرية أستاذنا المرشد أعزه الله ، عبقريته الروحية والعقلية . فاقرأها على هذا يا أخى إن أردت قراءتها ، وأسأل الله أن يشرح لها صدرك ، وأن ينفعك ببركة ما أحاط بها من حسن القصد بدءاً وختاماً .

الفرق بين الداعية والخطيب

على أنى لست آسفاً إذ أخرج هذه الأحاديث غير مستوعبة لقواعد الفن وأصوله ، بل إننى راض غاية الرضا ، فما قصدت أن أتحدث بها إلى خطباء ، أو راغبين فى تعلم الخطابة ، وإنما قصدت أن أتحدث إلى دعاة يرغبون أن يدعوا إلى الله عز وجل .

والداعية غير الخطيب . . . الخطيب خطيب وكفى . والداعية مؤمن بفكرة ، يدعو إليها بالكتابة ، والخطابة ، والحديث العادى ، والعمل الجدى فى سيرته الخاصة والعامة ، وبكل ما يستطيع من وسائل الدعاية . فهو كاتب وخطيب ، ومحدث وقدوة ، يؤثر فى الناس بعمله وشخصه . . . والداعية أيضاً طبيب اجتماعى يعالج أمراض النفوس ، ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة ؛ فهو ناقد بصير ، يقف حياته على الإصلاح إلى ما شاء الله . . . وهو رفيق ، وصديق ، وأخ للغنى والفقير ، والكبير والصغير ، ومن هذه الصفات تشيع المحبة فى قلبه ، وتتدفق الرحمة من عينيه ، وتجرى المواساة على لسانه ويديه ، وهذا ضرورى جداً للداعية ؛ وهو من مواهب الروح والجنان ، لا من صفات البلاغة وملكات اللسان . . . والداعية قائد فى محيطه ، وسياسى فى بيئته ، وزعيم لفكرته ومن يتبعه فى ناحيته . وكل هذا لا تنهض الخطابة وحدها بحقوقه ، فلابد له من التأثير النفسانى ، والهيمنة الروحية ، والاتصال بالله ، واستعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ وأحوال الناس .

ولست بهذا أغض من قدر الخطابة وضرورتها للدعوة ، وإنما أبين بعض صفات الداعية ، لتستبين طبيعة هذه الأحاديث التى سيقت للدعاة ، لا للخطباء ، كما سترى إن شاء الله فى فصولها القادمة .

أودية روحية

واعلم يا أخى أن كل ما نذكره فى هذه الأحاديث عن الدعوة والداعية ، والخطابة والخطيب ، إنما نقصد به دعوة الإخوان المسلمين ، ودعاتهم وخطباءهم ، وما يتصل بمحيطهم . وحين نقصر الكلام على هذا ، فقد قصرناه على المعنى الصادق للدعوة والدعاة ، والخطابة والخطباء ؛ فإنها دعوة الحق المتصل بأسرار الوجود ، وقوانين الحياة الظاهرة والخفية ، المادية والروحية ؛ وكفانا اطمئنانا إلى هذا أنها دعوة الله ، والله هو الحق ، وله دعوة الحق .

ولهذا سيجد القارىء فى هذا الكتاب فصولا تلم بأودية روحية ، وآفاق نفسية ،

بعيدة عما ألفه الناس فى كتب الخطابة والدعاية . . . سيجد فصولا لا تحدثه عن حركة الخطيب وإشارته ، ولا عن صوته ونبرته ، ولا عن طبيعة جسمه وأوصاف قامته ، فذلك فى رأيى أحرى أن يوجه إلى ممثلى الصالات ، وخطباء المسارح ؛ أما أن يوجه إلى « دعاة » يراد لهم أن ينشئوا أمة أو يساعدوا على إنشائها ، وأن يبنوا دولة أو يساعدوا على بنائها ، فلا . . . إنه القول الفصل ، وما هو بالهزل . والأمم لا تقام بالتهريج ، ولا تنهض بالحركات المصطنعة المتكلفة .

لقد حاولنا فى بعض فصول هذا الكتاب أن نلم مع القارئ بأودية روحية وآفاق نفسية ، نريد بهذا أن يهتدى إلى فطرته ؛ فالفطرة هى المستودع الإلهى ، أو هى « الصندوق » السرى الذى خبأه الله فى كياننا ، وأودعه ذخائر النجاح ، وعدد الصلاح والإصلاح ، وقوانين الحياة الجادة المهيبة ؛ فمن هدى إلى أسرار فطرته فقد هدى إلى الخير كله ، وإلى الحق كله ؛ وهدى إلى الهواتف الملهمة التى تصيح به من أعماق نفسه ، أن يفعل كذا ، وأن لابد من كذا وكذا ، حتى يتم كل نقص فى نواحى رسالته ، وحتى تقوم هذه الرسالة على جادة عملية لا نظرية . . أى على السنن الفطرية الواقعة التى يقوم عليها شأن هذا الوجود .

خطابة وخطابة

فإذا قرأت بعد هذا يا أخى كلاماً لا يتناول نماذج الخطابة التى ألفها الناس فى حفلات السياسيين والانتخابيين ، وتكريم الموظفين وغير الموظفين ، فلا تظن أنا تركنا شيئاً نفيسا ، أو أهملنا ركناً له قيمة فى عالم الخطابة والدعاية ؛ فإن أكثر ما يجرى فى هذه الحفلات كلام زائف ، وأساليب تهريجية ، يقصد بها التمويه والنفاق تارة ، أو الإثارة الوقتية لشعور الجماهير تارة أخرى .

هذه واحدة . . . والأخرى ، أن هذه الحفلات لا تتناول اللباب من الحياة ، وإلا ما دخلها الزيف والتهريج ، فالغايات التى ترمى إليها تافهة ، بل ساقطة فى كثير من الأحيان ، وما يقال فيها من الكلام لا وزن له ولا خطر ؛ فإذا أنت سألت نفسك بعد شهود حفلة من الحفلات ، أو بعد سماع خطيب مفوه من الخطباء : إلى أى مثل أعلى دعانا هؤلاء ؟ أو أى ناموس عملى من نواميس الحياة الجادة كشفوا عنه ، وصوروه لنا وحثونا عليه ؟ إذا سألت نفسك وكنت ناقدا نافذ البصيرة بريئا من الهوى ، أجابك ضميرك الحر النزيه : لا شىء أولا ، ولا شىء ثانيا ، ولا شىء أخيرا ؛ لأن ذلك كله أقيم للاشىء ، وهذا الخطيب المفوه ، الذى ملك الأسماع ، وأطلق الأكف بالتصفيق ،

هو من الصنف الذى ينعته الإنكليز « بالقدرة على قول لا شىء » ؛ لهذا أهملنا التحدث عن مناهج هؤلاء .

وأرانى مضطراً إلى استطراد لا توجبه مقدمة كتاب ، ولكن يوجبه المقام . . . فقد كنت أتحدث بمعنى ما تقدم مع بعض الناس ، فقال أحدهم : إذاً لنا أن نفهم أنكم معشر الإخوان قد اتخذتم لكم طريقا دينية تعتزل السياسة ، وما إليها من انتخاب وتكريم ونحوها ؟

فوقفت قليلا أمام هذه النظرة الضيقة ، التى كثيراً ما تعترض الإخوان فى مواطن كثيرة ، وتريهم أن الرسالة وإن كانت قديمة فإن الناس فى أشد الحاجة إلى بيانها وفهمها من جديد ، على وجهها الصحيح القديم ؛ ثم استرسلت مع السائل المعترض أقول :

لست بهذا أنفى عن الإخوان أنهم لا يقيمون حفلات سياسية ، أو انتخابية أو تكريمية ، فذلك كله من صميم أغراضهم ، غير أنهم لا ينحون فيه نحو غيرهم ؛ فحفلاتهم بريئة من النفاق دائما ، لا يقصدون بها إلا وجه الله ، وهممهم لا تنفك معقودة بنواصى أشرف المثل العليا ، وكلامهم — ولله الحمد — كلام له قدره فى سمو المعنى ، وعفة اللفظ ، وقوة الحق . فإذا أنت سألت نفسك عقب حفلة من حفلاتهم ، أو سماع خطيب مفوه أو غير مفوه من خطبائهم : إلى أى مثل أعلى دعانا هؤلاء ؟ أو أى ناموس عملى من نواميس الحياة الجادة كشفوا عنه ، وصوروه لنا وحثونا عليه ؟ وكنت ناقدا نافذ البصر بريئا من الهوى ، أجابك ضميرك الحر النزيه : إنى وزنت ذلك كله بالقسطاس الذى لا يعترف إلا بلباب الحقائق ، فإذا هو أمر ثقيل خطير ، يستمد من روح الأمر الثقيل الخطير ، الذى نعته الله فى فجر الدعوة الكونية الكبرى بقوله : « إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً » . . . شتان ما حفلات وحفلات ! وشتان ما أغراض وأغراض ، وكلام وكلام ! فهناك خطيب يكلمك فى الوطن ، ورضا الوطن ، ويطلب إليك أن تبذل من أجل وطنك ، وتعمل لوجهه ، وتتعلم العلم لرفعته ، أو تفعل كذا وكذا فى سبيله ؛ فإذا كنت خاليا من كل مؤثر يجعلك تتملق الخطيب اتقاء شره ، أو ابتغاء بره ، أو لأنه أغدق عليك من فضله ، وأسدى إليك من معروفه . . . إذا كنت خالياً من كل هذه المؤثرات ونحوها ، بدا لك الخطيب مخلوقا جافا تافها ، إذا حرك مشاعر الجماهير ، فإنه لا يثير إلا ما هو ظاهرى فقط ، مما لا يتصل بعقل رصين ، أو عاطفة تذهب إلى المكنونات الكريمة فى أعماق الفطر الكريمة ؛ ذلك أن الوطن

وحده شيء جامد أصم ، ودوران الخطيب حوله أشبه بدوران الوثنى حول وثنه ، إن دار دوران المقلدين فهو جامد جاف ، وإن دار دوران المصدقين فهو مبطل ضال وفى كلتا الحالتين لا يثير فى نفس أهل البصائر المستنيرة غير الرثاء والإشفاق .

الوطنية الربانية

حقاً إن الوطن وحده شيء جامد وثنى ، ولـكنك إذا تتبعت معانيه ألفيتها ترجع إلى بعض غرائز الإنسان ، فإذا أنت هذبت هذه الغرائز ، وسموت بها إلى مستوى الإنسانية الفاضلة ، فقد وصلتها بالعزة الصحيحة ، والحرية الـكاملة ، والإيثار النبيل ؛ وتلك صفات مما يحبه الله ، لأنها من صفات الفطرة التى فطر الناس عليها . فإذا نحن تكلمنا عن الوطن منفصلا ، فتلك هى الوطنية اليابسة الجافة الخرساء ، التى لا تثير مشاعر العقلاء ؛ وإذا أنت وصلته بأصوله الفطرية ، فقد سموت به إلى أشرف مقامات السمو ، وجعلت خـدمة الوطن لوناً من ألوان عبادة الله عز وجل . . . واستطردت أقول :

اعلم يا أخى أن الغرائز الإلهية فى الإنسان ، أشرف غرائزه ، وأعمقها ، وأبعدها غوراً فى فطرته ؛ فهى باقية فيه لا تزول ، وهى موصولة بكنوز عبقريته الأصيلة ؛ فإذا أنت عمدت إليها ، وأثرتها باسم الله ، فقد أثرت أسباب العمل الباقى ، وأطلقت هِمماً جبارة ، تستمد قواها من المعين الذى لا يقوم له شيء فى الأرض ولا فى السماء ، معين قوة الله سبحانه وتعالى .

فالوطنية إذاً ليست غاية ، وإنما هى غريزة أصيلة تتصل بكثير من المعانى الجليلة فى المرء ، وهى بهذا الوصف إحدى الأسباب الوثيقة التى تربطه بالله عز وجل ، فإذا تكلم المتكلم ، وهو يفهم هذا الفهم ، ألفيته يغوص إلى أعماق النفوس ، فيحركها إلى أشرف الغايات ، وينبه فيها أثمن المشاعر ، ويبعث منها أقوى الهمم والعزائم ، فيظل السامع يسمع فى سكون ، ويعيد فى هدوء ، ويتجدد فى لذة ، ويحيا فى قوة ، وهذا هو الذى يجده الناس فى حفلات الإخوان المسلمين ، ولم يخطئه أحد ممن سمع محاضرات فضيلة أستاذنا المرشد العام .

وهذا النوع من الخطابة والدعاية هو الذى نحفل به وحده ، لأنه يفيض من النبع الأصيل فى فطرة الإنسان ، فسواء اتصل بالوطن والوطنية أم لم يتصل ، فهو الكلام الحق ، وهو المنهاج الذى لا تنصب الموازين لسواه .

وهنا قال السائل المعترض : « إن السياسيين وطنيون مؤمنون بالله ، وهم يعبدون الله بالعمل الصالح للوطن وليس لأحد أن ينكر عليهم هذا الإيمان » .

فقلت له : يا أخى ، إن دعوى السمو بالوطن إلى الله ميسورة لكل دعىّ يدعيها ؛ وهذا من ظلم الناس لأنفسهم وللحقائق ، فما أهون ما يدعى أحدهم هذا الفهم للوطنية ! وما أهون ما يقولون جدلا : إنهم يرقبون الله فى الوطن ، ويجعلون العمل له ضرباً من العبادة الخالصة ؛ ولا غرو فقد أبطل هؤلاء الصلاة ، وسكتوا عن المنكرات واستباحة المحرمات ، وراحوا يقولون : التقوى فى الصدور ، فمن أخلص قلبه من الأحقاد والأغيار ، وسلم الناس من أذى لسانه ويده ، فهو المتقى ، أقام الصلاة أو لم يقمها ، شرب الخمر أو لم يشربها ، تبذل بالمحارم أو لم يتبذل . . . أقول : لقد ادعى هؤلاء فى الدين هذه الدعوى ، وزعموا أنهم أقرب إلى الله من كثير من المصلين ؛ فإذا كانوا بهذه الجرأة على دعوى التدين ، فهم على دعوى الوطنية الربانية أجرأ ، وما أسهل ما يجرونهما على ألسنتهم فى غير اكتراث ولا فهم ! .

إن الوطنية الربانية شعيرة من شعائر الله ، وحب الوطن من الإيمان ، والدين وحدة كاملة بحلاله وحرامه ، وأمره ونهيه ، وشعائره التى تنتظم وجوه الحياة والعبادة كلها ، فمن أبطل شيئاً من ذلك فقد مرق من دينه ، وفسق عن أمر ربه ، ولو ملأ الدنيا جهاداً فى سبيل الوطن والوطنية ، وهتافاً للاستقلال والحرية ، وهذا حق اليقين ، « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ، « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

فعلى من يدعى الوطنية الربانية أن يقوم بالشعائر كلها : عليه أن يقيم الصلاة فهى صلب الصلة بالله عز وجل ، وعليه أن ينزه مجالسه وأنديته واجتماعاته عما حرم الله كالخمر والقمار وتبرج النساء ، وما شابه ذلك ؛ وأن يكون فى سيرته الشخصية ، وحياته الخاصة ، كما رسم الله للمؤمنين من عباده ؛ وأن يعلن الغيرة ، بل يعلن الحرب على كل باطل يغضب الله . وكل منكر يستعلن به الجهلة فى كل مكان ؛ وعليه أن يعمل لوجه الله ، لا رياء الناس ولا لجنى المغانم الذاتية ، وأن يجعل الوطن ميدانا للجهاد فى سبيل الحق . . . عليه أن يجعله ميدانا يتقرب فيه إلى الله بطيب الأعمال ، لا وثنا تقرب إليه الدماء ، وتنتهى إليه الهمم والآمال ، ودعوى تجرى على اللسان ، دون أن يتحقق بها القلب ، ويصدقها العمل ؛ فهذا هو الباطل الذى يجب ألا يركن إليه عاقل ، وهو

الروح الخبيث الذى يمحق البركة ، ويحبط العمل ، ويجعل صاحبه تافه الفكر ، فارغ القول ، غير جدير بالنظر والالتفات .

الرجل الربانى

واعلم يا أخى أن كل إنسان — كائناً ما كان — ينطوى على مناجم إلهية من العبقريات العظيمة ، وأمداد من العزائم والهمم ، وكنوز من الفضائل التى تنضر وجه الحياة ، وتزدان بها الإنسانية ؛ ولا سبيل إلى إثارة هذه المناجم النفيسة إلا أن تثيرها باسم الله العلى الكبير ، فاسم الله وحده هو مفتاح هذه الكنوز الربانية المغلقة ، ولا يضع الله هذا المفتاح إلا فى يد العبد الربانى الذى يتخلق بصفات الربانية الفاضلة ، يجاهد نفسه حق المجاهدة ، ويقمع هواه فى غير هوادة ، فيفضى بذلك إلى ما شاء الله من بطولة وتوفيق ، « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »

وأنت واجد تفسير ذلك كله بصورة عملية واقعية فى تاريخ الغُرّ الميامين الذين خرّجهم رسول الله ، وصاغهم بعين الله أبطالا ؛ فتحوا أقطار الأرض ، لأنهم فتحوا قبل ذلك أقطار النفوس ؛ وأضاءوا الدنيا بنور الحق ، لأنهم أطلعوا شموسه قبل ذلك فى حنايا الصدور ؛ وأسعدوا البلاد بنعمة العدل والحرية والإيثار ، لأنهم بثقوا ينابيعها فى خفايا القلوب ؛ وانبعثوا إلى تخليد الباقيات الصالحات من الأعمال والأخلاق والمبادىء ؛ فأتوا من ضروب البطولات النفسية والمادية ما يدهش الألباب ، ويعجز الأبطال ويشبه الأساطير ، لأنهم انبعثوا بهمة لا ترى لها متعلقا دون عرش الله عز وجل ؛ فلو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أين هذا يا أخى من شأن أولئك المطموسين ، الذين ضلوا السبيل ، ورأوا أوروبا تهتف بالوطن والوطنية ، والعنصرية والقومية ، فقلدوهم تقليد القرود ، وأخذوا يكررون ألفاظاً ليس لها مدلول فى قلوبهم ولا عقولهم ، حتى غدوا بهذا التقليد فارغين تافهين ، لا قيمة لأعمالهم ولا لأقوالهم ؟ .

لا أزكى الإخوان

ولست بهذا أزكى الإخوان المسلمين ، فهم أبعد من أن يزكوا أنفسهم ، وهم يقرءون فى كتاب الله عز وجل : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ » ، « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » .

ولست أزكى لهم منهاجا ، فهم لم يأتوا بجديد ، إنما هو منهاج قديم زكاه الله عز وجل وأمر بالدعوة إليه إلى يوم الدين : « قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » . ولا فضل لهم إذ يدعون إلى هذا المنهاج الإلهى ، فذلك فضل الله عليهم ؛ و « الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ » .

ولست أزكى لهم قولا ؛ فهم لا قول لهم إلا ما كان قائماً بحق هذه الدعوة ، وافياً بأغراضها ، آخذاً من معين كتابها ، وسنة رسولها صلى الله عليه وسلم .

وقد زكى لهم الله كل ذلك : « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » .

لا تعصب

وبعد ، فهذا يا أخى ما عندنا وما عند الناس ؛ ونحن مؤمنون كل الإيمان بأن ما عندنا هو الحق الذى لا حق غيره ، وما عداه فهو الباطل الذى لا يؤبه له ولا يوزن بميزان ، فليس بعد الحق إلا الضلال ؛ ولهذا أهملناه ، فلم نعرض له بقليل ولا كثير ، فلا تجعله حجة علينا فى شىء ، فالباطل لا حجة له ؛ وفى هذا القليل الذى نذكره عن دعوة الحق وأساليبها غناء عن الكثير الذى عندهم .

وسوف يعرض لك فى أثناء هذه الكلمات ما يوهم ظاهره أنى أتعصب للاخوان المسلمين ، فاعلم أن ذلك لم يدر بخلدى ، كما أنه لا يدور بخلد أحد من الإخوان ؛ نعم أنا أتعصب للاخوان ، ولكن باعتبارهم فكرة فى الحق ، لا باعتبارهم هيئة خاصة ذات صبغة معينة ، فنحن فكرة ، ولسنا هيئة ، فكرة واسعة هائلة ، أوسع من السماء والأرض ، لأنها روح من أمر الله ، فليس لنا أن نضيقها بحيز مقدر ، أو صبغة معينة . . . والمدعوون إلى تمثلها وتمثيلها هم أفراد الإنسانية كافة ، هكذا أراد الله ، فليس لنا أن نحصرها فى عدد مقرر ، أو هيئة محدودة . فنحن براء — ولله الحمد — من مذمة التعصب للصور الظاهرة ، والميادين الضيقة ؛ وما قد يُفهِم أنى أتعصب فاحمله على هذا الوجه يا أخى ، فهو تعصب للحق المبين ؛ تعصب من يؤمن بأنه على الحق لا محالة ، ومخالفه على الباطل لا محالة ؛ تعصب من يُفهمك مقدما ، أنه غير

مستعد بحال من الأحوال لأن ينحاز إلى رأى لك تخالف به جوهر هذه الدعوة ، أقمت عليه البرهان أم لم تقمه ، أفحمته بما تحشد من الحجج أو لم تفحمه ، لأنه غير مستعد لأن يقبل رأى بشر ما فيما قضى الله عز وجل فيه بحكمه .

هذا هو إيماننا بدعوتنا ، يسميه بعض الناس — جهلا — تعصباً ؛ وقد أسميناه تعصبا مجاراة وجدلا ، وأسأل الله عز وجل أن يثبتنا وإياك على الحق ، وأن ينير بصائرنا به ، وأن يجعلنا من جنوده العاملين ، إنه قريب مجيب !

المؤلف

الباب الأول

فقه الدعوة و الداعية

الفصل الأول

قضية بين فهمين

الإسلام الحنيف هو الدعوة العالمية الكبرى ، التى بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتكون نظام الإنسانية الكامل فى حياتها الروحية والمادية ، فى كل زمان ومكان .

هذه قضية واضحة ، بل حقيقة جلية كالشمس ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، يستعلن وضوحها فى البصائر ، حتى لتحتل فى كيانها محل الضرورة الفطرية ، أو البديهية التى لا تحتاج إلى دليل . . . ولكنها مع هذا غامضة مبهمة لدى بعض المسلمين ، حيث تبدو له هذه الحقيقة ، مجموعة من الأفكار الصدئة ، والنظم البالية ، ويرى القائمين بها قطيعا متخلفا عن قافلة الإنسانية ، لا يساير أسلوب الحضارة ، ولا يلين لأوضاعها ، فإذا أحسن أحدهم الرأى فيك ، ظنك متعصبا إسلاميا ، طوعت له حماسته أن يغالى فى قيمة الأشياء . .

هذان فهمان متناقضان لهذه الحقيقة : فهم يقبلها ويقرها ، وآخر ينكرها ويردها ، فأى الفهمين أحق بالقبول والتقدير ؟

لا نريد أن نقطع بجواب الآن . ونريد أن نقرر حقيقة مقطوعا بها ، وهى أن هؤلاء ليسوا أعظم منا ذكاء ، ولسنا أقل منهم فطنة ، فإذا فاقونا فى هذا أو فقناهم ، فليس بالقدر الذى يفصل بيننا وبينهم ، ويقيمنا وإياهم على طرفى هذا الفارق العظيم ... ونريد أن نقرر حقيقة أخرى ، وهى أننا — ولله الحمد — بصدد المجاهدة لكى نحتفظ بمشاعرنا الإلهية حية يقظة ، نزعم أننا بلغنا الغاية من ذلك ، ولكننا بصدد المجاهدة التى نحاول بها أن نكون بمنجاة من طغيان الموجة المادية على مشاعرنا الإلهية ؛ أما هم فليسوا يدعون لأنفسهم مثل هذه المجاهدة ، بل هم جد راضين ، إذ تغمرهم المدنية المادية بما تغمرهم به من

حلو ومر وخير وشر ... وأنت بعد هذا جدير بأن تعرف علة ما بيننا وبينهم من التناقض فى فهم الحقيقة التى عرضناها آنفا .

محور الخلاف

هذه النقطة هى محور الخلاف ، ومركز التحول والافتراق ... إن هؤلاء فى حالة ركود روحى ، طغى عليهم تيار مدنية المادة ، فغمر مواهبهم الربانية ، فأصابها بخدر أو جمود ، وهيهات أن تصل إلى إقناعهم بمكان الإسلام كعقيدة ونظام ، مهما أوتيت جدلا وعلما ، ما دمت تخاطب هذه الحاسة المعطلة فيهم ؛ فتراهم يستمعون إليك وهم لا يفقهون ، وينظرون إليك وهم لا يبصرون ، « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » ولسنا نقصد أنهم لا يفهمون لأن عقولهم متبلدة ، بل هم لا يفهمون لأن قلوبهم وهى مركز الملكات الإلهية معطلة عن الفهم بما شغلها وألهاها .

أجل . إن فهم هذه الرسالة وقبولها منوطان بيقظة الوجدان الإلهى فى الإنسان ، لا بالفهم العقلى ، والمنطق الذهنى فقط ... وإن العربى الذى تحمس للعقيدة ، وبذل فى سبيلها ما يملك ، وآمن بها لدرجة الفناء فيها ، ما فهمها وقبلها إلا أنه ذو وجدان ذكى مرهف ، وكيان عصبى فطرى يقظ ، ووعى روحى مهيأ لأمر الله . وما كان العقل وحده ليعشق الرسالة هذا العشق الذى استغرق مشاعره كلها ، حتى أتى على حب الأوطان والآباء والأبناء .

مادية الفكر والعاطفة

لقد ألحت المدنية الغربية على قلوب هؤلاء ، كما ألحت على قلوب أهلها ، بمتعها الحيوانية ، وشهواتها الحسية المطلقة من كل عنان ، المزينة بكل المغريات ، وحجبت عنها جمال الربانية ، حتى غدت غليظة قاسية ، لا يتحرك هواها إلا للمادة وما يدور حولها ، مما يراد به ترف البدن ومتعة الجوارح .

وألحت على عقولهم بطرق من البحث الآلى ، الذى يقف عندما تقرره المقاييس والمخابير والموازين والمناظر فى معامل الكيمياء ، وقاعات التجارب العملية ، دون أن يعترف بعد ذلك بما يقال إنه وراء المادة ، بل يعده ضرباً من الهذر ، الذى لا يجمل بالعقل أن يقف عليه ، وألحت كذلك بعلومها الجافة ، ومنطقها المادى ، وتفكيرها

الآلى ، فلم يملك أحدهم إزاء هذا الإلحاح ، وهو منساق فى تيارها الجارف ، إلا أن يستسلم فاستسلم ، وإلا أن يسلم بصدق ما تفرضه عليه من حياة قلبية وعقلية فسلم ؛ ولكن لا تسليم المكره ، بل تسليم المقتنع الذى يرى بعينه المقدمات موصولة بنتائجها والأسباب بمسبباتها ، ويرى كل شىء فى الأفق من حوله يوحى إليه ، ويقنعه بأنه فى الوضع الطبيعى المعقول حتى غدا آليا فى تفكيره ، آليا فى عواطفه ... هؤلاء قد سيطرت عليهم هذه الحضارة الصماء فألفوها ، وأشربتها قلوبهم ، وأغرموا بأسلوب متعتها السهل ، واطمأنوا فى إعجاب إلى ثمرات تفكيرها ، ولا يستطيع كلام من أفق غير هذا الأفق أن يقتحم إلى قلوبهم وعواطفهم ، ليمتزج بها ويستقر فيها ... ولقد ساقهم تفكيرهم المادى إلى ضرب خطر من الإلحاد ، فهو بإنكاره ما وراء المادة قد رفض أن يعترف بجنة ونار ، وبعث ونشور ، وحساب وجزاء ، وعذاب ونعيم فى القبر أو بعد القبر ، فراحوا معه يظنون أن عمر الإنسان موقوت بهذه الأيام التى يقضيها فى حياته الدنيا ، وأن القبر إن هو إلا الخاتمة الموحشة لهذه الدنيا الناضرة الجميلة ، فإن لم يبادر باغتنام أوسع ما يمكن من مغانمها ومتعها وشهواتها ، ذهب محروماً إلى الفناء الأصم حيث لا رجعة فى زعمه ؛ فأفزعه هذا المصير ، وأقبل به على الشهوات العاجلة فى نهم يشبه الجنون ، لا دين يردعه ، ولا أدب يحجزه ، ولا يطيق أن يذاد عنها بنصيحة أو قانون .

أفترى هؤلاء ، أو من أخذ إخذهم خليقين ، أن يستمعوا إليك ويقبلوا عليك ، حين تتحدث إليهم بروح الرسالات السماوية ؟ أترى فى قلوبهم وعواطفهم وحياتهم النفسية متسعاً لما تدعو إليه ؟ إنك فى واد وهم فى واد آخر ؛ وهذا هو ما يباعد بينك وبينهم ، « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُورًا ، وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا » .

ولا تظن أنهم لا يفهمون معنى القرآن ، بل هم يفهمونه ولكن بعقولهم ، أما قلوبهم فلا تسيغه ولا تقبله ، وهذا هو المراد بفقه القلوب حين يرد فى كتاب الله عز وجل ، فقد يسيغ كثير من هؤلاء أن تقول لهم : إن الله هو خالق هذا الكون ، وهو الذى وهب لنا الحياة ، وهو الحقيق منا على هذا بالشكر والثناء والتعظيم . . . وقد يسيغون أن تقول لهم إن الإنسان جسم وروح ، ويجب أن يكون للروح مطالبها كما للجسم مطالبه ؛ وإن الإنسان الكامل هو الذى يقبل على ناحيتيه كلتيهما بالعدل

فى توزيع الحقوق ، فلا يجور على إحداهما ليعطى الأخرى ... وقد يسيغون أن تقول لهم : إن أفضل حضارة للناس ، هى ذلك النظام العادل الذى يهيىء للانسان أسلوبا من الحياة يعيش فيه عادلا بين روحه وجسمه ...

وقد يسيغون أن تقول لهم : إن رسالة تجىء لتحقيق هذا النظام عمليا ، لهى رسالة الحق الباقى ، وقانون الوجود كله ، وهى الرسالة التى تعصم الإنسانية من الزلل والشطط ، ومن المسخ الذى يجلب عليها التخريب والتدمير ، والشقاء النفسى المجدب .

العقل المنطقى والعقل العاطفى

قد يسيغون ذلك كله ، ولكنهم يسيغونه « بالعقل المنطقى » لا « بالعقل العاطفى » والعقل المنطقى يسيغ ما يسيغ فى ركود وقبول سلبى ، أما العاطفى فيسيغ ما يقبله فى حرارة وحركة وقبول إيجابى ؛ وإنما تحتاج الرسالة من الرسالات — حتى الأرضية منها — إلى أن تفهم على هذا الوجه الأخير ، فالعقل العاطفى هو الذى يفتح لها آفاق النفس ، ويصل بها إلى قرار الفطرة ، ويمكن لها فى حبات القلوب ، و بها يُسَرِّ إلى الأعصاب يقظة وعزيمة ، ويشيعها فى الدماء نشاطا وحيوية ، فيصبغ صاحبها بصبغتها من جميع أقطاره الظاهرة والباطنة ، فتبدو ألوانها فى أعماله ، وأقواله ، وأفكاره ، ونواياه ، واتجاهاته ، وعواطفه ، وأهوائه ، فإذا هى قد ملكته ولا يملكها ، وسخرته لمشيئها ولا يسخرها ، فيحيا لها منفعلا بخواطرها ، غيورا على حرمتها ، مجاهدا لإعلاء مبادئها ، باذلا فى سبيلها ماله . وراحته ، ووقته ، ومواهبه ، ودمه ، ونفسه ، سعيداً بذلك غاية السعادة ، وراضيا به تمام الرضا ؛ وهذا الفهم هو المعروف لدى علماء التوحيد بأنه التصديق القلبى . وهيهات أن يؤتى العقل المنطقى هذه الثمرة الباهرة ، والقوة القاهرة .. فالمسألة على هذا ليست مسألة الذهن الذى يفهم أو لا يفهم ، والعقل الذى يصدق أو لا يصدق ، وإنما هى مسألة القلب الذى يرضى ما يقال أو يجحده ، ويبش له أو يرفضه ، « قَدْ نَعلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلٰكِنَّ الظَّالمين بآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُون » .

والآن نعود إلى تساؤلنا الذى طرحناه أول هذه الكلمة : أى الفهمين أحق بالقبول والتقدير ؟ وما نظن أننا بحاجة إلى القول بأن الحق قد وضح ، وأن أكثر هؤلاء المنكرين علينا ، لا ينكرون شيئا ترده عقولهم ، بل يعرضون عما تنكره قلوبهم . وهذا شر ما يبتلى به إنسان من تناقض ، وشر منه أنه يرضى به ، ولا يسعى إلى تغييره .

الفصل الثانى

ذبذبة بين غايتين

فى أخبار الأدب المشهورة ، أن الحطيئة هجا الزبرقان بن بدر رضى الله عنه فقال :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فهاج وماج ، وأرغى وأزبد ، وشكا الأمر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فسأل عمر حسان بن ثابت ، وهو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبين له قيمة الهجو فى هذا الشعر ، ولم يكن ذلك جهلا من عمر بمرامى الكلام ؛ فأجاب حسان بما معناه : الأمر أفحش من الهجاء ، وإن أقذع الهجاء لأهون من هذا بكثير ، وإنه لدنس صبه عليه لا تقوم به كرامة . فقضى عمر بحبس الشاعر فى سجن مظلم .

والقارىء لا يرى فى هـذا الكلام ذكراً للآباء والأمهات ، ولا تعريضا بالأعراض والسوءات ، ومع هذا كانت منزلته فى الهجو ما قرر حسان رضى الله عنه . لم يقل الحطيئة للزبرقان ، إلا أن يقعد عن طلب معالى الأمور ، ولا يجشم نفسه تحصيل المكارم التى تشرف بها النفوس ، فإن همته لا تتعلق بشىء من ذلك ، وإنه إذا كلف نفسه مشقة فى هذه السبيل فقد أعنتها ، وكلفها ما ليس من طبيعتها ؛ إذ لا يليق به إلا أن يركن إلى الطعام واللباس ، فليس يصلح إلا لهذين ، ولا مأرب لهمته إلا فيهما ؛ أو قال له بالتعبير العصرى : إن مثلك الأعلى الذى تعيش له ، ولا تصلح لغيره ، هو الاستغراق فى شهوة الطعام والشراب .

وفى هذه القصة معنيان بارزان :

الأول : أن الحطيئة كان خبيرا بالحياة ، وأنها ذات وجهين أو غايتين ، غاية خسيسة يعيش عليها الأدنياء ، وغاية شريفة يحيا لها الفضلاء ؛ فالأولون يرون سعادتهم لذة المطعم والملبس وكفى ، والآخرون يجدّون لتحصيل زادهم من الفضيلة ، ومتاع نفوسهم من الخير والحق ، وهذا هو ما كانت تقوم عليه الحياة فعلا فى ذلك العهد العمرى الزاهر .

أما المعنى الثانى الذى يبرز فى هذه القصة : فهو أن شعور الرأى العام كان شديد

الحساسية بالفارق العظيم بين الغايتين ، فكان أحدهم يسمو بهمته أن تنضمر فى مطالب المعدة وترف البدن ، ويفزع أن يوصم بين الناس بهذه الوصمة القاصمة ؛ وإلى مكان هذا الفزع سدد الحطيئة ضربته القاسية إلى غريمه ، أو صب عليه دنسا لا تقوم به الكرامة ، على معنى ما قال حسان رضى الله عنه .

١ — غايتان إحداهما دانية المنال ، والأخرى بعيدة المدى .

٢ — حساسية مرهفة فى الشعور ، تصد عن الغاية الأولى ، وتثير أشواق العزائم إلى الأخرى .

وهاتان هما دعامتا الحياة الفاضلة يا أخى : اعتراف بغايتين ، وحساسية تحقر الأولى وتمجد الأخرى ، والناس بخير ما سلمت لهم هاتان الدعامتان . . . هذا منطق الفطر المستقيمة ، والعقول السليمة ؛ فهل هذا هو ما تقوم عليه أساليب الحياة فى حضارتنا المادية السائدة ؟

لك أن تزن اهتمام الناس ، فماذا ترى ؟ هل تراهم يهتمون ويقبلون على مطالب الغاية العليا ؟ أم تراهم يهتمون بزينة الملابس والمساكن ، ولذائذ المطاعم والمشارب حتى العاجز منهم لا يمنعه أن يخرج على الناس فى زينة ما إلا أنه لا يجد ما ينفقه ، فهو لا ينفك يمد عينه وقلبه إلى ما يتمتع به غيره من زهرة الحياة الدنيا .

حولك طوائف من صغار الموظفين وكبارهم ، وطوائف من التجار والأطباء والصناع ومن يسمون رجال الأعمال ، فسائل نفسك : أى مثل أعلى تهفو إليه قلوب هؤلاء ؟ أى فضيلة تتناجى بها ضمائرهم فى محيطهم العملى وخارجه ؟ أى أسلوب من أساليب الحياة الرفيعة يستغرق تفكيرهم بالليل والنهار ، فهم يدعون إليه ويبذلون الجهد لتحقيقه ؟ بل قف فى ميدان كبير بمدينة كبيرة أو صغيرة ، وتأمل من يمر بك من رجل وامرأة ، وفتى وفتاة ، وسائل نفسك فيم يفكر هؤلاء ؟ أى شىء يشغل الآن قلوبهم ، وتسبح به خواطرهم ، وتسعى إليه أرجلهم ؟ هل شىء غير المال ، والملبس والمطعم ، والأفكار التافهة ، والنزوات الفارغة الوضيعة ؟ هل شىء غير مآرب البدن المباشرة ، ومطالب النفس الحيوانيه الباطنة والظاهرة ؟ ! .

لقد يجلس إليك أحد هؤلاء فيحدثك بنعمة الله عليه : ماذا أريد من دنياى ؟ إنى ولله الحمد أسكن حسنا ، وآكل حسنا ، وألبس حسنا ، ولا مأرب لى من دنياى غير هذا ، وهل يأخذ ابن آدم من دنياه إلا أن يعيش هذه المعيشة المريحة المحترمة ؟ ترى لو أنك قلت لصاحبك : إن هذه غاية معيبة ، أكان يغضب عليك غضبة الزبرقان ،

ويثور بالجريمة إلى الحاكم ؟ أيفعل هذا وهو الذى حدثك به وأظهر ارتياحه إليه ؟ أيفعل هذا وهو يرى الجمهور يقيس الناس بمظاهرهم ، لا بشرف معادنهم ، يقيسهم بما تحصى لهم الخزائن من الأموال ، لا بما تحمد لهم الإنسانية من كريم الفعال ؟ لا . . . إنه لا يغضب ، ولا يثور إلى الحاكم ؛ فإذا غضب فلأنك عبت عليه منهجه ، وخالفت رأيه ؛ وقد ينقلب أستاذاً متفلسفاً يسفه لك رأيك ، ويرميك بأنك لا تفهم حقائق الحياة ، وأنك خيالى غير عملى ؛ أى أنه يغضب لأنك لم توافقه على ما يستحسنه ، يغضب فقط لدنياه الطاعمة الكاسية ؛ فإذا كان أستاذك الفيلسوف ممن لا يزالون يحسنون الظن بالدين — مضى يخبط فى تأويل كتاب الله على غير هدى ، واستعدى عليك الحجة من مثل قوله عز وجل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » ؟ إلى آخر ما لديه من جهل وسفسطة ، وسوء فهم لمقاصد آيات القرآن الكريم . . . والعجيب أنه إذ يتحمس للطيبات من الرزق ، لا يجد فى نفسه خلجة واحدة من حماسة ، لما ورد فى القرآن الكريم عن الغايات التى تتعب فى نيلها الأجسام .

لقد تقرر فيما سبق من هذا الفصل أن للحياة الفاضلة دعامتين ، واعترافا بغايتين ، وحساسية فى الشعور تحقر الأولى منهما وتمجد الأخرى ، فأين مواقع هاتين الدعامتين فى عقول الناس ، وحياة قلوبهم ، ومظاهر حياتهم ؟

لست أكتمك أنى أجد الاعتراف بالغايتين مسلما به لدى الجمهرة العظمى من الناس . . . نعم ، وليس فى هذا مناقضة لما تقدم ، فإن ما يلقاك به صاحبك ، أو فيلسوفك السابق من إنكار ومخالفة — إنما هو جدل بغيض ينجم حين تأخذه العزة بالإثم لعيب تنتقصه به ؛ وهى آفة تلحق الناس حين لا تستقر عقائدهم على قرار ما ، فيظلون مذبذبين مترددين بين مختلف الاتجاهات .

يسمعون ولكن

تحدث إلى الناس فى مزايا الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، واضرب لهم الأمثال ، وقص عليهم القصص من سير هؤلاء الأبطال المؤثرين ؛ وتحدث إليهم بأخبار أولئك الذين آمنوا بالله واتخذوه مثلهم الأعلى ، فكان أحب فى جوانحهم من الأوطان والأموال والأهل والأبناء ، فهجروا الوطن هجرة إلى الله ، وفارقوا العشيرة والأبناء سعيا إلى رضوانه ، وبذلوا الأموال رخيصة هينة ، لأنهم وجدوا

ما عنده أثمن من كل متاع ؛ حتى ليلقى أحدهم ماله كله فى سبيل الحق لايبقى لأبنائه درهماً واحداً ، وهو مع ذلك سعيد جذلان ، يجد فى قلبه حلاوة الإيمان ، يقول لمن سأله عما تركه لأبنائه : لقد وكلتهم إلى ثروة أعز من كل ثروة ، لأنى وكلتهم إلى الله ورسوله وهو يتولى الصالحين .

حدثهم عن جنود الله الذين أقاموا معالم الحياة الفاضلة ، بإقامة العدل الحازم الحاسم ، وتحقيق معانى الأخوة فى الله ، والتضحية فى سبيل الحق أينما كان ، والثورة على مظاهر الباطل أينما وجد ، والمساواة التى تتكافأ بها دماؤهم وحقوقهم ، وتتفاوت من ورائها بالتقوى منازلهم وأقدارهم .

حدثهم عن هؤلاء الجنود ، الذين جعلوا هذه الخلال كلها حقائق عملية لا نظرية ، حقائق ليست من الواقع المحسوس صوراً درجت بها على الأرض حينا ، فكانت بهجة الحياة ، ونور بصائرها وأبصارها تحدث فى ذلك كله أو بعضه ، تجدهم يصغون إليك ويشاركونك الإعجاب بهذه الخلال ويفيضون الثناء الضافى المعطر على أصحابها رضوان الله عليهم؛ ومعنى هذا أنك إذا تجنبت فى حديثك مثيرات الجدل ، ألفيتهم يعترفون بالغايتين : الدنيا والعليا ، يذمون الأولى ويمجدون الأخرى . . ولكن ما وراء ذلك ؟

هل هناك محل له فى القلب ، أم هى قضايا يستحسنها العقل ، ويتحرك بها اللسان ؟ هل هناك شوق فى القلب يهيم بمحاسن هذه المثل العليا ، ويطير بصاحبه إليها فى كل واد ، لايبالى ما يصحبه من ظمأ ، أو نصب ، أو مخمصة ، ولا ما ينفق من نفقة صغيرة أو كبيرة ، إرضاء لأشواق قلبه ، وتحقيقاً لزينة حسه ونفسه (١) ؟ .

هل هناك محل لهذه الأشواق ، أم أن شهوات الموجة المادية طغت على منابت هذه الفضائل فى القلب فطمستها ، ولم تبق مجالا لغيرها ؟ .

فضائل مزعومة

وما أريد أن أسرع بجواب هذا التساؤل ، قبل أن أعرض لفضائل يزعمون أنها قائمة فى الغرب حيث مصادر هذه الموجة المادية ؛ فهناك إحسان ومحسنون ، وهناك إيثار على النفس ومؤثرون ، وهناك مساواة وحرية وعدل ، وهناك شجاعة وإقدام ،

---

(١) لا أقصد بزينة الحس متعة البدن من طعام ولباس ، وإنما أقصد أن محب الفضيلة لا يشبعه منها أنها صفة محبوبة فى نفسه وكفى ؛ بل لابد أن يراها قد لبست صورها فى عالم الحس والواقع ، ولابد أن يكون له مجهود إيجابى وأثر عملى فى تحقيقها ، فتسر برؤيتها عينه ، وتسعد بها حواسه كما سعدت به نفسه .

وجرأة على المخاطر واقتحام ، وبذل للدم والنفس ، وتضحية بالجهد والوقت بل بالعمر كله ، فى غير منفعة خاصة . . . هناك هذا وغير هذا مما نعلم أنه من فضائل النفس ، ومتاعها الشريف النبيل ؛ فكيف نسرف إذن فى ظلم هذه الموجة المادية ؟ إن هذا — حقاً — جدير بالتفات من يتهم هذه الموجة ؛ وغير جميل أن يتهمها ثم يغضى عما يزعمون من جمالها .

الواقع — يا أخى — أن هذه الموجة الطاغية ، أو هذه المدنية الزائفة ، أعقم من أن تنجب مثل هذه الفضائل النفسية العالية ؛ فما كان للشر أن ينبت إلا شرا ، وما كان للباطل أن يلد إلا باطلا : « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالذى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً » . وتلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . . . فما هذه الفضائل التى يزعمونها إلا زهرات سامة لهذا النبت النكد ، فى تلك الأرض الخبيثة ؛ زهرات ليس لها من خصائص الزهر إلا لونها وشكلها ؛ أما رائحتها ، ورحيقها ، ومخبرها ، فكريه سام خبيث . . . أجل ، فإن ما تراه ليس له من حقائق الفضائل إلا سماتها الظاهرة ، وصورها المحسوسة ؛ أما غاياتها فباطلة ، وبواعثها فغير كريمة ، ومنابعها فسطحية ليست من أعماق الطبع الأصيل .

تزييف ما لدى القوم من فضائل

الفضيلة حق يا أخى ، والحق حق فى كل زمان ومكان ، لا يتغير بزيادة فى جوهره ولا نقصان ؛ فإذا رأيت إنساناً يتحمس للحق والذود عنه فى موطن من المواطن ، ثم رأيته يخذله أو يحاربه فى موطن آخر ، فما أظنك ترضى أن تصفه بأنه من عشاق المثل العليا ، وما أظنك تتردد فى الشك فى حقيقة موقفه الأول . وهؤلاء قوم يزعم الناس أنهم يقدسون الحرية فى بلادهم ، والحرية حق ، فلو أنهم يقدسون هذا الحق كما يزعمون ، لاطردت مظاهر التقديس فى كل مكان فى داخل بلادهم وخارجها ؛ فلا يجدون ضعيفاً إلا أعانوه ، ولا خائفا إلا أمنوه ، ولا ذليلا إلا أعزوه ، ولا مستعبداً إلا سعوا فى حريته ؛ أما أنك تراهم يحرصون عليها فى بلادهم ، ثم تراهم فى الخارج حربا على حرية الشعوب الضعيفة ، ينكلون بطلابها ، والمجاهدين فى سبيلها ، فيشردونهم ، ويسجنونهم ، ويقتلونهم فذلك من أبشع الرذائل ، ولا يمكن أن ينسب إلى فضيلة من الفضائل .

لقد قلت سابقاً : إن محب الفضيلة يراها دائماً زينة حسه ونفسه ، فلا يغنيه أنها

صفة معنوية محبوبة فى قلبه ، بل لابد أن يرى صورها العملية فى عالم الحس والواقع ؟
فهل ترى من المنطق المطرد ، أن يناهض هذا الجمال ، ويطارد أنصاره ، ويعمل على إخفات صوته ، وطمس معالمه ؟

إذا أردنا الخير لأنفسنا فلنكن شجعانا صرحاء ، نسمى الحق حقا والباطل باطلا ولو أجمع الناس على خلافنا ، وحسبنا أن تتركز عقائدنا على الحق ، وأن يتركز الحق فى عقائدنا ، وأن نعتز بأنفسنا ، ونجهر بما نعتقد أنه حق ، وحسبنا كرامة أن نكون غير مقلدين ولا مترددين ؛ أما أن يبدو لنا وجه الحق فنشيح عنه ، ولا نجد الثقة فى النفس لتقبله ، لا لشىء إلا لأن الناس لا يعتقدونه ، فتلك منزلة الغثاء والهباء ، لا يرضى بها إلا سقط المتاع من بهائم الإنسان والحيوان .

فلنقل إذن : إن هذه فضائل زائفة ، ولنجهر به فى ثقة ويقين ، ولو ملأ الناس الدنيا بغنائهم وتمجيدهم لهذا الزيف ، فإن الأذن التى تسمع لحن غنائهم هى التى تسمع فى الوقت نفسه أنين المستضعفين ، لما يلقون من ذل وعنت وشقاء .

وتريد أن تذكر ما عندهم من عدل ؟ أم تريد أن تذكر المساواة ! أم أنت فى غنى بعد ذلك عما يكشف لك رذائل هذه الفضائل ؟ .

أخلاق هى مخالب وأنياب

ليست هذه فضائل إذن ، إنما هى مواضعات شكلية ، يسير بها نظام جماعتهم ، تواضعوا فيما بينهم عليها ليتم تعاونهم . . . تعاونهم على ماذا ؟ تعاونهم على إشباع أنانيتهم ، وإمتاع حواسهم وجوارحهم ، التى لا تعرف حداً تنتهى إليه فى الإشباع والإمتاع . . . تعاونهم لا على البر والتقوى ، ولكن على الإثم والعدوان ! فلو أنهم لم يصطنعوا العدل مثلا فيما بينهم ، وظلم بعضهم بعضا ، لانفرط عقد جماعتهم ، ولرأيت أنانيتهم التى يأكلون الناس بها الآن ، تنقلب عليهم فتأكلهم ، وتنتشر الضعف والفساد فى صفوفهم ؛ فحقيقة عدلهم أنه « نظام صناعى » لا خلق نفسى أصيل .

والداعى إلى المساواة والمواساة والصدق ونحو هذا ، هو نفس الداعى إلى العدل ؛ هو الحرص على أن يظل تعاونهم وثيق العرى ، فإن هذا التعاون هو وسيلتهم إلى السطو ، هو المخلب ، هو الناب الذى يحطون به على الفريسة التعسة .

وقد اشتد هذا الحرص حتى استفاض بأنانيتهم ، فخرج بها من حدود الأنانية الفردية ، إلى الأنانية الجمعية ؛ فالرجل يهب لجماعته ، أو لأمته ، أو لقومه ، جهوده

وتأييده وعواطفه ، لأنها تعمل لشخصه ، فهى جهود عائدة عليه ، مردود خيرها إليه ؛ فهو إذ يحب الجماعة إنما يحب شخصه ، ومتعته ورفاهيته ، واستعلاءه فى الناس وعلى الناس . . . وتضخم حب نفسه فى الجماعة ، وحب الجماعة فى نفسه ، فكان ما تغنوا به من وطن ووطنية ، أو عنصرية وقومية ، وكان ما رددوا أنباءه من تضحية بالمال ، واقتحام للمخاطر والأهوال ، وبذل للنفوس والأرواح ، مما سقناه فى قائمة فضائلهم المزعومة .

مناسر اللصوص

حذار يا أخى أن تغتر بظواهر هذا الجنون الوحشى ! وسل نفسك دون أن تخدعها : فى سبيل أية غاية يبذل هذا المخاطر روحه ؟ إنه لسعادة أمته بلا مراء . وهنا أطلب إليك أن تخطو الخطوة التالية فتسأل : من أى سبيل تسعد أمته ، إذا لم تسعد على حساب الضعفاء من الأمم والشعوب ؟ لقد طلبنا منذ قريب أن نكون أقوياء ، أقوياء فى التحديق فى هذه الصور ، لنتبين حقائقها فنسميها بأسمائها .

أسألك الصراحة يا أخى : هل ترضى للرجل أن يعدو على آخر ، فيظلمه ويحرمه ، ويسلبه حقه فى الأمن والحرية ؟ إن كنت لا ترضاه له ، ولا تقبله منه ، فإنك لن تشرح له صدرك إذا ارتكبته أمة من الأمم . . . أى أنك إذا استنكرته من ذلك الأنانى الصغير ، فأنت له من الأنانى الكبير أشد إنكارا . خبرنى بربك : أى فرق بين منسر من اللصوص يقطعون الطريق على المارين أو يغيرون على الغافلين ، فيسلبون هؤلاء وهؤلاء أمنهم وأموالهم ، ليسعدوا بها أزواجهم . . أى فرق بين هذا المنسر وبين أمة تصنع هذا الصنيع نفسه ، مع تفاوت فى بعض الأساليب والوسائل ، لا فى الغايات والأهداف ؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون تدرجا بالأنانية من حيزها الصغير إلى حيزها الكبير ، وتطورا بالجريمة من حالتها الفردية إلى حالتها الجمعية ، ومسخا للملكات النفس وفضائلها ليسهل تسخيرها فى مطالب هذه الأنانية العمياء .

فما التضحية ، والتفدية ، والإقدام ، والشجاعة ، والمخاطرة — إلا أسماء يطلقونها على صور الجنون الوحشى ، حين ينطلق الرجل لتحقيق غاية من غايات قوميته ووطنه أو — بعبارة أصح — أنانيته الكبيرة ووثنه .

حين ننظر بعين الحقيقة

وما نحسب الظن يذهب بك إلى تمنى هذه الأنانية الجمعية ، حيث ابتلينا نحن فى بلادنا بالأنانية الفردية ، فالشر شر كله ، ولا فضل له ولا خير فيه ، وحين تنظر إلى الأمر بعين الحقيقة العليا ، يبدو لك الساعى إلى الإثم بمفرده كالساعى إليه فى جماعة ، بل قد يبدو لك الفرد أقل بشاعة فى أنانيته من الجماعة ، فإن الأنانية الكبيرة جعلت الشعوب والأمم والدول ، فى حالة تنافس مستمر ، وعداء شديد ، وتربص دائم ؟ فبعد أن كان الأفراد ينافس بعضهم بعضا زاد الشر ، فغدت الأمم والشعوب على ما نشاهد الآن من تخريب المدن ، والحصون ، والمرافق ، وإبادة ملايين البشر . . . فهل ترى للشرق أن يتمنى لنفسه مثل هـذه الأنانية ؟ يقول قصار النظر : نعم . ونقول : لا . إنا لنرجو للشرق والغرب شيئا غير هذا كله ، سنذكره عما قريب إن شاء الله ؛ وهو الذى يدعو إليه الإخوان المسلمون . ويجهدون لتحقيقه .

عود على بدء

وبعد : فقد كنا نقول منذ قريب : إن للحياة الفاضلة دعامتين : (١) اعتراف بغايتين (٢) وحساسية فى الشعور تحقر أولاهما وتصدّ عنها ، وتمجد الأخرى وتحفز العزائم إليها . ولقد ادعينا أن أكثر الناس يقبلون هذه الحقيقة قبولا نظريا ، ثم تساءلنا : هل لهذه الحقيقة وتر مشدود فى القلب ، تنبعث عنه العزائم الراغبة فى الفضيلة والبطولة ؟ وأظن أنى ألتقى مع كل قارىء على أن أوتار القلب التى تهدف إلى الغاية العليا ، وتقذف إليها بشهب الهمم والعزائم ، هى أوتار ضعيفة محلولة . . . وسوف تبقى هذه الغاية منصوبة معطلة ، لا تحظى من الإنسان إلا بالقبول السلبى ، وسوف يظل الإنسان موزعا بين الغايتين ، مذبذبا بينهما ، ناظراً بعقله إلى الحسنى ، مربوطا بقلبه إلى غيرها ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . .

الفصل الثالث

إلى العلاج

وبعد فقد وضعنا لهذا الباب عنوان « فقه الدعوة والداعية » ، وما أردنا به أن نشرح ما هى الدعوة ، أو ما هو الداعية ، وإنما أردنا مسألتين كبيرتين :

الأولى : أن نبين أن العلة الكبرى التى تتسلسل منها علل المجتمع كله — هى المادية فى جميع صورها وأشكالها المادية التى حلت فى القلوب ، فعلقتها بعبادة المال والشهوات والأهواء المختلفة .

نريد أن ننص على هذه العلة الكبيرة ، التى أورثت الإنسانية هذه القلاقل المضطربة فى كل صقع ، والعداوة والبغضاء فى كل قلب ، والحروب المخربة المدمرة بلا انقطاع ؛ وهم مع ذلك لا يلتفتون إليها ، وإذا التفتوا لا يجدون العزيمة للتخلص منها .

وكل داعية يجب أن يعرف هذه الحقيقة ، مسلما كان أو غير مسلم ، ما دام قد صحت عزيمته على أن ينقذ الإنسانية ويسعدها ؛ وما حسن أن يخبط الداعية فى علاج مسألة ما على غير هدى ودراية ، وإن علاج أى مسألة على غير هذا الأساس ، لهو علاج ميئوس من نجاحه ، وكل ما يبذل فيه من جهد — إنما هو امتداد للداء ، وتأخير للشفاء . فليرجع الداعية المسلم كل ما يعرض له من فساد فى أوساط المسلمين ، أو غير المسلمين ، إلى هذه العلة الكبرى ؛ وليعالج ما هو بصدده بعد ذلك معالجة الفطن بما يجد فى كتاب الله عز شأنه من طب وشفاء . .

أما الداعية غير المسلم : فإننا ندعوه إلى التوراة والإنجيل والقرآن ؛ نعم فليأخذ أيضا من القرآن إن خلصت نيته فى استنقاذ الإنسانية ، فليأخذ منه ما تهديه فطرته إلى أنه صالح ، وإنا لعلى يقين من أنه سيجده كله صالحا ، وليضرب بأوهام العصبية عرض الحائط ، فما حسن فى العقول المتحررة المستنيرة أن يدع الإنسان مريضه يسير إلى الذبول والفناء ، ويرفض ما يقدمه له جاره من الدواء الشافى ، لا لشىء إلا أنه يستنكف أن يعترف بفضل دواء الآخرين :

الثانية : أن نبين أن حياة الرسالات منوطة بالعقل العاطفى والتنفيذ العملى ؛ وذلك يصدق حتى على الرسالات الأرضية ؛ وبدون هذا العقل تظل الرسالة سطوراً

مطمورة فى مجلداتها ، وأفكاراً راكدة فى أذهان أصحابها . فالنازية مثلا ظلت فلسفة باردة تقرأ فى الكتب وتدرس فى الجامعات ، حتى تلقفها وجدان هتلر فغلى بها وفار ، ونهض ينادى فى حماسة وقوة وثقة ، حتى أخذت قلوب الشعب تتهيأ لرسالة هذا الزعيم الجديد ، وتنتقل بالتدريج إلى مايشاء ؛ وساعدته ظروف الزمان والمكان حتى صارت النازية عقيدة راسخة ، يقاتل الشعب فى سبيلها ، رغم مافيها من حماقة وسخافة .

أصلان كبيران

ونخرج من هذا بأصلين كبيرين : أولهما أن الداعية يجب أن يشعر بأن دعوته حية فى أعصابه ، متوهجة فى ضميره ، تصيح فى دمائه ، فتعجله عن الراحة والدعة إلى الحركة والعمل ، وتشغله بها عن نفسه وولده وماله ... وهذا هو الداعية الصادق ، الذى تحس إيمانه بدعوته فى النظر والحركة والإشارة ، وفى السمة التى تختلط بماء وجهه ؛ وهو الداعية الذى ينفذ كلامه إلى قلوب الجماهير ، فيحرك عواطفهم إلى مايريد من أمر دعوته .

ولا نقصد بهذا أن يكون الداعية رجلا مهرجا ، يصطنع الحماسة ليلعب بحماسة الجماهير لأتفه الغايات ، ويثير مشاعرهم إثارة مصطنعة ، فذلك شأن الدخيل المدعى لما ليس فيه ، بل نريد الصنف المفطور على يقظة الطبيعة ، الذى يتكلم فتتكلم أسرار الدعوة فى ألفاظه ونبراته ، وهو إذ يفعل ذلك لايثيرهم إلى باطل ، بل يهيئهم لقبول الحق الذى يألفه العقل والفطرة ... وإذا كان هذا لازما للرسالات الأرضية على مافيها من سخافة وحماقة ، فهو ألزم للاسلام ، لأنه رسالة الحق الخالص ، وبين الحق وفطرة الإنسان نسب ، فكلاهما من روح الله ؛ فاذا أثرت حماسة قلب المرء إلى حقائق هذه الرسالة ، رأيت فطرته تسرع إليها إسراع الأليف إلى أليفه فى غير إنكار ولاتردد ، وتقبل عليها فى معرفة وثقة ويقين ، بل فى لذة وشوق وحنين « وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » . ذلك بأن الحق مسطور بقلم الله فى كل فطرة والفطرة السافرة التى لارين عليها إذا سمعت الحق يتلى فى أى وجه ، أحست أنه صدى أحاديثها ، وصورة ماهو مكتوب فى أطوائها ، « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ » .

فإذا رأيت نفسك يا أخى راكد العاطفة ، منطفىء الحماسة لرسالتك ، أو إذا وجدت من نفسك أنك تقبل علينا لتكون خطيبا ، يعجب الناس ببلاغتك ، فاعلم أنك — على الحالين — فى حاجة إلى فهم جديد لدينك ، هو الفهم العاطفى ، والتصديق القلبى ؛ هو الإيمان القوى الذى يشغل ذهنك بدعوتك فى كل لحظة ، فتذكرها فى نومك ويقظتك ، وعلى طعامك ، وبين أهلك ، وفى حلك وسفرك ؛ وفى كل مجالسك ، إذا قصدت إنسانا فللدعوة ، وإذا سالمته أو عاديته فلها ، وإذا فرحت أو حزنت فمن أجلها ؛ وبالجملة تكون هى المسألة الأولى الحاضرة لديك فى كل وقت من أوقات حياتك .. هى صلب الحياة ولبها وصميمها ، وأمور عيشك على هامشها وأطرافها ، ولاتظن هذا كثيراً عليك ، فأنت داعية ولست مدعوا ، وشتان ماحال هذا وذاك .

أقبل على دعوتك يا أخى هذا الإقبال ، واصطنع لها هذا الاهتمام ، وتكلف فى صدق أن تكون لها ، واغمر نفسك فى محيطها . وأكثر الاتصال بمرشدها وقادتها وأنصارها ، فإنك لاتلبث أن تكون كذلك إن شاء الله ، كالسيف إذا شحذه صاحبه زايله صدؤه ، وصار مرهفاً بتاراً .

هذا الأصل هو مايتعلق بالكلام عن الداعية . . أما الأصل الثانى فهو مايتعلق بالدعوة .

فما هى الدعوة مجردة عن التعريف الفنى والحد الاصطلاحى ؟ هى نقل أمة من محيط إلى محيط ، تلك هى مهمته ، وفيها يندرج مجمل مناهجه ومفصله ، ومن ظنها غير ذلك فقد جهل نفسه ورسالته .

الدعوة والإصلاح

هناك جماعات تظن الإصلاح مدارس تنشأ ، وجامعات تقام ، وترعا تحفر ، ومصحات تبنى ، ومصارف تدبر المال ، ومصانع تسد حاجة البلاد ، إلى آخر ما هنالك مما يدور على ألسنتهم ، ويشيع من أنديتهم وصحفهم ؛ وليس هذا من الإصلاح فى شىء ، إنما هو ضروريات حيوية ، يجب أن يسار إليها مع منطق الحاجة الاجتماعية ، أما أنها هى الإصلاح والإنقاذ فلا . . . . أرأيت لو أن إنساناً رأى غريقاً جائعاً أشرف على الغرق ، فشرع يبحث له عن طعام يسد به جوعه ، ماذا تكون نتيجة حماقة هذا الإنسان ؟ وماذا تكون نتيجة حماقته لو أنه ترك المريض ومرضه فلم يستدع له الطبيب ، واستدعى معلماً يعلمه الحساب أو شيئاً من هذا القبيل ! ! ؟

ماذا أغنى الاهتمام بالترع والجسور والمدارس والمصانع والمسارح والصحف وغيرها في أوروبا ؟ ماذا أغنى الاهتمام بهذا — والروح مريض ، والاتجاه القلبي فاسد ؟ ماذا أغنى ذلك غير الاضطرابات والقلاقل ، والمبادىء التي تقوم ثم تزول ، والحروب التي تنطفىء ثم تستعر إلى ما شاء الله ؟

أيها الداعية ، أنت بصدد أمة ، بل بصدد إنسانية تعيش في محيط آسن خانق ، ومهمتك أن تنقلها إلى المحيط العذب الفسيح الهنىء ، من محيط المادية إلى محيط الربانية ، من محيط قلبي إلى محيط قلبي آخر ، ثم أنشىء لها بعد ذلك ما تدعو إليه ضرورة الحياة الجديدة .

فأقبل بقوة على غرضك ، واجمع له عزيمتك ، ودبر له خطتك ، واستفت رسالتك دائماً فيما تريد عمله ، فإن أفتتك بطبع كتاب فاطبعه وانشره ، وإن أفتتك بفتح مدرسة فافتحها ، ولا تظن هذا يناقض ما حملنا عليه سابقا ، فإنك تفتحها وتنشئها لنقل التعليم من محيط إلى محيط ، ونقل القلب من حال إلى حال .

الدعوة والكتابة

وهناك كتاب يظنون أن الإصلاح مقالات تكتب ، أو تؤلف ، فتصف لنا ما في الغرب من علم وسياسة ، ونظام وحرية ، وأسلوب خاص في الاستمتاع بلذائذ الدنيا ، فاذا كتبوا أو ألفوا أو نشروا ، ظنوا أنهم أدّوا رسالة ، وخدموا أبناء وطنهم .

وهذا الصنف قد يعجبك ويدهشك بكثرة اطلاعه على ما للقوم من علم وفلسفة ، وأوضاع اجتماعية وسياسية ونحوها ؛ قد يدهشك بهذا . . . أما أن هذا هو الرسالة الواجبة عليه لوطنه فلا .

اقرأ مقالة له أو كتابا ، فإذا أحسست أنه ينقلك من محيط إلى محيط ، ويكشف لقلبك آفاقا روحية جديدة ، ويُهدى إليك نفسك أو بعض نفسك ، ويدعوك في قوة وإيمان إلى الربانية الشاملة التي تهيىء لك حياة صالحة سعيدة ، فيها للقلب حقه ، وللبدن حقه ، فهو داعية فطن خبير ؛ أما إذا قرأت فلم تجد إلا إنسانا يتحدث ليسليك ، أو ليعرض عليك بالقلم ما يصح أن تراه في السينما أو الصحف المصورة ، أو ليطلعك على نوع ثقافته وكثرة معارفه ؛ إذا قرأت فلم تجد إلا هذا ، فاعلم أن صاحبك بيغاء مطموسة ، لأن علمه لم يفتح له بصيرة ، ولم يفقهه بحقيقة ما نحتاج إليه في النهوض والإصلاح ؛ إنه ظن أن ما عند القوم هو المثل الأعلى لما تنشده الإنسانية من حضارة ،

وهذا جهل محض ، لا يزيله أن يستكثر صاحبه من معارف القوم ، أو يصطنع من أساليب معيشتهم ، فإنه بهذا لا يزداد إلا إمعانا فى ضلاله وضلالهم .

عبيد يتغنون بمجد سادتهم

ولو أنه وثق بنفسه واعتز بشخصه ، وأخذ ما تعلمه أخذ الناقد الممحص ، لاستبانت له الحقائق ، ولأهدى لأمته خيراً كثيراً ؛ ولكنه ألقى بكل ذلك عن كاهله ، وألغى وجوده وإرادته ، وأسلم نفسه لسادته يملأونها بما يشاءون ، ويفرغون منها ما يريدون .. وهذا شر أنواع الاستعباد ، لأنه الفناء التام للشخصية ؛ ومن هنا تجد صاحب الثقافة الألمانية يتغنى بألمانيته ، وصاحب الفرنسية يمجد فرنسيته ، ومن تعلم فى انجلترا فالإنجليز مثله الأعلى ، وهكذا . . . وحسبك من هؤلاء جهلا وضلالة ، بل عمى وبلادة ، أن أحدهم لا يشرع قلما يعيب به على سادته أنهم يستذلون الضعفاء ، ويحتلون أوطانهم ويستأثرون بثرواتهم ؛ بل إنه لا يكف عن التغنى بما يتوهم له من مزايا ومآثر ، فما رأينا — مثلا — كاتباً ذا ثقافة فرنسية أعلن على فرنسا حربا بيانية على احتلالها تونس والجزائر ومراكش والسنغال والصومال ، وما إلى ذلك من أقطار تأتى فيها من المآسى الإنسانية مالا يطيقه ضمير الحر الأبى الكريم . هل تراه وقف يرسل النداء الحار من أعماق قلبه ، ويصب صواعق غضبه على هؤلاء الأنانيين الغلاظ ؟ لا ؛ إنه يعمى عن ذلك كله ، ولا يرى إلا محاسن سادته وأساتذته ، وما تفيض به بلادهم من حياة الإباحة والمجون ... وإنى أدعوك يا أخى إلى أن تشك فى علم هؤلاء وفهمهم وإنسانيتهم ، فإن الذى لايفهم رسالته لايعول عليه ، والذى يخذل الخير لاخير فيه ، و « الساكت عن الحق شيطان أخرس » ، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا النوع من الكتابة الذى لاينقلك من محيط إلى محيط ، بل ينقلك ويمعن بك فى محيط الحضارة الآلية الصماء . لاينبغى أن يكون نهجك فى الكتابة ، وهؤلاء الكتاب يجب أن تعرف منذ الآن زيفهم وحقيقة جهلهم ، فلا تغرنك ألقابهم وشهرتهم ؛ وليكن همك الأول من قلمك أن تنقر به على قلب ليستيقظ ، وتنفث منه فى نفس لتهب وتنهض ، وتعلم به باسم الله ما لاتعلمه الكتب والمدارس ... اذكر دائما أنك قائد ، وأنك طبيب ، واذكر دائماً أن مهمتك الكبرى هى إحياء الضمائر ، وإثارة الهمم إلى المثل العليا .

الدعوة والوعظ

وأريد للداعية أن يعرف أن نهجه فى الوعظ هو نفس نهجه فى الكتابة ، وأن مهمته فى الحالين هى مهمة الأنبياء ؛ هى تغيير مابنفوس الناس حتى يغير الله مابهم من فساد ، وكل وعظ لايبلغ هذا الهدف ، أو لايرمى إلى هذه الغاية ، فهو جهد ضائع ، وعمل باطل .

لايكن كل همك يا أخى أن تتظرف بالنكت اللبقة ، والفكاهات البارعة ، ليقول الناس إنك مجدد فى الوعظ ، وعند هذا تنتهى مهمتك ؛ ولا يكن همك أن تسلى الجمهور ، وتقضى معه ساعة فى حديث لايرمى إلى هدف ... لاتكن كذلك الذى يقبل على الناس فى حذر وخفة ، فلا يمسهم إلا مساً رقيقاً ، كأنما يخشى عليهم أن يتكسروا ، فيسوق لهم من قصص التاريخ ، وحكايات السابقين ، وأسباب نزول آيات القرآن الكريم ، مالا صلة لبعضه ببعض ، ومالا يؤلف بمجموعه موضوعا ذا غرض معين ، وهدف مقصود ... لايريد بما يسوق إلا أن يجلس الناس من حوله فيستمعوا له ، ثم يخرجوا وقد أسعدهم بوقت قضاه معهم فى مؤانسة ، ومتعة عاطفية بريئة ... هذا وعظ سلبى لاشأن لك به ، ولا مقام له فى رسالتنا . إن رسالتك تقتضيك أن تدخل على مشاعر جمهورك فى حكمة ، فتحرك وجدانهم ، وتستثير عواطفهم إلى الله . فإذا تأتى لك ذلك ، ولانت نفوسهم لقولك ، فاصنع منهم ماتشاء صنعه ؛ أبن لهم عن غرضك ، وابعث بآمال قلوبهم إلى ماتحب أن يصلوا إليه ، فإنهم مستجيبون لك إن شاء الله .

أيها الأخ . حذار الوعظ الجاف الذى لاحياة فيه ، وحذار الوعظ الركيك المفكك الذى لاغرض له ، وحذار أن تقف موقفا وأنت لاتنوى أن تخرج منه بصيد . . ! أنت صياد ماهر فاطرح شبكتك ، وانقل مايخرج لك منها إلى محيط آخر ، محيط الإخوان المسلمين ، محيط دعوة الله ورسوله .

قد يكون الوعظ السلبى ضروريا فى وقت ما ، ولكنه على كل حال ضار فى أوقات النهضات ، وإرادة التخلص من الفساد العام ... فإذا استوت النهضة على أمر الله ، وتخلصت الأمة من الفساد ، جاء دور الوعظ السلبى الذى يحذر ويزجر ويمنع ، لا الذى يثير ويغير وينقل ... وتكون مهمة الواعظ حينئذ أشبه بالطبيب الذى يقوم على رعاية الجسم السليم بالوقاية ، ويأخذ بالحكمة الطبية المعروفة : « الوقاية خير من العلاج .

أيها الأخ ، هذه هى الدعوة ، وهذا هو الداعية ، وهكذا الفهم ، فافهم دعوتك به ، والله يؤيدك بروح منه ، ويهدينا وإياك سواء السبيل !

الباب الثاني

مزاج الداعية

نقصد بمزاج الداعية ما يلزمه من عدة عقلية ، وروحية ، ونفسية ؛ فلابد له من :

١ — عقلية واقعية تصويرية ، لا نظرية .

٢ — حياة روحانية يحياها فيما وراء المادة ، على أن تكون روحانية اجتماعية ، لا تعتزل الناس ، ولا تدع الأخذ بالأسباب ، فذلك من الجهل بقوانين الله وسننه .

٣ — طبيعة إيجابية تنفيذية ، لا سلبية .

وقد تكون هذه العدد واضحة قوية فى مزاج الداعية فهى طبيعة لديه ، وقد لا تكون كذلك ، فعليه أن يحاول كسبها بالتجربة والممارسة والمران ، فإنه لم يحرم نصيبه الكسبى منها إن شاء الله .

الفصل الأول

العقلية الواقعية

قلنا إن مهمة الداعية ، هى نقل الأمة من محيط إلى محيط . وليس هناك ما هو أصعب مراساً من الإنسان ، فهو كثير المراء والجدل ، سريع الانتقاض والعصيان ، شموس لا يسلم زمامه إلا لهواه ؛ ومن هنا ترى مهمة الداعية شاقة . فقد يكون نقل جبل أسهل على المرء من توجيه إنسان إلى خطوة واحدة يكرهها ؛ ولكن ما أطوع الإنسان لنداء قلبه إذا ناداه إلى خير أو شر ! وما أصبره على ما يصيبه حينئذ من مشقة الجهد ، ونفقة المال ! بل ما أجمل ذلك وألذه لديه ... القلب هو القوة العجيبة التى تسخر هذا العاصى العنيد فى مشيئتها ، وهذا من حسن حظ الإنسان ، فإن الداعية الحكيم يستطيع أن يركز جهده وانتباهه فى مخاطبة هذا القلب ، ومحاولة إرضائه والنفوذ إليه ، حتى إذا امتلك عنانه ، قاده فى رفق ورضا وسرور ، إلى الإصلاح الذى يرجوه له ...

كيف نخاطب القلب

ولكن كيف نخاطب هذا القلب ؟ وبأى أسلوب نعرض عليه المعانى الربانية ؟ هناك من يعرض معانيه عرضاً نظريا محضا ، لاهم له إلا أن يستوعب المقدمات والنتائج ، والعلل والمعلولات ، والأسباب والمسببات ، ويتعمق فى التفكير التجريدى ، ليحيط بالكليات والجزئيات ، ومختلف الفروض والحقائق ، فاحذر أن تكون مثلهم فى مخاطبة الناس ، فهومنهاج لاتحرك به الجماهير ، ولاتثار به النهضات ، ولايصلح فى الخطاب الا لخاصة الخاصة من أرباب الفلسفات ، الذين يعيشون فى أبراجهم العاجية كما يقولون لا يؤثرون عمليا فى الحياة ولا تؤثر فيهم ، بل لا يصلحون لها ولا تصلح لهم ، ويقينى أن الفلسفة ضرب من شذوذ الفكر ، يطوح بصاحبه بعيداً عن تيار الحياة ... إنما الرجل كل الرجل ، والعاقل حق العاقل ، هو الذى يواجه الواقع العملى ، ويصلح بسنة الله ماشذ عن سنة الله ، فى بساطة لاتعقيد فيها ولا تكلف .

أسلوب الله فى عرضه الحقائق

إن هؤلاء يجانبون سنة الوجود ، ألا ترى أن الله عز شأنه حين عرض علينا الحقائق والمعانى والفلسفات ، عرضها عرضاً عمليا محسوساً ، ولم يعرضها عرضاً نظرياً ! فقدرته مثلا لم يحدثنا عن كنهها ، وكيفها ، وكمها ، وعن أسرارها الخفية ومعانيها التجريدية ؛ بل عرضها عرضاً سافراً فى مخلوقاته ، فأنت تراها فى البحر والجبل ، والزهر والشجر ، والشمس والقمر ، ونحو ذلك مما تقع عليه العين ؛ وفى هذا العرض العملى مقنع لإدراكها ، والشعور بها .

ولم يحدثنا عن فلسفة الموت والحياة ، بل ساق ذلك فيما نراه كل يوم من مواليد ووفيات ، وتطور بين الميلاد والوفاة ، فما عليك إلا أن تنظر وتتأمل ، وتدرس ثم تعتبر . ويرى الله — والحق فيما يراه — أن فى هذا القدر كفاية ، إذ لاتتسع طاقتنا العقلية لأكثر منه ، ولا يتعلق نفعنا المادى والروحى بما وراءه .

وغرائز الإنسان : حبه للبقاء ، ورغبته فى العلو والاستئثار ، وميله إلى الزوج ... هذا وغيره صفات أو قوى مستترة فى كيانه ، فهل أنزل الله لنا فى ذلك كتاباً فلسفياً يشرحه شرحاً عميقاً ، ويحيط بحقائقه أوفى إحاطة ؟ نعم أنزل فيه كتابا ولكنه كتاب الطبيعة ... كتاب الحياة التى تشرح أسرار الإنسان كل يوم ، بل كل ساعة ، بل كل دقيقة ؛ فكل أعمال الإنسان إن هى إلا تفسير لقواه وغرائزه المستكنة فيه .

ضرورة الأسلوب التصويرى

فهؤلاء المتعلقون بالنظريات الممعنة فى الفروض ، يفسدون أنفسهم حين لايسايرون قوانين الحياة ، ثم يحاولون أن يفسدوا على الناس نظام طبيعتهم السهل .

وأنت تريد أن تنهى عن رذائل ، وتصد عن حضارة فاسدة ، وتريد أن تدعو إلى فضائل ، وتهدى إلى حضارة صالحة . فاتبع سنة الله فى عرض المعانى ، واعرض دعوتك فى صور عملية ، تمشى على قدمين ، وتسعى على الأرض ، وتؤثر فى الناس ، فذلك سبيلك الوحيد ، إلى بث الحياة فى القلب ، والحركة فى العقل . وحين تدب الحياة والحركة فى الإنسان : قلبه وعقله ، فقد حى الحياة التى ترجوها له .. وإياك ومنهج النظريين ، فإنه يمل الناس ويصرفهم عنك .

أما الأساليب التصويرية التى تدخل على القلوب بدعوتك فنذكر منها مايأتى :

أولا — القصة

تمتاز القصة بأنها تصور نواحى الحياة ، فتعرض لك الأشخاص ، وحركاتهم ، وأخلاقهم ، وأفكارهم ، واتجاهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبعية والزمنية . تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم ؛ فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش ، عرفت مايستكن فى النفوس من طباع ، وما يهجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم ، وضقت ذرعاً بذوى النفوس المظلمة والوسائل الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأى العين ، وتسمع منهم سمع الأذن ، وتعاشرهم وتحيا بينهم .

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها ، فغريزة حب الاستطلاع ، تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بشفق القصصى البارع ، استشرافا لمعرفة ماخفى من بقية الأنباء .

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التى يتوسل بها الداعية لإبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب ، فهى بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم فى صورة عملية حية ، تحرك الوجدان وترفع بعض المشاعر ، وهى بالميزة الثانية : ميزة التنبه والتقبل ، تجعل النفوس أوعية مفتوحة ، يصب فيها الداعية مايشاء فيبلغ القرار .

فاستمسك بذلك يا أخى فهو من سنة الله ، والله عز شأنه قد سنه فى القرآن الكريم فقص على رسوله أحسن القصص ، وضمنه خير التعاليم والمواعظ ، تثبيتاً له ولأمته على الحق : « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ »

وخير القصص كله ، قصص القرآن الكريم — شرح الله صدرك له ، وأنار بصيرتك بما فيه وإلى مافيه — لقد أحكمت به عروة العقيدة ، واكتمل نظام الأخلاق ، واشتدت به أركان الحضارة الإسلامية ، فكانت أوفى وأكمل الحضارات . . .

مثال من قصص القرآن

ونحن نسوق لك مثلا قصة سليمان وملكة سبأ ، ولا تؤاخذنى إن قصر بى العجز عن الإحاطة بمراميها القيمة البعيدة . . .

إن هدهداً كشف لسليمان عليه السلام ما عليه مملكة سبأ من الشرك والضلال ، فبعث إليهم سليمان أن يسلموا لرب العالمين ؛ فحاولوا استرضاءه عنهم بالمال ، فلم تغنهم المحاولة شيئاً ؛ فقد رفض المال وأوعدهم ، وأنذرهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وحينئذ نزلوا على حكم سليمان ، وجاءوه مسلمين .

وفى هذه القصة يقرر الله تبارك وتعالى القواعد الأصيلة ، المادية والروحية ، التى لا بد منها لقيام الدولة النموذجية الفاضلة على النحو الآتى :

١ — قوة وعلم

يقوم الملك العظيم على دعامتين كبيرتين أصيلتين هما : القوة والعلم

فالقوة : تجمع قوة الأبدان ، وكثافة الجنود المدربين ، ووفرة الأسلحة والآلات .

والعلم : هو نور العقول والقلوب ، وهو وسيلتك إلى معرفة قوانين الوجود وسنن الطبيعة ، لتسخير ما يمكن تسخيره منها فى منافع الدولة ، وهذا هو العلم النافع ، هو العلم بالله عز وجل .

هذا أصل صالح من أصول الدولة ، ذكره الله عز وجل فى مواضع كثيرة من كتابه : « قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ ، قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وَزَادَهُ بَسْطَةً فى العِلْمِ وَالجِسْمِ ، وَاللهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . » ولكن الله عز شأنه لم يقف بنا عند حد الترسيم والوصف النظرى لمقومات الملك ، بل ذكر لنا ملكا عملياً ، ودولة نموذجية ، لنرى هذه الصفات حقائق ماثلة للعيان ، فى معالم ملكها الشامخ ، فنحتذى حذوها على بصيرة ، فإن لم نبلغ هذا المثال — ولن نبلغه[1] — فلنحقق منه ما تتسع له الطاقة .

---

(١) ملك سليمان عليه السلام لا ينبغى لأحد من بعده ، كما ورد فى القرآن الكريم .

القوة فى قصة سليمان

إن الله عز وجل يريد لنا ملكا عمليا ، فذكر لنا هـذه الصفات مجردة ، ثم أوردها محققة فى ملك سليمان ، لنكون عمليين فى بناء المجد ، لا كلاميين ولا نظريين .
فما القوة هنا ؟ وما كثافة الجند ؟ اقرأ معى قول الله عز وجل : « وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ — من كثرتهم وتزاحمهم — يُوزَعُونَ » يدفعون حفظاً لنظامهم ، وإبقاء على تنسيق صفوفهم ، فلا يتقدم المتأخر ، ولا يتأخر المتقدم . وهذه الجنود الكثيفة التى لم يعرف لها مثيل فى تعدد أجناسها تبعث الرعب فى جميع الآفاق ، حتى ليدخل الوجل فى قلوب النمل فضلا عن غيره ، فإذا « أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

ويعرف سليمان هذه القوة من جنده ، ، وأنها لا يقف لها شىء فى الأرض ، فيرد هدية ملكة سبأ بقوله : « ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

أرأيت — يا أخى — الجند مصورا هذا التصوير الرائع ، فى مثل هذا الكلام اليسير الموجز ، وهو تصوير لم يدع ناحية من نواحى الجند إلا ألم بها : كثرة العدد ، النظام ، عظمته بتعدد الأجناس فيه ، إلقاؤه الرعب فى قلوب المخلوقات حتى اليسير منها والتى لا قصد للجنود إليها ، وكونه جنداً غالبا مظفراً على أعدائه فى كل المواطن ، فتبارك الله رب العالمين ، وما أجل شأن القرآن الكريم !

العلم فى قصة سليمان

ثم أين العلم فى هذه القصة ، وأين رسالته التى أداها للدولة ؟ اقرأ معى قول الله عز وجل : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ، وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ — ميراث نبوة وعلم — دَاوُدَ » .
وهذا العلم الذى أشار الله إليه ، يفسره سليمان بأنه هو اللغات وسائر أنواع العلم فى قوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » .

الآية : ع حتى إذا أتوا

الآية : ع وقال يا أيها الناس

فأما منطق الطير وغيرها ، فإنك تراه فى حواره المعروف مع الهدهد كما سيأتى ، وتراه كذلك فى فهمه ما قالت النملة التى أنذرت ذويها بجنده ليدخلوا مساكنهم .

وأما ما عدا اللغات من سائر أنواع العلم ، فهو قوله : « وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » .

ونرجو أن تتأمل قوله عز وجل : « إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ » فسيأتى بعد قريب تفسير هذا الفضل بأنه هو العلم ، معترفاً به على لسان سليمان الشاكر الذاكر عليه السلام .

وأما ثمرة هذا العلم العملية فى الدولة ، فهى السيطرة على قوانين الطبيعة وقواها المختلفة . ليسخرها أهله فى منافع الدولة كما تقدم ، وهو ما تصوره قصتنا فيما يأتى :

لما أيقن أهل سبأ وملكتهم أن سليمان عليه السلام ليس ممن يعملون للمال ، وأنه لابد آخذهم بالبأس الماحق إن لم يسلموا ، خرجت الملكة فى وفد كبير ذاهبة إليه ، فلما كانوا ببعض الطريق ، أراد عليه السلام أن يحدث آية تدهش القوم ، وتلين قلوبهم للإيمان ، فقال لجنوده وفيهم من أرباب القوى العجيبة ، وأهل العلم بأسرار الوجود : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ؟ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ؛ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ : هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي » . أرأيت الذى عنده علم من الكتاب كيف يسخر علمه لمشيئة الملك العادل ، والإمام الفاضل ، والنبى الصالح ؟ . . وهذا الذى عنده علم من الكتاب هو ممن تفضل بهم الله على سليمان ليكونوا فى خدمة ملكه ؛ فلما تحقق فضل الله بتسخير هذا العلم عملياً ، اعترف به فقال : « هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ » .

وفضل الله كما تراه هنا : هو القوى العلمية بدون شك ، فإنك تقرأ فى هذه السورة : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً » وتقرأ فى سورة أخرى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً ، يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ » ؛ فسبحان الله العظيم ،

مسخر الأسرار للعاملين فى الأرض بطاعته ، المؤيدين لسلطانه فيها ، « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُون » .

وحسبنا هنا هذه الحادثة شاهداً لتسخير العلم والقوى الطبيعية ، فهى وحدها كافية لتصوير المراد ، وإلا فإنك تجد تسخير الطبيعة لملك سليمان فى آيات أخرى : « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ، غُدُوُّهَا شَهْرٌ ، وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ [1] وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ ، وَتَمَاثِيلَ ، وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ، وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُور » .

هذا شأن العلم والقوة فى هذه القصة ، وقد شرحته لنا بأوفى بيان وأكمله كما رأيت .

٢ — ورسالة

ولا بد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها ، وتصرف إليها قوتها وعلمها ، فما هذه الرسالة ؟ هل هى اتساع الملك وكثرة المستعمرات ، والاستيلاء على أراضى الضعفاء ؟ هل يرتاح ضميرك أن تكون هذه اللصوصية وهذا الفساد فى الأرض رسالة مجيدة ؟ إن علم الله أرفع من أن يسخر لمثل هذه المخازى والمآسى ، وإن الله عز وجل أرفع من أن يرسم لأوليائه مثل هذه الغاية الشريرة الآثمة . . . إن الغاية الفاضلة التى يجب أن تعيش لها الدولة الفاضلة وتعمل جاهدة لتحقيقها ، غير ناظرة إلى شىء سواها ، هى توحيد الله عز وجل ، وجمع الناس على الإيمان به وحده ، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك ، حتى تكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله . . . يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل ، يجب إقامة النظم السياسية ، والتشريعية والعملية ، التى تكفل استقرار الناس فى ظلال هذه الغاية ، فإن استقر ذلك بالتى هى أحسن فبها ونعمت ، وإن استعصى الأمر على الوسائل السلمية ، فلنتذرع بالتى هى أحسن أيضا ، وليس أحسن فى هذه الحالة من القوة المسلحة . . . فمن أنزله السيف على أمر الله

---

(١) عين القطر : عين تفيض بالنحاس المذاب .

فهو معنا : له مالنا . وعليه ما علينا ، وإلا فلن نكف عن أعداء الله ، حتى تطهر الأرض من رجسهم : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » ، « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

تلك هى الغاية التى يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة ، وقد أثنى الله على المسلمين ، وشهد لهم أنهم عاشوا لها لتطهير الأرض من الرجس ، ولتثبيت دعائم الإيمان بالله ، فقال عز شأنه : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » ، وأثنى على القائد الصالح القوى صاحب سورة الكهف ، الذى آتاه من كل شىء سبباً ، أثنى عليه لأنه وجه قواه لتعذيب أهل الشر ، وتشجيع أهل الإيمان ومعونتهم : « قُلْنَا: يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا » ، فوضع لقوته دستوراً صالحاً يعذب عليه أو يثيب : « أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » .

وهذا حسن فى موضعه بالغ غاية الحسن ، لأن الله عز شأنه ، أراد مجرد التقرير ، تقرير هذه الغاية والنص عليها ؛ أما حين أراد تصويره عملياً فقد أقامه لنا فى قصتنا الخالدة ، فى منتهى الشرح والتفصيل ، ومنتهى الإيجاز والإعجاز ؛ اقرأ قوله تعالى حكاية عن الهدهد : « إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ — سبأ — وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ » وهذا ضلال فى العقيدة ، وضلال فى العمل ، يفسدان على الدولة غايتها ، ويقودانها إلى شر المصير . . وهل صلاح الحياة ، إلا عقيدة صالحة ، وعمل صالح ؟ . .

وبعد أن بين الهدهد فساد هذه الدولة ، عقيدتها وأعمالها ، استمر فى بيان

العقيدة الصالحة ، التى يجب أن تعيش عليها الإنسانية أفراداً وجماعات : « أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ » : ونرى سليمان عليه السلام — وهو رئيس الدولة الأعلى — يعمل لهذه الغاية نفسها ، وفق ما يحكيه الله عن الهدهد ، فيرسل إلى سبأ بهذا الكتاب الموجز الحكيم ، يدعوهم إلى الإسلام لله : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ : وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » ويصر سليمان على أن ينزلهم على حكم الإسلام ، فيهدد ما يهدد بالقوى المسلحة الجبارة ، حتى تقول ملكتهم فى النهاية : « رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » . .

ألا ترى — يا أخى — أن هذه الدولة الكريمة قد عاشت حقا عاملة لهذه الغاية الكريمة ؟ أو لا ترى أن هذه الغاية واضحة جميلة ، فى النسق التصويرى المحكم الذى ساقها الله عز وجل فيه ؟

٣ — إيمان الرئيس الأعلى ، وعنايته بكل شىء

والحقيقة الثالثة فى هذه القصة — تبين لنا أن من تمام نظام الدولة أن يكون رئيسها الأعلى عالما بغايتها ، مؤمنا بها ، عاملا جهده لها ؛ هذه واحدة ، والأخرى أن يكون يقظا ومتنبها ، متعهداً لشئون رعيته صغيرها وكبيرها ، حازما فى محاسبة المسئولين ، فإن لم يكن كذلك انحل التناسق فى قوى الدولة ، وانفرط عقدها ؛ وهذا كلام لاغبار عليه ،ولا تردد فى قبوله ، فلا نطيل فى الاستشهاد له من كتاب الله ، ولنلتمسه مصوراً فى قصتنا أبدع تصوير : « وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ » . . . ألا تراه عليه السلام معنيا برعيته ، يتفقدهم ولا يهملهم ؟ والذى يعنى بتفقد الطير ، لا يفوته أن يتفقد ما هو أهم منه ، وذلك استقصاء كامل فى رعاية نواحى الدولة ، والعناية بأمرها . . . ثم ترى يقظته العجيبة ، وفطنته الحساسة ، إذ يفطن إلى غياب هدهد ، وسط هذه الألوف ، بل الملايين من الخلائق المحشورة له ، فيقف متسائلا : « مَا لِىَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ »

وهذا مثل أعلى فى يقظة الحس ، من العسير — إن لم يكن من المستحيل — على بشر عادى أن يدركه ، ولكنه من الأمور الميسورة لنبى من أنبياء الله ، ينظر الأشياء بنور بصيرته الملهمة ، لا بنور بصره فقط ، وهو على كل حال مثل أعلى فى اليقظة ، ينصبه الله عز وجل ، ليحتذيه كل من ولى من أمور الناس شيئا .

وانظر إليه بعد هذا ، كيف يهتم بغياب الهدهد ، ويسأل عنه ، ويتوعده بالعقوبة الصارمة ؟ خبرنى بربك ، ماقيمة هدهد فى هذه الجيوش الجرارة ؟ ماغناؤه إذا حضر وما مضرته إذا غاب ؟ .. لكن هو القائد الحكيم يا أخى ، يرى أن لكل شىء رسالة صغر أو كبر ، ولكل جندى عملا لا يؤديه غيره ، فإذا غاب أو أهمل ، اختل التناسق فى العمل ، وأدركه الاضطراب والخلل ؛ ومن هنا يعظم فى صدر القائد الحساس ، مايقع من جرائم الغياب أو التقصير ، فيكون حازما فى مؤاخذة أصحابها ، مؤاخذة تحمل العذاب الشديد ، وتمتد إلى عقوبة الإعدام : « لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ، أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ، أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ » . وفى المجال قول كثير ، وتعليق مستفيض ، ولكنا ، نكتفى بالإشارة إلى أن الله عز وجل اختار لنا من يقظة سليمان هذا المثال ، ليعلمنا أن الذى يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام ، يكون بكبارها أشد رعاية واهتماما ، وأن الذى يحاسب الحساب العسير الحازم ، على ماقد يبدو تافهاً ، لايمكن أن يفرط فى المؤاخذة على الأخطاء الجسيمة .

ثم هو لم يأخذ اعتذار الهدهد قضية مسلمة ، بل وضعها موضع التحقيق والاختبار ، فقال : « سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ » .

وأما إيمانه بالغاية ، والعمل لها ، وعدم الركون إلى غيرها ، من مال أو نحوه ، فيتجلى لك من أول القصة إلى آخرها ؛ فليس له هدف إلا الله ، وتسخير كل شىء لله ؛ وحسبك منه انصرافا عن كل ماعدا الله ، أنه سخر برسل بلقيس ملكة سبأ وبهديتهم ، وقال هذا القول الذى يصور إعراضه عن المال ، وتهكمه بأهله أصدق تصوير : « فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ » متهكما : « أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ، فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ، فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ » .

ولقد روى الله تبارك وتعالى عن صاحب الكهف مايشبه ذلك : « قَالُوا : يَاذَا

الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ؟ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ » من المال « فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » .

٤ — إيمان أفراد الشعب برسالة الدولة

ورابعة ننقلها من هذه القصة ، ولا بد من النص عليها : أن كل فرد من الرعية يجب أن يؤمن بغاية الدولة ، وأن يجند نفسه لها ؛ وكل مامضى مما قررناه يصبح عديم الجدوى ، إذا شذ أفراد الرعية ، فاتجهوا إلى غير هذا الاتجاه ؛ وأنت ترى الهدهد يعتز بواجبه ، ويقول فى ثقة المؤمن العامل لغايته العليا ، مخاطباً سليمان وهو حاكم الجن والإنس : « أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ! وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ، إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ و . . . » إلخ ؛ ومن حق خطاب الهدهد بهذه اللهجة العجيبة أن نتأمله وندرسه ، لنرى أنه ليس خطاب المهمل المذنب المضطرب ، وإنما هو خطاب الذى رضى عن نفسه ، واطمأن إلى أداء واجبه ؛ فهو لايعبأ أن يخاطب أعظم مخلوق بلغة الحق القوى ، ولو كان هو سليمان ، حاكم الإنس والجن .

يأيها الناس ! يأيها الشباب ! اعرفوا واجبكم ، واسعوا فى صدق إلى غايتكم ، فإن أمة لايساوى رجالها هدهداً لهى أمة من الغثاء والهباء ، وإن أمة هدهدها خير من رجال لهى أمة مقعدها فى السماء ، فوق هامة الجوزاء .

وماذا بعد هذا فى هذه القصة يا أخى ؟ فيها أن فساد العقيدة والعمل — كما رأيناه فى دولة سبأ — لايخلق إلا رجالا لاعقول لهم ولا حمية ، من هذا الطراز الذى جمعته بلقيس لتستشيرهم فيما نزل بها من خطب جسيم ، فلم يكن عندهم من غناء ، إلا أن قالوا : « الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ » ؛ وما جمعتهم لهذا ، وإنما جمعتهم لتقول لهم : « مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ » ، فلم يسعفوها برأى تستأنس به ؛ وهذا ضرب من الرجال لاتقوم به دولة ، ولا تنبته إلا عقيدة زائفة ، ونظام من العمل فاسد مضطرب . . . فالعقيدة العقيدة أيها الإخوان !

***

نحن فى هذه القصة أمام أربع معان دقيقة خطيرة ، لاتقوم دولة عظيمة إلا بها : (١) قوة وعلم (٢) رسالة مجيدة (٣) إيمان الرئيس الأعلى وتفقده — فى انتباه —

كل شىء (٤) إيمان أفراد الشعب بغايتهم ، وشدة إخلاصهم لواجبهم . . . فخبرنى يا أخى ، لو أن قصصياً من الأفذاذ النوابغ ، أراد تصوير هذه المعانى الجليلة ، أكان يعرضها عليك فى مثل هذه القوة ، وفى مثل هذا الوضوح الذى يفوق ضوء الشمس فى شدة جلائه ، أو كان يعرضه عليك فى مثل هذا القدر الوجيز من البيان الرائع المعجز ؟ !

ولسنا بصدد إعجاز القرآن فنحدثك عن إحكام التعبير ، ودقة التركيب ، وسداد مرامى الإرشادات ؛ أو نحدثك عن خلود المعانى ، والقوانين الصحيحة التى ضمنها الله هذه القصة ، فهو نوع من أسرار الإعجاز ؛ إذ لا يلتفت إلى هذا النظام الكامل للدولة العظيمة بشر . . . لا يحيط به إلا الله الذى خلق كل شىء وأحاط بكل شىء علما : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ؟ » وصدق الله العظيم : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا » .

وأقول : لسنا بصدد إثبات شىء من هذا الإعجاز القرآنى ، وإنما بصدد طبيعة القصة ، فى عرضها للمعانى الدقيقة عرضا مصوراً فى حوادث عملية ؛ ونحسب أن قدمنا فى تحليل هذه القصة بقدر يكفى للاقناع بما قصدنا إليه .

والآن نسوق لك القصة بأكملها فى نسقها الإلهى المعجز ؛ قال عز شأنه فى سورة النمل : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ، وَقَالَا : الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ . وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ، إِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِين . وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُون . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِى النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ : يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُون . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا ، وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِين . وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ . مَالِىَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِين . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَانٍ مُبِين .

فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَقَالَ : أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . قَالَ : سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . اذْهَبْ بِكِتَابِى هٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ : يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ : بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ . قَالَتْ : يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ . قَالُوا : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ . قَالَتْ : إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ . فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ؟ فَمَا آتَانِىَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ ، فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ . قَالَ : يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ؟ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ، وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ : أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى ، لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ . وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ . قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ

مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ : أَهَكَذَا عَرْشُكِ ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهُ هُوَ ، وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ . وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ . إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ . قِيلَ لَهَا : ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ، قَالَ : إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وأنت ترى فى القصة بعد تلاوتها الآن ، أن فيها غير ماقدمنا لطائف دقيقة ، كالنص على حقيقة الاستعمار ، وسوء عاقبته على الذين يحل بهم فى قوله تعالى : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » وأن هذا ديدنهم فى كل زمان ومكان : « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » فلا ينفكون عنه . . .

وترى فطنة فى بلقيس ، وتوقد ذكائها فى إدراكها معنى الاستعمار ، كما ترى هذا الذكاء فى تريثها ، واختيار حقيقة سليمان ، فإنها لم تحاول أن ترشوه بالمال ، وإلا كانت غبية ، وإنما حاولت أن تختبر حقيقته ؛ فإن كان ممن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية ، ورضى بما يدفع له من خراج . وإذا كان من أرباب العقائد والإيمان بما يدعوها إليه فى خطابه ، فسوف يرد الهدية ولا يقبل إلا السيف ؛ فإذا تبين لها ذلك كان حقاً عليها — وهى العاقلة الذكية — أن لا تتردد فى مبايعة هـذا المؤمن ، فذلك مقتضى الحكمة . . .

وهو الذى قد كان كما ترى فى القصة . . . ومحاولة الاختبار تلمحها فى قول بلقيس : « وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ ، فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » ، فقولها : فناظرة بم يرجع المرسلون ، يضع يديك على رغبة الاختبار الذى قصدت إليه . . . وتلمح هذا الذكاء أيضاً حين عرضوا عليها عرشها ، وقد نكروه ، فغيروا معالمه بالزيادة والنقصان ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ فلم تقل : إنه هو ، لأنها تركته وراءها فى بلادها ، والمسافة بعيدة ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تقل : ليس عرشى ، لأنها تراه بكثير من معالمه وصفاته . . . ولم تقل : لا أدرى ، لأنه غباوة وبلادة ذهن ؛ خرجت من هذا السؤال المحرج ، بهذه الإجابة الكيسة اللبقة ، التى ما كان يصلح للموقف غيرها . . . فقالت : « كأنه هو » .

وترى في القصة غير هذا كثيراً من اللفتات اللبقة الدقيقة ، نتركه آسفين خوف الإطالة والإملال .

فعليك بقصص القرآن يا أخى ، وادرس أغراضه ومعانيه ، واجعله من وسائلك فى تبليغ دعوتك ، فإنه يسعفك بما لا يسعفك به قصص آخر .

القصص النبوى

ومن القصص الذى يجب أن تستعين به قصص رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهو قصص كان يختاره عليه السلام من تاريخ السابقين ، ليشرح ما يريد من المعانى بالأمثلة الحية الواقعية ؛ وهذا القصص يأتى فى المرتبة بعد قصص القرآن الكريم ، ولنسق لك مثلا منه :

الإيمان بالله وحده ، أو العقيدة الصالحة ، تحيا وتنتشر بما يأتى :

١ — الثبات عليها ، واحتمال أنواع الأذى فى سبيلها .

٢ — التضحية من أجلها بما يملك الإنسان من جاه ومنصب ومال ، أو رفض ما يعرض عليه من هذا .

٣ — أن يلجأ صاحب العقيدة إلى أنفع الحيل ، وأجدى الوسائل فى نشر عقيدته وتثبيتها ، ولو كلفه هذا تقديم حياته ثمنا له . . . هذا معنى جميل ، أو قل : إنه حقيقة جميلة من حقائق الحياة التى لا شك فى صدقها . . . ومن الحقائق الصادقة أيضا أن الله عز شأنه ، إذا علم من أوليائه هذا التجرد له ، والصدق فى الإيمان به ، منحهم من الأسرار ما تجرى لهم به بعض الكرامات بإذنه .

هاتان حقيقتان ، بل قانونان من القوانين التى يطرد عليها نسق الحياة الصحيحة ؛ فمن تحقق بمعانى الولاء فقد استقام على سنة الله ، وكتب الله لرسالته النجاح فى الدنيا ، وأسعده بالفوز فى الآخرة ؛ ولكن أترى هذا الكلام يبلغ أعماق القلوب بمجرد تقريره هذا التقرير ؟ لا . . . لا بد من شىء غير التقرير ، يشرحه ويصوره أبين التصوير ؛ ولقد كفانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مئونة هذا ، فاختار لنا من قصص السابقين ما يقرره ويصوره .

روى الإمام مسلم فى صحيحه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : قد كبرت فابعث إلى غلاما أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاما يعلمه ، فكان فى طريقه — إذا سلك — راهب ، فقعد إليه ، وسمع كلامه ، فأعجبه ؛ فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ،

فإذا أتى الساحرَ ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر ؛ فبينما هو — الغلام — كذلك إذ أتى — مر — على دابة عظيمة — حيوان مخيف — قد حبست الناس ، فقال : اليوم أعلم : الساحر أفضل أم الراهب ؟ فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس ؛ فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى بنى ، أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على ؛ وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء ، فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : ما ههنا لك أجمع ، إن أنت شفيتنى ، فقال : لا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله » . وهذا منتهى اعتراف المرء بعجزه وإقراره بفضل الله القادر على كل شىء ، وهو من مستلزمات الإيمان بالله . « ثم قال الغلام — الذى لا يبغى لنفسه مالا — فإن أنت آمنت بالله ، دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله فشفاه الله ؛ فأتى الملكَ ، فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربى ، قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربى وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ؛ فجىء بالغلام ، فقال له الملك : أى بنى ، قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل ؟ قال : إنى لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب ؛ فجىء بالراهب ، فقيل له . ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه » وهذا ثبات على العقيدة ، واحتمال لأشد أنواع الأذى فى سبيلها . « ثم جىء بجليس الملك ، فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه » وهذا علاوة على ما تقدم ، تضحية بجاه المجالسة الملكية ، وما إلى المجالسة من مال ونحوه فى سبيل العقيدة . « ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته ، فإن رجع عن دينه ، وإلا فاطرحوه ؛ فذهبوا به ، فصعدوا الجبل ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا » ، وهذا من كرامة أولياء الله عليه . « وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ قال : كفانيهم الله ؛ فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه فى قرقور — سفينة صغيرة أو كبيرة — فتوسطوا البحر ، فإن رجع عن دينه ،

وإلا فاقذفوه ؛ فذهبوا به ، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ؛ فانكفأت بهم السفينة فغرقوا » ، وهذا من الكرامات أيضاً . « وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . . . »

وهنا فتح الله للشاب باب حيلة ، أو وسيلة جميلة . ليبلغ بها الناس جميعاً دعوة الإيمان ، ويجعلهم يتحولون عن شركهم وعقيدتهم الفاسدة ؛ نعم هى حيلة فيها هلاكه المحقق ، ولكنه يرى أن سعادته أن ينشر عقيدته بالوسائل الناجعة ، بل يرى أن حياته الحقيقية وسعادته الكاملة ، أن يتطوع ، فيقدم نفسه للقتل ، ما دام يثق أن من وراء ذلك حياة العقيدة ؛ فانظر ماذا قال الشاب للملك : « إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به ، قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتى ، ثم ضع السهم فى كبد القوس ، ثم قل : باسم الله رب الغلام ، فإنك إن فعلت ذلك قتلتنى » . هذه هى الوسيلة ، فقد أراد الغلام أن يعرض على الناس مشهداً من مشاهد الإيمان بالله ، من مشاهد قدرة الله الذى باسمه يستطيع الملك أن يقتل هذا الغلام العجيب ، الذى لم تفلح الوسائل فى قتله ، فإذا رأى الناس هذه القدرة ، عرفوا أن رب الغلام الذى آمن به ، هو الرب الذى لا إله غيره ؛ وقد تحقق ما أراد الغلام ، فإن الملك الغبى الحقود ، لم يفطن إلى أن جمع الناس ليشهدوا قتل الغلام ليس فى مصلحته ، « فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : باسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم فى صدغه ، فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات ؛ فقال الناس : آمنا برب الغلام . فأُتى الملكُ ، فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس . . . فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فخدت ، وأضرم النيران ، وقال . من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها ، أوقولوا له : اقتحم . . ففعلوا ، حتى جاءت امرأة ومعها صبى ، فتقاعست فقال لها الغلام : ياأمه ، اصبرى فإنك على الحق » .

وبعد : أفرأيت هذا الاختيار النبوى لهذه القصة القوية التى صورت ما نحن بصدده من الفضائل أروع تصوير ، وأثرت به فى الضمائر أبلغ تأثير ؟ .

إذن ؛ ليكن القصص من أساليبك التى تلجأ إليها فى شرح وتثبيت تعاليمك ، بل وبعث الناس على التحقق بها عملياً ، فإن القصص — كما رأيت — من سنة الله فى كتابه ، ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قصص مخترع

ولقد فطن السابقون إلى هذه السنة القصصية ، فوعظوا بقصص القرآن ، وقصص رسول الله ، واخترعوا قصصاً من ابتداعهم ، إدراكا للغاية التى ينشدونها ، وهى جمع الناس على الإيمان بالله والدار الآخرة .

ونحن نسوق إليك مثلا من هذا القصص الموضوع ، ليكون نموذجاً لك تحتذيه ، إذا كنت ممن يستطيعون ابتكار القصص ، أو تجمع ما يشبهه .

الرجل يعمل العمل لايبتغى به إلا وجه الله عز وجل ، فيمده الله من حوله وقوته ، مما يغلب به كل مايعترضه ، والآخر يعمل العمل رياء الناس ، أو سعيا لمال أو منفعة مادية ، فلا يكون له من الله مدد ، إذ يتخلى الله عنه ، ويكله إلى نفسه ، فيكون مغلباً غير غالب . . .

وهذا قانون من قوانين الله عز وجل ، إذا عمل بمقتضاه جند الله فهم الغالبون لامحالة ، ولو قامت ضدهم كل قوة فى الأرض ؛ ولكن كيف يتصور العقل هذا المعنى ؟ وكيف ينبض له القلب ، إذا لم يكن له صورة ترينا مكانه فى حياة الناس ؟ لقد وضعوا له قصة فقالوا :

كان فى قرية من قرى بنى إسرائيل ، شاب صالح عابد ، وكان فى القرية شجرة غريبة الأطوار ، تظهر لها أحوال توهم الناس أنها مباركة تمتاز بأسرار وعجائب ؛ ففتنوا بها ، وأخذوا يتقربون إليها ، ويمنحونها من التعظيم والتقديس ماحقه أن يكون لله تبارك وتعالى ؛ فغضب الشاب لهذا الشرك ، وعزم أن يقطع الشجرة ، فيخلص الناس من شر الشيطان الذى يقودهم إلى النار ؛ فأخذ عدته ومضى ، وبينما هو فى الطريق ، عرض له الشيطان ، فقال له : إلى أين أيها الشاب ؟ قال : إلى هذه الشجرة ، قال : وما حاجتك بها ؟ قال : أقطعها ، قال : ولم ؟ قال : لأن الناس فتنوا بها ، وعبدوها من دون الله — والشاب هنا صادق النية فى العمل لوجه الله لايبتغى شيئاً لنفسه — فقال الشيطان : لا ، لن تستطيع الوصول إليها ، وإنى أمنعك من هذا ، وأمسك بتلابيب الشاب ؛ فغضب الشاب ، وأمسك الشيطان ، ورفعه بين يديه كما ترفع الريشة ، وطرحه على الأرض ، وبرك على صدره ، وضيق عليه الخناق ، حتى احتبست أنفاسه ، وكادت روحه تزهق ؛ فأخذ الشيطان يستعطف الشاب ، ويتلطف إليه بالكلام اللين ، ويعتذر ، ويرجوه أن يعفو عنه ، ويغفر له خطأه ؛ وظل يتوسل ويتذلل ، حتى رق له الشاب وخلى سبيله . . . وهنا أخذ الشيطان

يتودد إلى الشاب ويقول له : ياسيدى ، ماكان قصدى أن أمنعك عن قطع هذه الشجرة ، وإنما كنت أريد أن تتركها يوماً أو يومين ، لأن لى مأرباً فيها ، فإذا قضيت مأربى منها ، لا يهمنى بعد ذلك أبقيت أو قطعت ، وأنت الآن وشأنك بها ، إن شئت قطعتها ، وإن شئت أبقيتها . . . إنك أحسنت إلى ، فعفوت عنى ورددت على حياتى ، ووهبت لى عمرى من جديد ، فإذا رأيت أن تضاعف منتك ، وفضلك على ، فاترك لى هذه الشجرة يوماً أو أكثر ، حتى تنتهى حاجتى منها ، ولك إن فعلت ذلك أن أعطيك ديناراً عن كل يوم ؛ وما زال الشيطان يدخل على الشــاب بهذه المداخل اللينة ، حتى مال إلى إبقاء الشجرة ، وقال فى نفسه : وماذا على لو تركتها بضعة أيام لآخذ بضعة دنانير ، ثم أقطعها ؟ . . واتفق الشاب مع الشيطان على إبقائها بضعة أيام ، نظير دينار عن كل يوم ، ومضى كل إلى شأنه . . . وفى اليوم التالى جاء رســول الشيطان ، ودق الباب ، وأعطى الشاب — وكان فقيراً — ديناراً ، ففرح به . وأنفق منه على نفسه وأمه ، واشترى لحماً وسمناً وخبزاً وفاكهة ؛ وفى اليوم الثانى جاءه الرسول بالدينار الثانى ، فاشترى كسوة لنفسه ولأمه . . . وتوالت الأيام وتوالت الدنانير ، وركن الشاب إلى النعيم المادى ، وأغضى عن الشجرة التى تعبد من دون الله .

وفى يوم من الأيام ، انقطع الرسول ، وانقطع الدينار ، فأخذ الشاب ينتظر طول نهاره ، فلم يجده الانتظار شيئا ، فقال فى نفسه : لعل صاحبى فى سفر ، أو لعله فى شىء ألهاه عنى ؛ ثم ترقب الدينار فى اليوم التالى ، فلم يجىء الرسول ، ومضى اليوم الثالث ، والرابع ، كل ذلك والشاب يلتمس المعاذير لصاحبه ، ويعلل نفسه بالأباطيل ، حتى مل الانتظار ، ويئس من زيارة الدرهم والدينار . . .

وهنا فقط ذكر أمر الشجرة ، وقام يقطعها نكاية بصاحبه الذى قطع عنه راتبه العزيز ؛ فأخذ عدته ومضى إليها ، فقابله صاحبه ، فقال له : إلى أين أيها الشاب ؟ قال : إلى هذه الشجرة التى يعبدها الناس من دون الله ، فأقطعها لأنك قطعت عنى الدينار اليومى — هنا تجد الشاب قد تغيرت نيته ووجهته ، وأصبح يعمل لا غضباً لله ، ولكن غضباً للدينار — فقال الشيطان : هيهات هيهات ، لن تصل إليها وسأمنعك ، وأمسك بتلابيب الشاب ؛ فأمسك الشاب بالشيطان ، وحاول أن يرفعه كما رفعه بالأمس القريب ، فأحس أنه أثقل من جبل ، ورفعه الشيطان بين يديه كما ترفع الريشة ، وطرحه على الأرض ، وبرك على صدره وضيق عليه الخناق ، حتى احتبست أنفاسه ، وكادت روحه تزهق ؛ فأخذ يستعطف الشيطان ، ويتلطف إليه بالكلام اللين ،

ويعتذر ، ويرجوه أن يعفو عنه ، ويغفر له خطأه ؛ ويتوسل ، ويتذلل ، ويعطى على نفسه العهود والمواثيق ، أنه لن يعود إلى قطعها أبداً . وقبل الشيطان تذلله وتضرعه وعهده أن لن يعود إلى قطعها ؛ ولكنه أبى أن يتركه إلا بعد أن قبل شيئاً آخر ، هو أن يفعل للشجرة مثل ما يفعل سائر الناس لها ، من الكفر عن طيب خاطر .

فلما خلى عنه ، جعل الشاب يشكره ، لأنه رد عليه حياته ، ثم سأله : إنى لأعجب لأمر غريب ؛ لقد كنتَ فى يدى كالريشة بالأمس فغلبتك ، أما اليوم فقد كنت أثقل علىّ من جبل ، وكنت فى يدك كالريشة ، فما سر هذا ؟ فقال الشيطان للشاب : لقد كنت بالأمس غاضباً لله عز وجل ، فوهب لك الله هذه القوة الجبارة التى صرعتنى بها ، وأنا الذى أصرع الجبابرة ، أما اليوم فأنت غاضب للدينار ، فسلبك الله قوتك وتخلى عنك ، ووكلك إلى الدينار ، وليس للدينار حول ولا قوة يمدك بها ، فغلبتك ؛ فخجل الشاب ونكس رأسه .

أيها الأخ : لقد وجدت القرآن يدعو إلى الله ، ويسوق من القصص ما يتضمن تعاليم هذه الدعوة ، ووجدت الرسول العظيم صلوات الله وسلامه يفعل ذلك ، ووجدت السلف الصالح ينهجون هذا النهج فى تصوير التعاليم تصويراً قصصياً ؛ فعليك بهذا ، واستمسك به ؛ فإنك تأخذ بسبب من النجاح إن شاء الله .

ثانياً — ضرب الأمثال

المثل قول واضح ، موجز ، حكيم ، ينتصب صدقه فى العقول ، فيألفه الناس ، ويجرى بينهم ، ويشيع فى أحاديثهم .

والناس من قديم الزمان يجدون فى طبائعهم الميل إلى الاستشهاد بالمثل ، فقد يكون أحدهم بصدد حال يحكيها أو يسمعها ، فيحضره مثل يشابهها فى المعنى ، فيستشهد به ، لا لأن الكلام يزيد به صدقا ، بل لأن النفس تستأنس بالمثل ، ويلتمع فى جوانبها ضوء من وضوحه ، وجمال حكمته ، فما أسرع ما تنفرج جوانب النفس عن ثغرة يتعانق فيها معنى المثل القديم ، ومعنى الحديث الجديد ، ثم تنطبق عليهما فى تزاوج ووئام ، فإذا بالحال التى كانت تحكى قد استقرت لدى السامعين فى رضى وقبول واطمئنان . ويسمى هذا بضرب المثل .

ونحن نوصيك — أيها الأخ — أن تحرص على ضرب المثل فى الاستئناس لدعوتك ؛ نوصيك أن تستكثر من أمثال العامة وغيرهم ، وأن تجعلها فى يدك مفاتيح

صدق تفتح بها مغاليق النفوس ، أو ثغراتها المنورة ؟ أرأيت لو تحدثت إلى الناس أن يقبلوا على الله فى رفق لا شدة فيه ، فيأتون من أمره عز وجل ما استطاعوا ، دون أن يشقوا على أنفسهم بالغلو والإفراط ؟ وأخبرتهم أن هذا هو المنهج الطبيعى المأمون الذى يبلغون عليه غايتهم . فإن الغلو فى صيام النفل ، وهجر ما أحل الله للمؤمنين من طيبات ، والمبالغة فى إحياء الليل بالصلاة والاستغفار والضراعة ، هذا وغيره قد يورث النفس مللا فتنتكس ، وتصد عن الله ؟ أو قد يصيب الإنسان من هذه الشدة مرض يوهن جسمه ، ويعكر عليه صفوه ، فيقطعه عن الصلاة ، ويحرمه أن يجد لذتها ؟ أما الاعتدال والتوسط فى أمر ، فهو النمط الذى لا ملل معه ولا انقطاع . . . أقول : أرأيت لو تحدثت إلى الناس بهذا ، ماذا يكون سرور العامة حين تستأنس بالمثل الذى يجرى على ألسنتهم : « كشكار دايم ولا علامة مقطوعة ؟ » . والكشكار : هو النخالة أو السن الخشن ، والعلامة : هى الدقيق المصفى ؟ ومعنى هذا أن السن الخشن الذى يجىء باستمرار ، خير للمرء من الدقيق المصفى الذى يأتى مرة أو مرتين ، ثم ينقطع . . وهذا مثل يضرب فى تفضيل القليل الدائم على الكثير المنقطع ؟ وأنت إذ تضرب هذا المثل ، تشبه العبادة اليسيرة التى يستمر عليها الإنسان فى غير كلفة بالكشكار ، وتشبه العبادة المفرطة فى الغلو التى لا يلبث صاحبها أن ينقطع عنها بالعلامة المقطوعة .

ضرب المثل حركة تجديد وتنشيط

فضرب المثل ، إنما هو تشبيه حالة ما ، بأقرب الأمثال شبهاً بها ، وأكثرها مماثلة لها ، وهو تشبيه يحدث فى النفس حركة التفات بارعة ، يلتفت بها المرء من الكلام الجديد إلى صورة المثل المأنوس ، فيلمح ما بينهما من التشابه أو التطابق ، فلا يلبث أن يتلقى الأمر الجديد بمزيد من القبول والارتياح ، ويجرى ذلك كله فى أقل من لمح البصر . . . وهذه الحركة النفسية البارعة ، لها ما لسائر الحركات من تجديد وتنبيه وتنشيط ، علاوة على أن المثل يمتاز بخلابته ، ورشاقة موقعه فى النفس ، وطرافته التى تتجدد ، ولا تبلى مما ترى أثره يبرق فى وجوه السامعين ونظراتهم وثغورهم ، أو على الأقل مما يشعر السامعين بأن سرائرهم تبتسم له وتهش .

قال ابن المقفع : إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث . وقال إبراهيم النظام : يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية .

هذا الشأن للمثل أيها الأخ هو الذى يحملنا على أن نوصى الداعية به ، بل هو ما يجعلنا نراه ضروريا للداعية الجاد الغيور ، الذى يريد أن يمهد لدعوته سبيلها إلى النفوس ، وأن يفرش لها هذه السبيل بالأزهار والرياحين . . .

ألوان ضرب الأمثال

١ — وقد ذكر صاحب العقد الفريد فى طائفة الأمثال المروية عن أكثم بن صيفى : « لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ » ، فإذا صح ذلك ، فهو — إذا — مثل ساقه الله فى القرآن الكريم . . . قال أحد الإخوان : أيكون الكلام الجاهلى قرآنا ؟ فقال له صاحبه : هذا مثل ، والمثل حكمة ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها ، فهو أحق الناس بها ، ولا يضير الحكمة أن يجريها الله على لسان حكيم جاهلى ، وقد ينطق الله بعض عباده بعبارات مما ادخرها لبعض أنبيائه ، ثم يأتى بها الوحى على ما نطقت به من قبل .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يورد الأمثال المروية فى حديثه مع الناس ، ولا يرى بذلك بأساً .

٢ — وقد اجتمعت ميزات المثل فى بعض عبارات القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجرت بذلك على الألسنة ، وزادت بها ثروة الأمثال وشرفت ، مثل قوله عز وجل : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » وقوله : « هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا » « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ » .

وقد أورد السيوطى فى «الإتقان» طائفة كثيرة من العبارات القرآنية التى جرت أمثالا بين الناس ، فليطلبها هناك من يشاء .

ومن العبارات النبوية التى صارت أمثالا قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » و « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى » ، ومعناه أن المسافر الذى يغذ السير بما فوق طاقة دابته ، قد يهلك دابته من العنف ، فينبت — ينقطع — فى الطريق ، فيخسر خسارتين ، فلا هو قطع المسافة ، ولا هو أبقى على دابته ؛ وقد قاله عليه الصلاة والسلام لرجل اجتهد فى العبادة حتى غارت عيناه .

٣ — ومن ضرب الأمثال ، أن تشبه أمراً دقيقاً خفياً ، أو به بعض الخفاء ، بأمر حسى مما يعهده الناس فى حياتهم اليومية ؛ وهذا النوع ورد بكثرة عظيمة فى القرآن الكريم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمما ورد فى القرآن قوله تعالى : « أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا »

هذه صورة من الصور التى تجرى تحت سمع الناس وبصرهم ... الماء ينزل فيسيل فى أودية الأرض ، فيجرى فى كل منها بقدر ، فيطفو على وجه السيل زبد كثير . . ولكن ما المراد بهذه الصورة ؟ . . . إن الله عز وجل لا يريد ظاهر معناها ، فإنه يذكر فى آخر الآية : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ » و « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ » . فما مضرب المثل هنا ؟

جاء فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة ، إلخ . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم أحق من نأخذ عنه تفسير القرآن العظيم ، وهو فى هذا الحديث يشبه ما نزل به الوحى من الهدى والعلم بالمطر ؛ ولنا على ضوء هذا التفسير النبوى أن نرى الآية القرآنية أو المثل القرآنى الذى نحن بصدده ، مؤلفاً من العناصر الأربعة الآتية :

١ — قد جاءنا من الله علم وهدى ، مثله كمثل الغيث المبارك .

٢ — والذين جاءهم هذا الهدى والعلم ، كالأرض التى ينزل عليها الغيث .

٣ — وهذا الهدى الإلهى يجرى فى بواطن أهله وأعماق قلوبهم ، كما يجرى الغيث فى أعماق الأرض وأوديتها . . . وقلوب الناس تقبل من هدى الله وعلمه بحسب طبيعتها من الضيق والسعة ، كما يقبل كل واد من أودية الأرض قدراً من الغيث ، يناسب سعته أو ضيقه .

٤ — وكل ما مضى ليس هو لب العبرة فى المثل ، إنما لب العبرة ماذكره الله سبحانه فى قوله : « فاحتمل السَّيْلُ زبداً رابياً » . . . والزبد رغوة لينة ، ذات فقاقيع تظهر على وجه الماء ، ثم لا تلبث أن تذهب جفاء ، تاركة تحتها الماء الصريح النافع . . . وذلك تمثيل لحال الحق والباطل ؛ فالباطل فى تفاهته وسرعة زواله كرغوة الزبد . . . والحق فى أصالة وجوده ، وعموم نفعه ، كالماء الذى لا حياة للوادى بدونه : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ »

هـذه عناصر المثل ، ولك أن تتوسع فى الشرح بما لا يخرج عن أصول هذه العناصر ، فتقول :

١ — إن الله عز وجـل شأنه لما أنزل من السماء ماء ، فجعل منه كل شىء حى فى عالم المادة ، اقتضت حكمته أن ينزل للأحياء الروحية مابه حياتها وغذاؤها . وكل إنسان ياأخى يتألف من جسم ظاهر وسر باطن ، فما كان من الحكمة ، واطراد نظام الخليقة ، أن ينزل الله للأجسام مابه تحيا وتغتذى ، ثم يهمل شأن الروح ، الذى هو كل شىء فى هذا الكائن الحى ؛ تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ! وهذا القول الذى تقبله البدائه ، وتسيغه العقول ، يبدد شبهات الملاحدة الذين ينكرون النبوات ، ولا يتصورون نزول الرسالات من السماء .

وهذا الذى أنزله الله للقلوب والأرواح ، مقابل الماء الذى أنزله للأبدان ، هو الوحى الذى أنزله على رسله من لدن آدم أبى البشر ، إلى خاتمهم وإمامهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا الوحى روح القلوب ، وسر حياتها ، فإذا لبسها ، وتسرب فيها ، حيت ، واستنارت ، وأشرقت ، وأدى لها مايؤدى الماء للأجسام . وقد أشار الله عز وجـل إلى ذلك بقوله الكريم : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ ، وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ » .

وقد يبدو فى هـذا الكلام كثير من الغموض ، فإنا نرى الماء بأعيننا ، ونعرف بالتجربة والمشاهدة أثره فى حياة الإنسان والحيوان والنبات . . . أما هذا الذى أنزله الله لحياة القلوب والأرواح فما هو ؟ . . . إننا لا نستطيع أن نراه بأعيننا ، ولا أن نلمسه بأيدينا ، وهذا مايعجزنا أن نتصور له صورة ما ، أو كيفية ما .

ونحن إذ نقرر هذا الغموض لا نحاول أن نعرض له بما يجلوه ، فليس ذلك فى طوق بشر ، وقد رأيت أن الله سبحانه أسماه روحا فى قوله : « وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا » . ولا سبيل إلى الكشف عن حقيقة الروح مرسلة فى أجسام الكائنات ، أو مضمرة فيما أنزل الله من وحى على رسوله صلى الله عليه وسلم . . . ولهـذا الغموض نفسه ضرب الله هـذا المثل ، وعرض ذلك السر علينا ممثلا فى صورة ماندركه بحواسنا من الأرض والمطر والنبات والثمر . .

ولو كانت حواسنا ومداركنا العادية تسمو إلى شىء من ذلك لأشار الله تعالى إليه ، أو لعرضه علينا عرضاً عادياً ، لا مجاز فى ألفاظه ولا تمثيل . . . .

ليس هذا السر يا أخى هو الكلام الذى تقرؤه فى المصحف الكريم ، وإنما هو الروح المستكن فى ذلك الكلام .

***

هذا مجمل ما يقال عن العنصر الأول من عناصر هذا المثل ، ويمكن أن يقال فى العنصر الثانى :

إن حياة النفوس فى هدى الله عز وجل ، ولا حياة لها بغيره ، كما أن حياة الأرض فيما أنزل الله لها من الماء ، ومحال أن تجد الأرض ريا تحيا به فى غير هذا الماء . . . لا تجده فى ذهب ، ولا فى فضة ، ولا هواء ، ولا نار ، ولا غير ذلك ، إنما تجده فى الماء فقط . . . فالذين يطلبون أن تحيا نفوسهم بغير ما أنزل الله ، من مدنيات زائفة ، أو علوم خالية من الروح ، أو يظنونها تحيا بكثرة ما يجمعون من عرض الدنيا ومتاعها . إنما يضربون فى الوهم ، بل يخبطون فى أودية الموت ؛ إذ لا موت إلا فيما يطلبون ، ولا حياة إلا فيما يعرضون عنه : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وسوف يظل هؤلاء التعساء أمواتا غير أحياء ، ما داموا بعيدين عن مصدر الحياة الحق ، كما تظل الأرض الميتة ميتة ، إلى أن تمسها رحمة الله بالغيث المبارك فتهتز وتربو ، ويشيع فى ظاهرها وباطنها بركات الحياة وأسرارها .

والله عز وجل ينادينا نحن الغافلين : « اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » ؛ وما يقصد الله أرض القلوب والنفوس ، فإنه عز وجل يذكر قبل ذلك مباشرة : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ؛ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . . . » إلخ .

ونستطيع أن نمضى فى الاستشهاد لهذا المعنى بالكثير من آيات القرآن الكريم

التى وردت فى إحياء الأرض بالمطر بعد موتها ، وهى آيات مسبوقة أو ملحوقة بما يمس حياة النفوس ، وزكاة القلوب ، ولكننا نخشى الإطالة بهذا الاستشهاد .

وليست هذه الحياة طاقة حيوانية ، تسرى فى الأعضاء والأوصال ، فيتحرك بها المرء كما يتحرك كل حيوان ! . . وإنما الحياة التى نعنيها طاقة روحية ، تسرى إلى كائن روحى فى سرائرنا غير منظور .

وهذه الطاقة لا تتعلق بالطعام والشراب تعلق الطاقة الحيوانية ، وإنما هى سيالات خفية مستكنة فيما أنزل الله من وحى ورسالة ؛ فإذا سرى شىء من تلك السيالات العلوية إلى هذا الكائن اهتز وخفق ، وانتعش ، وحلت به الحيـاة . . . وإلا فهو حطام هامد لا حياة فيه ، مهما بدا على هيئة صاحبه من نضارة وقوة .

وهنا نحب أن نتساءل : ما علامة تلك الحياة إذا سرت فى هذا الكائن الروحى ؟ . إن للماء حين يختلط بالأرض ويمشى فى أديمها سر الحياة ، أثراً مشاهداً ملموسا نعرفه فى الزرع والزهر والثمر ؛ أفما لهذه الحياة التى نتحدث عنها من علامة تعرف بها ؟ .

نعم لها علامات وردت فى القرآن الكريم ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى مجموعة كريمة من المشاعر والوجدانات ، لم تكن له من قبل ، وإنا نسوق إليك طرفاً قليلا منها ، على سبيل المثال لا الحصر :

١ — أن يشعر بغبطة ورضى عن حظه فى الحيـاة . . . فليس للكم القليل أو الكثير حساب فى غبطته ورضاه ، إنما هو سر نبع فى وجدانه ، من عالم غير عالم الكميات التى يحصرها الحيز ، أو يحصيها العد ، أو يقدرها الكيل والميزان : فهو سعيد مغتبط لغير سبب من أسبابنا المنظورة .

٢ — أن يشعر بيسر ما يلقى عليه من أعباء الحياة ، وخفة ما يزاول من عمل : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا » . لأنه لا يعمل فى تلك الأعباء بطاقته الحيوانية وحدها ، بل بمدد من الطاقة الروحية التى حلت فى كيانه كذلك . . .

٣ — أن تتلاشى فى نظره الفوارق الاجتماعية ، الناشئة من تفاوت الناس فى المال ، والمنصب ، والمهنة ، والمولد ، ونحوها ؛ وتتراءى أقدار الجميع له متكافئة ، فى وحدة تسوى بينهم فى الحقوق والواجبات الاجتماعية . . .

٤ — يحل فى نفسه شعور ببغض الرذيلة ، فى أى صورة من صورها ، وازدراء أهلها أيًّا كانوا ، وحب الفضيلة فى كل صورها وألوانها ، والارتياح إلى أهلها حيثما وجدوا .

٥ — لكل إنسان نفس تجيش بمختلف الرغبات ، والأهواء ، والشهوات ،

نحو المآكل ، والملابس ، والمشارب ، وفخامة المنازل ، وفخامة الفراش والأثاث ، وألوان الترف والرواء ، وعزة المناصب ، والجاه والمال ، والأبناء والزوجات والعشيرة ونحوها ؛ وإليه وردت الإشارة فى القرآن الكريم بقوله سبحانه : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » . . . هذه الميول والأهواء ، وتلك الرغبات والشهوات ، ماذا يكون شعور المرء نحوها ، إذا حل فيه سر الحياة التى نتحدث عنها ؟ . . . إنه يشعر نحوها بحالة تشبه « الشبع » ؛ فإذا التمس حظه من طعام أو شراب التمسه فى غير نهم ولا شره ، التمسه وهو يبغى لبدنه ما يقيمه ويقيته ، دون سعى إلى لذة ، أو قصد إلى شهوة ؛ وإذا لبس لبس ما حضر وما تيسر أداء لحق البدن ، دون تأثر بما تطمح إليه نفسه ، من تلفت الناس إلى زينته ؛ وإذا عرض له لون من ألوان الشهوات التى أشار إليها الله سبحانه فى الآية الكريمة أو نحوها ، وجدت وجدانه مشغولا بحالة تشبه « الشبع » ؛ سمها الزهد ، أو سمها عزوف الهمة عنه ، أو سمها ما شئت ، بحيث لا يغيب عن ذهنك أنها حالة تشبه الشبع تعترى الوجدان ؛ لأن واردات الحياة التى حلت فى كيانه الروحى ، أتت له بألوان من الأذواق ، والطرب ، والنعيم ، واللذة ، انطفأت إلى جانبها ورخصت كل متع الحياة الحيوانية ، وأهوائها ورغباتها الصغيرة ، الوضيعة ، وأصبح الوجدان مشغولا بالوارد العميق الجميل ، الذى لا ينقطع له مدد من عالم الخفاء ؛ وفى هذا الوارد أو نحوه كان يقول الإمام ابن تيمية : إنه ليمر بى أوقات يرقص فيها القلب من الطرب ، فأقول لو أن أهل الجنة فى مثل ما أنا فيه ، إنهم إذاً لفى عيش طيب .

٦ — تحدثنا إليك بخمسة من هذه الواردات التى يجدها المرء فى نفسه حين يحل سر الحياة الإلهية فى كيانه الروحى ؛ ونستطيع أن نقول إن من أظهر علامات تلك الحياة أن ترى صاحبها فى سيرته العامة والخاصة ، مفسراً لهذه المشاعر تفسيراً عمليا واقعيا ، يخرجها من حيز السر المختلج فى الضمير ، إلى حيز الأوضاع المقررة ، والأمور المشاهدة ، والمعاملات الجارية ؛ تفسيراً يلبسها حللا من الواقع ، ويرسلها مثلا عليا ذات كيان يعترك فى الحياة ، ويترك آثاره العميقة فى مختلف النفوس ؛ وهو فى كل ذلك لا ينافق ولا يرائى ، أو لا يستطيع أن ينافق ولا يرائى ، لأنه منفعل بسر وجدانى يسخره وينهضه ، فلا يستطيع معه إلا أن ينهض وأن يعمل ، راضيا به كل الرضى سعيدا به غاية السعادة .

ليست الحياة على هذا صراعا فى الشر يجرى بين شياطين البشر ؛ نعم وليست شيئاً يحرك تلك التماثيل الآدمية الفارغة هنا وهناك ، فيصدم بعضها بعضا أو يقع عليه ويحطمه ؛ وليست هى تلك الجثث التافهة التى تلبس الحرير والصوف ، وتقذف فى أفواهها الطعام والشراب ؛ إنما الحياة حياة النفوس النامية ، والمشاعر الكريمة التى تربو بإذن الله ، أو هى حياة هذا الكائن الخفى الذى يحيا ، وينمو ، ويعظم فى خفايا النفوس ، دون أن تراه العيون ؛ وهذا الكائن الحى هو كل شىء فى حياة الأفراد والأمم ، فهو مصدر العلم فى الإنسان ، ومصدر الحياة والقوة ، ومصدر الكرامة والحرية والعزة ، ومصدر كل خلق نبيل كريم ؛ ولا حياة لهذا الكائن إلا بما أنزل الله من الهدى والعلم .

هذا الكائن الحى الباطنى المبارك ، هو الزرع الطيب الذى ينبت فى أرض بشريتنا ، ويسقيه ما أنزل الله من أسرار الحياة فى القرآن الكريم ؛ وهذا الكائن الحى ، هو الذى نبت قديماً برعاية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بشرية الصحابة ، حين سقيت وهى ميتة بوحى الله العظيم ، فاهتزت وربت وأنبتت هذا الزرع الباطنى ، وما زال يكبر ويغلظ ، ويشتد ، ويعلو ، حتى قوى أمره ، وطاب أكله وثمره ، فوصفهم الله عز وجل :

« كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » .

هذه هى الحياة — يا أخى — لا حياة أوروبا وأمريكا التى يشتهيها الجهلة فى كل مكان . . .

إن هذه البلاد الطاغية الكافرة ، ليس فيها فى الحقيقة أناس ، إنما فيها مردة من الشياطين ، يسكنون هذه الأجواف الفارغة من أجواف الآدميين ، فالصورة صورة إنسان ، والجوف يقيم فيه شيطان يحركه بالشر وللشر ، ويسعى به جنديا للفساد والخراب فى كل واد ؛ ألا تراهم مخربين مدمرين ، لا يبنون إلا ليهدموا ، ولا يخترعون إلا ليهلكوا ، ولا يستعدون إلا ليبطشوا بالضعفاء ، ولا يستغنون إلا ليطغوا فى الأرض ، ويكثروا فيها الفساد وليس هذا من الحياة فى شىء ؟

***

ويمكن أن يقال فى العنصر الثالث : إن الأودية تختلف سعة وضيقا ، فأعظمها شأنا أكثرها ماء ، وأبعدها عمقاً واتساعا ، وأصلحها لإمداد الأرض بالماء ؛ وثمرة ذلك كثرة الثمار والأشجار على جانبيه ، وامتداد الحقول والبساتين من حوله ، وأن تهوى إليه أفئدة الناس .

وكذلك الناس تتفاوت قلوبهم فى تقبل أمر الله ، فمنهم من يمتلىء ويتضلع ويتقبل الكثير الغزير الذى يغمر آفاق نفسه الرحيبة ، ومنهم من يقبل دون ذلك ، أولا يتسع لما يتسع الأول . . . وعلى هذا تتفاوت أقدار الناس ، فأعلاهم قدراً إنما هو أكثرهم إحاطة ووعياً لما أنزل الله ، وأعظمهم إفاضة على العباد من نفحات نفسه وحسه ، وأقدرهم على إشباعهم بروح الله . . . وثمرة ذلك أن تينع شجرة التقوى فى القلب ، وتستفيض دائرة الهدى والخير من حوله ، وتهوى أفئدة الناس إلى منهاجه والاقتداء به .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرح بكثرة أتباعه ، ويفخر بهم ، ويحث على أن يتكاثروا .

هذا ، ولكل واد طاقة يتقبل الماء بقدرها ، فإذا أمد بما فوق طاقته كان طغياناً ، وتخريباً ، وتدميراً ، وإتلافا .

وكذلك لكل نفس طاقة تقف عندها فى تقبل هدى الله وعلمه ، فإذا أراد المرء أن يحمل فوق طاقته ، تمزق بالجنون ، أو الهزال ، أو المرض ، أو الشك : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

فإذا أريد أن يحمل الوادى أكثر مما يجرى فيه ، فلا يكون ذلك إلا بالأسلوب الطبيعى المأمون ، فيقوم أصحابه بعملية حفر وتطهير ، وتعميق وتوسيع ؛ وكذلك أودية القلوب لا تتسع ولا تعمق ، إلا إذا فعل لها صاحبها ذلك ، صاحبها لا غيره ، وما صاحبها إلا الله عز وجل ، فقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أزاغها وإن شاء أقامها ، « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . . . »

والوادى قبل أن ينحدر إليه السيل ، يكون جافاً ، به كثير مما حملت إليه الرياح من التراب والأرواث والقش ، وقطع الخلقان والجلد ، وما شابه ذلك ، فإذا جاء السيل كسح ذلك كله ، وطهر جوف الوادى منه ، ورفعه إلى وجه الماء ليطرده ، ويقذف به إلى الخارج ؛ وكذلك هدى الله إذا جرى فى قلوب العباد طهرها ، وأزال ما فيها من أكدار الطبائع ودنسها ، فلا يبقى شىء منها فى قرارات القلوب ، بل تطفو متخذة سبيلها إلى الزوال السريع . .

نعم سيحل فى القلوب وجدان جديد مبارك ، فيه كثير من الأسف والندم على ما مضى من حياة الإثم والغفلة ، والأسف والندم من أكبر وسائل التطهير والإقلاع عن الذنوب . . وعلى صفحة هذا الوجدان تطفو صور ما كان من صغائر وكبائر ،

كما يطفو غثاء السيل من أرواث وقش وخلقان . . ولا تزال تلك الصورة البشعة تثير اشمئزاز صاحبها بمرآها القذر ، وتضاعف له من حمد الله على نعمة الوارد الجديد ، حتى تغيب عن خياله ، ويتخلص منها وجدانه ، كما يتخلص السيل من غثائه الذى يطفو فوقه إلى حين . . .

وفى هذا إشارة دقيقة حكيمة إلى حظوظ الشيطان فى النفوس البشرية ، قبل أن يجرى فيها وحى الله فيرويها ويطهرها ، فإن بكل نفس حظاً خبيثاً للشيطان ، تنبعث منه الظلمة والشرور ؛ والنفوس المحرومة يزيد بها حظ الشيطان وأكداره ، ويكثر فيها ما تلقى إليه الشهوات والأهواء الباطلة من رجس ودنس ، ويرين عليها ما تكسب من ذنوب وآثام ، فإذا أرسل عليها فيض من رحمة الله عز وجل أرواها وطهرها ، وأعاد عليها نعيمها وبهجتها . . . وقد كانت نفوس صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك فى الجاهلية . كانت أودية فيها كثير أو قليل من جهل الجاهلية وأوزارها ، فلما هبط عليها وحى الله صارت أودية الهدى ، وأوعية العلم والحكمة .

تلك سنة الله لا محيد عنها ؛ فى كل نفس حظ للشيطان قليل أو كثير ، لا يطهر منه الوادى إلا إذا جرى فيه الهدى والعلم الإلهى . وحسبك أن تجد شاهدا لهذا فى تاريخ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، بما تقرأ من حاله فى الجاهلية والإسلام . . . بل إنا نقرأ فى كتب السيرة والحديث أن الله عز وجل طهر قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من حظوظ الشيطان ، بما أرسل من الملائكة الذين شقوا قلبه الشريف ، واستخرجوا منه المضغ الخبيثة ، وملؤوه إيمانا وحكمة أكثر من مرة ، قبل النبوة وبعدها ، وفى طفولته ورجولته ، فامتاز صلى الله عليه وسلم بأن الله طهر واديه الطاهر ، وبالغ فى تطهيره ، ليجرى وحى الرسالة الطهور فى الوادى المبارك الطهور ، ويلتقى ما نزل به جبريل من النور بما ينبثق فى جنبات الوادى المستنير من النور « نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيم » .

وهذه الإشارة الدقيقة تخرج منها معارف قيمة من معارف علم النفس ، وطبيعة تكوينها واستعدادها لتقبل الخير والشر ، وهى مباحث نفيسة ، لسنا بصدد بيانها . . ونستنبط من هذه الإشارة أيضا منافع جليلة للذين يرجون فضل الله ، ولا يقنطون من الإصلاح والتوبة ؛ ففى كتاب الله ما يشفى صدورهم ، ويطهر أفئدتهم ؛ فعليهم بإدامة النظر فيه ، والارتواء من معانيه .

زبد وباطل

وهذا الزبد الذى يحتمله السيل ما هو ؟ وما موقعه فى هذا المثل ؟ أما الزبد فهو رغوة لينة ذات فقاقيع تظهر على وجه الماء حين يتخلل مسام الأرض ، ويتسرب فى ذراتها وشقوقها ، أو حين يمخضه الجريان بين جانبي الوادى ، أو حين يضطرب لسبب من الأسباب .. ولا يلبث أن تنشق فقاقيعه ، وتذهب رغوته إلى لاشىء .

وأما موقعه فى هذا المثل فهو صورة دقيقة عرضها الله سبحانه ، ليمثل لنا موقع الباطل فى هذا الوجود إلى جانب الحق الأصيل : « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ : فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ » .

وقد علمنا مما مضى أن الله ضرب الماء مثلا للحق ، وشبهه به . . . ومثل قلوب الناس أو طبيعتهم البشرية حين يسرى فيها نور الحق والهدى ، والأودية حين ينطلق فيها السيل . . . وهو يتم عناصر المثل بهذا الجزء الأخير الذى يشبه فيه الباطل برغوة الزبد الهش الحائر فوق الماء .

الزبد وعناصر تكوينه

وهنا نتساءل : لقد عرفنا أن الزبد رغوة طارئة ، ولم نعرف بعد من أين جاء ، وما أصله ؟

تساؤل يكشف لك تفاهة الباطل وهوان شأنه .

ليس الزبد عنصرا من عناصر الماء ، ولا هو يمت إلى طبيعته بصلة ، وكل شأنه أنه يوجد — إن وجد — على سطحه ! فكيف يتكون — إذاً — وما أصله ؟ ... هل هو شىء أصيل يمت إلى عناصر الأرض بصلة ؟

كل ما يمكن قوله فى هذا المقام أنه ظاهرة عارضة تتألف على وجه الماء من غازات منتفخة ، وهباء لايؤبه له ، يجتمع بعضه إلى بعض ، ويؤلف بينه ليونة يستعيرها من الماء ! أفترى فى ذلك شيئاً له وجود يعتد به ؟

(١) ليونة أو طراوة مستعارة من الماء ، وليست أصيلة فيه ، لا تلبث أن تتبخر فيتبخر معها كل شأن له ، فإذا هو لا شىء ! وكذلك شأن الباطل يحاول أن يستر نفسه بطلاء مستعار من الحق ، يحسب به أنه على شىء ، ولكنك إذا تمثلت أن فقاعة

الزبد حين تستعير من ليونة الماء إنما تستعير لا شيء ، أدركت مبلغ ما يستعير الباطل من الحق ليستر به نفسه أمام الناس ، ويدعم به وجوده ، وأدركت تبعاً لذلك هو أن الباطل فى هذا الوجود ، وضيعته التى لا يماثلها إلا تفاهة الفقاعة المتطايرة الضائعة .

(٢) وهباء لا يؤبه له ، يجتمع بعضه إلى بعض ، ويؤلف بينه ليونة يستعيرها من المـاء . . . كلام لم نجد سواه لدينا فى التعبير عن حقيقة هذه الظاهرة الملفقة من لاشىء ، ونخشى معه أن يظن ظان أن هذا الهباء الذى اجتمع بعضه إلى بعض صار شيئاً ؛ فليرجع القارىء الكريم إلى حفنة كبيرة من رغوة هذا الزبد — لا إلى فقاعة واحـدة — ثم لينظر ماذا يبقى فى كفه من الهباء المجتمع ، حين تتطاير عنه ليونة المـاء ، فما يجده فى كفه من ذلك فهو العناصر التى قام بهـا وجود هـذا اللاشىء ! وليقس على هذا المثال الهباء ، أو العناصر التى تؤلف كيان الباطل فى هذا الوجود .

الباطل فى نظر أهل الحقائق

وحين ترتسم هـذه الصور فى أذهاننا ، لانستطيع معها أن نتصور للباطل من فائدة أبداً ، ولا من قوة تمسك له وجوده ، إلا بمقدار ما نتصـور من ذلك فى زبد المـاء .

فإذا تقررت لديك هذه الحقائق ، وهى من اللباب الذى لا يتطرق إليه الشك ، فقد استقر فى ذهنك وفى بصيرتك نورقوى واضح ، تميز به حقائق الأشياء ، ولا تنخدع بظاهرة من الظواهر ، وسهل على أهل هذا النور أن يدركوا أن منازلة الباطل ومكافحته فى ميدان من الميادين ، لاتكلفهم من الجهد أكثر مما يتكلفون فى إزالة جيش من الزبد على وجه المـاء ! ! ولا تسألنى يا أخى كيف ذلك ، ولـكن سل نفسك أين أنت من هـذا النور الذى ندرك به حقائق الأشياء ، وماذا حققت فى نفسك من شرائط أهله ، فإنك حينئذ تغنينى عن الإجابة ، وتدرك أن بقاء هذا الزبد الرابى ، أو الباطل الـكثيف ، مرهون بالأيدى التى يقذف الله بها عليه فتدمغه ؛ فمتى وجدت هذه الأيدى ، واستعلنت أنوار الحق فى بصائرها ؛ كان هوان الباطل عليها كهوان الزبد على من يلعب به بعصاه ، أو يطؤه بقدمه ، أو ينفخـه بفمه ، أو يلاشيه بكفه .

وعلى ضوء هـذا المعنى نجد أنساً كبيراً حين نقرأ فى كتاب الله سبحانه : « لا يغرَّنَّك تقلّبُ الَّذين كفروا فى البلاد ، متاعٌ قليلٌ ، ثمَّ مأواهم جهنَّمُ وبئسَ المهادُ » فما ينقلبون إليه من سوء المصير فى القيامة ، فهو إلى الله وحده ، وأما سوء مصيرهم فى الدنيا ، فهو ما يغرينا به سبحانه بقوله : « لا يغرَّنَّكَ تقلّبُ الَّذينَ كفروا فى البلادِ » فإن ما تراه من بسطة السلطان ، وكثرة المستعمرات ، وانتشار مناطق النفوذ ، إن هو إلا زبد لا يضخم إلا فى أفئدة الأغرار من أطفال الرجال ، أو الرجال الأطفال ؛ فدونك هـذه الرغوة ، فإنها لا تثبت لشىء ، وهو إغراء حلو مؤنس ، لا يعترف معه المؤمن الحق بعقبات ، « فلمَّا جاوزهُ هوَ والَّذينَ آمنوا معهُ قالوا : لا طاقةَ لنا اليومَ بجالوتَ وجنودِهِ ، قالَ الَّذينَ يظنّونَ أنَّهم ملاقوا اللهِ كمْ منْ فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ ! واللهُ معَ الصَّابرينْ » . . وليس من شأننا فى هـذا المقام أن نمضى فى الاستشهاد بكل ما ورد فى القرآن الكريم عن التهوين من شأن الباطل ، من حيث هو قوة وجند ، أو متعة وزينة ، أو سيرة وعمل ؛ فبحسبك أن تستحضر دائماً فى ذهنك ذلك التصوير القوى الجلى الماثل فى قوله سبحانه : « فاحتملَ السَّيلُ زبدًا رابياً » فإنه كفيل أن يجعل من كل آية إطاراً يتبدى فيه كل ما للباطل من معالم التفاهة .

أهواء الباطل وغازات الزبد

وبعد ، فهل تكلمنا عن حقيقة الزبد ؟

إننا يا أخى لم نفرغ بعد من ذلك ، وإن ما بقى منه لهو أهم من كل ما مضى ! ! بقيت تلك الغازات التى لولاها ما ربا الزبد ، ولا تجمع من الهباء ذلك اللاشىء ؛ فما هذه الغازات ؟

يقول العلم إنها غازات ، تكونت من عفونة أجسام تحللت ، وفسدت ببعض عوامل التحلل والفساد .

تبارك شأن الله فى دقة التحليل ، وروعة التصوير ! !

نعم فهذه الغازات العفنة المتحللة ، يقابلها فى المثل أهواء المرء وشهواته ونزواته الرخيصة ، فإذا كانت الغازات هى العامل الأساسى لتكوين الزبد وما إليه من يعاليل ونفاخات ، فإن أهواء المرء وشهواته ، وتعلقها بهباء من حطام الحياة الدنيا ، هى العامل الأساسى لوجود كل باطل فى هذه الأرض .

ولكن أى شىء فى الإنسان ضربه العفن ، وأدركه التغير والفساد ، حتى صعدت منه تلك الغازات ، أو تلك الأهواء والشهوات الفاسدة ؟

نعم يا أخى ، لاشىء فى الإنسان أدركه العفن ، أعنى أنه لم يطرأ عليه عفن جديد ، فقد جاء بالعفن فى جبلته الأولى مذ خلقه الله من ماء مهين ، وطين منتن ، وحمأ مسنون متغير الرائحة . فإذا رأيت فى أهواء الناس تفاهة وضعة ، فمرجعها خسة الطين ، وتفاهة الماء المهين . . . وإذا رأيت فيها ماهو قذر يزكم الأنوف برائحته الكريهة ، فمرده إلى الأصل المكنون فى الحمأ المسنون . . . وهل خلقنا الله سبحانه ، من هذه الطينة التى تحمل المهانة والنتن ، إلا ليكون لذلك أثره فيما يتمرغ فيه بعض الناس من نقص ، وضعة ، وهوان وإثم ، وضلالة ؟

ولا شك أن من رحمة الله أن الماء المتجدد الطهور فى الوادى يأتى على مضار ذلك العفن فيخففها ، أو يزيلها كأن لم تكن ، فلا تكون مصدر إيذاء لأحد ، لا برائحتها الكريهة ، ولا بجراثيمها القاتلة . . . هـذا شأن الماء فى الوادى ، فأى شىء ذخره الله لتطهير أودية الناس من عفن بشريتهم ، وما تنزى به طباعهم من أهواء فاسدة وشهوات ؟

وأحب قبل الإجابة عن ذلك أن نلاحظ أننا فى كل ما كتبنا لم نخرج عن عناصر المثل الذى ضربه الله قيد شعرة ؛ فنحن ما فتئنا — مذ بدأنا الكلام عنه — نتناول الأشباه والنظائر ، ونقيس بعضها على بعض ، مستهدين ما أودع الله هـذا التصوير المعجز من دقة وإحكام ، ولهذا لانجد مشقة فى الإجابة عما تساءلنا عنه الآن ، فالله سبحانه منذ خلقنا من طينة زهيدة ومنتنة ، تداركنا بفيض طاهر من روحه القدسية ، نفخه فى أوديتنا ، وأقره فى سرائرنا ، وجعل إليه حياة مافينا من موات ، وزكاة ما لدينا من دنس ، وطهر مافينا من عفن ؛ ولأمر ما صار هذا الكائن الطينى أهلا لأن تسجد له الملائكة فى الأزل البعيد ! .

على أن الله سبحانه لم يكتف بإقرار تلك الفطرة النورانية فى سرائر الناس ، بل أمدها على مدى العصور والأجيال بمدد من نوره وهداه ، فيما أنزل على أنبيائه ورسله ،

وهو الذى يشير إليه المثل بقوله : « أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها » وهو الذى يؤدى لأوديتنا ما يؤديه المـاء للوادى من تطهير ووقاية .

خصائص النقص فى طينة البشر

ولقد عرفنا أن الزبد رغوة ، أو مظهر تافه لانفع منه ، ولا قوة له ، ولا استقرار ولا بقاء . . . وعرفنا كذلك سبب هذه الظاهرة ، ولا يعنينا هنا أن نذكر نوع الغازات التى يتألف منها الزبد ، ولا كيفية التحلل والعفن الذى يسببها ، وإنما يعنينا مرامى المثل الكريم العميق ، يعنينا ما ترمز إليه هذه الغازات من أهوائنا وشهواتنا ، والعفن الذى تتصاعد منه ! . . فحقيقة هذا العفن أنه الأوصاف التى تصف لنا بدقة طبيعة الطينة التى خلقت منها بشريتنا .

ونستطيع أن نتجنب الإمعان فى الفلسفة والفروض ونواجه الواقع فنقول : إنها طينة ميتة ، تحتاج إلى المـاء لكى تدب فيها الحياة ، أو إنها بشرية سلبية محض ، ليس فيها صفة واحدة من صفات الإيجاب والفاعلية ، فهى ضعيفة لا قوة لها . . . ذليلة لاعزة لها . . . فقيرة لاغنى لها . . . خسيسة لاقدر لها ولا نفاسة . . . جاهلة لاعلم لها . . . خالية خاوية من كل فضل لا امتلاء لها بشىء ... فماذا عسى أن تكون طبيعة هذه الطينة ؟ أو هـذه الجبلة التى اشتق منها الإنسان ، إلا أن تكون طبيعة سلبية لا تنطوى على شىء البتة من معانى الإيجاب وخصائصه ؟

الموت المعنوى وحقيقته

هذا الخلو أو هذا الافتقار العادم ، هو طبيعة هذه الطينة ؛ وهو المراد بالموت المعنوى حين يرد فى القرآن الكريم . . . وليس من ذات تنزهت عن كل صفات السلب، وقامت بها كل صفات الإيجاب ، إلا ذات الله سبحانه . وإلى هذا المعنى الدقيق يشير عز شأنه فى القرآن بقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ : أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ » ... فقراء من حيث كل شىء ؛ من حيث العلم ، والقوة ، والعزة ، وأسباب النباهة والرفعة ، إلى آخر ما أثنى به سبحانه على ذاته ، وبث فى فطرنا سر التطلع إليه والشوق إلى تطلبه .

أشواقنا إلى الكمال ، وكيف نرتد أهواء مهلكة

وهذا كلام يرفع لبصائرنا لونا من البحث فى صفات الله لسنا بصدده ؛ وإنما نحن بصدد ذلك السلب المحض الذى جعل طبيعة لنا ؛ ذلك السلب الذى يترك فى طبيعة المرء شعوراً

فطرياً عميقاً ، بالنقص والخلو والافتقار . . . شعوراً قد لا تدركه حواسه الظاهرة السطحية ، ولكنه فى عقله الباطن أشد ما يكون انفعالا ؛ فعلى غير وعى من المرء يجد نفسه منهوماً بأمور هى التى نسميها الأهواء والشهوات .

فقد ينهم — مثلا — بجمع المال جمعاً لاينظر فيه إلى سد ضروراته وحاجاته ، ولا ينظر فيه إلى أنه عدة للحق ، أو قوة على العدو ؛ وإنما هو نهم ووله عميق ؛ أو صدى الهتاف الفطرى فى الطينة التى لا تملك غير الافتقار ... فالمسكين لا يجمع لسد ضرورة ، وإنما ليواجه نداء ذلك الخلو الذى تستغيث منه جبلته ... ولكن هيهات أن يقوم المال بسد مثقال ذرة من ذلك ، إذ لايملكه إلا الله سبحانه ، فصفاته الموجبة وحدها هى رى هذا الظمأ ، وشبع هذا الجوع ، وغنى هذا الفقر ، وجبر هذا النقص ، وحياة هذا الموت ؛ ولذا نرى المسكين فى جمعه لايقف عند حد ، ولا يشعر بشبع لأنه يرتوى من غير مصدر ، كالطفل الجائع الذى لم يهتد إلى ثدى أمه فالتقم إصبعه ؛ فما عسى أن يذهب ذلك من ظمئه وجوعه ؟

قد ينهم بالمال ، وقد ينهم بمطالب الترف وأنواع الزينة . . . أو يؤخذ بحب الثناء وعلو الذكر . . . أو يذهب مع الأنانية والرغبة فى الاستئثار . . . أو يمضى مع نزعة الغلبة والقهر والتفوق على الأقران ... أو ينطلق بجهده وراء غير ذلك من النزعات التى يسف فيها ، أو يعلو بغير الحق . ... وقد يتورط أثناء هذا فى كثير من الأخطاء والمظالم والآثام . . . وقد يجنى على نفسه وعلى غيره من عباد الله شر الجنايات ، وقد تضيق جناياته وقد تتسع تبعا لما له من سيطرة ونفوذ فى هذه الأرض . . . وقد يكون المعتدى فرداً وقد يكون أمة .. وقد تكون الجرائم مادية ظاهرة ، وقد تكون معنوية باطنة كذلة الجبن ، وخسة الملق والرياء ، وغرور السيادة أو وهم الألوهية .. أو قل على سبيل الإجمال : يتورط فى أخطاء الشراهة ، وصغائر التفاهة ؛ شراهة قارون وما وراءها من جمع وكنز وشح . . . وتفاهة فرعون إذ لم يكفه أن يقول للملأ أنا ربكم الأعلى ، فراح يطلب أسباب السماء ليبسط عليه أوهام ألوهيته المضحكة .

ينهم المرء بكل هذا أو بعضه ، مدفوعا ... بماذا ؟ ..... هو لايدرى لماذا ، لكنه يجد فيه لذة ، ومتعة ، وهوى ، وشهوة ، وحسبه ذلك ... أما لماذا هو منبعث ، أو ماهى الحوافز التى تبعثه وتسخره ، فمرده إلى طبيعة السلب المحض ، أو الافتقار العاجز المحروم ، الذى ينشد الرفعة لخسته ، والقدرة لعجزه ، والكمال لنقصه ، والعلم لجهله ، والامتلاء لخلوه ، والجدة لفقره ؛ فكان له صوت استغاثة أزلى يدوى فى

أعماق الوعى الباطن ، لاتسمعه أذن صاحبه ولا يلتفت إليه ذهنه ... إنه استغاثة كائنه الروحى الذى يبسط كفيه إلى ماء الحياة على قرب منه فلا يبلغه ؛ ولكن صاحبنا بدلا من أن يواجه هذه اللهفة بمصادر الرى الحق ، واجهها بما لاغناء فيه .

فحقيقة الأهواء والشهوات ، أنها أحلام الجبلة المحرومة تطفو إلى وعى الطفل النائم المسكين ، فيقبل على إصبعه لايدرى حقيقة مايفعل ، فإذا كان بين العملين عمل الطفل الصغير ، وعمل الطفل الكبير — مشابهة فى ذهاب كل منهما إلى غير نتيجة وصيرورته إلى الهلاك فإن بينهما فرقا شاسعا يعطفك على ذلك النائم الصغير الذى لا إرادة له فيما يفعل ، ويستثير مقتك لذلك الذى يعرض باختياره عن الخير لنفسه كأنما يمقت أن تنال منه شيئاً : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ » .

حيرة أمام العلم الزاخر

يا أخى ، إن معركة الحق والباطل ، هى معركة الوجود كله ، وإن مركز من يعرض لشرح ألوان هذا العراك ، لمركز كثير المزالق والمضايق ، والحرج والمشقة ؛ ولذا أرانى فى حيرة بالغة وعجز شديد ، ماذا آخذ من معانى هذا المثل الخطير ، وماذا أدع ؟ إننى أمام أعماق مخوفة لا أرى لها قرارا ، فهى تمتد بأسرار الحق والباطل حتى تجاوز أسوار عالمنا هذا المادى إلى عالم الآخرة ؛ وليس لنا بعد ما قدمناه إلا أن نلوذ بآيات الكتاب المبين ، نقف عند مدلول ألفاظها ، أو نطمح بالنظر إلى مرامى إشاراتها ، كلما حدثتنا عن الحق والباطل ، فإن ما قدمناه من نور هذا المثل كاف لأن ندرك على ضوئه أهداف كل آية .

لقد تحدث القرآن عن الهوى الذى يورد صاحبه موارد الهلاك ، وتحدث عن الجهود الضائعة التى يحسبها الظمآن ماء ، وتحدث عن الأخسرين أعمالا ، وتحدث عن الذين يعذبون بأموالهم وأولادهم فى الحياة الدنيا . . وحماقة أهل الهوى ، وحصافة أولى الألباب . . . وذلك الذى كان ميتا فأحياه ، وأولئك الموتى الذين لا يسمعون . . والغيث الذى أعجب الكفار نباته ، والزرع الذى أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع . . تحدث عن ذلك كله ، وعن غيره مما يصرفنا المقام عن الاسترسال إليه ، وإنى لأحسب أن هذا المثل الكريم عدسة مباركة ، تكشف لأبصارنا وبصائرنا كثيرا من الحقائق ، إذا نحن نظرنا من خلالها إلى كل آية .

***

وبعد فتفاهة الباطل والزبد تلتقيان فى ثلاث :

الأولى : أن كلا منهما ظاهرة عارضة ضائعة الأصل والنسبة ، ليس لإحداهما ما يجعلها ذات وجود أصيل يعتد به .

الثانية : أن كلا منهما شىء لا نفع له ، ولا ثمرة ينتهى إليها .

الثالثة : أن كلا منهما سريع التحول والزوال ، لا استقرار له ولا دوام .

وليس فى وسع أحد أن يرسم فى ذهنك أصالة الحق وتفاهة الباطل ، كما رسم لك القرآن وصور . وليس فى وسع أحد كذلك أن يبعثك على احترام الحق وتمثيل جلالته ، إلى جانب الاستخفاف بالباطل وتصور ضآلته ، كما فعل هذا التصوير الربانى المعجز ! فلا تطمع أن أمدك أو يمدك غيرى بشىء فى ذلك ؛ فقد وصف الناس الباطل قديما وحديثا ، وفيهم العالم والجاهل ، والفيلسوف وغير الفيلسوف ، فما منهم أحد ألم بفلسفته ، وحقيقته ، فى يسر وإيجاز ووضوح ، كما ألم الحق تبارك وتعالى فى كلامه الحكيم .

الهفوات من لوازم الطبع البشرى

وكل ما قدمناه خاص بالزبد الرابى ، والباطل الكثيف الذى يطفو فى أودية قلوب الناس ، ومحيطات دنياهم الواقعية ، فيحجب عنهم الحق ، ويزين لهم ما هم عليه ، وذلك شأن كثير من الناس . وبقى شأن فريق آخر . . . بقى أن المؤمن حين يمتلىء واديه بوحى الله والحكمة لا يخلو أمره من هفوات تافهة فارغة ، تطفو فى محيطه الظاهرى ، ثم لا تلبث أن تزول ، ويبقى من بعدها المعين النافع — كما هو — فياضا بمعانى الحق والخير . . وهذا من طبائع النفوس ، فقد أراد لنا عز شأنه أن يكون من شأننا الخطأ والنسيان ، وأن يكون فى طبيعتنا ما يربطنا بالحياة الدنيا ، ويعقلنا بها ؛ ومن هنا كانت الذنوب لازمة من لوازم بشريتنا ، كما أن الاستعداد للترقى والتطهر سر من أسرارها كذلك ، فقد ألهم الله كل نفس فجورها وتقواها ، وترك إلى العبد أن يزكيها بالتقوى ، أو يدسها بالفجور ؛ ولكن مهما ترقت بالتقوى ، وصفت بالمراقبة ، فإنها لا تتخلص دائماً من هفوات الطبع ، وفقاقيع الدنيا ، فلابد من حصول شىء من ذلك ؛ فالقلب لا يفتأ الدهر معرضا للتقلبات ، كالوادى المائج الذى تتقلب فيه المياه ، ومن شأن هذا التقلب ، أن يحدث على الوجه فقاقيع فارغة . وقد شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم القلب فقال : « مثل القلب فى تقلبه كالقدر إذا استجمعت غليانا » ، فهل ترى يثور الغليان دون أن يطفو فوقه زبد ؟ وزبد

القلوب هنا هو الهفوات كما تقدم . . . وإلى هذا كله أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون فيغفر لهم » .

وليس فى نفوس البشر نفس سمت فوق ما سمت نفس مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع هـذا فقد جاءت السنة ، بأنه صلى الله عليه وسلم نظر إلى علم ثوبه — نقشه وتطريزه — وهو فى الصلاة ، فلما سلم رمى بذلك الثوب وقال : شغلنى عن الصلاة ! . . . وروى عنه عليه السلام أن خاتماً من ذهب كان فى يده ، فنظر إليه وهو على المنبر ، ثم رمى به ، وقال : « نظرة إليه ونظرة إليـكم » وكان ذلك قبل تحريم الذهب . . . بل قد جاء فى الحديث الشريف ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « . . . وإنه ليغان على قلبى » ، والغين الغيم . قال صاحب المصباح فى معنى الحديث : إن هذه كناية عن الاشتغال عن المراقبة بالمصالح الدنيوية ، فإنها وإن كانت مهمة ، فهى فى مقابلة الأمور الأخروية كاللهو عند المراقبة .

فهل ترى هذه الخطرات التى تطفو فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تؤثر فى واديه ؟ وهو عليه السلام وادى الأودية الربانية ، ومحيط المحيطات الإلهية ؟ ألا ترى كيف كانت هذه الخطرات تزول سريعاً بالتفاته صلى الله عليه وسلم إليها ، فيرمى بالثوب والخاتم ، فيذهب كما يذهب الزبد جفاء عن وادى النيل ؟ .

وبعض المؤمنين كثير الزبد — عفا الله عنهم وغفر لهم — . وبعضهم قليل الزبد وقليل ما هم ، « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ »

هذا يا أخى ما وسع الجهد أن يستخرجه من هذا المثل العظيم ، ولئن عجزت عن استخراج الـكثير مما فيه ، ففى هذا القليل الذى عرضته مقنع ، يقنعك بسعة علم الله فى القرآن الـكريم ، وامتداد آفاق كلماته وبعد أغوارها .

وبعد :

فإن هذه المعانى الـكثيرة العظيمة ، قد ظهرت واضحة فى سطر واحد من كتاب الله ، فـكيف تمت هذه المعجزة ؟ سر هذا فى المثل الذى أحكمه الله ، وساق فيه ما شاء من العلم والحـكمة ، والله يضرب الأمثال للناس « والله بكل شىء عليم » .

الرسول يضرب الأمثال

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستن هذا السنن ، ويضرب كثيراً

من الأمثال ، يشبه فيها الأمور المعنوية الخفية بأمور محسوسة ، تقربها للأذهان بل تكاد تظهرها للعيان .

ونحن نسوق منها على سبيل التمثيل ما يأتى : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله سبحانه وتعالى أمر يحيى بن زكريا صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، أن يعمل بها ، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يبطىء بها . فقال عيسى عليه السلام : إن الله تعالى أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى أن يخسف بى أو أعذب ؛ فجمع الناس فى بيت المقدس ، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله تبارك وتعالى أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن ، وآمركم أن تعملوا بهن :

١ — أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ؛ وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورِق [1] فقال : هذه دارى وهذا عملى ، فاعمل وأدِّ إلى . . . فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ! فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟

٢ — وإن الله يأمركم بالصلاة ؛ فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ، مالم يلتفت .

٣ — وآمركم بالصيام ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة « جماعة » معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه ؛ وإن ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك .

٤ — وآمركم بالصدقة ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفدى نفسى منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم .

٥ — وآمركم أن تذكروا الله تعالى ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعا ، حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم . . . كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى » . وهو حديث جليل ، رواه الإمام أحمد والترمذى . وأنت ترى أن كلا من توحيد الله ، والصيام ، والصدقة ، وذكر الله ، قد فسر بمثل يوضح معناه ، ويبين ما فيه من الخير والنجاة للانسان .

---

(١) ورق : فضة .

فتوحيد الله ، أن تفرده بما فى قلبك من حب ، وخوف ، ورجاء ؛ فالإنسان إنما يتصرف فى حياته بوحى هذه العواطف الكبيرة الأصيلة ، وما يتفرع منها ، فإذا جعلها لله وحده فقد صار كله لله : عمله ، وطعامه ، وكلامه ، وصلاته ، وحياته ، ومماته ؛ وهذا ما يريده منا الله وما خلقنا إلا له ، وهو معنى التوحيد ، وما خلق الله لك هذه العواطف الثلاث إلا لتمدها نحوه كالخيوط المباركة ، فتصلك به ، وتعلقك بعقامه عز وجل . . . فإذا أنت صرفت هذه العواطف عن الله ووهبتها لغيره — لا قدر الله — فقد وضعت الشىء فى غير موضعه ، وسخرت نفسك لغير خالقك ؛ وهذا عين الجحود والجهل والعمى ، وهو الذى فسره المثل تفسيراً واضحاً بقوله : إن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله ، بذهب أو ورق ، فقال له : هذه دارى وهذه مزارعى أو بساتينى أو مصانعى وأعمالى . فاعمل فيها ثم احمل الثمر إلى دارى ؛ فجعل العبد يعمل ثم يحمل الثمر إلى دار غير دار سيده ! فأى الناس يقبل أن يكون عبده أو خادمه كذلك ؟ . . . فإذا كان أحدنا لا يرضاه ، فأولى ثم أولى أن لا يرضى الله لعبيده أن يهبوا لغيره عواطفهم ، وأعمالهم التى هى ثمار هذه العواطف . . . وهو مثل مقنع ، يشرح الصدر ، ويستقر بعقيدة التوحيد على قرار مكين .

والصيام ، هو حبس النفس عن شهواتها الظاهرة والخفية ، الحسية والمعنوية . . . وصرف همتها إلى ما هو خير ، وهذا هو الصيام الفاضل الكامل .

ومن فوائد هذا الصيام أنه يترك فرصة للمشاعر الكريمة فى الإنسان أن تنمو وتزدهر .

فكل منا يتعهد فى ذاته نفسين : نفساً رديئة تحب السوء وتأمر به ، وهى التى ذكرها الله فى القرآن الكريم بقوله حكاية عن امرأة العزيز : « وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » ؛ وغذاء هذه النفس الذى تنمو به وتسمن ، هو شهوات الطعام ، والشراب ، والنساء ، والمال ، والجاه ، وما تجر إليه هذه الشهوات من من رذائل وصغائر . . . وهى رذائل تتراكم مخلفاتها فى هذه النفس فتزيدها قذرا ودنسا ، كما تتراكم مخلفات الطعام فى المعدة والأمعاء ، فتكسبها من نتن الريح ما هو معروف ؛ ورحم الله أبو العتاهية إذ يقول :

كيف إصلاح نفوس إنما هن قروح ؟
أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا بين جنبيه فضوح [1]

---

(١) أى مفتضح تنم رائحته عن ذنوبه وسيئاته ، أو بين جنبيه فضيحة تكشف أمره .

أما النفس الأخرى ، فهى النفس الطيبة الزكية المطمئنة ، وهى التى تحب الخير والحق ، وتأمر به ، وهى التى ذكرها فى القرآن الكريم ، وناداها إليه بقوله الحكيم : « يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى وَٱدْخُلِى جَنَّتِى » ؛ وغذاء هـذه النفس من السماء لا من الأرض ، ومن الله لا من الشيطان ؛ ورأس هذا الغذاء ذكر الله عز وجل ؛ فبه حياتها ، وقوتها ، وطيبها : « أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ » ، وهو غـذاء ليس له مخلفات كريهة ولا أخلاط فاسدة ، إن هو إلا طيب على طيب ، ونور على نور ، وهناءة يرق بها الضمير ويشف ، ونفحات من رياض أنس الله عز وجل ، تغمر وجوده ظاهرا وباطنا ، وتعجل له أرواح الجنة وهو ما زال فى قرار الحياة الدنيا .

أقول : إن كلاً منا راع يرعى هاتين النفسين ؛ فإذا رعى النفس الرديئة وأهمل الطيبة ، سمنت الرديئة وهزلت الطيبة ، وصار إنسانا رديئا ؛ وإذا أهمل الرديئة ورعى الطيبة واستوصى بها خيرا ، ضعفت قوة الرديئة وانحل سلطانها عنه ، فصار إنساناً طيباً كريماً ؛ وما الصيام يا أخى إلا انصراف عن رعى الخبيثة ، والتفات إلى التوسعة على الطيبة .

فهاتان النفسان تتزاحمان فى كيانك ، وتتوزعان جهدك وتقتسمانه ، فمن الناس من يعدل بينها وهو النمط الأوسط ، ومنهم من يميل إلى إحـداهما فتنمو على حساب الأخرى .

والصيام الذى هو حبس النفس عن شهواتها الظاهرة والخفية ، فرصة طيبة للتضييق من مرعى النفس الرديئة ، ليتسع المجال ، ويخلو الجو للنفس المطمئنة ، فتأخذ نصيبها وهى آمنة من المزاحمة العنيفة ، والتضييق الشديد ، فتزكو وتطهر ، ويعبق طيبها فيتخلل اللحم ، والدم ، والعظم ، ويجعل كل شىء فى صاحبه طيباً ، حتى ليكون خلوف فمه — أى نفسه المتغير — أطيب عند الله من ريح المسك ؛ ولـكن لا يدرك ذلك إلا أهل البصائر . فإذا كان الرجل فى جماعة من الناس ، نفحهم من نفسه بالكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والخلق الفاضل ؛ وهذا كله ما يحمله المثل بقوله عن الصيام : « فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة ، معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه ؛ وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

أما الصدقة — وهى البذل مما يملك الإنسان فى سبيل الله — فإنها معالجة يحاول بها المرء أن يتخلص من شح نفسه ؛ والشح سلاسل تغل يد الإنسان إلى عنقه ، فتظل مقبوضة عن الخير ، محبوسة عن المشاركة فى سبيل الله ، وفى ذلك هلاكه وخسارته . . فالشح غل من أغلال الشياطين ، يسلطه على التعساء من الناس ، « وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ » بالصدقة « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون » الذين افتكوا أنفسهم من قيود العدو ، وافتدوها بما يملكون ، بعد أن أشرفوا على الهلاك — وإلى هذا أشار المثل فقال : فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفتدى نفسى منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم .

وذكر الله : هو مادة حياة النفوس ، وعماد قوتها . . . والشيطان — وهو أعدى أعداء الإنسان — لا يفتأ يحتال لصرفه عن الله ، فيوسوس له بالشر ، ويزين له الشهوات ، فإذا انقاد له ، فقد نسى الله ونسيه الله ، وانقطع عنه مدد الحياة الإلهية ، فهزل قلبه أو مات ، وغدا لا حول له ولا قوة ؛ والقلب الميت أعجز من أن يمد صاحبه بذرة من ذلك . . والحياة فى القلب ، ليست نبضاً يدق ، أو دماً غزيرا يفد إليه أو يخرج منه ، إنما الحياة كل الحياة هى ليونته لمعانى الخير ، ورقته لأنوار الحق ، وشوقه إلى الفضائل الروحية المطهرة ، فإذا حى هذه الحياة ، عاش صاحبه جندياً مجاهداً للخير والحق والفضيلة طول حياته ، يستمد من ليونته شدة على أعوان الشر ، ومن رقته صلابة على جند الباطل ، ومن شوقه غضباً وكراهة لأنصار الرذيله ، وليس هناك حياة غيرهذه الحياة ، إلاحياة الأموات الذين يحصون فى الأحياء ظلماً أو جهلا ، والقلب الحى يستمد سر حياته بل سر بطولته من حضور الله فيه ، وليس أبغض إلى الشيطان من هذا ، فهو لا يكف لحظة عن استدراجه بعيداً عن مصادر الحياة ، بما ينسيه ذكر الله عز وجل . . والإنسان هو قلبه الحى ، فمن لا قلب له فهو هيكل فارغ ؛ لا يقام له وزن فى الدنيا ، ولا فى الآخرة . لهذا اقتضت رحمة الله عز شأنه أن يلفتنا إلى خطره علينا ، وأن ينادى فينا بالفرار منه إلى حصن الأمان ، إلى ذكره عز وجل : « ففروا إلَى اللهِ إنى لكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِين » ، وقال فى حديثه القدسى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : « أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت شفتاه بى » . . ومن كان فى معية الله فهو القوى الغالب ، الذى لا يقف لقوته عدو ، ولو اجتمعت له الإنس والجن ، وذلك قوله عز وجل فى الحديث القدسى : « إن

عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه[1] » فإذا كانت هذه المعية الشريفة تكسبه كل تلك القوة ، فأولى ثم أولى أن تكون عصمة وحرزاً له من كل شيطان أو إنسان يبغيه بسوء . . وهذا المعنى هو الذى يشرحه المثل بقوله : « فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعا ، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى » .

هذان مثلان أحدهما من الكتاب ، والآخر من السنة ، وبقى أن نورد مثلا من الأمثلة التى لا يمكن أن تسمو إلى هذين المقامين الكريمين . . . هبك وقفت تقرر ما شرع الإسلام من عقوبات عادلة ، وحدود رادعة حازمة ، تقطع الشر وتستأصل الجريمة ؛ ثم بدا لك أن ترد على السخفاء الذين يعترضون بأن فى بعض هذه الحدود قسوة وهمجية ووحشية ؛ فلا عليك أن تقول ما قاله أحد الإخوان فى هذا المقام : إن الطبيب الحكيم ، عليه أن يعالج مريضه بما يقطع عنه المرض ، ويكفل له الشفاء والصحة ، فإذا اقتضى العلاج أن يسقيه الدواء المر سقاه ، فإن لم يسقه فهو طبيب خائن لمريضه . . . وإذا اقتضى العلاج أن يفتح بطنه ، أو يشق عضواً من أعضائه ، فمن السخافة أن نسمى ذلك قسوة ووحشية ، إن هو إلا الرحمة التى تسوق إلى المريض المسكين قوته وسعادته . . . وإذا اقتضى العلاج أن يبتر الطبيب إصبعا أو ذراعاً أو نحو ذلك إنقاذاً لحياته ، فالحكمة كل الحكمة فى المسارعة إلى هذا العمل ، الذى ظاهره القسوة والألم .

فإذا كان ذلك كله لا اعتراض عليه ، بل توجبه المصلحة ، فكيف يسوغ فى عقول المعترضين أن يعترضوا على المشرع الحكيم ، الذى يستأصل بتشريعه جذور الشر والفوضى ؟ ... وهل المشرع إلا طبيب ؟ : ذاك يعالج أمراض المجتمع ، وهذا يعالج أمراض الأجسام ؟ ... إن مهمة الطبيب أن يشفى مريضه من علته ، وأن يضع له أفضل القواعد الصحية التى يتبعها فى طعامه وشرابه ونومه ورياضته ، حتى يعيش دهره معافى . . . وكذلك المشرع ، مهمته أن يشفى المجتمع من علته ، وأن يضع له أفضل القواعد الاجتماعية والسياسية والمالية ونحوها ، مما تستقيم عليه المعاملات ، ويستقر به الأمن على الأعراض والأموال والدماء .

وكما أننا نقيس نجاح الطبيب بدرجة شفاء المريض وانتظام صحته ، يجب أن نقيس نجاح المشرع بمقدار ما ينال المجتمع من هذا الشفاء .

---

(١) كفؤه ومنازله .

وكل ما يطلب من الطبيب أن لا يلجأ إلى الدواء المر إلا حين لا يجد غيره ، وأن لا يلجأ إلى بتر الأعضاء أو شقها إلا بعد اليأس من طرق العلاج الأخرى . . . وكذلك المشرع ، كل ما يطلب منه أن يقسو على غرائز المجتمع ، ما دام إرضاء هذه الغرائز لا يلحق ضرراً ما بالمصالح العامة أو الخاصة وأن لا يعنف فى اختيار العقوبات ، إلا عند ما يرى أن العقوبات السهلة غير كافية لقمع شهوات الشر ، ومحق رغبات العدوان الأنانى — وهذا نفس ماسنه المشرع الإسلامى أو طبيب المجتمع الإنسانى ؛ فقبل أن يضع حد السرقة مثلا ، قرر لكل محتاج حقه فيما تجبيه الحكومة من المال ، الذى هو مال الله ؛ فإذا تعطل من العمل أسعفته الدولة بما يعينه ، إن عجزت عن تدبير عمل له ؛ وإذا نزلت به مصيبة فى نفسه أو ماله ، وجب على الحكومة أن تقدم له الذهب والفضة ؛ وإذا أدركته الشيخوخة فأقعدته عن العمل ، ففى بيت المال — أى خزانة الدولة — حقوقه مذخورة له لمثل هذا اليوم ؛ فإذا توفى وترك ذرية ضعافا فقراء لا كافل لهم ، فالإمام — أى الحاكم — ملزم بتدبير أمرهم ، حتى يغنيهم الله من فضله .

هذا هو روح التشريع فى هذه المسألة ... فإن عجز المال عن الوفاء بمطالب المحتاجين من المستحقين ، فلتجمع لهم الدولة بقوة القانون ، أو بقوة السلاح ، من القادرين مايسد حاجتهم . . . فأى اعتدال أرضى للنفوس من هذا ؟ فإذا جاء المشرع بعد ذلك كله وقال : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ » كان هذا عين الحكمة ، ومنتهى العدل . . . ويستبين لك عدالة هذا التشريع ، واعتداله ، إذا وضعت إلى جانبه أن إحدى الدول أثناء الحرب العالمية الأخيرة ، اشتطت فجعلت الإعدام عقوبة من يسرق الرغيف .

وهذا الروح الحكيم ، هو مايطالعك فى كل شرع يشرعه الإسلام ، وفى كل عقوبة يقررها ؛ فهو يسن لكل غريزة حقوقها الطبيعية بقسطاس معتدل ، لا يعنتها بالحرمان ، ولا يتملقها بالغلو والإشباع . . فإذا أرضاها بالحلال ، إرضاء موسعاً فيه ، فقال مثلا فى الزواج : « فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » أقام عقوبة الجلد أو الرجم ، لكل من يقع فى جريمة الزنا .

فإذا أردنا أن نعرف نجاح مشرعنا ونجاح مشرعهم ، فلنسأل ماذا أشبع تشريعنا من الفقراء ، وماذا أشبع تشريعهم ؟ وإلى أى حد نجح مشرعنا فى قطع دابر السرقة وإلى أى حد نجح مشرعهم ؟ . . . ولنسألهم : لقد عالجنا طهارة الأعراض وعالجتموها ، فهل تظنون أنكم بلغتم فى حسم الشر ، وتطهير المجتمع ، وحل أزمات الزواج ، ما بلغناه ؟ . . هل تستطيعون أن تقولوا : نعم ، وجيوش الشبان والكهول العاطلين من الزواج ، يحدثونكم بما يلقون من شبع ورى ، فيما يبذل لهم من حرمات وأعراض وهم آمنون ؟ هل تستطيعون أن تقولوا : إن شرعكم وعقوبتكم نجحت فى قمع نزوات الشر ، وإلزام الرقعاء السخفاء حدود الاعتدال والعفة ؟ . .

إذاً هو مشرع خائب أو خائن ، يجب أن يضرب وجهه بتشريعه ، كالطبيب الخائب أو الخائن ، يجب أن يضرب وجهه « بروشتة » الدواء إذا هو عجز أو فرط فى علاج مريضه . . إننا لا نريد إلا مجتمعا صحيحاً معافى من العلل ، فأيما علاج كفل لنا ذلك فى حزم وحكمة ، فهو الشرع الواجب الاتباع ، وإلا كانت الفتنة والفوضى ، « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ ؟ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِين » « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُون . . . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُون ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُون » .

بهذا المثل الذى تشبه به المشرع بالطبيب ، وتحلل عمل كل منهما وتقيسه بالآخر ، تبلغ بمعناك قرارة القلوب ، وتقطع كل حجة لمكابر أو مغرور .

***

ومن قبيل ضرب الأمثال سياق الحوادث للعبرة ، وهو غير القصة ، فالقصة تسوقها لتعرض بها معناك ، وتبث فيها تعاليمك ، فيعينك النمط القصصى على توضيح مرادك ، وإظهاره حياً مؤثراً فى صورة عملية ؛ أما سوق الحادثة للعبرة فلا يراد به ما يراد من القصة ، وإنما يراد به الاعتبار بالخاتمة ، ردعا للقلوب عما هى عليه ، أو تحذيراً لها وإنذاراً ؛ وهذا النوع من ضرب الأمثال نتعلمه من القرآن الكريم ، فقد ساقه الله عز شأنه فى مواضع كثيرة منه .

فالكفر بنعمة الله ، وعدم القيام بحقها ، يعقب زوالها ، والعيش من بعدها عيشة ضنكا . هـــذه سنة من سنن الله فى خلقه ، نقرؤها فى القرآن ، وترى مصداقها فى شئون الحياة .

ولقد قال عز وجل : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الذينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ؟ » وقال : « وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ . . فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُون » .

وقد كان العرب يعرفون دولة سبأ ، وما كانوا يتقلبون فيه من نعيم ، ويعرفون حادثة السيل المشئومة ، التى أتلفت أرضهم ، وخربت ديارهم ، وفرقت جمعهم ، وشتتهم فى أنحاء الجزيرة العربية ، يطلبون عيشها الخشن ، فى رمالها المقفرة ، حتى ضرب بهم المثل ، فقيل لكل جمع يتفرق : « تفرقوا أيدى سبأ » ؛ كان العرب يعرفون ذلك ، فساقه الله عز وجل فى هـــذا المقام الذى قررناه ، تحصيلا لعبرته فقال تعالى : «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ : جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَه ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُور . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِم جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ؛ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلاَّ الْكَفُورَ » .

وهذا النوع من ضرب الأمثال شائع جداً بين الناس ، وهو من مألوفهم فى النصائح والمواعظ ، فلا نطيل بذكر أمثلة له ، ففى حوادث الأفراد والأمم مادة عظيمة لمن يطلبه ؛ غير أنه يلاحظ أنه كلما كانت الحادثة قريبة العهد ، أو حاضرة فى الذهن ، كانت أعظم وقعاً ، وأبين عبرة .

***

ومن قبيل ضرب الأمثـــال القصص الرمزية ، وهى قصص يضعها مؤلفها ولا يريد ظاهر معناها ، بل يريد معنى مستورا يكشفه بعـد الانتهاء منها ، أو يشير إليه قبل البدء فيها ، ونحن نوصى به كثيرا ، فقد يكون الداعية فى مقام لا يحسن فيه التصريح ، فيسعفه مثله القصصى الرمزى بمراده . . . ، هذا إلى أن فيه طرافة وتجديدا للنشاط النفسى ... وقد يغرب المؤلف قليلا ، ويطالعك فى قصته بشىء

من الأوضاع الشاذة غير المعقولة ، فتعذب القصة ، وتفيض طرافتها حلاوة ، فتقبل عليك العقول بأزمتها ؛ فإذا انتهيت ، وشرعت تحل العقدة ، وتوضح الرموز ، لمعت الأنوار فى العقول والقلوب ، واستفاض الرضى عن معناك فى النفوس . . . كيف وقد فسرت الشىء بالشىء ، وأصبح ما كان غير معقول من الأوضاع الشاذة معقولا ، وشاهدا على أن الإنسان يقيم فى حياته على كثير من الأوضاع غير المعقولة وهو لا يشعر ؛ فإذا استكشف السامع تلك المناقضة فى نفسه ، عجب لحاله ، وكنت أنت له الرائد الموفق فى هذا الاستكشاف .

وإنا نسوق لك هذا المثل الرمزى نموذجا لهذا النوع من ضرب الأمثال بعد التمهيد له بما يأتى :

أكثر الناس يغترون بزينة الحياة الدنيا . فيصرفون إليها جهودهم وتفكيرهم ويجمعونها ، ويثمرونها ، ويستغرق هــذا الجمع والتثمير أوقاتهم وعواطفهم ، فلا يفكرون فى الآخرة ولا يعملون لها شيئا ؛ فبينما ترى دنياهم عامرة بالعمل وبالزينة ترى آخرتهم خرابا موحشا مفزعا ، وهذا من سوء رأى الإنسان ، وفساد تدبيره ، وغفلته عن مصيره الذى سيصير إليه لا محالة . . . هذا معنى حق ، ولـكنك إذا سقته مجردا كما سقناه الآن ، يكون ضعيف الأثر فى قلوب الغافلين . . . ولقد قرأنا هذا المعنى فى موعظة لأبى حازم الواعظ الزاهد المشهورة ، فقد سأله سليمان بن عبد الملك فيما سأل : « يا أبا حازم . لماذا نخاف الموت ؟ قال : لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتـكم ، والإنسان يفزعه الانتقال من العمار إلى الخراب » قرأنا هذا المعنى فى هذه الموعظة فـكان له أثر عميق فى النفوس ؛ ولـكن هل ترى هذا الأثر العميق يبلغ عمق الأثر الذى تبلغه القصة الرمزية التالية ، حين تعرض هذا المعنى نفسه ، فى فى أسلوبها الجذاب ؟ .

قالوا : كان من عادة مملـكة من الممالك ، أن تولى عليها ملـكا لمدة ما ، سنة أو نحوها ، ولـكنهم يشترطون على من يقبل الملك والتنعيم به ، أن يسيروا به فى نهاية المدة إلى صحراء مجدبة لا ماء فيها ولا زرع ، ثم يجعلونه فى هذه الصحراء ، لا طعام معه ولا ماء ، حتى يموت من الجوع والظمأ ، وفى هذه الصحراء الصامتة الموحشة .

ومر بهم يوما سائح غريب ، فرآهم فى حيرة ، وهرج ومرج ، فسألهم عن أمرهم فقالوا : لا نجد من يقبل أن يكون ملـكا علينا ، لم يقبل ذلك أحد من الوطنيين ولا من الأجانب ، فهل تقبله أنت ؟ فقال الرجل ولم لا ؟ وهل يرفض الملك عاقل ؟

فقالوا له : أنعرف ماذا نشترط على من يتولى هذا الملك ؟ وماذا تكون عاقبته ؟ فقال : وماذا تشترطون ؟ قالوا : نشترط كذا وكذا ؛ فبهت الرجل ، وسكت قليلا وقال : أو ما عندكم غير هذا ؟ قالوا : هو ذلك فقط .. فأطرق وفكر ودبر ، وكان عاقلا أريبا ، ثم رفع رأسه وقال لهم : قد قبلت ...

أقبل الرجل على ملكه يدير شأنه بسياسته الحكيمة ، ويقيمه على سنة العدل ، ففرح به الناس ، وانتظمت أحوالهم . واتسعت ثروتهم ؛ ولكنه مع ذلك لم يلهه الملك وأبهة السلطان عن مصيره الأسود الذى ينتظره فى الصحراء المقفرة ، فأخذ يعمل جهده لتعمير هذه الصحراء ؛ فأوفد إليها المهندسين ليخططوا فيها حدائق وبساتين وقصورا ، وأرسل إليها العمال والآلات والمواشى وكل ما هو ضرورى لإنجاز هذه المهمة ... وما أسرع ما تم ذلك ، فشقت الأنهار والترع ، وجرت إليها المياه العذبة ، وغرست الأشجار الجميلة ، وأقبل الفلاحون يزرعون مختلف الزروع ؛ وقام للملك هناك قصر جميل ، وقصور أخرى لمن يحبون الإقامة هناك ، حتى صارت الصحراء بذلك جنة فيحاء .

ومضت الأيام والناس يجهلون ما صنع الملك بالصحراء ، وانتهت المدة ؛ فأقبلوا عليه وقالوا : قد انتهت مدتك أيها الملك ، فتفضل إذا إلى مصيرك بالصحراء ، فأجابهم فى ثقة واطمئنان ، ورضى وابتسام : نعم . . . وعجب الناس لثباته إذ لم يضطرب ، ولم يزغ بصره من الهلع ؛ وساروا به نحو الصحراء وهم فى عجبهم هذا لا يدرون سر اغتباطه وسعادته ، إلى أن بلغوا الصحراء ، فماراعهم إلا البساتين ، والحدائق ، والزروع ، والدور قائمة وسط هذا النعيم البهيج ، فدهش الناس ، وأقبلوا على الملك يسألونه : ما هذا ؟ فقال لهم : إن من تولى الملك قبلى شغلته لذته العاجلة ، عن أن ينظر فى مصيره الذى ينتظره فى النهاية ، أما أنا ، فلم تشغلنى اللذة العاجلة ، عن بشاعة المصير المحتوم ، فدبرت له ما دبرت ، حتى إذا انتقلت ، انتقلت إلى مقام جميل ، فيه النعيم الجزيل .

هناك فرح به أهل المملكة : وقالوا له : أيها الملك العاقل ، أنت الرجل الحكيم الذى لا يصلح أن يتولى أمرنا غيره ، فارجع إلى العرش ، فإنا بك مستمسكون .

وإنك لترى فى هذه القصة بعض أمور غير معقولة ، تكفل الخيال بتحسينها ؛ كاشتراط أهل المملكة ، على من يتولى الملك ، أن ينزل عنه فى وقت معين ، وأن يصير إلى الصحراء لا محالة ، فهذا من العجب بمكان لا يصدقه العقل ؛ ولكن ، ألا

ترى أن كلا منا سوف يترك هذه الحياة الدنيا وزينتها يوماً ما ، فى أجل محدود ؟ وأنه صائر إلى وحشة القبر لا محالة ؟ فلم يكون هذا أقل عجباً من حال الملك الذى ينقل من أبهة الملك إلى وحشة الصحراء ؟ ألست ترى مطابقة كل حال منها للأخرى ، مما يشرح الصدور ، ويفتح عقل الإنسان على أمور عجيبة ينساق فى تيارها وهو غافل عنها ؟ إنه يكشف الغطاء ، ويزيل الغفلة ، فما أحوجنا إلى الكثير منه ! ولسنا نريد أن نمضى فى تحليل بقية هذه القصة الرمزية فهى واضحة .

تستطيع أن تجعل الكثير من القصص الخرافية قصصاً رمزية ، إذا أنت أحكمت اختيار ما يطابق مرادك ؛ وقد أعجبنى من هذا ما قرأته لتلستوى ، الفيلسوف الروسى المعروف ، فى أحد كتبه . . . فقد حمل على الأغنياء الذين استأثروا بحكم البلاد وخيراتها ، ومضى يتدفق فى حملته ، ويبين أن هؤلاء المترفين لا عمل لهم فى الحياة ، فهم يعيشون كلا على الطبقة الفقيرة . . . هم الطبقة العاجزة ، والفقراء هم الطبقة العاملة ، ومع هذا فالخير والسلطان لهم ، والفقر والحرمان والذل لغيرهم ؛ ماذا يقدم هؤلاء للحياة ؟ إن الحياة جد وعمل وكفاح ، واستخراج للرزق من شقوق الأرض ، أو من بين المطارق ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد ، ومن عمل أكل من عمل يده ؛ فأى عمل يعمله هؤلاء المترفون وهم يمسون ويصبحون فى أعطاف النعيم ؟ إن أحدهم يقضى نهاره فى الترهل والكسل ، واللهو واللعب ، ويقضى ليله فى العبث والمجون ، والسمر القبيح وغير القبيح . . . فأى شىء من هذا يسمى عملا ترضاه الحياة ؟ أى شىء من هذا يفلح الأرض أو يطرق الحديد أو يثمر المال أو يجلب الثروة ؟.. فيا عجباً لهؤلاء الكسالى ! كيف حصلوا هذا المال الوفير ، والخير الكثير والسلطان النافذ ، وهم لا يعملون شيئاً .

ان الحياة ضنينة أن تمنح خيرها إلا للعاملين ... ولكل واحد من أبناء الحياة رسالة يؤديها إليها : رسالة من العمل المثمر ، والجهد الإيجابى الذى يدفع عجلتها إلى الأمام ، والقوة التى ينفخها فى كيانها من روحه . ثم هى تمنحهم أجورهم بعد ذلك ، مقابل ما يمنحونها من قوة وحياة ؛ تمنحهم بقدر ما يمنحون ، فأكثرهم حظا منها ، أكثرهم عملا لها ؛ فما جدوى هؤلاء العجزة على الحياة ؟ وأى رسالة أدوها إليها غير الكسل والقعود ، والغطرسة على عباد الله العاملين ؟ . . . ترى هل اختل قانون الحياة ، فأضحت تمنح العجزة والكسالى ، وتحرم العاملين الدائبين ؟ إن قانون الحياة لا يتخلف ، وليس للعاجز إلا أن يعيش على عطف العاملين

المجدين ، وفضل ما يجودون عليه به . . إذا فكيف عكست الأوضاع ؛ فغدا الفقر والعرى والجوع والضعف من نصيب العاملين . وانتقل المال والأمر والنهى والتحكم إلى جانب المتبطلين القاعدين ؟

ليت هؤلاء المقعدين إذ قعدوا عن العمل ، وانحازت إليهم الثروات والخيرات والسلطان ، حمدوا لأهل العمل فضلهم ، ورعوا لهم حقوقهم فأكرموهم وأعزوهم ، وكسوهم وأطعموهم ، ليت ! وهل ينفع شيئا ليت ؟ إن القوم على عجزهم وعقوقهم للحياة ، لم يكتفوا بقبول وضعهم الشاذ ؛ فراحوا يلهبون ظهور العاملين المكافحين بسياط الحكم ، ويضيقون عليهم الخناق بقبضة السلطان ، ويحتقرونهم ، ويرهقونهم بما ورثوه عن آبائهم من تكبر وطغيان . . . فلم يبق منهم إلا عيون غائرة ، ووجوه شاحبة ، وبطون جائعة ، وأجسام مهددة بالتعب والمرض . . . لقد استوى هؤلاء العجزة والكسالى على أكتاف أهل العمل المجدين ، فاستمرءوا الركوب ؛ وخشوا أن يلقيهم هؤلاء الضحايا عن كواهلهم ، فأحكموا القبض على أعناقهم ، وهددوهم إن أبدوا حركة تمرد أن يخنقوهم ، فقضى على هؤلاء التعساء أن يشقوا بعصيبتهم إلى ما شاء الله . . !

قال الفيلسوف كلاماً شبيهاً بهذا ، أو قريباً منه لا أذكر نصه ، وحين بلغ هذا الحد من القول ذكر قصة خرافية من خرافات كتاب ألف ليلة وليلة ، أجاد الاستشهاد بها فقال : إن مثل هؤلاء العجزة المقعدين مع ضحاياهم كمثل ما جاء بألف ليلة وليلة من أن شابا قوى البنية ، صحيح البدن ، رحيم القلب . كان يمشى فى مرج واسع جميل ، فمر بقزم عليل ، خائر القوى ، مهزول الجسم ، دقيق الذراعين كأنما هما ذراعا قرد ، نحيل الساقين كأنما هما قطعتا حبل لا تقويان على حمله ؛ فلما بصر بالشاب ناداه ، وأخذ يشكو له مرضه وجوعه ، ويلين له القول ، ويرجوه أن يحمله إلى مكان عينه له ، لأنه لا يقوى على السير ، فرق له الشاب ، وحمله على كتفيه ، فما إن استوى عليه حتى لف ساقيه النحيلتين حول عنقه ، وقال له : أيها الشاب ، عليك أن تحملنى الدهر ، تذهب بى وتجىء وأنا على كتفيك ، وتمضى إلى الشجر فألقم منها الثمار وأنا على كتفيك ، وترد بى الأنهار فأشرب من مائها وأنا على كتفيك . . لا أريحك لحظة ، ولا أعطيك فرصة ترتاح منى ؛ وحذار أن تحاول التخلص من شأنك هذا ، فإنى أخنقك وأقضى عليك ثم ضغط بساقيه على عنق الشاب ضغطة ذهلته ، فأطلق صيحة هائلة من حلقه المخنوق ، وانعقد الدم فى وجهه ، وجحظت عيناه ، وجعل يتوسل إلى القزم أن يخلى له سبيل

الهواء ، وله عليه ما يشاء ، خلاه له . وقضى الشاب المسكين وقته يحمل هذه المصيبة على كاهله ، لا يشرب إلا إذا أذن له قزمه ، ولا يأكل إلا ما يفضل له من طعامه ؛ حتى انهد جسمه ، وتعس عيشه ، وضاقت به الدنيا ، وصاحبه لا يبالى ما يصيب هذه المطية الذلول من شقاء .

***

ومن قبيل ضرب الأمثال ما يضعه الوضاعون من الحكم والحكايات على ألسنة الطيور ، وأنواع الحيوان ؛ وهذا النوع يعظم من شأن الحكمة فى نفس السامع ، لصدورها من مصدر لا يجيد من الكلام ما هو حكمة أو غيرها .

ولقد حكوا الكثير من هذا نسوق إليك واحدة منه :

زعموا أن رجلا صاد قُبَّرة — والقبَّر نوع من العصافير — فقالت له : يا هذا ، ماذا تصنع بى ؟ فقال : أذبحك فأطبخك فآكلك ، فقالت : إنى لا أسمن ولا أغنى من جوع ، فخير لك أن تدعنى وأعلمك ثلاث خصال نفيسة ، وهى أجدى عليك من أكلى ؛ فأما الأولى فأعلمكها وأنا فى يدك ، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة ، والثالثة إذا صرت على الجبل فقال : هاتى ، فقالت : لا تأسفن على ما فاتك . فخلى عنها ، فلما صارت فوق الشجرة ، قالت إذا : سمعت بأمر لا يقبله منطق العقول فلا تصدق أنه حصل أو سيحصل ، ثم طارت إلى الجبل فقالت : يا شقى ، لو ذبحتني لوجدت فى حوصلتى درة زنتها عشرون مثقالا . . . « أى ثلاثون درهما » ٢ ½ أوقية فعض الرجل على شفتيه ندما وأسفا ، ثم سكت قليلا وقال : هات الثالثة فقالت له : يا مسكين ، لسرعان ما نسيت الاثنين ، فكيف أعطيك الثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تأسفن على ما فاتك ؟ وها أنت ذا تأسف على مافاتك ؛ وقلت لك : إذا سمعت بأمر لا يقبله منطق العقول فلا تصدق أنه يحصل ، أو يكون ، وها أنت ذا تصدق أن فى حوصلتى درة تزن عشرين مثقالا مع أن عظمى وريشى لا يزنها .

وهذا يبين لك بعض طباع ابن آدم الذى يستحسن الحكم استحساناً عقلياً فقط ، حتى إذا كان فى ميدان التجربة ، والحياة العملية ، غلبت عليه موازين الطمع ، ونسى منطقه وحكمته . . .

ثالثاً — الالتفات إلى الآثار

ومن خصائص العقلية العملية ، ذات التفكير الواقعى ، أن تقف على الآثار والأطلال والمخلفات ، لا وقوف الجامد الغافل المغلق ، بل وقوف الحى ،

المتنبه ، ذى الوجدان المتحرك اليقظ ؛ فيناجى الآثار ، ويستخبرها ما فعل الليل والنهار ، ويكلف خياله أن ينصب سرادق هذه الحياة الماضية ، وأن يقيم معالمها وينفخ الحياة فى أصحابها . . . وأن يقف منهم بعد ذلك بمرصد يرقب حركاتهم ، ويستمع إلى كلماتهم ، ويدرس معاملاتهم ، ويتأمل اضطرابهم بين مختلف العواطف الخيرة والشريرة ؛ فإذا استوى له كل ذلك ، ونبض به قلبه ، وحسب نفسه فى حياة قائمة حقاً ، ذكر أن الذين يراهم الآن ، إن هم إلا أموات قد صاروا إلى البلى ، ومضوا مع الزمن إلى حيث لا يعلم إلا الله . . . فيرق ، ويلين ، ويخشع ، وكأنما انزاح عنه ألف غطاء وحجاب .

أيتها الآثار ، حدثينا عن أصحابك ! ماذا كانت قلوبهم وعواطفهم وهم ينشئونك ؟ أكانوا غافلين عن الموت ، سارحين فى لهوهم وآمالهم ، أم كانوا ذاكرين مشمرين فى سفرهم إلى الله . . . ؟

أيها الأحياء ، إن هذه الآثار تخبركم أن أصحابها مضوا إلى غايتهم ، وهم أشد ما يكونون تعلقاً بالحياة ، وإنكم كما سافروا لا محالة مسافرون ؛ فتزودوا لسفركم هذا بتقوى الله عز وجل ، واحذروا أن تسافروا إليه وأيديكم صفر من كل خير .

لكن الوقوف بالآثار شبيها بهذا أو أحسن منه ، يذكرنا بالحياة والموت — وكفى بالموت واعظاً — ويذكرنا بالله عز وجل ، وما يُجرى من تصاريف القدر على خلقه فى كونه العجيب .

إنك يا أخى داعية ، مهمتك الأولى إيقاظ القلب ، وإحياء مواته ، و مثل هذا الوقوف يصل بك إلى غايتك . . . لا تقف لتدرس هذه الدراسة الجافة ، فتقول : إنهم كانوا يستعملون من أدوات المطبخ كذا وكذا ، وكان لهم من أدوات الزينة كيت وكيت ، وكانوا يقصرون الملابس أو يطيلونها ، ويوسعونها أو يضيقونها ؛ كانوا يحرثون بالمحراث الذى نحرث به ، وكانت طقوس عبادتهم تشابه طقوس العبادة عند أمة كذا ، إلى آخر ما يجرى عليه أسلوب الدراسة العصرية ، ثم ينتهى الدرس أو الرحلة ، والطالب مغلق لم يستفد غير رسوم ميتة .

وقد نبتلى بمكابر يمارينا بأن الدرس عند العصريين لا ينتهى عند الخاتمة الجافة التى نتصورها ، بل يمتد نطاقه حتى يشمل تصاريف القدر ، وحتى يتقلب النظر بين الغابر والحاضر ، استخلاصاً للعبرة ، واستحياء للفطرة ، فنقول له : هذا ما نحب ونرجو أن يكون كذلك إن شاء الله .

ولسنا نقصد آثار السابقين القدماء أو المحدثين فقط ، بل نقصد كل أثر ولو كان أصحابه أحياء ، فآثارى السابقة ، وآثارك الماضية ، وآثار غيرنا من المعاصرين ، فى كل منها واعظ يتكلم ، لا يسمعه إلا القلب الذى يريد أن يفهم ويتعلم ، فى كل منها سطر من قضاء الله ، يتلو عليك آية من كتاب الوجود المتغير المتبدل ، إذا أصغيت إلى وحيها ، وأحسسته يتخلل شعاب نفسك ، ويرطب جوانبها بحنين الذكرى .... إذا أصغيت وأحسست ، ثم ترجمته للناس فى لباقة وخشوع ، ألنت القلوب ، وأحييت المشاعر ، وأنرت البصائر .

ولست هنا بصدد التحدث عن الوقوف على الآثار لكل من يعنيه الوقوف على الآثار ، بل أورد منه بعض ما يتصل بمهمة الداعية فقط ، فلا تطالبنى بكلام جامع مانع ، يشبع الأدباء والشعراء ، ويعجب علماء الآثار ورجال التاريخ ونحوهم ... فلسنا نحب للداعية أن يدرس قواعد وفنوناً ، إنما نريد له أن يلين قلوباً ، ويثير شجوناً ... وفيما أوردناه سابقاً إشارة خاطفة ، تشير إلى الطريق .

وقد تعلمنا هذا الوقوف على الآثار ، والتأمل فى سطور الأيام والليالى ، من القرآن الكريم ، من الكتاب الجليل ، الذى يشرح لكل داعية إلى الله أفضل وسائل الدعوة إليه عز وجل .

فنرى الله يندبنا إلى السياحة فى الأرض ، والتأمل فى آثار الماضين وذكرياتهم ، فيقول : « قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ » .

ويرسم لنا منهاج التأمل فيقول : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

ويزيد فى العبرة عز شأنه ، فيأمر بصفة خاصة أن نتأمل آثار أولئك الذين أنزل عليهم عذابه ، لما فسقوا عن أمره ، فأهلكهم وتركوا مساكنهم من بعدهم خلاء : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ... وكم فى قوله تعالى : « فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ » كم فيه من عبرة تلين القلوب والمآقى ،

وتكسر النفوس للحى الوارث الباقى ، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها ، وكل إليه راجعون .

ويشير الله إلى المساكن والقصور والآثار ، لكى يقف المتأمل وقفة يناجيها ، أو يناجى أهلها الذين عمروها ، ثم خلفوها وراحوا : « فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ..؟ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ . »

بل إن الله سبحانه ، ليذكر أن هذا التأمل هداية ، ويلفتنا إلى تحصيل الآيات من الديار التى نمشى خلال مساكنها الخاوية الصامتة ، فكم فى صمتها من عظة لمن يسمع : أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ! ! أَفَلَا يَسْمَعُونَ ؟ » .

ويبين لنا عز شأنه أن هؤلاء الذين أصبحت منازلهم خاوية من بعدهم ما حاق بهم غضب الله إلا لأنهم عاندوا ، ومكروا لإحباط أمره سبحانه ، وإن المؤمنين الذين كانوا يعاشرون هؤلاء ويساكنونهم ، قد أنجاهم بما آمنوا وكانوا يتقون ؛ وهذا أبلغ فى العبرة ، وأكمل للموعظة : « وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا . . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ؛ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

وأخيراً ترى أن الله عز شأنه ، يجعل هذه الآثار فى مقام الوعظ البليغ ، ويجعلها حجة على الغافلين ، حين ينزل بهم عذابه : « وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ؟ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ، وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ

لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ، فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ »

وكثيراً ما يصرح الله سبحانه بأسماء هؤلاء السابقين وخطاياهم ، فذكر الأثر مقروناً باسم صاحبه وخطيئته وعقوبته ، أبعد غوصا بالموعظة فى أعماق القلب ؛ وإليك نبأ قوم لوط على سبيل التمثيل : أُرسل لوط عليه السلام إلى أهل سدوم (شرق فلسطين ، مكان البحر الميت الآن) وقد كانوا يقطعون السبيل ، ويأتون فى ناديهم المنكر فكان من أمرهم ، بعد أن أنذرهم رسولهم ، أن أمطرهم الله مطر السوء ، وزلزل الأرض بديارهم ، فجعل عاليها سافلها ، وظلت آثارهم باقية ، تقص نبأهم المعتبرين . . . وفيهم يقول الله عز وجل : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ » ، نعم فى ذلك آيات للمتوسمين ؛ وأى آيات . . . كم يقرأ تلك القصة قارىء من المحجوبين ، فيداخله الشك والعياذ بالله فى صحتها ! فاعلم يا أخى أن ذلك حق كل الحق ، وفيه العبرة كل العبرة ، فقد دمر الله هذه القرية بما أمطر عليها ، وبما زلزل بها ، وفى مكان هذا الزلزال انشقت الأرض فحدثت البحيرة الصغيرة التى تسمى الآن بحيرة « لوط » أو « البحر الميت » وهى تسمية قديمة ؛ فهؤلاء الصرعى تحت أنقاض قريتهم ، سرى اسم الموت منهم إلى البحر الذى غمر أماكنهم بمائه ، وظلت بقايا الأنقاض على شاطئه ، تطالع المارين بما كان من أحداث خطيرة فى تلك القرون الخاليات . . . قال الإمام ابن كثير[1] فى تفسيره : إن الله أهلكهم بأنواع من العقوبات ، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم ، يمر بها المسافرون ليلا ونهارا . . . ويقول أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء طبعة سنة ١٩٣٢ ص ٩٣ : وأعتقد أن البحر الميت المعروف الآن ببحر لوط أو بحيرة لوط ، لم يكن موجوداً قبل هذا الحادث ، وإنما حدث من الزلزال الذى جعل عالى البلاد سافلها ، وصارت أخفض من سطح البحر بنحو أربعمائة متر . . . ثم التفت إلى ما يقوله الأستاذ بعد ذلك رحمه الله . وقد جاءتنا الأخبار فى السنتين الماضيتين « سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١ » بأنهم اكتشفوا آثار مدن قوم لوط على حافة « البحر الميت » . . . وصدق الله العظيم ، « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » .

ولقد أطلنا بعض الشىء ليقوى يقين المؤمن بما يقول الله عز وجل شأنه ، ويزول شك الضعيف الملحد . . . والآن فلنمض فى سبيلنا الذى رسمه الله لنا من التأمل فى

(١) ج ٤ ص ٣٠ .

ديار هؤلاء الهالكين ، فكان العرب يرون هذه الديار المدمرة فى سفرهم إلى الشام ، ذهابا وإيابا ، قال عز شأنه : « وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ، أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ؟ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا » . . « وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ، وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ، وَبِاللَّيْلِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ؟ . . .

وحادثة لقوم آخرين ، نسوقها على سبيل المثال أيضاً : هى حادثة قوم عاد ، أصحاب الأحقاف فى جنوب جزيرة العرب . فقد أهلكهم الله بالريح العقيم ، « سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ ، وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى ، كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ » ؟

لم يبق من هؤلاء البائدين إلا مساكنهم ، كانت تتراءى للعرب الرحل والمسافرين ، ولكنها طمرت الآن تحت الرمال ، بما سفت عليها السوافى ، فلعل الله يقيض لها من يكشف عليها ، قال عز وجل عن العذاب الذى أرسله عليهم : « فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ، قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا . . . بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ وهذا شاهدنا من الآية : « كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ »

ولقد خاطبنا الله عز وجل بما يصح أن نخاطب به نفوسنا فى كل وقفة على مثل هذه الآثار ، فقال : « وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ، فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » ويقول عز وجل بعد هذا بقليل تكميلا للعبرة : « فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ؟ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ، وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

أرأيت يا أخى هذا المنهاج الكامل ، الذى يقرره الله ليكون دستورنا فى النظر إلى الآثار ؟ أرأيت منهاجا مثله يحيط بأطراف الموضوع وخطواته هذه الإحاطة ؟ لقد

سنه الله لسيد الدعاة ، ولكل داعية من بعده ، فكان عليه السلام يرى أن الوقوف على آثار الظالمين دون تأمل تمور به نفس الإنسان فيخشع قلبه ، وتندى عيناه .. يرى أن الوقوف الجامد الخالى من العبرة ، يجلب سخط الله وغضبه ؛ وهذا من صميم الحق ، فلا نطيل بشرحه والبرهنة عليه ، فتأمل فيه ينكشف لك وجهه . . . وكان عليه السلام يستن بهذا السنن الإلهى ، ويعلم أصحابه كيف يقفون على الآثار .

خرج عليه السلام إلى غزوة تبوك ، وفى الطريق إليها تقع مدائن صالح أو ديار ثمود ، وهى بيوت منحوتة فى الصخر ، كما ورد فى القرآن الكريم ، ونحن نعرف شأن هؤلاء ، قبل أن يبعث إليهم صالح عليه السلام ، وبعد أن بعث ، ونعرف عصيانهم لنبيهم وتمردهم على حكم ربهم ، حتى أرسل عليهم صاعقة ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين .

ولما اقترب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ديار ثمود — وهى لا تزال ظاهرة إلى اليوم — ثارت ذكرى الظلم والظالمين بنفسه ، وهى ذكرى بغيضة ، فسجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته ، وقال : « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون ، خوفا أن يصيبكم ما أصابهم » .

ولسنا نرى وصفاً أبلغ فى الدلالة على الوجدان المرهف ، والطبيعة الحية ؛ بل لسنا نرى عملا أعظم دلالة على حساسية الشعور من فعله صلى الله عليه وسلم ، « سجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته » .

إن التعاليم حية ، بل حارة قوية فى قلبه عليه السلام ، فهو غير محتاج إلى مشهد ينبه قلبه ، حاشاه ! . . إن المشهد يقع من قلبه صلى الله عليه وسلم كما يقع المشهد من عين أحدنا ؛ فانظر إلى السرعة الخاطفة ، التى تدرك بها عينك جمال الشىء أو قبحه ، فتنشرح له فى الحال أو تشمئز ... وانظر إلى السرعة الخاطفة ، التى ترى بها وجه حبيبك فتنبسط إليه ، أو وجه عدوك البغيض فتنقبض لنفورك منه . . وليس أبغض إلى قلب رسول الله من وجه الظلم والظالمين . والكفر والكافرين ، فما إن وقعت عين رأسه ، وعين قلبه ، على مشاهد ثمود ، حتى ثار وسخط ، واستعاذ بالله ، وسجى ثوبه على وجهه ، واستحث راحلته . . . فيالله لهذه النفس الحية ، البالغة ذروة الحياة والإحساس ! .

ولكن أصحابه ليسوا كهيئته صلى الله عليه وسلم ، فهم محتاجون إلى التذكير ، وهو يخشى عليهم أن يلفتهم الإعجاب بهذه البيوت والقصور المنقورة فى الصخر ، عن

العبرة والتأمل ، فتقسو قلوبهم ، فإذا قست ، كانوا أهون شيء على الله وعلى عدوهم . قال لهم : «علام تدخلون على قوم غضب الله عليهم» ؟ فناداه رجل فقال : نعجب منهم يا رسول الله ؛ فقال عليه السلام : «ألا أنبئكم بما هو أعجب من ذلك ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم ، وما هو كائن بعدكم . . . استقيموا وسددوا ، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتي الله بقوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا» ، وأهاب بهم جميعاً : «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، لا يصيبكم ما أصابهم»

والحق يا أخي أن هذا تعليم سام جداً ، فإن الأثر العجيب إذا كان لظالم وأعجب به الإنسان : فقد أعجب بالظلم من حيث لا يدري ، وأدخل على قلبه الفساد والجمود وهو لا يشعر ؛ وما الإنسان إلا قلبه الحي ، وضميره المنير الذكي ، فإذا فقده ، هان شأنه فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه شيئاً ؛ فانظر يارعاك الله إلى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على حياتنا ، ويقظة بواطننا ...

يا قوم : من يريد الحياة فليتعلم أسرارها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والالتفات إلى العهود السابقة وما كان للمرء فيها من ذكريات ، أمر من طبيعة الإنسان ، فلنوجه هذه الطبيعة وجهتها النافعة ... فإذا ذكر هذه العهود أو أماكنها فليجعل الذكرى حياة لقلبه ، ورجوعا إلى ربه ... فإذا كانت خيراً فهي خير ، وإن كانت شراً وفسوقا ومجانة ، اعتصر الخير منها أسفاً وتوبة ، وكان منها له حياة ... وإن كانت لا من الخير ولا من الشر ، فليقارن بين حاله اليوم وحاله بالأمس ، ثم ليخرج منه بعبرة .

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يرعى وهو صبي إبل أبيه الخطاب ، في بعض شعاب مكة ، وكان عمر الصبي يرى نفسه هيناً على أبيه ، لأنه كان غليظا عليه يؤذيه ويتعبه ... ودارت الأيام ، وانبثق نور الدعوة المحمدية ، ودخلها عمر ، ثم هاجرت الدعوة إلى المدينة ، فانتقل إليها عمر ... ودارت الأيام والأعوام أيضاً ، وانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وأبو بكر من بعده ... ودارت الأيام دورة ثالثة ، فإذا الإسلام مبسوط الرقعة مرفوع الراية نافذ الكلمة ، وإذا عمر سيد الناس جميعاً ، وأمير المؤمنين ومدبر أمرهم بعد صاحبيه ... ونسي عمر شعابه القديمة والإبل التي كان يرعاها هناك . وذهب مرة إلى مكة للحج في رفقة من أصحابه ، فإذا به في إحدى جولاته ، يرى نفسه في هذه الشعاب ، وإذا بقلبه الذكي المرهف يقف فجأة ،

ويتذكر عهود صباه فى هذه المراعى المجدبة ، ويذكر ما كان من شأنه المغمور بين أقرانه الرعاة المغمورين ، وما صار إليه اليوم من علو السلطان ، ونباهة الذكر ؛ فيعجب لتصاريف الله التى تقلبت به بين الأمس واليوم هذا التقلب ، ويصل به العجب إلى عمق العبرة ، فيقول لصحبه : « لقد رأيتنى فى هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب ، وكان غليظاً يدئبنى .. ثم أصبحت وليس فوقى أحد . » ولا يجد تصوراً يصوغ به مشاعره الرطبة إلا أن ينشد هذا البيت من الشعر :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد

من هذا يا أخى ترى ضرورة الحرص على الاستفادة من ذكر الآثار ، واستحضار الذكريات ؛ ونسأل الله توفيقاً فى ذلك ، نبلغ به ما نريد ، فإنه يحتاج إلى فطنة وكياسة وطبع حى متأثر .

رابعا — النظر إلى صور المعنويات ، وآثارها المحسوسة ، وأوصافها

وهذا مظهر رابع لخصائص العقلية العملية ، التى تخاطب الناس بلغة الواقع ، فعلى الداعية حين يتكلم عن الفضيلة والرذيلة ، والخير والشر ، والحق والباطل ، وما إلى ذلك ، أن يتجنب ما وسعه التجنب تحليل هذه المعنويات ، والتكلم عن معانيها التجريدية وفلسفتها النظرية ؛ وأن يكف عن الجرى وراء الفروض والتخمين ، وأن يكتفى بتناول صور هذه المعنويات ، وآثارها العملية ؛ فذلك هو الذى يراه الناس ويعقلونه ، وهو الذى يحسه الناس ويتأثرون به ، وهو الذى تتقرر به عواقبهم فى دنياهم وأخراهم . أما أن نصدع رءوسهم بالبحث عن الأخلاق مثل : ما أصلها ، وكيف تكونت ، فهذا ما لا شأن لعامة الناس به ، ولا يتوقف عليه نفع لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة .. فحسبهم من الخلق الأصيل أن يروا حسن أثره فى القلب ، وطيب ثمره فى عالم الواقع .

ونحن نتعلم هذا من القرآن الكريم ؛ فانظر مثلا حين أراد الله عز وجل أن يتحدث عن صفات فاضلة ، تخلق بها قوم فاستحقوا رضاه ، لم يذكر أصلها وفصلها ، كما تذكر كتب الأخلاق ، بل سن لنا ذلك السنن الواضح ، الذى يفهمه كافة الناس ، فأظهرها لهم فى صورة عملية واقعية ، فقال : « وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ، وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا

كانَ غَرَاماً ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً ، وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً ، وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . . . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً ، وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً . أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً »

وإنك لا ترى فى هذا الكلام المشرق ، شيئاً يكد الذهن ، أو لفاً ودورانا يورث السأم والملل ؛ بل تراه كثير المعانى ، سامى الحقائق ، شديد الظهور ، يزاحم ضوء الشمس فى الوضوح والجلاء ، حتى ليخيل للجاهل أنه ليس شيئاً لقربه من البديهة ، وهو فى الحقيقة كل شىء فى بابه .

ولست أريد أن أحلل هنا هذا السياق الجميل ، الذى تجلت فيه هذه الفضائل تجلياً عملياً ، فى مشية أصحابها ، وكلامهم ، وصلاتهم فى ليلهم ، ومناجاتهم لربهم ، والقصد فى معيشتهم ، والكف عن العدوان والشهوات المحرمة . . إلخ ولكنى أريد أن أنص على أن هذا السياق ، له من قوة التأثير ما ينهض الإنسان ، ويحمله على الاقتداء بهذه المثل العملية الفاضلة . . وذلك من أسرار الإعجاز ، التى لا طاقة للعقول بالتحديق فى آفاقها ، فضلا عن سبر أغوارها وأعماقها . . .

* * *

وطبيعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أشرب هذا التعليم الحكيم ، وطبع على هذا المنهج القويم ، فلم يعمد فى تعليم أصحابه إلى أنواع الفروض والتخمين ، بل سار على النهج العملى الذى سنه الله تعالى . .

ومن طرقه عليه الصلاة والسلام فى هذا ، أن يشير إلى الهيئة الظاهرة للعيان ، أو يقف عليها ويستنبط منها ما يريد ؛ ومن أمثلة ذلك ، أنه كان يكرر فى أحاديثه المعنى السامى ، الذى يدور حول تقدير الرجال بقيمهم النفسية ، لا بصورهم الظاهرية ، وكان يقرر هذا تقريراً عملياً يبلغ به قرارة اليقين ، ويطيب له خاطر الفقير والمسكين . . .

مر به يوما رجل ، فقال لرجل عنده جالس معه : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : رجل من أشراف الناس ؛ هذا والله حرىّ إن خطب أن يزوَّج ، وإن شفع أن يشفَّع .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم مر رجل آخر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ؛ هذا والله حرى إن خطب ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال لا يُسمعَ لقوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا » .

ونلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يختر للمقارنة رجلين متماثلين فى المظهر فقراً أو غنى ، ولو أنه فعل وقارن بين فقيرين ، ثم حكم بأفضلية أحدهما على الآخر ، لكانت المقارنة كافية لتثبيت المعنى ، وكذلك لو قارن بين غنيّين ؛ ولكنه عليه الصلاة والسلام قارن بين غنىّ خبُث باطنه وحسن ظاهره ، وبين فقير طاب باطنه وهان مظهره ؛ وتلك من اللفتات النبوية الدقيقة ، التى من شأنها أن تظهر تلك المفارقة الشاسعة بين هذين الطرفين . . . وقال فى هذا المعنى يوما لأبى ذر : أترى كثرة المال هو الغنى ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : فترى قلة المال هو الفقر ؟ قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : « إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب » . . فهذه أسئلة ألقاها الرسول على أحد تلاميذه ، وقد أجاب التلميذ على قدر ما يعرف ، فذكر له المعلم الأعظم صلوات الله عليه ، الحكم الصحيح فى الغنى والفقر ؛ ولكن أتراه اكتفى بهذا ؟ لا ، بل إنه مضى فى أسئلته الحكيمة المثيرة لرواكد النفس . . قال أبو ذر : فسألنى عن رجل من قريش ، هل تعرف فلانا ؟ قلت : نعم يا رسول الله ؛ قال : فكيف تراه ؟ قلت : إذا سأل أعطى ، وإذا حضر أدخل ؛ قال : ثم سألنى عن رجل من أهل الصفة (١) . فقال : هل تعرف فلانا ؟ قلت : لا والله ، فما زال يجليه وينعته حتى عرفته ، قال : فكيف تراه ؟ قلت : هو رجل مسكين من أهل الصفة ، قال : « فهو خير من طلاع الأرض من الآخر » .

وفى كتب السنة ما يفيد أن هذه المقارنة تكررت بصور مختلفة لتقرير هذا المعنى نفسه .

ومما نمثل به لما نحن بصدده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق يوما ، والسوق هو الدنيا مصغرة ، هذا يبيع ، وهذا يشترى ، وذاك ينادى على سلعته ، وآخر مقبل ، وغيره مدبر ، ولكل امرىء شأن يغنيه ، فهذا يحدث نفسه بربح ، وذلك يتمنى أن يظفر بسلعة رخيصة . . . فأراد عليه السلام أن يبين لهم قدر الدنيا التى أقبلوا عليها هذا الإقبال ؛ وكانوا قد علموا من قبل أن متاع الدنيا قليل ، وأنها

---

(١) الصفة : جانب من جوانب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقيم به فقراء المسلمين الذين لا مساكن لهم .

لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولكن هذا تعليم يقرر القواعد والأحكام العامة تقريراً تجريدياً ؛ فأحب عليه السلام أن يقرره اليوم لهم عملياً ، وهم فى زحمة الدنيا ، ووسائل الإيضاح بين أيديهم . . . مر عليه السلام وهو بالسوق بجَدْى أسك (١) ميت ، فقال لمن حوله : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشىء ! وما نصنع به ؟ قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا لكان عيباً فيه أنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « والله ، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .

وكما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم المعنى السابق فى أساليب متعددة من المقارنة العملية ، قرر هذا المعنى بالوقوف مرات متعددة على مثل هذه المناظر التى تعافها النفس .

ومن طرقه عليه السلام فى تجلية المعانى الدقيقة الخفية ، أن يَلفت النظر إلى ما لهذه المعانى من آثار محسوسة فى القلب ، لا تخفى على الإنسان . . .

سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما الإثم ؟ وما الإيمان ؟ وما البر ؟ . . هذه أسئلة عن معان دقيقة خفية ، يطلب بها أصحابها تعريفاً وافياً عن حقيقة ما يريدون ، فبماذا أجاب الرسول عليه الصلاة والسلام ؟

ترى لو سئل عن ذلك أحد الفلاسفة ، أو أحد حملة الإجازات العليا من الجامعات الكبرى ، فبأى شىء كانوا يجيبون ؟ . . . أما حامل الإجازات العلمية فكان يذهب إلى بطون الكتب ، ليستخرج منها أقوال العلماء ، ويقارن بينها ويفاضل ، ثم يخرج لك ببحث يظنه يرضى ويشفى ؛ وأما الفيلسوف فيعرفه لك تعريفاً تجريديا ، يزيد الأمر غموضا عليك ، وقد يتفضل فيملأ الأفق من حولك تحليلات وتعليلات ، وفروضاً وتخمينات ، مما يخرج منه وأنت تشعر كأنك لم تتصل بشىء مما سألت عنه ، بل وأنت نادم على أنك سألت ! . . ولكن انظر يا أخى إلى إجابة سيد العارفين ، وقدوة المعلمين صلى الله عليه وسلم :

الإثم : « إذا حاك فى نفسك شىء ، فدَعْه » . . . « الإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

الإيمان : « إذا ساءتك سيئتك ، وسرتك حسنتك ، فأنت مؤمن » .

قال وابصة بن معبد : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا لا أريد أن أدع شيئاً من البر إلا سألت عنه ؛ فقال لى : ادن يا وابصة ، فدنوت منه ، حتى مست ركبتاى ركبتيه ؛ فقال لى : يا وابصة ، أخبرك ما جئت تسأل عنه ؟ قلت : يا رسول الله أخبرنى

---

(١) أسك : صغير الأذنين

قال : جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت : نعم فجمع أصابعه الثلاث ، وجعل ينكت بها في صدري ، ويقول : « يا وابصة ، استفت قلبك : البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ؛ والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

وما أحب أن أعلق هنا بشيء ، لأنى أريد أن تسائل نفسك عن مبلغ رضاك ، واطمئنانك إلى سداد هذه الإجابة ، التي تصل بينك وبين هذه المعاني بصلات قلبية وثيقة ... فعليك يا أخي بهذا النهج الفطري العملي ، فإنه نهج يُعرض عن كل ما لا تأثير له في الموضوع ، ويتناول ألوان الأحاسيس التي هي ثمر ذلك كله ، والتي ينبعث الإنسان بقوتها إلى البر أو الإثم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « في القلب لِمّتان : لمة من الملك ، إيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه ، وليحمد الله ؛ ولمة من العدو (الشيطان) ، إيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، ونهى عن الخير ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ثم تلا قوله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم »

جزى الله عنا مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أهل له ، بل ما الله أهل له . أي نفس هذه يا أخي ! ؟ ... اقرأ الحديث ، بل اقرأ كل ما سبق من أحاديث ، وخبرني : ماذا أراد لنفسه منا ؟ إنها كلها لنا ، فقد وقف حياته يعلمنا ويطهرنا ، ويذود الشيطان عنا ، ويحرص على سعادتنا ، ويقول في صدق وحنان : « إنما أنا منكم كالوالد من ولده » ماذا أخذ رسول الله لنفسه ؟ لقد خرج من الدنيا ودرعه العزيزة مرهونة عند يهودي على حفنات من شعير ...!

لا نقرأ إلا تعليما للحقائق ، وتوجيهاً للخير ، وإيقاظاً لملكات القلوب ، ونلمح من خلال ذلك ومن وراء ذلك — قلباً يفيض حنانا ، ورحمة ، وحرصا على سعادتنا حرصاً عميقاً نشهده في كل كلمة ، ونحسه في كل عمل ، كأشد ما يستغرق الرجل في خير أبنائه . صلى الله عليك يا رسول الله صلاة دائمة وسلم تسليما كثيراً . . !

ونقول مرة أخرى : أي نفس هذه . . ؟! إنك تراه يا أخي يعلم هذا التعليم العجيب وهو يحرص على تحذيرك وتنبيهك . فللقلب جانبان ، في كل جانب لمة — واللمة : الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن مسترسلا إلى المنكب ليقترب منه — إحدى اللمتين بيد الملك ، والأخرى بيد الشيطان . فهما يتجاذبان القلب من هاتين اللمتين ، ولكل

جذبة منهما خواطر فى الصدر ؛ فجذبة الملك تبعث خطرات الخير وتصديق الحق بإذن الله ، وجذبة الشيطان تبعث خواطر الشر وتكذيب الحق والشك فيه . أرأيت يا أخى هذا التنبيه العجيب وهذا التعليم السديد ، الذى يحيلك إلى أعماق نفسك ، ويلفتك إلى الانتفاع بتحليل خواطرك ؟ فمن وجد خواطر الخير فليعلم أنه من الله سبحانه وليحمد الله عليه ، ومن وجد خواطر الشر فليفر إلى الله مستعيذاً به من الشيطان الرجيم : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » .

وإننى يا أخى أدعوك معى إلى الاستغراق فى الإعجاب التام بجمال التعليم ، وبجمال الرحمة فى قلب النبى صلى الله عليه ، فرحم الله عبداً أدام الإصغاء إلى هواتف قلبه ، فما كان من هواتف الخير استجاب له وأمضاه وأنفذه ، وما كان من هواتف الشر قمعه بالمجاهدة والتطهير والفرار إلى الله سبحانه وتعالى .

وصف هذه المعانى بأقرب أوصافها العملية التى تبين أو تمثل حقيقتها ، على أن يكون هذا الوصف مرغباً أو منفراً ... فالذى يسأل الناس مثلا إنما يريق ماء وجهه ، وأكرم شىء على الإنسان وجهه ، فانظر كيف يصور رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة تصويراً يصد عنها وينفر منها ... قال عليه الصلاة والسلام : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى تلقى الله تعالى ، وليس فى وجهه مزعة (١) لحم » وقال : « إنما المسائل كدوح (٢) يكدح بها الرجل وجهه ، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك » .

وقال على كرم الله وجهه : قلت للعباس : سل النبى يستعملك على الصدقة — أى من الأمراء الذين يشرفون على جبايتها ويأخذون أجراً عليها — فسأله ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما كنت لأستعملك على غسالة ذنوب الناس » ، وهذا الوصف حق ، توصل إليه النبى عليه السلام بملاحظة معنى قوله عز وجل : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » .

وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل ينام كل الليل حتى يصبح ، فقال : « ذلك رجل بال الشيطان فى أذنه » .

وذلك أن الذى لا تحدثه نفسه أن يقوم من الليل ، فيصلى ، ويستغفر ، ويدعو الله عز وجل ، إنما هو رجل غافل ، محجوب عن حقيقة الخير ، جاهل بأوقات المغانم ؛

---

(١) قطعة (٢) خدوش

رجل يسخر به الشيطان ، ويبول فى أذنيه الفارغتين ، استهزاء بغفلتهما عن نداء الله فى الثلث الأخير من الليل : « هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟.. » إلى آخر الحديث القدسى المعروف .. فنعوذ بالله من الغفلة عن ذكره بالليل والنهار .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الجمعة — أى صلاتها — حج المساكين » ، وهو وصف صادق يلم بحقيقة الجمعة من هذا الوجه خير إلمام ، فالمساجد بيوت الله ، والكعبة المشرفة بيته عز وجل ، ولكنها تمتاز بأنها أعظم البيوت قدراً وبركة .. فالحج إلى المساجد يوم الجمعة لزيارة الله ، كالحج إلى زيارته عز وجل فى بيته المعظم ، مع مراعاة أن الفرق بين حج المساجد وحج البيت الأكبر ، كالفرق الشاسع بين حرمة هذه المساجد العادية وحرمة بيت الله الحرام . لكن الله عز وجل بفضله وكرمه يطلع على المساكين من عباده ، الذين تقعد بهم حالهم عن الحج الأكبر ، فيكتب لهم عن كل جمعة يؤدونها ثواب حجة كاملة ، فطوبى للمساكين ، عيال الله فى الأرض ، وأولى الناس برعايته وحمايته ، فاللهم ارحمنا برحمتك إياهم ، واجعلنا منهم ، واحشرنا فى زمرتهم تحت لواء رسولك الكريم .

ومن حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارتعوا فى رياض الجنة ! قالوا : وأين رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر ... فاغدوا وروحوا فى ذكر الله ، وذكروه أنفسكم » .

وقد قدمنا فى كلمة سابقة أن ذكر الله نفحات تتنزل من رياض ملكوته ، تعجل للانسان أرواح الجنان وهو فى قرارة الدنيا ، وكان بعض الصالحين يقول : من أحب أن يستوطن الجنة وهو فى الدنيا ، فليستوطن مجالس الذكر ؛ ويقول بعضهم فى هذا : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة » . وهذا كله مأخوذ من الوصف الحقيقى الذى أبان به عليه السلام حقيقة الذكر .

ويقول عليه السلام : « إن المؤمن يُنْضى[1] شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر » وما نرى وصفاً أصدق ولا أبين من هذا الوصف ، الذى يشرح اجتهاد المؤمن فى سفره إلى الله عز وجل ، فإنه سفر يبادر فيه بالطاعات ، والباقيات الصالحات ، ويتحصن فيه بدوام الذكر ، فلا يجد شيطانه فرصة للقبض على عنانه ، وتحويله عن غايته .

ولكل إنسان شيطان يلزمه من مولده إلى مماته ، كما يقول عليه السلام ، وشيطان المؤمن الجاد فى سيره ، يلهث من وراء صاحبه حتى يلحقه الضنى والهزال ؛ وليس أطيب لقلب المؤمن من هذا الوصف ، ولا أبعث منه على مضاعفة الجد والحذر .

---

(١) يضنيه ويلحق به الهزال .

هذه يا أخى أحاديث تتناول وصف بعض الرذائل ، ووصف بعض الفضائل ، سقناها على سبيل التمثيل لأسلوب الدعوة إلى الله ، وهو الذى وضعناه عنوانا للمظهر الرابع من مظاهر العقلية العملية ، فى صدر هذه الكلمة . وهى أوصاف كما رأيتها تمتاز بميزتين أصليتين : الصدق التام فى بيان الحقيقة ، وإثارة شعور البغض أو الرضى إثارة قوية تنفر من الرذيلة ، أو تستحث الهمة إلى الفضيلة ؛ وحذار يا أخى أن تظن أن هذه أوصاف وضعت كيفما اتفق ، بقصد الترهيب والترغيب فقط ، هيهات هيهات إن هذا شأن البشر العادى ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لاينطق عن الهوى ، ولا يحدث إلا بميزان ، فهو الوصف الصادق الذى يقتنص الحقيقة ، ويضعها بين يديك .. وحذار مرة أخرى ، أن تظن فى هذه الأوصاف شيئا من إرادة التمثيل والمجاز ، كما يظن بعض ضعاف العقول أحيانا ، فإن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من جلالة القدر بحيث ينتهى مثلى ومثلك ومن هو أكبر منى ومنك عن أن يقتحم حرمته ، فيؤول كلامه ، ويصرفه عن ظاهره بغير موجب ؛ ولو أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الظاهر من لفظه ، لكان فى التشبيه ، وضرب الأمثال ، وأنواع الاستعارات ، وغير ذلك من ألوان البيان العربى ، ما فيه الكفاية لبيان مراده .

وقد ساق رسول الله صلى الله عليه وسلم الكثير من مراده فى تشبيهات ، وضرب أمثال ، واستعارات وكنايات ، حين رأى المقام يقتضى ذلك ؛ فكن على هذا يا أخى فى تفهم كلمات الرسول ، وتفهم كلام الله عز وجل ، فهو أبقى على عقيدتك ، وأنزه لعرضك ودينك .

أقول هذا ، حتى لا يترك أحدنا لنفسه الحبل على الغارب ، فيصف الفضائل بما يشاء من الأوصاف الحسية التى تحلو فى بيانه الصناعى ، ويصف القبائح بما يرضاه الفن الدارج .. لا ، إننا نصف الحق ، فعلينا أن نستقى هذه الصفات من المصدر الذى تعلمنا منه الحق . الكتاب والسنة ؛ فإذا عدوتهما لحقك الخطأ ، وظهر التناقض فى كلامك بعد قليل . هذا شأن الورعين فعليك به ، والتزم منهاجهم فى كل وصف تريد أن تقرب به حقيقة من الحقائق إلى أفهام الناس وقلوبهم .

ولنضرب لك مثلا من كلام السلف تنسج على منواله ، إن شاء الله ؛ فمثلا يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : شيطان المؤمن مهزول ؛ وهو وصف يأخذ من معين الحديث الذى سقناه منذ قريب . . ويقول فى هذا المعنى نفسه قيس بن الحجاج : قال لى شيطانى : «دخلت فيك وأنا مثل الجزور[1] فصرت الآن مثل العصفور ، قلت :

---

(١) الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى .

ولم ذاك ؟ قال تذيبنى بذكر الله » . . فهى محاورة تصور ما بين المؤمن وشيطانه ، بحيث لا تعدو ما أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك .

وهاك مثلا آخر ، وهو يأخذ من معنى الحديث الذى يصف الصدقات بأنها غسالة ذنوب الناس .

قال أسلم مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : قال عبد الله بن الأرقم : دلنى على بعير من العطايا ، أستحمل عليه أمير المؤمنين — أى يطلبه من أمير المؤمنين ليحمل عليه أثقاله ويقضى مآربه — قال أسلم : فقلت له : نعم ، هذا من إبل الصدقة . . وهنا عف عبد الله بن الأرقم عن هذا الجمل ، لأنه كان يرجو جملا من الغنائم ، أو مما شرى أو حبس للمصالح العامة ، فقال لأسلم يصور له زهده فى جمل الصدقة : أتحب لو أن رجلا بادنا فى يوم حار ، غسل ما تحت إزاره ورفغيه (١) ثم أعطاكه فشربه ؟ قال أسلم : فغضبت ، وقلت : يغفر الله لك ، لم تقول لى مثل هذا ؟ قال : فإنما الصدقة أوساخ الناس يغسلونها عنهم .

هؤلاء يا أخى كانوا ينظرون إلى كلام رسول الله بالمنظار المكبر ، أستغفر الله ، بل بالمنظار الذى يرى المعانى على حقيقتها كبيرة عظيمة ، منظار القلب المتدبر الواعى ، ثم يأخذون من قلوبهم ما يشاءون ، فيتصرفون فيه على ما رأيت .

وقد يأتى شىء من هذا القبيل فى باب مصادر الداعية إن شاء الله تعالى ؛ جمعنا الله وإياك على الحق الذى اجتمعوا عليه إنه قريب مجيب !

خامسا — مقابلة الحقائق المغيبة بأحوال دنيانا العملية :

قد وصف الله لنا أحوال الجنة والنار ، ووصف الحساب والميزان ، ووصف عرض الناس عليه ، وما يكون من حسرة يومئذ وندامة ، ووصف زلزلة الساعة وما لها من هول شديد ، وتحدث عن ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ووصف العرش والكرسى ، وذكر اللوح والقلم ، وذكر غير ذلك من حقائق لاشك فى وجودها ؛ ولا شك فى أننا لا نستطيع أن نبصرها أو نحسها لأننا لم نجهز بالمدارك التى تدرك هذه الحقائق العليا ، كالذى يولد فاقد حاسة الشم مثلا ، فلا يستطيع أن يجد ما للعطر والمسك والزهر من ريح طيب ، لأنه لم يجهز بالحاسة المختصة بإدراكه ؛ فإذا أراد الله عز وجل أن يطلع أحداً من خلقه على شىء من هذه المغيبات ، كان ذلك بغير

---

(١) إبطيه

حواسنا العادية . . يرفع عنه الحجاب فيرى ما شاء الله أن يرى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ، إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً » .

وقد جاءت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مفصلة لما أجمل القرآن الكريم من هذه الحقائق المغيبة .

وهذا باب خطير ، لو أحسنا عرضه على الناس حتى أحسته قلوبهم ، وتمثلته نفوسهم ، لأنقذنا الإنسانية من شر مستطير ، ولفتحنا لها بإذن الله أبواباً تنفذ منها إلى سعادة الدنيا والآخرة ؛ فإن الناس أصيبوا بالغفلة عن معادهم ، وكثير منهم أصيب بالشك فيما بعد الموت من حياة وحقائق ، وأصيب بغير ذلك من إنكار الجن والملائكة وكل مايقال عنه إنه وراء المادة ؛ وهذه الآفات التى أدركت أكثر الناس حجبتهم عن خير كثير ، أو عن الخير كله ، وجعلتهم لا يؤمنون إلا بالمدنية المادية وما فيها من المتاع الأدنى ؛ فهم يتنافسون فيها كالمساعير ، ويتقاتلون عليها كالمجانين ، ويذهبون فى هذا التنافس والتقاتل إلى أبعد مدى من الشناعة . . . إلى مدى تحسب معه الوحوش أقرب إلى الإنسانية منهم . . . « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » .

إذاً ، فلندع هؤلاء إلى الإيمان بالغيب الذى جحدوه ، ولندعهم إلى الإيمان بما بعد الموت من حياة وحقائق ، حتى تعود إليهم إنسانيتهم ، وسلامهم وسعادتهم .

والمدار هنا على حسن عرض هذه الحقائق .. فيجب أن تعرض عرضاً يلمس بها القلوب لمساً ، فتفيق فجأة ، أو تفيق بالتدريج . .

فى الناس أقلية يزعمون أنهم خاصة أهل الفكر ، فهم يحتاجون إلى أن تعرض عليهم هذه الحقائق فى أساليب علمية ، وقضايا منطقية . فلتدع هؤلاء بمنطقهم إذا استطعت ؛ أما الجماهير فمن أقرب الوسائل إلى التأثير فيهم ، أن تعرض كل حقيقة من هذه الحقائق ، بعد أن تختار لها ما يقابلها من أحوال دنيانا العملية ، فتعرض الحقيقة وشبهها ، وتعقد بينهما شبه مقارنة ، فإن هذا مما يفتق لها أغلفة القلوب ، وينفذ بها إلى سويدائها .. ونوصى هنا بكثرة التذكير وتلاحقه ، فإن طول الأمد ينسى ، فتقسو القلوب .

وقف أحد الإخوان مرة يتكلم فقال : إن ملكا عظيما أراد أن يحدث فى ملكه منصباً خطيراً ، هو منصب النيابة عنه فى ناحية هامة من ملكه ، فاستشرف لذلك كبراء المملكة وأمراؤها ، وأخذ كل منهم يبدى من التلميحات ما يكاد يصرح برغبته فى تولى هذا المنصب ؛ وفيما هم كذلك فاجأهم الملك بأنه سيختار شخصاً ليس فى حسبانهم ، شخصاً من عامة الناس لايؤبه لشأنه ، وكلفهم أن يقروا له بالتعظم ، احتراماً لأمر الملك واختياره إياه ؛ فنزل الجميع على إرادة الملك طائعين ، إلا شخصاً أكل الغيظ قلبه ، وملأ الكبر نفسه ، فأبى أن يقر لهذا الوضيع — فى زعمه — باحترام أو تعظم ، وعصى أمر الملك ، فطرده الملك من نعمته ، وأعلن عليه غضبه ، فاغتاظ هذا المطرود وأخذ يقول : سوف ترى مايحصل من هذا الذى قدمته على ؟ سوف أتحبب إليه وإلى أبنائه حتى يجحدوا جميلك ، ويبتعدوا عنك ، ويكون أكثرهم معى على مايغضبك ، فأخرجهم من كرامة قربك ، وعزة الجاه بك ، و ..

وكان الملك رحيما بهذا الرجل وذريته ، فأخذ يرسل إليهم ، يذكرهم عداوة هذا الخبيث المطرود ، ويحذرهم منه ، وينهاهم أن يطيعوه فى شىء ، وينذرهم بأن العاقبة إذا أطاعوه ، لن تكون إلا الطرد من عزة المنصب ، ونعمة الملك ، إلى حيث الهوان والشقاء .

ومضى الأخ يقول : والعجيب أيها الإخوان ، أن هذا الشخص الذى ولى المنصب الخطير ، وذريته من بعده ، سرعان ما نسوا عداوة هذا العدو المبين ، فصار أكثرهم يعرض عن تحذيرات الملك ، ويستمع إلى حلاوة حديث عدوه ، وإنها لحلاوة فيها السم الناقع ، فإذا مال أحدهم إليه ، ظل يستدرجه حتى يوقعه فى غضب سيده ، فيكون من المطرودين .. فهل هذا من العقل والحزم ؟ وهل هو من الإقرار بجميل الملك وشكر نعمته ؟ هل من العقل والحزم ، أن ينقاد هؤلاء إلى عدوهم اللدود ، الذى طرده الملك بسببهم ؟ هل من العقل والحزم أن يقتربوا منه ، فضلا عن أن يطيعوه فى شىء يغضب سيدهم وولى نعمتهم ؟ ..

قال الأخ : أيها الإخوان ، إذا كنتم تعجبون لهذا الشأن أو تستبعدون حدوثه ، فاعلموا أنه قد حصل فعلا ، وأننا نحن الواقعون فى هذا الذى نستبعد .. فإن الملك العظيم هو الله عز وجل ، والمنصب الخطير هو منصب النيابة والخلافة عنه فى هذه الأرض ، وكبار المملكة هم ملائكته الذين قال لهم : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » ، فكأنهم استشرفوا للمنصب ، وأحبوا أن يؤثرهم الله به ،

وأرادوا أن يشيروا من بعيد فى أدب جم ، إلى استحقاقهم هذا الشرف ، فقالوا :
« أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ »
وهل يكون جديراً بهذا المنصب إلا من يصلح له ولا يفسده ؟ فكأنهم يشيرون
إلى خصوصياتهم العالية التى ترشحهم لهذا الأمر الخطير ، وانظر إلى قولهم :
« وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » ، فأجابهم الله عز وجل : « إِنِّى أَعْلَمُ
مَالَا تَعْلَمُونَ » .

وأعلن الله حقيقة الشخص المختار ، فإذا هو .. قبضة من تراب الأرض لا أقل
ولا أكثر ، وأمرهم أن يعظموه لأن الله عظمه ورفعه ..

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ : إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِين فَإِذَا سَوَّيْتُهُ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ؛ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ،
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ
أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ؟ أَسْتَكْبَرْتَ ؟ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ؟ قَالَ :
أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ : خَلَقْتَنِى مِنْ نَار وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِين ، قَالَ فَاخْرُجْ فَإِنَّكَ رَجِيم ،
وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ! » .

هذه يا إخوان قصتنا مع هذا العدو اللدود ، يقصها الله علينا ، فماذا كان من
شأننا معه ؟ لقد وقعنا فيما كنا نستبعده ونستنكره من الرجل وذريته ، وما هذه
الذرية إلا نحن ، وما الخطأ الشنيع الا خطؤنا نحن .

لقد ثار العدو فقال : « رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الْأَرْض
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ » ، « ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ » .

فانظروا يا إخوان ، إلى مدى مابلغ حرص هذا الشيطان على إهلاكنا وإخراجنا
من رحمة الله ! كل هذا لعداوته وحقده الذى لا يطفئه إلا أن يكبنا على وجوهنا
فى نار جهنم ، وهيهات أن يطفأ هذا الحقد ، أو تذهب هذه العداوة !

وكان من رحمة الله بنا أن نبهنا إلى هذا العدو وحذرنا من كيده : « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ » ، « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » ولفتنا إلى الحرص على عزة الخلافة ، وحذرنا أن ننحرف إلى موالاة هذا العدو فيقول: « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً » وصور لنا حقده الذى لا يهدأ ، فذكر أنه لا يزال بفريسته . يستجرها بعيداً عن الله ، حتى تقع فى قبضته ، فيسومها الحرمان من الرحمة والكرامة ، ثم يكبها أخيراً فى نار جهنم ؛ فإذا بلغ أمنيته وقف يتشفى بمنظرها وهى تحترق فى نار السعير ، ويصب فى أذنها من التهكم والسخرية ما يقطع القلب غيظاً وألما : « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ : إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ؛ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

وأخذ الأخ يتكلم عن غفلة الإنسان عن رسالته فى خلافة الأرض وما فيها من عزة وكرامة ؛ ويتكلم عن غفلته عن عداوة الشيطان الرجيم ، الذى لا أرب له إلا أن يهلكنا ، ويتكلم عن غفلتنا عن تحذير الله وإنذاره ؛ حتى انتهى بوجوب الخروج عن هذه الغفلات كلها ، والإقامة على الحذر والخشية والتنبه .. أى الإقامة على ذكر الله وشكره .

وليس هذا النوع من قبيل ما تقدم فى ضرب الأمثال ، فإن ما سقناك هناك ، إنما هو خاص بتشبيه حال المعنويات ، بحال تناسبها من الواقع ؛ أما هنا ، فمقارنة بين أمور واقعة فعلا فى عالم لا نراه ، وأمور تشبهها بعض الشبه تقع فى عالمنا المنظور ؛ والقصتان اللتان ذكرناهما الآن ، ليستا من نسج الخيال — نستغفر الله — فإن إحداهما حصلت فعلا فى الملأ الأعلى ، والأخرى مما يقع أو مما يجوز وقوعه فى عالمنا . وبهذه المقارنة نقيس الغائب بالحاضر ، حتى تنقشع عن القلب حالة الغموض والإبهام التى تحيط بهذه السمعيات ، فيشاهدها القلب حتى لكان الإنسان يراها رأى العين ، كما يقول سيدنا حارثة رضى الله عنه فى الحديث المشهور : يارسول الله عزفت نفسى

عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأتُ نهارى ، حتى لكأننى أرى عرش ربى بارزا ، وكأن الجنة عن يمينى ، والنار عن يسارى ، والصراط تحت قدمى .

ومما نسوقه على سبيل المثال أيضا ، أن من عادة الملوك الحكماء أن يكافئوا أهل الجد والإخلاص ، الذين يعملون غير ناظرين إلى جزاء مادى . . .

هؤلاء الصادقون الذين يرضون سيدهم ، يكونون من نفسه فى المحل الرفيع ، فإذا قدموا عليه يوما ، أفاض عليهم كرامته ، وتلقاهم بما يشرح صدورهم ، وأمر حاشيته « والتشريفاتية » أن يدخلوا عليهم ، بالترحيب بهم ، والاحتفاء بمقدمهم ، والتسليم عليهم ؛ هذا الذى يحدث فى الدنيا ، يحدث خير منه لدى ملك الملوك عز وجل . . اقرأ معى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ : جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ويفيض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى توضيح حال هذه الكرامة بقوله : « إن أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور وتُتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : إيتوهم ، فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ، ونسلم عليهم ؟ فيقول : إنهم كانوا عبادا يعبدوننى ، لا يشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، »

هذان أمران : أحدهما غيب من غيب الملأ الأعلى ، والآخر مما يألفه أهل هذه الدنيا ، ولكن المقارنة بينهما تسر القلوب ، وتبعث النفوس على الانشغال بحقائق هذا الغيب .

ولا تظن أننا ذكرنا فى هذه المقارنة كل ما يجب أن يقال ، إنما فتحنا الباب ، وأشرنا إلى الطريق فقط ، وما عليك إلا أن تستعين بلباقتك فى إتمام المقارنة ، فأمامك مثلا أن ملوك الأرض لا يلتفتون إلا إلى تكريم أهل الثراء والوجاهة ، ممن

يتظاهرون بالإخلاص والعمل ، ولكن الله عز وجل لا يقيس بهذا المقياس ، فالمعول عليه عنده حقائق القلوب ومعادن النفوس ، حتى ليكون أول من يدخل الجنة من خلقه « الفقراء المهاجرون . . . إلخ » ؛ وأمامك غير هذا مما لا نطيل بذكره فهو واضح .

ويذكر الكثير من إخواننا ، أن حضرة صاحب الفضيلة المرشد العام للاخوان المسلمين ، يعظ الناس بوعظة من هذا القبيل ، فيذكر(١) أن أحدنا إذا كانت له قضية وجاءه إعلان من المحكمة بموعد الجلسة ، فإنه يشتغل بأمر هذه القضية فلا يغيب لحظة عن باله ، فيستشير أهل العقول الناضجة ويشرع فى إعداد المستندات ، وتوكيل المحامى واختيار الشهود ؛ فإذا كان يومُ الجلسة ، مضى إليها وهو منفعل بشتى الأحاسيس ، كل هذا وقد يحكم عليه — إذا حكم — بغرامة مالية ، أو سجن شهور أو سنوات . فإذا حكم عليه ، كان أمامه فرصة يرفع فيها أمره إلى محكمة أعلى هى محكمة الاستئناف فإذا حكمت عليه ، رفع أمره أخيراً إلى محكمة النقض والإبرام ... ومع هذه الفرص تراه يوم الجلسة كثير الوساوس والمخاوف .

يقول الأستاذ المرشد : إذا كان حالك يا أخى فى هذه القضية التافهة على ما نرى ، فكيف وأنت مدعو إلى قضية كبرى ، إعلان الدعوة فيها القرآن الكريم ، والمحضر الذى يعلنك بالمحاكمة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموعد الجلسة يوم الفصل ، ومكانها الساهرة ، والقاضى ليس بشراً من البشر ، بل هو رب العزة والجبروت ، قهار السموات والأرضين ؛ وشهودك منك وعليك ، وهم لسانك ويداك ورجلاك وجلدك — والحكم أخيراً لا نقض فيه ولا إبرام ، لأنه حكم القاضى الذى لا يضل ولا ينسى ، ولا غرامة هنا ولا براءة ، وإنما هنا نار وقودها الناس والحجارة ، أو جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

كل ذلك يستشهد له فضيلة الأستاذ — رحمه الله وأعزه — بالقرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وما نحسب إلا أن هذه الأمثلة قد جلت لك حقيقة ما نريد .

---

(١) نحن هنا نلخصها فى إيجاز فقط وإلا فهى مسهبة رائعة .

سادسا — النظر فى آيات الله فى الآفاق ونعمه السابغة على الناس

تمهيد :

يا أخى ، ها هو ذا الكون أمامك ، تملؤه آيات الله سبحانه فى السماء والأرض ، وها أنت ذا تنظر إليه بعينيك ، وتصغى إليه بأذنيك ، وتذوق طعومه بفمك ، وتشم روائحه بأنفك ، وتسير فى فجاجه برجليك ، وتعالج مواده بيديك ؛ فأنت متصل به ، وهو متصل بك ، لا ينفك أحدكما عن الآخر .

هذه حقيقة لا تقبل المراء ، فهى من الأمور الواقعة تحت الحس ، وإدراكها من البديهيات التى لا تقبل الجدل . . .

فأنت إذ تقول إنى أرى سماء وأرضا ، وشمساً وقمرا ، وجبالا وأنهارا ، وزرعا وأنعاما وناسا ؛ أرى ذلك كله ، أرى شخوصه ، وأسمع أصواته ، وأشم روائحه ، وألمسه ويلمسنى ، وأتسرب إليه ويتسرب إلى — حين تقول هذا ، إنما تعبر عن شىء ملموس ، واقع تحت حسك وحس الناس جميعا . . .

ماذا فهمنا من الكون ؟

ومن حقنا أن نجعل هذا الكلام مقدمة لنتيجة منطقية مترتبة عليه ، هى أن الإنسان لابد أن يكون قد أحاط بهذه الأشياء التى اتصل بها واتصلت به ، وتسرب إليها وتسربت إليه ، فأشبعها نظراً وتأملا ، حتى لامس أسرارها وعرف أقدارها . . . أليست هى أول شىء طالعه فى هذا الوجود ؟ ومعرفتها أول بديهية حلت فى خزانة معارفه ؟

لا نطلب إليه أن يحيط بها إحاطة علمية ، على المعنى الفنى الاصطلاحى ، فهذا جد عسير ؛ إنما نطلب أن يحيط بها إحاطة عاطفية ، فتنفذ إحساسات قلبه فى هذه المشاهدات ، حتى تستشعر عظمتها وجلالها . . . هذا ما ترتبه بل ما يرتبه المنطق على المشاهدة الساذجة الأولى . . . فهل ساير الإنسان هذا المنطق ، فترقى فى نظره إلى الوجود ، مبتدئاً من النظر الأولىّ السطحى ، إلى النظر الشامل النافذ ، المثير لعواطف الإعجاب ؟ أم أنه اكتفى بالنظرة العابرة الغافلة ، ووقف لا ينقل قدما عن قدم ؟

طفولة الإنسانية

إنه رأى السماء وهو طفل ، ويرى السماء الآن وهو رجل ، فهل تغير نظر الرجولة عن نظر الطفولة ؟ . . إنه رآها وهو طفل ، شيئاً أزرق يغطى الدنيا ، فهل تأمل فيها وهو رجل ؟ ... هل تأمل فى سعة أقطارها ، وامتداد أرجائها ، وعظمة خلقها ؟ ... هل حاول أن يمد يده إليها ، لينظر حقيقة عجزه عن أن ينالها ؟ . . . هل فكر فى أن يقارن بين ما يصنعه هو بيده ، وما يصنع الله فى هذه السموات الهائلة الرائعة ، لينكشف لقلبه خطورة هذه الآية الضخمة المعجزة ؟ ... هل حدق بعين قلبه فى هذا المخلوق الجليل العجيب ، باحثاً عن خالقه المقتدر العظيم ، الذى يصنع ما تراه العيون ، وهو مستتر بلطفه عن العيون ؟ . . . هل نظر إليها هذا النظر وهو رجل ؟ أم ظل ينظر كما كان وهو طفل ؟ ... لا مراء أن نظر الرجل إلى السماء ، وإلى غيرها من آيات الله لا يعلو نظر الطفل . . . فالرجل من هذه الوجهة طفل كبير ، لم يتقدم فى نظره إلى الوجود تقدما يذكر . . . بل إن الإنسانية فى تاريخها الطويل ، لم تتقدم فى هذا المضمار تقدماً يسمح لنا أن نقول إنها غادرت به طور سذاجتها الأولى وطفولتها الغافلة اللاهية .

الإنسانية بين نظرة ونظرة :

إن تقدم الإنسان الصحيح ، مرهون بالانتقال من النظر الساذج ، إلى النظر القوى الفاحص ، الذى يفتح عين صاحبه وقلبه على روعة الآية التى ينظر إليها ، ويبث فيه الانفعال بما فيها من أسرار الله وحكمته .

فى هذا الانتقال تقدم الإنسانية وكمالها ، فإن النظرة عنوان صاحبها ، أو عنوان حياته الباطنية : فإذا كانت نظرة جامدة فهى عنوان الباطن الجامد ، والشعور الخامد ، والقلب الميت ؛ وإذا كانت نظرة قوية حية ، فهى آية الباطن القوى الحى ، والوجدان المنفعل المياد ، والقلب اليقظ الفياض بمختلف المشاعر الكريمة . . . وما حياة الإنسانية إلا حياة هذا الباطن وقوته ، وما كمالها إلا تقدمه نحو العواطف الربانية الخيرة ، وإذا قال قائل غير هذا ، فهو يمعن فى الضلالة والخبل .

فانظر يا أخى إلى الإنسان وغفلته ، بل وبلادة مداركه الباطنة . . ينظر إلى السماء وينقل طرفه فى أنحائها ، فلا تحرك فيه إحساساً من أحاسيس الرهبة والجلال ! . وينظر إلى الشمس مسخرة فى السماء ، فلا يتقطع وجدانه إعجابا بها ودهشة لشأنها . . بل ينظر إلى هذا وغيره كأنه لا خطر له ، بل كأنه لا وجود له .

إنه الإنسان الطفل ، وإن بلغ من العمر ما بلغ ! ! وإنها الإنسانية الأولى ، وإن قطعت من الأجيال والأحقاب ما قطعت ... نعم هى الطفولة التى تقتضيك أن ترثى لصاحبها وتعطف عليه ؛ الطفولة التى لا تفهم إلا ما يدور فى محيطها الصغير ، وتنفض يدها معرضة عما يدور بين الرجال ذوى المواهب الكبار ... انظر إلى الطفل يرى رجالا يتحدثون فى شأن ما ، فيسمع كلامهم ، ولكنه لا يفقهه ولا يروقه ، فيعرض عنه فإذا رأى أطفالا يلعبون ، أو يتحدثون أسرع إليهم ، وفهم عنهم ، وذاب فيهم وفرح بهم ... وهؤلاء الرجال — أستغفر الله ، بل الأطفال الكبار — يعلن فيهم ماركونى : أنه سيدير زراً فى إيطاليا لينير به مصباحاً فى استراليا ؛ فيعجبون ، ويجعلون هذا النبأ حديث مجالسهم ، وسمر أنديتهم ، وكلهم تمجيد لهذه المواهب ، وتكريم لقدرة مخترعهم الكبير ... بينما السماء تظل عليهم كل ليلة ، بما لا يحصى من ملايين المصابيح لا بمصباح واحد ، ينيرها الله عز شأنه بغير زر ! ... مصابيح تضىء ولا زيت لها ! وتنير ولا كهرباء فيها ! فأى النبأين أحق بالإعظام ، وإطالة التعجب والاهتمام ؟ ولكنك ترى الأطفال الكبار ، لا يعيرون مصابيح السماء لفتة واحدة ، ولا يجعلون لها فى أحاديثهم ساعة من ليل أو نهار ... ذلك أن هذه الكواكب المطلة من علياء سموات الله ، تحدث عنه أحاديث العظمة والجلال ، وهى أحاديث لا يفهمها إلا كبار الرجال لا كبار الأطفال ! .

مرض يجب أن يزول :

وإن تعجب يا أخى ، فاعجب لبقاء الإنسان طفلا وعوامل النضوج مزدحمة فى فؤاده ، تنتظر وقفة واحدة على آية من آيات الله تتأثر بروعتها ، فإذا هى تتحرك وتجيش وتبعث الحياة والنمو فى قلبه ... وإن تعجب كذلك فاعجب لهذه الإنسانية ، التى تقضى أعمارها ، تحت سماء باهرة الآيات ، معجزة المشاهدات ، وفوق أرض ضخمة الجبال ، جليلة البحار رهيبة الصحارى والقفار ، حافلة بأسرار الله فيما خلق من نبات وحيوان وجماد ... وهى مع ذلك تمضى ذاهلة ، كأنها لا تعيش تحت شىء ، ولا فوق شىء ! ... ولو أن هذه الآيات التى تملأ الآفاق أمر خفى ، أو يحتاج إلى كد ذهن ، لالتمسنا لها المعاذير فى هذا الإعراض ، بل فى هذا العمى . ولكنها أشياء بارزة للعيان ، شاخصة للحواس ، تعترض المرء فى كل وجه ، وتفرض نفسها عليه فى كل وقت .

أليس من العجيب أنه تخلص من كل ذلك ، فلم يلتفت إليه ، ولم يتأثر به ، بل أليس

من الحزن المؤلم ، أنه لم يتخلص منه إلا لانطماس باطنه ، وامتلاء وجدانه بالكشافات المظلمة الثقيلة ؟

إن هذه البلادة ، وهذه الغفلة ، هى مرض الإنسانية الشائع ، إذا مرض به القلب فسد وأظلم ، وماتت مشاعره فلا تتأثر بشىء من آيات الله ... ترى عين رأسه ما تراه ، دون أن ينطبع على صفحته شىء من هذه المرائى « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

قال أحد الإخوان : يخيل إلىّ أن هذه الغفلة أمر طبيعى ، وليست مرضاً من أمراض القلوب ، وأن آيات الله فى الآفاق ، ليس من شأنها أن تثير العواطف هذه الإثارة .

فقال له صاحبه : لا ، ليس الأمر كما يخيل إليك ؛ ولأضرب لك مثلا يزيل عنك كل تخيل فاسد ، فتابعنى فيه .

يحلم بعض من ينظر إلى مستقبل الإنسانية بتشاؤم ، أن ستقوم بيوت ، بل مدن كاملة تحت الأرض ، طلباً للأمان من مصائب وويلات الغارات ... فافرض معى أن مدينة من هذه أنشئت ، وأن الناس ألفوا العيش فى التهوية الصناعية ، والإضاءة الصناعية ، بعيدين عما على وجه الأرض من نعم الطبيعة وهباتها ... وافرض أن مولوداً ولد فى هذه المدينة وترعرع فى ربوعها وميادينها ، لا يرى إلا مصابيح الكهرباء تضىء بالليل والنهار ، ويرفع بصره إلى سماء المدينة ، فلا يجد إلا سماء من المسلح أو غير المسلح ، محمولة على دعائم قوية عالية .. واستقر فى روع هذا الصبى ، أن الدنيا هكذا ، وأن طبيعة هذه الحياة تجرى على هذا الأسلوب ... وكبر الصبى ، وصار شابا ، ثم عرض له يوما أن يسافر إلى ظهر الأرض ، فسافر ... وهنا أترك لك أن تتصور الشاب وهو قائم ، يحدق فى روعة السماء وهو ينظر إليها لأول مرة ، ويقارن بينها وبين سماء مدينته ؛ فهناك سماء تقيد البصر ، قائمة على عمد ، وهنا سماء رائعة ، يسرح الطرف فى آفاقها علواً وانساعا ، رفعها خالقها بلا عمد ، وأمسكها بلا دعائم .

إن كل حديث يعجز عن تصوير كيان هذا الشاب ، وهو يجيش بانفعالات الدهشة لهذا المشهد الجليل الرهيب ! ! ! تأمل الشاب وهو ينظر فى دهشته إلى الشمس ، فيراها مشرقة الضياء ، باهرة اللألاء ، تغمر الوجود بفيض أنوارها ... فيستحضر الفرق الهائل ، بل الآماد الشاسعة ، بين أضواء هذا السراج السماوى العجيب ، وأضواء مصابيح مدينته الباهتة ... فيرى أن لو اجتمعت هذه المصابيح فى قوة واحدة ، واتحدت طاقاتها فكانت طاقة واحدة ، لما بلغت شيئاً مذكوراً فى بهرة أنوار هذا

السراج العالى الوهاج ! وينفعل الشاب ، إذ يرى هذا السراج غير محمول على قائم ولا معلق فى شىء ، كمصابيح مدينته . . . ويزيد به العجب ، إذ يراه يجرى فى فضائه الشاسع ، متنقلا من الشرق إلى الغرب ، فكيف يتنقل ؟ وبأى قوة يتحرك ؟ ومن أين له هذا الضوء ، ومن يدبر له هذا كله ؟ .

ثم تصور حال هذا الشاب ، وقد جن الليل ، وتغير المنظر ، وظهرت فى السماء هذه الكواكب الدرية ، تملأ أقطارها فى كل جهة . . . إنه لشىء يذهل اللب ، ويملأ القلب حيرة ، ويقطع الأنفاس من الاستغراق فى الدهشة والعجب ! وتصوره حول منتصف الليل . وقد ظهرت له فلقة من النور الوضىء ، فأخذت تمسح ظلمة الليل عن وجه السماء ، وتلقى من نورها الوديع على الأرض الغارقة فى الوحشة والسكون . . . أى نظام هذا ؟ وأى جمال هذا ؟ وأى آيات هذه فى هذا الكون الرائع العجيب ؟

إنك يا أخى لو صحبت هذا الشاب يوما وليلة ، وأخذت ترقب ملامحه الظاهرة ، وتستشف خوالجه الباطنة ، لرأيت حقاً كيف يجب أن ننظر إلى آيات الله ، ولحكمت قطعاً بأن بواطن النـــاس مطموسة ، حيث لا تتحرك لوحى العظمة فى هذه المشاهد الجليلة المحكمة .

علاج

والآن : هل من سبيل إلى علاج هذا المرض ، فيزدهر باطن المرء ويجيش بالحياة النامية ؟ هل من سبيل إلى إزالة هذا الحجاب الكثيف ، فينكشف قناع قلب الإنسان فيرى الله فى خلال كل شىء ، كأن له فى كل شىء نافذة ، يطل منها على الملأ الأعلى ؟ . وبعبارة أوضح ؛ هل من سبيل إلى ارتقاء الإنسانية وتجاوزها دور الطفولة العاجزة ، إلى حياة الرجولة القوية المدركة ؟ .

نعم ! السبيل ميسرة ممهدة ، ولسنا نتكلف لذلك جهداً فى البحث ، ولا مشقة فى التفكير ، وإن كأس الشفاء على أفواهنا ، لا ينقصنا إلا أن نرتشفها هنيئاً . نعم ! لا ينقصنا إلا أن ننظر لكل شىء أمامنا نظرتين فى نظرة واحدة ؛ أما النظرة الأولى فهى نظرة العين الباصرة ، وهى التى لا ترى من الشىء إلا صفحته الخارجية الصماء ؛ وأما الثانية فهى نظرة العين الباطنة ، وهى التى تلقى بعواطفك على الشىء ، وتظل تبحث عن القائم عليه ، والمدبر لشأنه ، حتى تفضى إلى الله سبحانه وتعالى . . . ها نظرتان فى نظرة ؛ وما عليك حين تنظر إلا أن تنبه عينك الباطنة الغافلة ، وتوقظ

كيانك الداخلى الراقد ، فإذا نبهتها وأيقظته ، ووصلت الباطن بالظاهر ، والظاهر بالباطن ، فقد وصلت نفسك بالوجود ، وسرت تيارات قلبك إلى ملكوت الله الأعلى ، وهذا عين الحياة ، وكمال الرقى والتقدم . أرأيت سهولة هذا العلاج ؟ . إنه علاج ناجح ، بقدر ما هو هين سهل .

اعتراض وجوابه

قد يبدو لسائل أن يسأل كيف تتهم الإنسانية بالقصور والطفولة والمرض ، وهى هى التى تطالع الدنيا كل يوم بجديد فى العلم والصناعة والاختراع ؟ وهى هى التى فاقت فى هذه النواحى كل ما سبقها من الأجيال والقرون ؟ .

ونحن لا نحب فى دفع هذا الاعتراض أن نتفلسف ونعمن فى منعرجات الفكر وملتوياته ؛ بل نحتكم إلى قضية مسلمة من الجميع . . فإن الناس جميعاً يقولون : العلم نور . . . وثمرة هذا النور أن ينظر به صاحبه حقيقة ما يراه ، أليس كذلك ؟ . . ونحن لا نكلف هذا العلم أن يكشف لنا المخبوء ، أو يأتينا بمعجزة .

بل نكلفه أن يمد صاحبه بنور . . لينظر السماء التى فوقه ، والأرض ، التى تحته ؛ فإنه لا يبصر منهما أكثر مما يبصر الحيوان الأعجم المطموس .

العلم نور حقاً . . . نور للبصائر لا للأبصار ، فإذا حل هذا النور فى بصيرة ما — أبصرت كما تبصر العيون ، وفوق ما تبصر العيون ؛ نخبرنى بربك ، إذا كان علمهم هذا علما صحيحاً كاملا ، فأين ثمرته ؟ وأين نوره إذا كانت بصائر أهله لا تبصر من البديهيات شيئاً ؟ . إن قصارى هذا العلم أنه علم الرءوس كيف تفكر فى خدمة الأجسام ؛ علمها كيف تعد الطعام ، وكيف تدبر الأموال ، وكيف تصرف التجارات ، وكيف تصنع الآلات ... آلات الزراعة جريا وراء الثمرة ومضاعفة الغلة ... وآلات القتال ليفتك القوى بكل من يحرز رغيفا دونه ... وعلمهم السياسات كيف يبنونها فى دهاء على جلب المنافع واغتنام المصالح ... وعلمهم الهندسة ، فوفرت لهم ماء الرى ، وأصلحت الطرق ، وأقامت العمارات ، وكشفت قوانين الحركة ، فدارت عليها الآلات ، وسددت بها القذائف إلى الأهداف ؛ وعلمهم الطب ، فعالجوا به الأجسام ، وقاوموا جراثيم الأمراض ، وأحاطوا البدن بأسباب الوقاية محافظة على سلامته ... واخترعوا التلغراف والتليفون ، استنجازا لقضاء المصالح فى أقرب وقت ... وأجروا القطار والسيارة تخفيفاً للعناء عن الجسم ، ومبالغة فى إحاطته بأسباب الترف ... وجاءوا بالراديو وأنواع المخترعات ... جاءهم العلم بهذا كله ، فما زاد على أنه مسخر لإملاء

الجسم ، ورغبة المعدة ، ووحى الترف ؛ وكل هذا ظلمة فى ظلمة ، تسلك الإنسان فى محيط الدواب والأنعام ، حين تقصر همها على ألوان الشراب والطعام ... اللهم إلا إذا ادعى لنفسه أنه أحرص على حيوانيته من الحيوان ، وأشد منه شراهة إلى متاع الجوارح والأبدان .

وعلم الله ما نبخس هذا العلم قدره ، فإنه ضرورى لأداء رسالة معينة ، رسالة يخدم بها الإنسان فى ناحيته المادية الحيوانية ، وهى ناحية قدسها الدين الحنيف إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لبدنك عليك حقا ، وإن لربك عليك حقاً » .

ولا اعتراض لنا على شىء من هذا ، فهو من أمر الله سبحانه وتعالى ... وإنما الاعتراض أن تزعم لهذا العلم المحصور فى هذه الحدود ، أنه مصدر الحياة والنور لمعانى الإنسان العليا ؛ فهو زعم خاطىء يقع فيه أكثر الناس ، فما كان لعلم مسخر لدواب البدن العمياء ، أن يقوم بما ليس من وظيفته ، ويمنح ما ليس فى طبيعته ... فمن أين النور لعلم إذا نظر لشىء لا ينظر إلا إلى ناحيته المادية ، يقيسها ويزنها ويستكشف خفايا ذراتها ، ليصل من ذلك فى النهاية إلى نتيجة يذهب نفعها إلى الكيان الحيوانى ، ولا يصل منها أثر يذكر إلى الكيان المعنوى ؟ .. فإذا ترقت الإنسانية بهذا العلم ، فإن ترقيها مشهود به فى قشرتها الأرضية ، وناحيتها المادية فقط ، وهى الناحية الصماء ، التى لا توحى بعاطفة نبيلة ولا شعور كريم .

فساد الحضارة الغربية

فحضارة الغرب إذاً ، وعلمها ، وكل ما فيها ، أعجز من أن تمد باطن الإنسان بما يحييه ، ويصله بالوجود ؛ وبعبارة أخرى ، أعجز من أن تمد قلبه بنور يرى به لباب الوجود ، وحقائق الحياة ... لقد خلت حضارة الغرب عمليا من كل منهاج ووسيلة لإيقاظ الضمائر ، وتنمية الحواس الباطنة ؛ لأنها لا تعترف بكيان الإنسان الباطنى ، وما له من خصائص فياضة بالخير والكرامة ، وتفترضه حيواناً مغلق الباطن كالآلة الصماء ... فكيف تبلغ الإنسانية رشدها وتنال حظها من النور والعلم الصحيح ، ما دامت تجهل أن الرشد فى القلوب لا فى المعدات ، وأن النور فى البصائر لا فى الأبصار ؟ ... لقد قلنا : إن تقدم الإنسانية الصحيح ، مرهون بالانتقال من النظر الساذج إلى النظر الفاحص ، الذى يفتح عين صاحبه وقلبه على جلال الآية التى ينظر إليها ، ويبث فيه الانفعال بما فيها من أسرار الله وحكمته .

قلنا هذا ، لأنه السبيل السهل إلى تغذية الكائن الإنسانى المستكن فى باطن

الإنسان ؛ أو هو العصب القوى ، الذى يصل هذا الكائن بمصادر حياته السماوية . . .
وخلو هذه الحضارة من كل منهاج عملى ، أو عناية جدية تبعث الإنسان على حسن
التأمل فى آيات الله — جعل هذا العصب ضامرا أو مبتورا ، وترك هذا الكائن
النبيل الكريم ، يعانى فى باطن صاحبه عزلة عن الحياة ، وحرمانا من النور
والغذاء . . . وما نحسب هذا الكائن قد سعد يوماً ما ، بمثل ما سعد فى الحقبة
النورانية ، التى أتاحها له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصحابته الأبرار رضوان الله
عليهم ؛ ولكنه ما كاد يهنأ بها ، حتى خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا
الشهوات ، فأصابتهم نكسة ارتدوا بها أطفالا ؛ وكان الظن بهذه الحضارة العالمة ،
أو حضارة النور كما ينعتونها ظلما ، أن تلتفت إلى مصدر الرشاد فى الإنسان ،
ومنجم العبقرية فيه ، وأن تحسن الانتفاع به ؛ ولكنها ضلت على علم ، فلم تلتفت
لغير الكائن الحيوانى ، الذى يخرج من التراب ، ويعود للتراب ، ويتغذى من التراب .

إلى الداعية

لعلك أدركت الآن يا أخى ما يطلب منك ، وأنت داعية إلى الله عز وجل ؛
يطلب منك أن تُطِـبّ للانسانية ، فتبعثها بكل ما تستطيع من حيلة وبيان على النظر
العميق ، فى ملكوت السموات والأرض . . .

كتاب منشور

وإنا لا نستطيع أن نتصور داعياً عمليا ، يدعو الناس إلى الله ، دون أن يلفتهم
إلى ما يحيط بهم من آثاره سبحانه وتعالى ، فهى شواهده الدالة عليه ، المتحدثة عنه
بأوضح بيان ، وأفصح لسان ... ولقد سردنا فيما سبق بعض المنازع العملية التى تنزع
إليها العقلية الواقعية فى دعوتها إلى الله ؛ وفى رأيى أن الالتفات إلى آيات الله ونعمه ،
أقربها جميعا إلى الفطرة ، وأيسرها سبيلا إليه سبحانه ..

فهذا الوجود الذى أمامك ، هو كتاب الله المنشور ... وهذه الكائنات العجيبة
التى تملؤه ، هى سطور حية تقرأ فيها قدرته سبحانه وحكمته وعظمته ... فإذا وقع
نظرك ، أو سمعك ، أو يدك على شىء ما ، فقد وقع فى الحقيقة على مستودع خطير
لحكم الله وأسراره .

ومن جميل تقديره سبحانه ، أنه جعل مطالعة هذا الكتاب ميسورة ، للعالم
والجاهل ، والقارىء ، والأمى . . . فما على المرء إلا أن ينظر ، أو يسمع ،

أو يلمس .. إلخ ، ثم يفكر فيما وقع عليه حسه تفكيراً عقلياً وجدانياً ، فإن هذا التفكير ، يسيل من القلب أحاسيس رقيقة ، تتسرب خلال هذا الشيء ، ثم تمتد في تسربها حتى تلامس الكثير من حكم الله فيه ؛ فإذا بلغت هذه الدرجة ، فقد وصلت ما بينه وبين الله سبحانه ، وانفتح له الملكوت الفياض بالسيالات الروحية ، فيهتز القلب ، وتخشع النفس ، وتفيض العين ، ويستنير الطبع ، فإذا بالإنسان في هذه اللحظة ، قد صار قبضة من نور الله عز وجل ، قلبه نور ، ولحمه نور ، وعظمه نور ، وفوقه وتحته وخلفه وأمامه ، كل ذلك نور على نور .

ولا عجب فإن من يسبح في ملكوت الله ، إنما يسبح في عالم النور الذي يتخلل كل مادة ، ويمزق كل حجاب .

فإذا أحس الإنسان بقلبه يختلج ، وبدنه يرتجف ، ودمعه يفيض ، فليعلم أنه قد فهم سطرا من كتاب الوجود ، فإن ثمرة التأمل أن تنفذ إلى بعض الحكم ، وفي الحكم عبرة ، والعبرة إشعاع رقيق يسطع في القلب ليصله في رفق إلى الله سبحانه وتعالى ... فإذا أفضيت إلى الله وخرت مشاعرك ساجدة ، خاشعة باكية ، بلغت من أسباب الفهم والمعرفة مالايبلغه إلا الراسخون في العلم ، ولو كنت ممن لم يقرءوا كتاباً، أو يجلسوا إلى أستاذ في جامعة أو مدرسة .

الداء والدواء

فاحرص على هذا المنزع ياأخي ... واعلم أن القرآن الكريم تكفل لكل داعية فرسم له المنهاج ، وشرح له وسائل العلاج ، بعد أن بين له المرض وظواهره .

١ — فالمرض هو انطماس الكائن الباطني للانسان ؛ وفساد حواسه بحيث لايبصر ولا يسمع ، ولا يفقه شيئا،فيغدو به صاحبه في حكم الأموات ، وإن أضافه فن الإحصاء ظلما إلى الحياة والأحياء ، « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ؛ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ، إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » .

والمدار كله على أن يصح هذا الكائن الكريم وتسلم له حواسه ؛ أما حواس البدن فليس عليها معول كبير : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ، وَلَـٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

فلكل شخص عينان : عين ظاهرة هى عين رأسه ، وعين باطنة هى عين نفسه ، والعين الظاهرة لا ترى من الشىء إلا صورته السطحية ، وهى أمر تافه لا قيمة له ، يتعلق باللون ، والحجم ، والشكل ، والنوع ، والجنس ، ونحوه . أما العين الباطنة فتدرك حقيقته ، وحقيقة كل شىء هى حكمة وجوده وسر خلقه ، والعبرة التى تريك أصابع الله سبحانه وتعالى فى تكوينه وتدبيره والقيام على حفظه ، وهنا يشف الشىء أمام هذه العين ، فتطلع منه على الله عز وجل ، فإذا وجدت الله يا أخى وجدت كل شىء : وجدت الحياة ، ووجدت النور والعلم ، ووجدت الثروة والغنى ، ومن وجد كل هذا فى قلبه لا يضيره ما فاته من الدنيا .. أما إذا حجب عنه ، فلن يغنيه قليلا أو كثيراً أن تكون عينه الظاهرة أقوى العيون ، وأذنه أسمع الآذان ... فليست المسألة صوتاً يسمع أو شبحاً يرى ، فذلك ما تراه الأنعام وتسمعه . وإلى هذا تشير الآية الكريمة . « وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُون » .

قال الإمام ابن كثير : أى مثلهم فيما هم فيه من العمى والضلال والجهل كالدواب السارحة ، التى لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا نعق بها راعيها ، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه ، لأنها تسمع صوته فقط . ويقول الإمام الزمخشرى : ومثل داعيهم إلى الإيمان فى أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ، ودوى الصوت من غير إلقاء أذهان ولا استبصار ، كمثل الناعق بالبهائم التى لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه ، الذى هو تصويت بها وزجر لها ، ولا تفقه شيئاً آخر ولا تعى ، كما يفهم العقلاء ويعون .

فحقيقة المرض على هذا صمم يصيب الكائن الكامن فى المرء ، وعمى وبكم يتركه فى ظلمة ولا حركة به ، وهو ما تجمله الآية الكريمة : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا صُمٌّ وبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ ومَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

٢ — أما ظواهر هذا المرض ، فهى كما يصفه الكتاب العزيز : الإعراض عن التأمل فيما تقع عليه الحواس ، والاكتفاء بالنظر العابر ، والسمع الظاهر ، فيرى الإنسان الشىء وكأنه لا يراه ، تبدو له روائع الآيات والآثار ، فلا تحركه روعتها ، ولا تثيره رؤيتها ، لأنه لا يدرك بالعين المثيرة . فيمضى كالراقد الذى يفتح عينه وهو نائم ، على نحو ما يصف الشاعر الحكيم :

يا ناظراً يرنو بعينى راقد   ومشاهداً للأمر غير مشاهد

وإلى هذا يشير قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ » وقوله سبحانه : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

٣ — أما العلاج الناجع لهذا العمى ، بل لهذا الموت ، فهو — كما وصف القرآن أيضاً — التأمل فى آيات السموات والأرض ، وفى أنفسنا ، وما أسبغ علينا من نعم ظاهرة وباطنة ، على ما أشار إليه عز وجل بقوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » .

نعم : فالتأمل هو الذى ينقل صور المشاهدات من الحس الظاهر إلى الحس الباطن ، فيتم التفهم والتأويل والمقارنة والتعليل ، وهذا معنى حياة الباطن وسمعه وبصره . .

فإذا لم يكن تأمل لم يكن شىء من هذا ؛ فالتأمل هنا يقوم بمهمة عصب الإبصار فى العين الظاهرة ، فإن رؤية الأشياء لا تتم بمجرد انعكاس صورها على شبكية العين ، بل لا بد من انتقال هذه الصورة بواسطة العصب البصرى إلى مركز الإدراك والوعى ، وهو المخ ؛ فإذا انقطع هذا العصب أو أدركه تلف لا تتم الرؤية ، ولا يصدر المخ حكمه على شىء ... وكذلك التأمل : فهو عصب الإبصار ، الذى ينقل المشاهدات إلى مركز الإدراك الباطنى ، وهو القلب ، حيث تتم المشاهدة ، ويسرى رحيق العبرة فى البدن كله ؛ فإذا انقطع التأمل بقى القلب مغلقاً ، لا نافذة له يطل منها على عالم الحقائق ، وكان شأن صاحبه كشأن الحيوان الأعجم ، فى اقتصاره على رؤية الصورة الظاهرة للأشياء . .

منهاج العلاج

وحين يذكر القرآن أن فى السماء والأرض والنفس آيات وشواهد للموقنين لا يكتفى بمجرد الإشارة ، بل يذكر ماهى هذه الآيات ؛ فينص عليها بالاسم أو الصفة أو الوظيفة ، حتى يبلغ الكلام إلى الأسماع والقلوب ، ويكون السبيل إلى العلاج خالياً من كل غموض . وما نستطيع أن نورد كل آيات القرآن التى ورد النص فيها على هذه الشواهد الربانية ، بل نورد آية واحدة ، على سبيل المثال ، اعتمادا على أنك غنى عن إيراد الكل بمطالعته فى المصحف الشريف . . . قال الله عز وجل : « وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ ؛ إِنَّ فِي خَلْقِ (١) السَّمٰوَاتِ (٢) وَالْأَرْضِ (٣) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (٤) وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ (٥) وَمَا أَنْزَلَ اللهُ

مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ (٦) فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٧) وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ (٨) وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » إن فى ذلك كله « لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

ولو أن القرآن الكريم اكتفى بهذا الإجمال لكان فيه غناء، ولكن كيف يكتفى به، وهو كتاب الإنسانية كما ذكرنا، جاءها بالرشد والشفاء ؟... لقد تناول كل آية من هذه الآيات بالتفصيل، والتحليل، حتى ليفتح البصر والبصيرة على مواطن العبرة فيها .

(١) فمن خلق السموات : الشمس والقمر، والنجوم والكواكب، وقد ذكر فى آياته الكثيرة عجائب هذه المخلوقات السماوية الجميلة الجليلة، وهى فى المصحف فى متناول كل قارىء، فلا نطيل بذكرها .

(٢) وتحدث عن الأرض وحدها بتفصيل كاف لاستخراج العبرة .

(٣) وتناول الليل والنهار بكلام خاص .

(٤) واختص الفلك والسفن بمثل هذا ... وأفرد كلا من : (٥) المطر (٦) والزرع (٧) والدواب (٨) والسحاب . أفرد كل شىء من هذا بنصوص تكشف للمتأمل آثار رحمة الله، وإنا لنسوق بعض أمثلة لهذا التفصيل صدر سورة « الرعد » :

١ — يقول الله عز وجل فى خلق السماء : « الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا . ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى .. يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ .. لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ » .

٢ — ويقول عن الأرض : « وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ... يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » .

٣ — ويقول عن النبات : « وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ، صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

وفى صدر سورة النحل طائفة كبيرة من الآيات والنعم ختمها الله بقوله :
« وَإِنْ تَعُدّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيم » .

ويشرح له منهاج النظر إلى نفسه وأخص الأشياء به بمثل قوله : « فَلْيَنْظُرُ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ . خُلِقَ مِنْ مَاء دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرائِبِ » ، « فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِه أَنَّا صَبَبْنا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْباً وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ، مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ » .

وإنى أترك لك أن تجرب بصيرتك وفكرك ، فتأمل وحدك فى هذا . . .

النظر إلى الكيف لا الكم

وحين يطلب إلينا النظر فى هذا وغيره لا يتركنا ننظر كما نشاء ، نظر الغفلة والجمود ، بل يرسم لنا منهاج النظر الحق ، الذى ينشىء بيننا وبين الملأ الأعلى أوثق الصلات ، فى أقرب وقت ، فيعلمنا أن ننظر إلى الكيف لا الكم . . . والكيف لباب وعبرة ، والكم صور وأحجام . . والكيف يدرك بالقلب ، والكم يدرك بالحواس الظاهرة .

انظر قوله تعالى : « أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهم ، كَيفَ بَنَيْنَاهَا ، وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوج ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ، وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج ، تَبْصِرَةً ، وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيب » ، وقوله عز وجل : « أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ؟ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ؟ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ؟ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ؟ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّر » .

ويزيد على هذا ، فيذكر لنا أنواعا من النظر إلى الكيف ، لنقيس عليها ، أو نفرع منها ، فتارة يفترض لك الفرض ، ويجعلك تسرح فيه بقلبك ، وعقلك ، حتى تقع على لب العبرة من خلاله : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيكُم اللَّيْلَ

سَرْمَداً إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ . . مَنْ إلهٌ غَيْرُ الله يأتيكم بضِياء ؟ أفلا تَسْمَعُون ؟ قُلْ أرأيتم إنْ جَعَلَ اللهُ عليكمُ النَّهارَ سَرْمَداً إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ . . . مَنْ إلهٌ غَيْرُ الله يأتيكمْ بليلٍ تَسكنُونَ فيه . . أفلا تُبْصِرُون » ؟

وتارة يسائلك مساءلة تفتق الحجب ، وتقف بك وجهاً لوجه أمام عرش الله عز وجل: « أفَرَأيْتم ما تُمْنُونَ ؟ . . أأنتمُ تَخْلُقُونَه أم نَحْنُ الخالِقون ؟ . . أفرأيتم ما تحرُثُون ؟ أأنْتم تزرَعُونَهُ أمْ نَحْنُ الزَّارِعون ؟ . . لَوْ نَشاءُ لجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتم تَفَكَّهُون . . » تعجبون في ندم وأسف « أفَرأيتُمُ الماءَ الذي تَشْرَبُون ؟ أأنتمُ أنزلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أمْ نَحْنُ المُنْزِلُون ؟ لوْ نشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً ، فلَوْلاَ تشْكُرُون . . أفرأيتُمُ النَّارَ التي تُورُون ؟ أأنتم أنْشأتم شَجَرَتَها أمْ نَحْنُ المُنْشِئُون » . . ؟

ثمرة العلاج

وأخيراً ، لا يقف الله عز شأنه بمدارك البشر المتأملين عند هذا الحد ، بل يسمو بهم إلى قطف الثمرة النهائية . . يسمو بهم سمواً يبعثهم إلى التفكير في معاني الجد والحكمة الحازمة التي تبدو لذوي البصائر في خلق السموات والأرض . . . فما كان الله هازلا — سبحانه — حين خلق السموات وما فيها من آيات . . وما كان لاعباً — تعالى شأنه — حين أخرج الأرض إلى هذا الوجود ، إن هو إلا الأمر الخطير ، والجد الذي لاهزل فيه ، أبرمه الله ، وسلكه في نواميس حكمته . . . « وَما خَلَقْنا السَّماءَ وَالأرْضَ وَما بَيْنَهُما لاَعِبِينَ . . . ما خَلَقْناهُما إلاَّ بِالْحَق . . . وَلكِنَّ أكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُون » ، « وَمَا خَلَقْنا السَّماءَ وَالأرْضَ وَما بَيْنَهُما لاَعِبين . . لوْ أرَدْنا أنْ نَتّخِذَ لهواً لاَتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنّا . . إنْ كُنّا فاعِلين . . بَلْ نَقْذِفُ بالْحَقِّ عَلَى الْباطل فيَدْمَغُه ، فإذا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلكُم الْوَيل مِمّا تَصِفُون » .

وهذه ذروة التفكير ، وقمة المنازل التي يحلق حولها الربانيون . . . يسمو إليها

الإنسان حين يهبط بتفكيره إلى قرارة نفسه وأعماق فطرته : « أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِى أَنْفُسِهِم ؟ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى . . . وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِم لَكَافِرُونَ » .

ومع كفاية هذا التعليم ،فإن الله عز وجل قد ذكر لنا بعض مايقوله أولو الألباب حين التأمل فى آياته . . لنقيس عليه . . ولنطمئن إليه ، إذا وجدناه صورة لما فى خواطرنا ، وترجمة مسايرة لمشاعرنا : « وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفُلْكِ ، وَالأَنعام ، مَا تَرْكَبُون : لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِه ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُم إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيهِ . . وَتَقُولُوا : سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُون » .

« إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُون فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْض — رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار » .

هذا طرف من هدى القرآن وطبه لأمراض الإنسان . فهل رأيت بربك هدياً يقارب هذا الهدى ، وينهل من هذا الطب ؟ . . إنه رحيق الشفاء ، وسر الخير والسعادة ، والنعمة التى بشر الله بها أولياءه ، وأمر بالحمد عليها قبل وقوعها ، إشعاراً بجلالة قدرها ونفعها ، « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلهِ سَيُرِيكُم آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون » . « سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ ، وَفِى أَنْفُسِهِم ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَق . . أَوَلَم يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيد ؟ »

أما الضالون من أهل الشقوة ، فهم بعيدون عن هذه النعمة ، وقد أنذرهم الله حجابا يصرفهم عن التأمل فيها ، ويحرمهم حظ الدنيا والآخرة : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيرِ الْحَقِّ . . » إلخ . . أى يصرف قلوبهم عن التفكير فى شأنه سبحانه . .

مثال تطبيقي

والله عز شأنه بعد تقرير هذا العلاج وبيان أثره فى شفاء القلوب ، يضرب لنا مثلا من واقع التاريخ ، ليشرح بأسلوب عملى ، أن الإنسان إذا نظر فيم حواليه من الآيات والآلاء ، نظر التأمل والاستهداء ، زال عنه الحجاب ، ورق قلبه ، وأشرقت بصيرته ، فأفضى إلى الله الذى لا إله غيره . ضرب لذلك مثلا واقعياً تمت به العظة ، وختمت العبرة أطيب الختـام ، ذلك قوله سبحانه : « وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَٰهِيمَ مَلَـٰكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَـكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ الْآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّآلِّينَ ، فَلَمَّا رَءَا الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

توجيه ونماذج

ونحن نوصى كل داع إلى الله ، أن يدخل هذا المنهاج فى حسابه ، ويجعله من عدته وعتاده ، فقد رأى قوة أثره فى القلوب ، ورأى أن الله سبحانه ، دعا به الناس إليه . . وما حثهم فى القرآن على شىء ؛ أكثر مما حثهم على أن يجعلوا التأمل سبيلهم إلى الحياة ، فعلى الداعية أن يأخذ بما رسم الله ، وأن يفتن فى بعث سامعيه على النظر والتفكير والاعتبار ، على حساب ما تهديه إليه قريحته وسليقته .

نماذج

ونحن نضع بين يديك — أيها الأخ — أمثلة مما وعظ به المهتدون ، واحتالوا به لإثارة انتباه الناس ، وتأملهم فى عجائب الله .

١ — وعظ سيد الدعاة صلى الله عليه وسلم، فبسط كفه ، وتفل عليها ، ووضع إصبعه بجانبها وقال : يقول الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم : أنى تعجزى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك ، مشيت فى بردين ، وللأرض منك وئيد ،

فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى ، قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقة » ؟

وتأملك فى هذا يغنينى عن شرحه والتعليق عليه .

وعظ الإمام أبو حنيفة ، رضى الله عنه ، يوما ، وقد حضره قوم من غلاظ القلوب ، وكانت عظة عملية موفقة . .

أظهر للناس أنه مفكر فى أمر خطير ، فلما سألوه عن شأنه قال : إنى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه : ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة بأنواع المتاجر ، وليس بها أحد يحرسها ، ولا يسوقها ، وهى مع ذلك ، تذهب وتجىء ، وتسير بنفسها . . وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها ، وتسير حيث شاءت ، من غير أن يسوقها أحد . . فقالوا له : هذا شىء لا يصح أن تشغل به نفسك ، لأنه لا يقوله عاقل ، ولا يصدقه أحد . فقال : أيها الناس ، إنكم أنتم الذين تقولون هذا الكلام ، تقولونه بلسان الحال ، إن لم يكن بلسان المقال .

فهذه سفينة الموجودات بما فيها من العوالم العلوية والسفلية وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ، فهلا تأملتم عجائبها ، وحكمة المصرف لها ، أم أنها تغدو وتروح بغير مدبر يصرفها ؟ فخشعت قلوب الناس لموعظته ، وأسلم منهم من كان على غير الإسلام .

٣ — ووعظ الإمام الشافعى رضى الله عنه فقال : هذا ورق التوت ، لونه واحد ، وطعمه واحد ، يأكله الدود فيخرج منه الحرير ، ويأكله النحل فيخرج منه العسل . . وتأكله الشاة والبقر ، فتلقيه بعراً أو روثا . . وتأكله الظباء فيخرج منه المسك ، وهى شىء واحد ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

٤ — ووعظ الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، فقال : ها هنا حصن حصين (وأشار إلى شىء بجانبه عليه غطاء) ، حصن أملس ، ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز . . فبينا هذا الحصن كذلك ، إذ تصدع جداره ، فخرج منه حيوان سميع بصير ، ذو شكل حسن ، وصوت مليح ؛ فلما أثار الإمام أشواق الناس ودعاهم على التطلع . . كشف الغطاء فإذا بيضة مشقوقة ، وبجانبها فرخها الصغير ، الذى خرج منها حديثاً إلى هذه الدنيا . . فسبحان من يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، وهو على كل شىء قدير !

هذه يا أخى أمثلة فتقت لك من جوانب الموضوع ، وقدمت لك ألواناً مختلفة من التفكير ، وسيسهل عليك بعدها إن شاء الله ، أن تحذو حذوها ، وتستقى من معينها ؛ ونختم هذه الأمثلة بمثال وضعه أحد الإخوان ، قال :

« كان أحد العلماء يجلس ذات ليلة بين مريديه ، وهو من أهل البصيرة ، فأراد أن يبعث أبناءه وتابعيه على التأمل العميق الذى يسبحون به أو يغوصون فى بحار الحقيقة ، فيستخرجون لآلىء المواعظ والعبر .. فأمر بإطفاء الأنوار ، فبدا المكان مظلماً موحشا يلفه الليل بسكونه وهدوئه ، ثم قال : يا أبنائى ، فى هذا الظلام الساكن ، نستطيع أن نستنزل من السماء رزقا لأرواحنا ، وحياة لقلوبنا ، فلا تفوتنكم هذه الفرصة ، فليذكر كل منكم فى نفسه ماذا كان قبل أن يخلق ؟ وماذا حصل حين أراد الله أن يجىء به إلى هذه الدنيا ؟ ومن أى شىء خلقه الله ؟ وليتتبع الأطوار التى تنقل فيها ، حتى صار رجلا عاقلا ، مدبراً ، قويا ؛ وليتابع رحلته إلى الموت ، حتى يبلغ الجنة أو النار .

قال الأخ : فسكت المريدون.. وأخذوا يتأملون ، ويسبحون ، ويتنقلون فى سلسلة المواعظ والحكم .. وأراد الشيخ أن يعرف أحوالهم فى تفكيرهم ، فأخذ يسألهم من آن لآخر : أين أنت الآن يافلان ؟ فقال أحدهم : أنا الآن نطفة . ثم قال آخر : حين سئل بعد قليل : أنا الآن فى القبر . وقال ثالث : حين سئل بعد صاحبيه بفترة : أنا الآن على الصراط . وكان الأخ يجرى على لسان كل مريد وصفاً تحليلياً لمشاعر التأمل فى النطفة ، ولمن هو فى القبر ، ولمن هو واقف على الصراط .. وليس يعنينا أن ننقل لك ما قال صاحب القبر ولا ما قال صاحب الصراط ، فإننا نحن بصدد التأمل فى آيات الله الظاهرة لنا ، فننقل لك ما أجراه الأخ على لسان صاحب النطفة ؛ سأله شيخه : أين أنت الآن يافلان ؟ قال : أنا الآن ياسيدى نطفة ، كريهة الرائحة والمنظر ، قطرة من ماء مهين ، أتأمل فيها وفى مهانتها وضعفها ، ثم أنقل التأمل إلى نفسى ، وأنا رجل قادر عاقل ، فيروعنى الفرق الهائل بينى وبينها : بينى وأنا ماء ، وبينى وأنا رجل ؛ ولا أكاد أصدق أنى كنت هذه النطفة يوما من الأيام ، إنها ياسيدى قطرة ، لو تركت بغير عناية ، لضربها الهواء ، وفسدت ، وأنتنت ؛ فسبحان من حفظنى ، حين كنت لا أستطيع أن أحفظ نفسى .. .. إنها الآن أمامى ، لاتسمع ، ولا تعقل ، فياعجبا ، من سهب لها العقل لتصير رجلا مفكرا ، ينصب المكائد والحيل ، أو يبهر الناس بعلمه وثمار عقله ؟ . . ومن سهب لها السمع ؟ ويركب لها البصر ؟ وكيف يتم هذا كله ؟ .. ومن خلال هذا التساؤل انشق لى نور قوله تعالى : « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون » .

وإن التأمل ليمتد بى ، حتى يلقينى فى تساؤل آخر : ترى لو أمسك الله عن هذه النطفة فلم يهب لها العقل ، فهل تهبه لنفسها ؟ وإذا أمسك فلم يمنحها السمع والبصر ،

فمن يستطيع أن يبث فيها حقيقة السمع والبصر ؟ . . وهى أسئلة تشرق على قلبى فتتلو على قوله تعالى : «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ » .

ولقد أخذت أتصور الناس جميعا ، عالمهم وجاهلهم ، قويهم وضعيفهم ، جاءوا فوقفوا حول هذه النطفة ، وأخذ بعضهم يستعين ببعض ، لعلهم أن يركبوا لها أقل عظم من عظامها ، أو أرق عصب من أعصابها ، أو شعرة واحدة من شعرها ؟ فباءوا بالعجز والفشل ، وكأن الآفاق من حولهم تشيعهم بقول الله سبحانه : « يَأَيُّهَا النَّاسُ ، ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنَ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوب » .

واسترسل بى التأمل فتساءلت : إذا كان هذا سر الله وصنعه فى قطرة واحدة من ماء مهين ، فكيف سره وصنعه فى أقطار السموات والأرض ، إنها لجج لا يحيط بكنهها إلا من وسع كرسيه السموات والأرض ، وهو العلى العظيم . . . وهنا قاطع الشيخ تلميذه وقال : أمسك يا بنى ، حسبى هذا منك ، فقد هديت إلى المنهج القويم ؛ والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . . .

وبعد : فقد ذكرنا لك يا أخى بعض الاتجاهات التى تتجه إليها العقلية الواقعية فى تفكيرها وتعبيرها ، وهى عقلية ضرورية للداعية كما ذكرنا فى مواطن كثيرة ؛ فإذا كنت تتمتع بهذا النوع من التفكير ، فاحمد الله عليه ، واسأله المزيد من فضله ؛ وإذا كانت الأخرى ، فقد بينا لك بعض المنازع ، وما عليك إلا أن تترسمها ، وتنهج نهجها وتقيس على مثالها ، وتتدرب عليها ، حتى تكسب لنفسك بعض خصائصها النافعة والله لا يضيع أجر العاملين .

الفصل الثانى

الروحانية الاجتماعية

تمهيد

أيها الأخ الكريم : لا تحسبن هذا العنوان يسلمك لأوهام غامضة ، أو ظنون تهوى بك إلى أودية مجهولة ، فقد ألف القراء أن يجدوا صعوبة فيما يقرءون عن الروح والروحانية ، وسأماً يصرفهم عن قراءة مالا يفهمون ، واستقر فى أذهان الكثيرين أن الكلام فى هذه المباحث ، محفوف بالمخاطر والزلل ، لأن كاتبها يطوح بنفسه فى آفاق من الظنون والفروض ، ليس فيها معالم للاهتداء ، ألم يقل الله تبارك وتعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ؟ .

مادة وروح

أقول : لا تحسبن هذا العنوان يطالعك بشىء من هذا ، فإنا قد أردنا به كلاما هيناً سهلا ، ومعانى فى غاية الوضوح ؛ فالإنسان مؤلف من مادة وروح ، وللمادة نظامها ، وعالمها الذى تعيش فيه ، وللروح خصائصها وعالمها الذى تحيا فيه ، والإنسان — وقد خلقه الله فى أحسن تقويم — مطالب أن يكون له حياتان : حياة مادية يؤدى بها ما لبدنه من الحقوق فى حكمة ونظام ؛ وحياة روحانية ، يحياها وراء عالم المادة ، يؤدى بها مالروحه من الحقوق . . فإذا أقبل الرجل على نفسه فقام بحق بدنه ، وحق روحه ، فقد أنصف إنسانيته ، وساير سنة الله ، وعاش فى سلام الدنيا والآخرة .

وإذا جنح إلى إحدى الناحيتين ، وانصرف عن الأخرى فقد ظلم نفسه ، وعرض صفحته لسنة الله (ومن عرض صفحته للحق هلك) ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فالرجل الذى يعيش عيشة أهل هذا العصر ، مقبلا على المال ، منافساً على الرغيف ، مستغرقا فى مطالب البدن ، مشغوفا بالجاه الفارغ والمظاهر الخادعة ، مسخراً ملكاته العقلية والقلبية لهذا المتاع الباطل ، رجل مفتون عن حقيقة نفسه ، محجوب عن لب

الحياة ، أرادت له سنة الله أن تصله بالعالم الأعلى فانسلخ من هذه الكرامة ، وأبى إلا أن يقطع هذه الصلة .

والرجل الذى يقبل على مطالب روحه فيقضى نهاره صائماً ، وليله قائماً ، وعمره مفكراً ، معرضاً عن طيبات الحياة الدنيا ، فلا يلبس إلا الخشن ، ولا يأكل إلا اليابس الجاف ، لتضعف قواه الحيوانية ، وتعظم على حسابها قواه الروحية ، رجل جاهل أيضاً بحقائق الحياة ، غافل عن سنة الله ، مضيع لحقوق بدنه ، أو مضيع لإحدى ناحيتيه ، وكفى بذلك خسارة وتعطيلا لأمر الله فيه . . . وقد رووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زار عبد الله بن عمرو بن العاص ، وكانت امرأته تلطف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : كيف أنت ياأم عبد الله ؟ قالت : كيف أكون ، وعبد الله بن عمرو رجل قد تخلى عن الدنيا ؟ قال لها : كيف ذلك ؟ قالت : حرم فلا ينام ، ولا يفطر ، ولا يطعم اللحم ، ولا يؤدى إلى أهله حقهم ؛ قال : فأين هو ؟ قالت : خرج ويوشك أن يرجع الساعة ، قال : فإذا رجع فاحبسيه على . . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء عبد الله ، وأوشك رسول الله فى الرجعة ، فقال : ياعبد الله بن عمرو : ما هذا الذى بلغنى عنك ؟ إنك لا تنام ! قال : أردت بذلك الأمن من الفزع الأكبر ، قال : وبلغنى أنك لا تفطر ! قال : أردت بذلك ما هو خير منه فى الجنة ، قال : وبلغنى أنك لا تؤدى إلى أهلك حقهم ! قال : أودت بذلك نساء خيراً منهن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعبد الله بن عمرو : إن لك فى رسول الله أسوة حسنة ، فرسول الله يصوم ويفطر ، ويأكل اللحم ، ويؤدى إلى أهله حقوقهم ؛ ياعبد الله بن عمرو : إن لله عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً . »

وبهذا الحكم الأصيل رسم لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منهاج الحياة السليم الصحيح ، وبين أن الإفراط مذموم ، ولو كان فى إقبال العبد على حياته الروحية ، فإن الله لا يقبل من عبده أن يعطل سنته ، ثم يزعم أنه يعجل إلى مرضاته .

كياننا الحقيقى

فالمرء على هذا مقسم بين واجبين ، مطالب أن يعيش فى عالمين ، مكلف أن يربى فى نفسه شخصيتين . . . ونحن بهذه الكلمة لا نريد أن نحض على حقوق البدن ، فالناس قد جُنُّوا بها وعموا فيها ؛ وإنما نريد أن ننبه إلى حقوق الحياة الأخرى ، فكثير من الناس يعيش ما يعيش ، وحياته دائرة فى محيط المادة . لا يسرق نفسه

لحظة ليعيش فى عالمه الآخر ، ثم يموت دون أن يؤدى لإنسانيته حقاً من الحقوق . . .
لقد قلنا إن للانسان رسالتين ، رسالة يقوم بها على تربية شخصه الحيوانى ، وأخرى يقوم بها على مطالب كائنه الروحى المستكن فى هيكله ؛ وأشرف هاتين الرسالتين — بلا مراء — رسالة الكائن الروحى ؛ فالكائن الحيوانى ناحية مشتركة بين الإنسان وكل ما خلق الله من حيوان ، أما هذا الكائن العالى ، فهو السر الذى امتن الله به على بنى آدم حين قال : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا »

فرسالة الإنسان الجديرة به ، هى واجبة نحو كائنه المعنوى وعالمه الروحى ؛ وبمنطق هذه القضية ، نستطيع أن نحصى أعمار الناس بما قضوا فى هذا العالم العالى من لحظات ، ونقيس أقدارهم بالنظر إلى جسامة شخصهم القدسى العالى ، لا شخصهم الذى يجرى عليه ما يجرى على بهيمة الأنعام .

وكثيراً ما نقرأ أن فلانا أنعم عليه برتبة (الباشوية) بمناسبة اعتزاله الخدمة ، اعترافا بفضل رسالته التى أداها فى القضاء أو غير القضاء من مناصب الدولة ؛ فهل أدى هؤلاء — حقاً — رسالة بليغة للحياة ؟ كم يحال إلى المعاش ويعفى من الخدمة أناس ليسوا من كبار الموظفين ، فلا ينعم عليهم بشىء ، ولا تكتب الصحف عن رسالتهم شيئاً ؛ فهل الرسالة فى عرف هؤلاء أن يتدرج الإنسان فى مناصب الدولة حتى يبلغ أعلاها ، فإذا لم يبلغها فهو مخفق لا يستحق الالتفات ؟ الواقع أن هذه أوهام باطلة ومقاييس فاسدة ، فرسالة الإنسان هى رسالته نحو معانيه الإنسانية ، فإذا أداها فقد خدم أمته وخدم الإنسانية كلها ، ولو لم ينل من المناصب شيئا ، وإذا أهملها فلا رسالة له ، ولو بلغ رياسة الدولة ؛ وقد يجتاز الواحد من هؤلاء الستين من عمره ، وشخصه الحقيقى ابن شهر واحد أو ابن يوم واحد ؛ وقد تراه فيملأ نظرك ، ولو كشف القناع عن قلبك لرأيت إنسانه الباطن ضعيفا مهزولا ، أو لم تجد شيئا يقام له وزن .

والآن فما معنى أن يعيش الإنسان فى عالمين ؟ وأن يربى فى كيانه شخصين ؟ إن المعيشة فى هذا العالم المادى معروفة ، وتربية الكائن الحيوانى غير مجهولة ؛ فهى تعهده بالطعام والشراب والرياضة والوقاية من الأمراض ؛ فما معنى أن تحيا فى عالم آخر ، وتربى شخصية أخرى لا تراها العيون ؟ كيف تربها ؟ وكيف تغذيها ؟ ومن أين يأتيها هذا الغذاء ؟

كيف يخطىء المرء فى حق نفسه ؟

وهذا تساؤل يفرض علينا أن نقف على النقطة التى يبدأ منها خطأ الناس حين ينظرون إلى الحياة ، أو يذهبون فى مذاهبها ، فإذا عرفنا وجه الخطأ وحقيقة الصواب انكشف لنا ما نسأل عنه .

فغذاء الجسم طعام وشراب يخرج من هذه الأرض ، ووسيلة تحصيله اليد والرجل ، والعين ، والأذن ، واللسان ، وما وراء ذلك من ملكات البدن وجوارحه ؛ وغذاء الكائن الروحى جمال من نور وجه الله ، ونفحات تهبط على القلب من رياض أنسه سبحانه وتعالى ، ووسيلة تحصيله من سمواته العلا ، هى سمعه (أى سمع الكائن الروحى) وبصره ، وكل قواه ، وملكاته ومشاعره التى مركزها القلب ...

والإنسان بخير ماظلت قواه البدنية تسعى فى الأرض ، وما بقيت أشواق قلبه محلقة حول عرش الله عز وجل ؛ فإذا هو قسر القلب على غير ما يسر له وحول أشواقه عن أرزاق العالم الأعلى ، إلى متاع العالم الأرضى الأدنى ، فقد قطع عن كائنه الروحى مدد حياته الأصيل ، وسامه أن يتجرع ما ليس من طبيعته ؛ يتجرع ما يخنقه من أهوام باطلة ، وشهوات أرضية فارغة ، فيذبل ويضمر ، ويظل فى هدا المحيط الخانق وصاحبه سارح غافل عنه ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

والنقطة التى يبدأ منها الخطأ هى القلب ؛ ووجه الخطأ هو قسر القاب على غير ما يسر له ، وتسخير أشواقه ومشاعره فى تحصيل متاع الحياة الدنيا ، فيضطرب تنافس الناس فى الخارج ، ويختل الكيان الباطنى للشخص .

ولقد قلنا إن الله زود البدن بجوارحه وملكاته ، لتسعى له فى تحصيل زاده من الأرض ، فلو كانت هذه الجوارح غير كافية لذلك لما قصر الله سبحانه عن أن يهب له ما يفى بحاجته ؛ فهل هناك شخص واحد يدعى أن اليد والرحل وسائر الجوارح ومن ورائها ملكات العقل غير كافية ؟ . إذاً فما محل هذه القوى القلبية ؟ وكيف نترلها من سمواتها العلا لتعمل مع الجوارح جنبا جنب ؟ . . وهب جدلا يا أخى أن قوى القلب خلقت لتعمل مع الجوارح فى خدمة البدن ، فأين مازودنا الله به لخدمة الجانب الروحى الباطنى ؟ . . أين هو ؟ . . هل حابى الله إحدى الناحيتين — حاشاه — وظلم الأخرى ؟ . . هل ذكر الكائن الحيوانى فزوده بكل القوى ، ونسى — سبحانه — أن يزود الكائن الروحى بشىء ؟

نريد للانسانية أن تستقبل أمرها على بصيرة ، فما ظلمنا الله شيئاً ، ولكن الناس

أنفسهم يظلمون ؛ ونريد للانسان أن يقدر نفسه بالميزان الصحيح الذى يقدره الله به ..

هل نظلم البدن إذا أعطيناه كفايته من الدنيا ، وأطلقنا مشاعر القلب لتسعى فى مطالب الكائن الآخر ؟ . . من الإنصاف لأنفسنا وللحقيقة أن نقول : لاظلم فى هذا ولكن من الإنصاف أيضا أن نعترف بأن الموازين التى تقرر كفاية البدن غير معلومة ، وأن الخطوط أو الحواجز الفاصلة بين قوى البدن والقلب غير ظاهرة ؛ فما هى كفاية البدن ؟ وكيف نصرف قوى القلب إلى رسالتها الخاصة ؟

والذى أراه أن هذه المشكلة يسيرة الحل ، إذا نحن رجعنا إلى طبيعة الأشياء ، واستفتينا فطرة الله التى فطر الناس عليها ؛ فهل كفاية البدن شىء غير إسعافه بضروراته التى يقوم بها كيانه ؟ طعام يسد الجوع ، ولباس يستر الجسم . . هل يفرض المنطق غير هذا ؟ وهل يطلب العقل شيئا آخر ؟ .. يقول فقيه الوجود صلى الله عليه وسلم لرجل عما يكفيه من الدنيا : « يكفيك ما سد جوعتك ،ووارى عورتك ، وإن كان لك بيت يظلك فذاك ، وإن كانت لك دابة فبخ بخ !! » أما أنه لو تكلمت أعضاؤنا لضرعت إلينا أن نكف عن إجهاد المعدة وحشو الأمعاء ، وإرهاق الأعضاء بما هو فوق الحاجة ، فإن سلامتها مكفولة بالضرورى ، أما ما زاد على الضرورى فهو نذير العلة القريبة أو البعيدة . .

ويقرر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المنطق الفطرى بقوله الحكيم المشرق : « ماملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ؛ بحسب ابن آدم أكيلات يُقمن صلبه ، فإن غلبت الآدمى نفسه ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

هذه كفاية البدن من دنياه ، فكيف نفصل قوى القلب حتى تنصرف إلى رسالتها الخاصة فى عالمها الخاص ، ويزول خطأ البشر فى نظرهم إلى الحياة ...؟

نستطيع أن نجيب عن هذا إذا نحن عرفنا حقيقة الدافع الذى يدفع الإنسان إلى الاستكثار من الطعام والشراب واللباس ؛ إن المرء لو خلى إلى طبيعته لوقف عند مطالبها ، فماذا يخرجه عن هذا الموقف الطبيعى ؟ لو أنه يأكل ليؤدى للبدن ما يقوم به أوده وكفى ، لاستقامت حالته الصحية ، والاجتماعية والروحية ؛ ولكنه يأكل أيضا لتحصيل لذة الطعام والشراب ؛ ويلبس لا ليستر جسمه فقط ، بل ليحصل أيضاً لذة الاختيال بزينته بين الناس ، فالرغبة فى الاستمتاع عامل ثان يحرك الإنسان إلى هذه المطالب والرغبة أحدى قوى القلب ، ولون من ألوان أشواقه العنيفة القوية ، فإذا دخلت عاملا ثانيا طغت بقواها الهائلة على العامل الأول ، فلا يكون الإنسان فى هذه الحالات خاضعاً

لقانون طبيعته ، بل خاضعاً لسلطان هذه الشهوة الهوجاء ، فلا يقف عند القدر الذى يقوم به أود البدن ، بل يذهب مع نداء اللذة حتى يعجزه الذهاب .

ومعنى هذا أن الرغبة فى الاستمتاع بالدنيا ، هى الدافع الأكبر الذى يحرك الإنسان إلى متاعها الأدنى ، أو قل : إنه تعليق عواطف القلب وميوله بهذه الأغراض .

إن الدنيا فى منطق الفطرة دار بلاغ ، ولكن تعليق عواطف القلب بها جعلها فى نظر أكثر الناس دار متاع ، والفرق شاسع بين البلاغ والمتاع ؛ فمن اتخذها بلاغا فقد جعلها وسيلة يبلغ عليها ما يريد من ربه لحياة قلبه ، ومن اتخذها متاعا فقد جعلها غاية يدور حولها برغبات قلبه ، وهمة نفسه ، وأهواء غرائزه ؛ أى أنه يحشد قواه كلها لدنياه ، ويجرد حياته الأخرى من كل قوة تسعى فى عمارتها . .

والخط الفاصل بين البلاغ والمتاع ، هو الحد الذى يجب أن تقام عنده الحواجز بين حياة المادة وحياة الروح ، ليسعى البدن فى محيطه آمنا كل تدخل يغير عليه نظام بلاغه وكفايته ؛ ويسعى القلب فى محيطه ، محلقا بمشاعره فى ملكوت الله ، مفيضا على كيانه الحقيقى غذاء من النور ، وشرابا من ماء الحياة الطهور . .

يجب أن يحال بين القلب وبين متاع الحياة الدنيا

حقا إن القلب خلق ذواقا للجمال ، ويحب دائماً أن تدق فيه أفراح السعادة ؛ والقلب الحى ، هو أكثر القلوب اهتزازاً بنشوة الغبطة ، وأشدها شوقا واستشرافا لترادف نفحات النعيم ... والقلب الميت ، هو القلب الراكد الجامد ، الذى لا حركة به ولا عاطفة . . . هذا كله حق ، وما تلك المشاعر والأحاسيس فيه إلا ليذوق بها حلاوة ما يفاض عليه من جمال . . . ولكن من أى أفق يصيب هذا الجمال ؟ أمن الأفق الأدنى الذى يرتع فيه الجسم مع سائر الدواب ؟ أم من الأفق الأعلى الذى يستمد نعيمه وجماله من معرفة الله سبحانه ؟

يجب أن يكون للجسم عالمه ، وللقلب عالمه ، فيسعى الإنسان سعيه البدنى فى حياته الظاهرة ، ويسعى سعيه القلبى فى حياته الباطنة .

تدارك الخطأ بالزهد

فإذا أردنا أن نسمى هذا الفاصل الحكيم ، الذى يقيم المرء بين حياتيه على صراط مستقيم ، فليس لدينا له إلا ما سماه به أهل المعرفة ، وهو « الزهد » ؛ فمن كان يظن الزهد غير هذا فليراجع نفسه ، فليس الزهد روحانية تكفك عن السعى فى الدنيا ،

وتعزلك عن الناس ، وتجعلَ نصيبك الحرمان من طيبات الحياة . . إنما الزهد ما تقرر فيما مضى.. قيل للزهرى : ما الزهد ؟ قال: أما إنه ليس تشعيث اللمة ، ولا قشف الهيئة ، ولكنه صرف النفس عن الشهوة . . وسئل الإمام أحمد بن حنبل : هل يكون المرء زاهدا ومعه ألف دينار ؟ قال نعم ، قيل : وما آية ذلك ؟ قال : آيته أنه إذا زادت لا يفرح ، وإذا نقصت لا يحزن . وقال ابن السماك : الزاهد هو الذى إذا أصاب الدنيا لم يفرح ، وإذا أصابته لم يحزن . يضحك فى الملا ، ويبكى فى الخلا ؛ أى يكون مع الناس فى مؤانسة وبشاشة ، فإذا خلا بنفسه ذكر الله ففاضت عيناه . .

وسئل سيد العارفين مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الزهد فقال : « أما إنه ماهو بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا : أن تكون بما فى يد الله أغنى منك بما فى يدك » ؛ والزهد مارسم الله فى القرآن الكريم : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا » .

هذا هو الفاصل الذى كنا نتساءل عنه منذ قليل ، لنتبين عنده معالم الحياتين ؛ فالزهد هو أن تعرف أن الله أراد لك أن تحيا فى حياتين ، وأن تثبت وجودك المادى فى حياة المادة ووجودك الروحى فيما وراء المادة ، عاملا فى الأولى بقوة بدنك وملكاته وعاملا فى الأخرى بقوة قلبك وملكاته ، محاذراً أن تنصرف عواطفك عما فى يد الله ، إلى متاع الدنيا .

فيجب أن تأكل من الطيبات ، فما خلقها الله وهو يكره أن تنال منها ؛ بل إنه دعا إليها المرسلين والمؤمنين ، فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » وقال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ » ؛ ولكن على أن تؤدى بذلك حق البدن ، فتأكل للوفاء بهذا الحق ، لا للذة والشهوة والمتعة الحيوانية فإن « الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » . . للجسم زاده ؛ وللقلب زاده : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » .

ويجب أن نلبس ، وأن نتجمل بالجميل والنظيف من الثياب ، فإن الله جميل يحب الجمال . ونظيف يحب النظافة ؛ لهذا يدعونا عز شأنه : « يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ » : ولكن لستر الجسم ووقايته ، لا لشهوة الظهور والاختيال أمام الناس . . . وتأمل ياأخى قول الله تعالى : « عند كل مسجد » فإن الذى

يتزين للمساجد ، غير الذى يتزين للأندية والمجالس ؛ والذى يتزين لله ، غير الذى يتزين للناس ؛ والدافع الربانى الذى يحفز إلى التجمل عند العبادة ، هو دافع سام جليل ، لا يدع فى القلب مجالا لرغبات الرياء والظهور ، فيجب أن يكون الشأن فى اللباس كالشأن فى الاغتسال والنظافة ؛ فالرجل يغتسل وينظف بدنه ، دون أن يخطر على قلبه أن هذا مما يختال به الإنسان ويلفت أنظار الناس إليه ، بل يفعله ليؤدى حقا لجسمه وكرامته . . سأل رجل عبد الله بن عمر : ما ألبسه من اللباس ؟ قال : « مالا يزدريك فيه السفهاء ، ولا يعيبك به الحكماء » . .

البس ما طاب لك ، على ألا تتكلف له ، ولا يلتفت إليه قلبك ، واذكر دائما أن لباس الروح خير وأسعد من كل لباس خلقه الله للبدن : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ ، وَرِيشاً ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُون » .

والحياة تقتضيك أن تتزوج وأن تتناسل ، والله عز شأنه شرع لنا هذا ، وجعله من سنة الأنبياء : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً » والعقل الحر ، يحكم بأن غريزة الجنس فى الذكر والأنثى ، إنما هى نوع من التكليف الإلهى ، تؤدى به رسالة إلى الحياة ، وليست وسيلة لتحصيل شهوة من الشهوات ؛ فلنتزوج لننجب ما يريد الله من النسل وكفى ، لا لقضاء اللذة والمآرب من النساء والبنين ؛ وهذا مايقرره الله تعالى بقوله : « فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ » . قال الإمام البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : « وابتغوا ما كتب الله لكم » . واطلبوا ما قدره الله لكم وأثبته فى اللوح المحفوظ من الولد ؛ والمعنى أن المباشر ينبغى أن يكون غرضه الولد ، فإنه الحكمة من خلق الشهوة ، وشرع النكاح ، لا قضاء الوطر . . .

للزوجة فتنة ، وللبنين حلاوة ، وقد يسرى شىء من هذا إلى القلب ، فيفسد على المرء ربانيته ، ويجعله حيوانى اللذة ، وبعبارة أخرى يقضى على وجوده الحقيقى ، وحياته التى يقاس بها عمره وقدره ؛ ولهذا يحذرنا الله عز وجل بقوله : « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُم فَاحْذَرُوهُمْ » ؛ ويشرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ليس عدوك الذى إن قتلته كان لك

نوراً ، وإن قتلك دخلت الجنة ، ولكن أعدى عدوك ، ولدك الذى خرج من صلبك ، ثم أعدى عدوك مالك الذى ملكت يمينك » . . .

واسع فى الأرض ، واضرب فى مناكبها ، وابتغ ما فيها من فضل الله ، ورزقه وثمره . . . على أن تظل ساعياً بقلبك فى ملكوت الله . . .

اعمل فى دنياك ، واجمع المال ، ولكن لا يلهينك شىء من هذا عن حياتك الأخرى ، لا يكن غرضك من جمع الحطام أن تكنز الذهب والفضة ، أو تكاثر به بين الناس ، فهذه همة السفهاء الفارغين ، والفتنة التى تدخل على القلوب عبادة المال من دون الله : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ؛ « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

بهذا يثبت الإنسان وجوده فى الحياتين ، ويؤدى رسالته فى الناحيتين ؛ ويحقق معنى الزهد الذى تقاصرت عنه همم العاجزين من عباد الشهوات ، فعابوه ، وهو زينة الإنسانية ونظامها الكامل .

صعوبة تحقيق الزهد

ومن الواجب أن نقرر هنا أن تحقيق هذا المنهاج ليس بالسهولة التى تبدو على الورق ، فنحن محاطون بزينة الدنيا ومغرياتها ، من المال والنساء والجاه والأبناء وغيرها ؛ كل هذه فتن تتضافر على إثارة القلب ، وجذب خطامه إلى محيطها المعربد الصاخب ؛ وليس فى ميسور المرء أن ينجو من سحر فتنة واحدة منها ، فكيف بهن مجتمعات ؟ هذا إلى أن الإنسان منذ طفولته معبد للذائذ حواسه البدنية ، بحنان والديه ، وعطف ذوى رحمه ؛ يهدون إليه ويلطفونه ، ويعدونه ويمنونه ، فلا يكون ذلك إلا بمضاحكة حواسه ومناغاة غرائزه وشهواته ، فيكبر وزمام عواطفه مع زهرة الحياة الدنيا ؛ فهل يكون من السهل عليه أن يؤتى كلتا الحياتين حقها ، وهو فى طلاقة هذا المرج الضاحك الفاتن . . .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعترف بهذا ويقرره فى حكمة العملى الخبير : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون » .

وما دمنا ننظر إلى حقائق الأشياء ، وواقع الأمور ، كما يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجب أن نكون عمليين واقعيين أيضاً فى محاولة علاجها .

المرء بين الحق والهوى

ما موقف القلب ، حيال هذه الدنيا التى يصفها رسول الله بأنها حلوة خضرة ؟ ..
لو أن الإنسان ميكانيكى التركيب ، لجعل لبدنه زراً خاصاً يدير أعضاءه ، ولقلبه زراً آخر يديره فى جهة أخرى ، فيستريح ويريح ... ولكن الإنسان كائن حى ، والحياة سر مستفيض ، لايضبط بقيود المادة وسدودها ، فما موقف القلب — وهو مركز الحياة ومعين القوى — أمام زهرة الدنيا وشهواتها ؟ ... أنتجاهل غرامه وأشواقه ، أم ننزل على حكم الأمر الواقع ؟ ...

ونحب إزاء ما نلتزم من إنصاف ، أن يكون الناس منصفين أيضاً ؛ فهل يريدون أن ينطلق الإنسان فى دنياه مع أهواء قلبه بلا قيد ولا شرط ، أم لابد من قيود وشروط وتنظيم ؟ ...

لو أن القلب كان مركز المنطق وعدة التنظيم ، كما هو مركز الحياة ومعين القوى ، لنظم نفسه بنفسه ، فأخضع قواه الهائلة لمنطقه ، وسيرها فى اتجاه المبادىء التى يستحسنها ، ولكان للانسانية شأن غير هذا الشأن ؛ ولكن الله قضى أن يكون مركز التنظيم بعيداً عن القلب ، متخذاً برج قيادته فى قمة الجمجمة ، فالقلب مرجل البخار فى قاطرة الإنسان ، والعقل المنطقى قائدها ... فإذا كانت المبادىء التى آمن بها المنطق ، هى التى يسرى رحيقها فى القلب ، فاعلم أن السائق آخذ بزمام قاطرته ، مهيمن على توجيه قواها إلى ما يشاء ... أما إذا آمن العقل بمبادىء ، وأشرب القلب مبادىء غيرها . فاعلم أن قبضة السائق منحلة عن عجلة القيادة ، وأن القاطرة تمشى بلا عينين ، وأن صاحبها ينطلق مع هواه بلا قيد ولا شرط ؛ وهذا شأن الناس جميعا ، أو شأن أكثرهم فى هذه الأيام .

والعجب من أمر الناس ، أنهم يعيشون منطقيين مع معداتهم ، لأنهم أخضعوا المعدة للعقل ، فإذا أفتاها أن هذه الفاكهة الحلوة سامة ضارة ، وأن هذه القثاء طيبة لا خوف منها ، نزلت على حكمه ، وأخذت بمنطقه ، وآثرت القثاء على الفاكهة ، دون أن تفتنها حلاوتها عن سمومها ؛ ولكنهم ليسوا منطقيين مع قلوبهم ، لأنهم لم يخضعوا لمشيئة العقل ، فإذا قيل لها : هذا مبدأ فى الأخلاق جميل ، رفضت أن تكون كالمعدة فى الاستسلام لما يلقى عليها ... فياليت معدة الإنسان تهضم المبادىء كما تهضم الطعام ، إذن لانتفع بالخيرين ، ولسرى فيه الغذاءان : غذاء البدن ، وغذاء الروح ؛ ولكن للمبادىء معدة أخرى ، هى المعدة العصية والقلب الشموس ... الصدق

فضيلة . والـكذب رذيلة ... خبرنى بربك : من من الناس ينكر هذه القضية ؟ أى عقل لا يؤمن بهذا المبدأ الجميل ؟ . ولـكن أى نفس لا تستثقل الصدق عند ما يعترض المنفعة ؟ وأى قلب لا يستحلى الـكذب حينئذ ذاهبا مع الهوى كل مذهب ، منطلقاً بالقاطرة على غير ما يحب السائق ... والإنفاق فى الخير فضيلة ، والشح رذيلة ، ما فى ذلك شك ، ولـكن القاطرة تمشى فى غير هذا الاتجاه ، فلماذا ؟ ألأن الإنسان فى حياته منطقيا مع ما يؤمن به عقله من مبادىء ، أم لأن عقله ومبادئه فى واد ، وقلبه وأهواءه فى واد آخر ؟

كنا نطلب إلى الناس أن يكونوا منصفين ، فهل يرضون للانسان أن يحيا هذه الحياة ؟ هل يحبون أن نقول له : إذا ثقل عليك الصدق ، وحلا الـكذب فى نفسك ، فلا بأس ، ما دمت تحصل منفعة شخصية ، فإن الدنيا حلوة خضرة ؟

هل يريدون أن نذم له الصدق ونمدح له الشح ، لأن المال زينة الحياة الدنيا ، والإنسان منذ طفولته معبد محب لها ؟

فإذا سأل سائل : ما موقف القلب من الدنيا الحلوة الخضرة ؟ رجوناه أن يضع أمام عينه ، وعقله ، وقلبه ، هذه المفارقة الهائلة ، التى تجعل عقل المرء ومبادئه فى واد ، وقلبه وأهواءه فى واد آخر ، لعل أن يروعه هذا الشذوذ فيطلب أن يلائم بين هذين الشقين المتنافرين ، قبل أن يحدد حق الحلواء والخضراء .

الواقع أننا لا نستطيع أن نضع للقلب نظامه ، ونحدد موقفه ، إلا ونحن مقيدون بعلاج هذا الشذوذ .

هذا أول شرط وأول قيد ، أما بلا قيد ولا شرط فلا ... ولـكن كيف نعالج هذا الشذوذ ؟ ونزيل هذه المفارقة الواسعة ؟ أيكون ذلك بنقل العقل إلى وادى القلب ، وإنزاله على حـكم أهوائه ؟ أم يكون بنقل القلب إلى الوادى الآخر ، وإلزامه ما للعقل من مبادىء قويمة ؟

لا شك أن المفارقة التى نريد علاجها لا تزول إلا بتقريب القلب إلى العقل ، والملاءمة بين ما فى القلب من قوى هائلة ، وما فى العقل من مبادىء كريمة .

فإذا عاد السائل إلى تساؤله القديم : ما موقف القلب من الدنيا الحلوة الخضراء ؟ رجوناه أن يضع أمام عينه ، وعقله ، وقلبه ، أمرين لازمين :

١ — المفارقة الشاسعة التى تقيم حياة المرء على شذوذ غير مقبول .

٢ — ضرورة علاج هذه المفارقة ، بعقد أواصر الألفة بين أهواء المرء ومبادئه الـكريمة ؛ أى جعل أهوائه من جنس هذه المبادىء الـكريمة .

لابد من التجرد

فإذا اتخذنا من هذين الأمرين قيدا ينظم لنا شأن القلب فى هذه الحياة ، ألفينا أنفسنا أمام نهج واحد لا ثانى له ، ولا خير فى غيره للمرء ولا كرامة : « هو تجريد القلب من كل هوى يعارض المثل العليا » . . نعم . فإن هذه الأهواء لا تكتفى بأن تجعل عقل المرء ومبادئه فى واد ، وقلبه ومشاعره فى واد آخر ؛ بل إنها كثيراً ما تطغى على العقل نفسه ، فتجرده من مبادئه وأسلحته ، أو تثلمها له وتعطلها ؛ ثم تنزله على حكمها ، وتقهره على أن تنظم لها ماهى فيه من باطل وتفاهة وغى . . . وسرعان مايقبل الوضع الجديد ، ويألفه ولا يرى بأساً ولا حرجاً فى هذا ؛ لايرى بأسا ولا حرجا فى أن يجمع فى حقيبته المتناقضات من المبادىء الكريمة ، ونزوات الباطل وأهوائه ، ويمشى فى خدمة هذه الأهواء كالعبد الذليل ؛ يفكر لها ، وينظم باطلها ، ويمنطق قضاياها ، ويعمل فى دسائسها ومكائدها بمهارة لا يدخر فيها وسعا ، ولا يألو فيها جهدا على نحو ما تراه الآن شائعا بين الأفراد والأمم . أى أن هذا الذى كان عليه أن يقبض على أهواء القلب ، ليقود القاطرة إلى الخطة المثلى ، قد قبضت الأهواء على زمامه ، وأنزلته وراءها ليدفع القاطرة من الخلف ! ! إلى حيث تتردى فيما يصادفها من الحفر ، أو تتحطم على ما يعترضها من عقبات . . فهل لهذه الأهواء المعربدة ، إلا أن نجرد القلب منها حتى تسلم لنا حياة الحق بيضاء خالصة ؟ .

ولكن ، ماهى هذه الأهواء ؟ وكيف نجرد القلب منها ؟ . سؤالان يخطران على قلوبنا وعقولنا ، عندما نقف على أبواب هذه المهمة الخطيرة لنشرع فى إنجازها . وما حسن أن نبلغ هذه المرحلة ، ثم نسكت عن مواصلة السعى لإتمامها ، قائلين لمن معنا حسبك أن تجرد القلب من كل هوى يعارض المثل العليا . . إننا لا نستطيع أبداً أن نجرد القلب من شىء لا نعرفه ، ولا يمكن أن نشرع فى مهمة غير واضحة المعالم ؛ فما هى هذه الأهواء ؟

هذه الأهواء ، هى مجموعة الخواطر والشهوات ، التى لا يمكن أن تورد على قلبك حركة ربانية ، أونفحة سماوية نورانية . . لا يمكن أن تمنحك شيئاً من هذا ، لأنه ليس من طبيعتها . فهى شهوات الجوارح الحيوانية فى الإنسان ، وهى جوارح أرضية غير سماوية ، خلقت من الأرض ، ومنها غذاؤها ، وشرابها ونماؤها ، فهى لاتنفك ترنو وتهفوا إلى لذة المتاع الأرضى الحيوانى ، ولا يمكن أن تدرك من أرزاق السماء ومغانمها إلا بمقدار ما تدركه جوارح أى حيوان آخر . . فهى وجوارح الحيوان سيان مرعاها

واحد ، والأرض مائدتهما جميعا ، أو مذودهما إن أردت منطق الفطرة الصحيح . .
ولأمر ما ، يخاطبنا جل شأنه بقوله : « مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » بعد قوله :
« وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ... » ويقول :
« مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » بعد أن يقول عن الأرض : « فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ، وَعِنَباً وَقَضْباً ، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْباً ، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ... » ويقول تعالى:
« وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ، كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى » . . . هى مائدة واحدة لجوارح الإنسان والحيوان ، أو مذود واحد ، أو سمها ما شئت ، بحيث لا تعدو الحقيقة ؛ فمن أغضبته هذه الحقيقة رجوناه أن لا يغضب علينا ، وعرضنا عليه أن فى السماء أرزاقاً غير أرزاق الأرض ، يفيضها الله على القلوب ، لا على المعدات والجيوب ؛ قد أعدها سبحانه وتعالى للممتازين من عباده بالإيمان ، لا للذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، فعليه أن يرفع بصره من مذود الأرض إلى مائدة السماء ، إذا أراد أن يدعى لنفسه امتيازا على البقر والشاء . . .

وأنت تقرأ قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ : كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً » وتقرأ بعده بقليل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ » . . .
فكم من فرق هائل بين القولين . . هناك فرق شاسع بين : « يأيها الناس ، ويأيها الذين آمنوا » . . وأمد بعيد بين : كلوا مما فى الأرض ، وكلوا من طيبات مارزقناكم إذ يسند هذا الرزق إلى ذاته سبحانه . . وما أحكم التناسب حين يأمر الناس جميعا أن يأكلوا مما فى الأرض ، ثم يخص المؤمنين بالطيبات مما رزقهم من فضله .

فمجموعة الخواطر والعواطف والشهوات التى تخدم فى الإنسان ناحيته الحيوانية فقط — هى التى يجب أن نجرد القلب منها ونبدد ظلامها عنه ، حتى يظهر صقاله وصفاؤه ، وتنبعث منه إشعاعاته الإلهية إلى الملأ الأعلى .

وهذه المجموعة يمكن تفصيلها فى الفصائل الثلاثة الآتية :

(١) أهواء تعلق القلب بمطالب البدن ورغبات الجوارح ، تعلقا يعبد المرء للطعام والشراب واللباس والنساء وأنواع الترف ومتع الحواس الظاهرة .

(٢) أهواء تعلق القلب بمطالب الجاه ، ورغبات العلو ، والسمعة فى الناس ، تعلقا يعبد المرء لشهوة المنصب والسلطان أو شهوة الغلبة على النظراء والأقران .

(٣) أهواء تعلق القلب بالمال ، وتجعل منه زينة للحياة الدنيا ، وقد يطلب المال لتحقيق أحد الغرضين السابقين ، أو كليهما ، فيكون وسيلة لإشباع رغبات البدن ، أو عنصراً مؤازراً لشهوات الجاه والاستعلاء ... وقد يبدو لهذا كأنه ليس فصيلة ثالثة من الأهواء ، وهذا حق ؛ ولكن المال قد يحب فى كثير من الأحيان لذاته ، كما يحب الرجل الخيل المسومة والأنعام والحرث — مثلا — بدون نظر إلى متعة البدن ، أوشهوة الجاه ، فهو على هذا النحو فصيلة قائمة بذاتها .

هذا يا أخى هو الباطل الذى نريد أن نحرر قلوبنا وعقولنا من أوهامه ، ونجردها أو نخلصها من أثقاله وآثامه .

فإذا نحن أفلحنا ، فقد خلصت لنا الحقائق فى جوهرها الصريح ، وسلمت لنا الحرية فى لبابها الصحيح . . . ولكن كيف نحرر قلوبنا ونخلصها مما هى فيه ؟

لقد تميزت لنا الأهواء الباطلة ، فكيف نزيح هيمنتها على القلوب ؟ . هل نكتب الكتائب ونحشد الجند ونعبىء الجيش الكثيف ، ثم نشن على هذا العدو غارة حازمة قاصمة ؟ نعم ، لابد من غارة . . فما أشبه هذه الأهواء الثقيلة بالعدو الدخيل الثقيل ، الذى يحتل ديار غيره فيقضى فيهم بأمره ونهيه ، ويسومهم مالايقبله الأحرار من فقر وذلة ! فإذا رأيت غاصباً محتلا جلا عن مستعمرة غنية بدون معركة ، فاعلم أن الأهواء الفاسدة المفسدة يمكن أن تجلو عن « مستعمرة القلب » بدون معركة ... وإذا رأيت أمة منكوبة بالاحتلال ، ظفرت بحريتها وسيادتها بمجرد الأمانى التى تطوف كالأحلام ، فاعلم أن الأمانى السلبية والأحلام الفارغة ، كافية لتحرير القلب من محتله العنيد . . . أما إذا أقنعك الواقع بأن الأمر جد لاهزل ، وأنه لابد من معركة حامية ، تديرها الأمة المغلوبة ، وتحشد لها كل ما تملك من إرادة وقوة ، فذلك هو الحق ، وهو وحده ثمن الجلاء ، وضريبة الحرية والاستقلال ... إذا أقنعك واقع التاريخ القريب والبعيد بهذا ، فاعلم أيضا أنه لابد من مثل هذه المعركة لتحرير مستعمرة القلب الغالية ؟ ولكن ، كيف ندير هذه المعركة ؟ كيف نعد لها العدد والعدد ؟ ماجندها الذى يجب أن يعبأ ؟ وما سلاحها الذى يجب أن يهيأ ؟ . . الأمر على خطورته بسيط غاية البساطة ، والمؤونة فيه يسيرة غاية اليسر ؟ فجند هذه المعركة هم أبناء هذا القلب ، هم شعب هذه المستعمرة القلبية ! .. وهل للقلب أبناء غير عواطفه وخواطره ؟

إن الوطن إذا استعمره العدو فلا سبيل إلى تحريره إلا أن يقوم أبناؤه ؛ ويتجمع شعبه على ذلك فإذا انصرف كل إلى شأنه الخاص ، فقد تبددت قواهم ، وخمدت جمرتهم ،

وتبعثرت ذراتهم فى الفضاء ، وهيهات أن يتم مع هذا الشأن جلاء العدو ، إلا أن يكون أمر من السماء ليس فى الحسبان .

وكذا القلب إذا استعمره العدو . لاسبيل إلى تحريره إلا أن يقوم أبناؤه ، ويتجمع شعبه على هذه الإرادة . فإذا انصرفت كل عاطفة إلى شأنها ، ومضى كل خاطر إلى سبيله تفرق الشمل ، وانحلت إرادات القلب ؛ وهيهات أن يتم مع هذا خلاص المرء من ضلالات الباطل وأوهامه ... لابد أن يتجمع جند القلب ، وأن تعبأ إراداته المختلفة . لابد من إرادات العواطف — أو العواطف المُريدة (بضم الميم) — فالعاطفة التى لا إرادة لها هى عاطفة منحلة ، وخاطر متميع لايورث إلا الحياة السلبية الراكدة ... العاطفة المريدة هى العاطفة الفاعلة ، التى تنشىء للمرء حياته الإيجابية فى الظاهر والباطن ، وما المرء فى ميدان الانتاج إلا عاطفته المريدة الفاعلة ، فإذا خلا من هذه الإرادة ، فهو شبح فارغ هائم على وجهه ، هو والسوائم سيان ... فإلى هؤلاء الفارغين نوجه النداء ، أن يعودوا إلى نفوسهم ، ويجمعوا خواطر قلوبهم ، ويلموا شعث إرادتهم .. فإذا تركز وجود أحدهم فى إرادته ، حق له أن يقول : إن الجندى قد تهيأ للمعركة . ولاينقصه إلا السلاح .

أيها الأخ : أول عدة المعركة أن تكون مريداً ، وأن تحذر العيش بلا إرادة ، وما ذلك عليك بعزيز ، إذا أردت العيش الكريم ؛ فهل ترى ذلك يكلفك شيئاً ؟ هل تراه يكلفك مالا ؟ أو تراه يكلفك جهداً ومشقة ؟ . . إنه لا يكلفك إلا أن تجعل عواطفك صلبة غير منحلة ، وخواطرك متماسكة غير متميعة . لا يكلفك إلا أن تراقب رجولتك ، أو مقومات هذه الرجولة . .

أيها الأخ : كن مريداً . . .

أما سلاح هذه الإرادات التى تجمعت فى القلب ، وتهيأت للمعركة ، فماذا عساه أن يكون ؟ سيف ؟ بندقية ؟ مدفع ؟ نعم ، ولكن سيف من الحق لا من الحديد ، وبندقية ترمى بشهب من النار ؛ ومدفع يقذف بالحق على الباطل ، لا بويلات الرصاص والقنابل فالحق هو السلاح الذى يجب أن تتزود به هذه الجنود ، فإذا زودت بسلاح آخر كانت حرباً على المستعمرة القلبية ، لا لها ؛ كانت حرباً على وطنها مع الغاصب المحتل ؛ كانت كطوائف الخونة المجرمين ، الذين يعملون ضد أوطانهم مع الطغاة المغيرين . نعم ، فهذه الإرادة أو هذه الإرادات ، إن لم يمسك الحق بقيادها ، سخرها الباطل فيما يشاء من أغراضه .

فلتتزود هذه الجنود بالحق ، فالحق عصمتها ، والحق سلاحها فى الوقت نفسه ؛ فلتتزود هذه الإرادات بهذا النور ، وهذه النار . ولكن ، كيف نزودها هذا الزاد ؟ إن كلمة الحق غامضة غير واضحة المسمى ، فكيف نضع هذا السلاح فى أيدى هؤلاء الجنود ؟ .

التجرد هو الرجوع إلى الفطرة

إعلم يا أخى أن الحق مخبوء فى مطاوى وعيك الباطن . . فلسنا نحيلك على علم العلماء ، ولا فلسفة الفلاسفة ، ولا شىء مما يكد الذهن ، بل نحيلك إلى فطرتك المستقرة فى كيانك ؛ فالفطرة وعاء الحق ، وكنانة سهامه وشهبه ، هى مستودع نورك ونارك ؛ فليأخذ كل جندى زاده من هذه الكنانة ، ولنسلح كل إرادة بسهم من هذه السهام ، فما الإرادة إلا وتر مشدود ، إذا رمى بسهم من الحق ، فهى الرمية الحاسمة فى المعركة الفاصلة . . .

ونريد بهذه الاستعارات ، والمجازات ، أن يرجع الإنسان المريد — الإنسان ذو الإرادة المجتمعة — إلى فطرته ، ليرى حقائق الحياة على ضوئها ، وينظر إلى كل شىء من خلال هذه الفطرة . . إننا نرى الأشياء ، فلا نرى كل حقائقها ، بل قد نراها أحياناً على غير حقائقها ، لأننا ننظر إليها بحدقة العين المجردة ، لا بحدقة البصيرة الكاشفة . . فإذا نظرنا إلى كل شىء من خلال هذه الحدقة الأخيرة ، سطعت الأنوار على الحقائق كلها ، وتبدد كل ما يغيم على القلب من وهم وباطل .

فالفطرة هى المنظار ، أو عدسة المنظار التى تظهر من ورائها حقائق الأشياء فى غير لبس ولا خفاء . والنظرة الفطرية هى سهم نافذ من سهام الحق ، يمزق بنصله المرهف أغلفة الباطل ، التى ترين على ظواهر الأشياء أو ظواهر القلوب ، فإذا هى سافرة الحقائق جلية المعادن والجواهر ؛ فكن مريداً مجتمع الإرادة يا أخى ؛ وكن فطرياً فى نظرك إلى حقائق الحياة . . إذا رأيت شيئاً فتماسك ، ولا تدع ظواهره تغلبك ، وتسوقك معها ، أو تسوقك أمامها . . بل استجمع له إرادتك ، واتئد ، وأحضر له فطرتك ، أو أحضر له منظارك الكاشف ، وانظر من ورائه فى رزانة . فإن المناظر الكاذبة تتبدد بأوهامها وخواطرها ، وتنكشف لك حقائق هذا الشىء ؛ لعقلك وقلبك .

كم من عيوب شائنة لا يظهر ما فيها من حطة ، وكم من أوضاع فاسدة لا يظهر فسادها . . وكم خدعتنا المظاهر فقبلنا خداعها . . وكم وجدنا الناس يقيسون

بالمقاييس الخاطئة ، فقسنا كما يقيسون . . وكم ، وكم ، مما لو نظرنا إليه بهذه العين الكاشفة لبان لنا وجه الحق فيه ، وزال عنه خداع الباطل وتمويهاته . والحياة مليئة بهذه الأكاذيب التى خضع الناس لتخيل باطلها ، وأنت غنى بمشاهدتها عن التمثيل لها ؛ ولكنى فى هذا المقام أريد أن أتحدث عن أكذوبة ضخمة ، بل عن باطلة الأباطيل ، التى يتسلل منها كل ما يرين على القلوب والعقول من تخييل وتمويه وأهواء ! فقد ضرب الباطل على أقطار هذه الكرة الأرضية فقاعة هائلة من الوهم ، فهى تغشى قلوب الناس وعقولهم جميعاً ، إلا من عصم الله ، وقليل ما هم ، فهم على بريقها يسيرون ، وبوحى خداعها يعملون . . . أوهمتهم أن الحياة طعام وشراب ، وأيام تأتى بالمساءة والإحسان ، والعطاء والحرمان . . . فما على المرء إلا أن يجد ويكد ، ويتسلح وينافس ، فيحصل المال ، ويجمع الحطام ، وأن يفر جهده من الفقر ، وأن يستمسك جهده بأسباب الغنى ، وأن يجعل أيامه أيام سرور إن قدر ، وأن يدفع عن نفسه ما لا يشتهى إن استطاع . . فرسالته تتلخص — فى وحى هذه الفقاعة ، أو هذه القبة الضخمة من الوهم — فى أنه جاء إلى هذه الأرض ليأكل ، ويشرب ، ويتناسل ثم يموت ، بل ثم يختم الفناء الأصم قصته إلى الأبد . . . هذه هى الفقاعة الضخمة التى ضربت أطنابها على الأرض ، فاغتر الناس ببريقها ، ومضوا فى غفلة مع وهمها وسرابها ، يتبع اللاحق منهم السابق ، ويأتى الخلف على أثر السلف ، ويتصل بهم موكب الخليقة كالقطيع السارح التائه إلى غير غاية . . . لا يتساءلون : ما هذه الحياة ؟ . . ولا لماذا نحن هنا ؟ . . وأين كنا ؟ . . وإلى أين نصير ؟ . . لا يتساءلون ؛ بل هى أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وبطون بينهما لا تشبع . . وليس وراء هذا حكمة ولا غاية . . هكذا تقول الفقاعة ! أفهو حق يا أخى ؟ أحق أن الله خلقنا لنأكل ، ونشرب ، ونتناسل ، ثم نموت ؟ أترى بعين عقلك أو بعين فطرتك ، أن هذه الغاية التافهة ، والخاتمة الهازلة ، مما يهتم به الله ، فيخلق من أجلها إنسانا فى أحسن تقويم ؟ . . ويحفل بها فيخلق لها عالماً رائع الجلال ، محكم السنن والنظام ، معجز الآيات والمشاهدات ؟ . . ألم يكن كافياً لأداء مهمة الأكل والشرب ، أن يخلقه فى تقويم غير تقويم هذا المخلوق الشاعر ، المفكر ، العابد القانت الخاشع ؟ . . أو لم يكن كافياً لقضائها أن يخلق لها عالماً ضئيلا مهلهلا ، يتناسب مع ضآلتها وتفاهتها ، غير هذا العالم الرائع المهيب ؟ . . أسرف هذا من الله ؟ أم ماذا يقولون ؟ . . ثم لماذا خلقه ليأكل ويشرب ؟ . . هل ضاق ذرعا بخيرات الأرض ، فخلق لها هذا المخلوق الأكول ليريحه منها ؟ . . أم به غرام — حاشاه — لأن يتلهى بمنظر هذا اللعب فداب

الدهر يصنع ويلهو ؟ . . إنه لتساؤل يفزع السرائر ، وتبرأ من إثمه الضمائر ، وتهيج الفطرة ، فتقذف عليه ما يبطله ، فسبحان الله عما يصف هؤلاء المبطلون ! إن حكمته جل شأنه أجل من أن تتعلق بمثل هذه الغاية ، وأن تخلق من أجل هذا العبث ذبابة واحدة ، فضلا عن هذا العالم الرائع الجليل ، « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ؛ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ »

فإذا أردت مثالا للنظر الفطرى فهذا التساؤل من ألوانه ؛ وها أنت ذا قد رأيته سهلا لا تكلف فيه ، لأنه كان يفيض من قلبك وعقلك ، أو يفيض من منطق فطرتك الذى لا يخطىء ؛ وإذا أردت مثالا لمعنى من معانى الحق ، فاعلم أن الحق سهل لا تحار الأفهام فى إدراكه . . فهذا الشعور القوى الذى ثار بنفسك فأنكرت به وهم الفقاعة وإثمها . هو الحق نفسه ، وليس الحق شيئاً غير ذلك . . ليس الحق نظريات تدرس فى الكتب ، ويتعلمها المتعلمون فى المدارس والجامعات ، فيمتاز بها قوم على آخرين . . إنما هو شعور يفيض فى القلب ، حين ينظر المرء من خلال فطرته ، لا من خلال معدته وشهوته .

وبعد ، فهذا يا أخى بعض الحقائق الثابتة الأصيلة ، التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هدانا إليها تجريد القلوب من أوهام الباطل ، وتعرضها لشموس الحقائق ، أو هدانا إليها الرجوع إلى الفطرة السليمة ؛ فإذا حقق المرء لنفسه هذا التجرد القلبى ، وعاش فى ضحوة الحقائق السافرة ، فإنه يقرأ سطور الحق فى كل شىء ، ويشعر كأن روحا يهبط عليه من خلال كل كائن ، فإذا حياة جديدة ، وإذا يقظة جديدة ، وإذا معارف جديدة . .

أمثلة واقعية لتجرد أهل الجاه والمال

واعلم يا أخى أن تجرد القلب من أهواء الجاه والملك والمال ، ليس معناه الامتناع عن تحصيله بكل وسيلة مشروعة . . ولكن على النحو الذى بيناه فى الزهد ؛ فهذا نبى الله سليمان عليه السلام ، سأل ربه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فاستجاب له ، ووهب له الملك الذى عرضنا بعض نواحيه فى قصته السابقة ، فهل طلبه شهوة فيه ، ولأن نفسه نزعت إليه ؟ وهل تصرف فيه تصرف المترفين من أهل الشهوات ؟ كلا . . لم يطلبه

لحاجة نفسه ، وإنما طلبه فى حاجة ربه ، وتصرف فيه على ما يحب الله . . فكان له من من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، لا بوحى شيطان الهوى ، وداعى المصلحة الشخصية.

وكانت له عيون من الطير تتجسس عن أحوال الناس ؛ ولكنها عيون خير وهدى ، لم يسخرها للوقيعة بأحد ، بل سخرها بإذن الله فى محاربة الزيغ والضلال ؛ وكان يراسل الملوك ، لا باسمه الشخصى ، ولا فى رغائبه الخاصة ، بل كان يراسلهم كما شهد الله له :

« إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ، وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ »

وكانت له الجيوش التى لا يقوم لها جيش فى الأرض ؛ فهل أطغته القوة فسخرها لإذلال الناس ، أم سخرها لتأييد الحق والإيمان بالله ؟ وهل سير إلى سبأ جنوداً « لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا » إلا لأن موقفهم من دعوة الإيمان كان يلتبس بمواقف المراوغين المساومين ؟

لهذا طلب سيدنا سليمان الملك ؛ أما رغبته ، وشوقه القلبى ، وما إلى هذا من عواطف ومشاعر ، فكان كله ناظراً إلى الله سبحانه ، متعلقا بما عنده من مقامات عباده الصالحين ؛ وإنك لتجد مصداق ما نقول فى ضراعته الصادقة لله سبحانه :

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاه ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِين »

هذا مثال واقعى ، ساقه الله عز شأنه ، يشرح به معنى الزهد ، وكيف يكون الإنسان الصالح ملكا محاطاً بالجاه ، وأسباب الترف والفتنة ، ونفسه ، مع هذا ناظرة إلى ما هو أرفع ، مسخرة كل ما تملك من جاه ومال وقوة فى تأييد الحق ، وإرضاء الله سبحانه . . فلسنا يا أخى ندعو إلى خرافة ، وليس الدين دين تخلف عن حقائق الحياة ؛ فبعدا لكل غافل أضله هواه ، واستعبدته شهواته !

اطلب المال ، واطلب الملك ، ولكن شتان ما طلب وطلب .. شتان ما طلب يبعث عليه باعث الشهوة ، والرغبة فى التفاخر والتكاثر .. وطلب يبعث عليه باعث الرغبة فى تطهير الأرض من المنكر ، وإقامة معالم الحق .

ويوسف

هذا سيدنا يوسف عليه السلام ، يطلب المنصب الرفيع من ملك مصر ، لا من الله كما فعل سليمان عليه السلام ؛ وليس فى هذا شبهة من نقص تعلق به عليه السلام ،

فلكل مقام مقال ، ولكل ظرف أحكامه وخصوصياته ، وطبيعة الموقف هنا وملابساته تقتضيه أن يتوجه بعواطفه الربانية إلى طلب المنصب من الملك ، تحقيقا لما أراد الله لأهل مصر من اليسر والكرامة .

ويوسف عليه السلام يقول فى ضراعته إلى الله : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ » وهى لفتة تشعرك بحسن إدراكه عليه السلام للحقائق العليا ، وأن طلب الملك من البشر فى مثل هذه الظروف لا يقل مرتبة عن طلبه من الله . وقد كنا أوجبنا أن يطلب الإنسان المال ، والجاه ، والحكم متوسلا بكل ما يمكن من الأسباب الطبيعية المشروعة ، على أن يكون الطلب صادراً عن رغبة فى الله لا غير ، كما رأيت فى هذين المثلين الكريمين ...

وهذا يوسف عليه السلام يقول لملك مصر : « اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيم » فهل تراه يطلب الإشراف على شئون التموين ، بالأسلوب الدنس الذى يلجأ إليه كل مستضعف مستعبد لشهوة الظهور والغرور ؟ . إنك لا ترى إلا العزة الكاملة فى الطلب ، عزة من يطلب لغيره لا لنفسه ، بل عزة من يتقدم لأداء الواجب وإنقاذ الناس من خطر يوشك أن ينزل بهم ؛ وإن روح العزة ليطالعك فى صيغة الأمر من قوله عليه السلام : « اجعلنى على خزائن الأرض » بينما يتأدب سليمان مع الله فى الطلب : « رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » ولعل لنا فى قصة يوسف عليه السلام درساً يعلمنا الدستور الذى تطلب به الوظائف والمناصب ، فهى تطلب بالعزة لا بالذلة ، وتطلب لأداء واجب ، وسداد ثغرة ، لا حشراً بدون موجب ، وإسرافا فى المال العام ، وتطلب بحق الكفاءة والموهبة الصالحة ، لا بحق المحسوبية ووساطة الوسطاء والوسيطات . .

ألا تراه عليه السلام يقول إثباتا لكفاءته فى غير زهو — طبعا — « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » فهل فهم هذا الدرس حكامنا وشبابنا ؟ .

ولقد أخذ يوسف حظه من الملك ، فدفع الله به شدة عن الناس ، وكشف غما وكروبا كثيرة ، فكانت مصر فى أشد أيام قحطها وجدبها ، بمنجاة من خطر المجاعة المهلكة . . أما هو فلم يفتنه المنصب عن ربه ، ولم يعلق الترف بذرة من قلبه ، وظلت بصيرته تهفو إلى ما عنده من مقامات الإحسان ، فيناجى ربه بمعنى مناجاة سليمان : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً ، وألحقنى بالصالحين » .

ورسول الله

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تنصب بين يديه أموال الجزيرة العربية ، وتأتيه أخماس الغنائم ، وتؤول إليه فدك وغيرها فيئاً خالصاً له من دون المسلمين ، فما وقف قلبه على شىء من هذا ، بل كان يصرفه لفوره فى وجوه البر والمصالح العامة ، ليربط الحجر بعد ذلك على بطنه ، ويقول لأهله : « أديموا طرق أبواب الجنة بالجوع » فما كان جوعه عليه السلام عن إقلال ، بل عن غنى زهدت فيه نفسه ، تقول عائشة رضى الله عنها : « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية ، ولو شئنا لشبعنا ، ولـكنه كان يؤثر على نفسه » .

ولقد رأى عليه السلام جبل أحد مرة ، فعبر عن منهجه هذا بقوله : « ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهباً تمضى عليه ثالثة وعندى منه دينار إلا شىء لدين إلا أن أقول فى عباد الله هكذا ، وهكذا » . — أى يفرقه بيديه عن يمينه وعن شماله وعن خلفه — ثم سار وقال : « إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال هكذا وهكذا ، وهكذا ، وقليل ما هم » . .

وبعد ، فهذه مثل تاريخية واقعة عالية ، تؤيد وتوضح ما قلناه من أن تجريد القلب من أهواء المتاع الأدنى ، ليس معناه قط الامتناع عن تحصيله ، والسعى إليه بكل الوسائل والأسباب الشريفة . . . إن تجريد القلب ينشىء فى نفس صاحبه حاجات ومطالب لله ، فينبعث بنداء هذه المطالب إلى السعى والتحصيل . بهمة لا تقل عن همة المساعير من أهل الشهوات .

وكذلك توضح لنا هذه المثل ، مهمة المال وغيره من أعراض الدنيا ، فهى للانسان يأخذ منها كفاية بدنه لا غير ، ثم يرصد سائره لأحد الأمرين أو لـكليهما :

١ — تفريج كروب الناس ، وتخفيف ما ينزل بهم ، وتيسير مصالحهم .

٢ — لابد للحق من قوة مادية تكون من أسباب حراسته ونصرته . . . والقوة مال ، وسلاح ، وجنود مدربون ، فليرصد المرء من ماله ، لينفق فى هذه الأغراض ، وليعمل على الاستكثار من هذا المال ، واستخلاصه من أيدى أعوان الشر وجنوده ، بكل ما يسعه من علم وحيلة ووسيلة : « فنعم المال الصالح فى يد الرجل الصالح » فإذا جاز له أن يفرح بما جمع ، فليفرح لا لنفسه ، بل لأنه استكثر للحق من أسباب العون والنصير .. وهذا من مهمة الأنبياء ، ومن صميم نظرهم إلى حقائق الحياة وطبيعة الأشياء .

من صفات أهل الروحانية الاجتماعية

إنما فصلنا هذا التفصيل رغبة فى الشرح والإبانة ، وقد رأيت أن مجرد خلوصك من كل ماهو باطل ، يسلمك إلى الحق الواضح ، فترى شمسه دائمة الإشعاع على قلبك ، فيقوى شعورك به على الأيام ، حتى لايبقى فيك محل لغيره ، بل حتى كأنك لست من لحم ودم ، إنما أنت وحدة من الشعور القوى ، يستقل الحق وحده بحيزها . فلا ينفصل القلب حينئذ عن العقل ، كما كنا نذكر من قبل ، بل هو الروح القوى يتمكن من الكيان كله ، فيسلك فى تياره العقل والقلب جميعاً . فإذا تحقق الإنسان بهذه المعانى ، فقد تحققت له الروحانية الاجتماعية التى يحيا بها حياتين ، ويعيش بها فى عالمين : جسمه فى الأرض وحقيقته فى السماءُ . . . جوارحه آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدنيا ، ومواهبه الإلهية آخذة فيما تأخذ فيه الملائكة ... يغدو ويروح بين الناس ، وله من دون ذلك غدو ورواح فى الملأ الأعلى ... ويأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وإنه ليسعى مع هذا فى أسواق الله بتجارة أخرى .. والعمل من أعماله فى الحقل ، أو المصنع ، أو الشارع ، أو المسجد ، يشبه ما يعمله غيره ، ولكن شتان ما عمل فى الأرض يرتد إلى الأرض ، وعمل موصولة روحه بالله ، يخترق السبع الطباق لفوره ، عليه من طيب القبول ماهو أزكى من ريح المسك : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيد ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُور » .

الروحانية وذكر الله

واعلم يا أخى أن ملاك الأمر أولا وأخيراً ، هو ذكر الله عز وجل ، على كل حال ، وفى كل آونة ، فهو للقلوب كالهواء للأبدان ... فإذا ساغ لديك أن تحيا الأجسام بغير هواء ، فقد صح لك أن تجيز حياة القلوب بغير ذكر .. قال الإمام ابن تيمية : « ذكر الله للانسان ، كالماء للسمك ، فانظر كيف يعيش السمك بعيداً عن الماء » ؟ .

هذا قول أهل الحقائق ، لا أهل المجاز والخيال .

الحياة سر ، ومظهرها فى الجسم الحركة . . . ومظهرها فى الروح ترادف الأشواق الإلهية ، واليقظة الدائمة ، والجسم لا يكف عن الحركة ما دامت الحياة

تسرى فيه .. حتى إنه إذا نام لا تكف رئتاه ولا بعض أعضائه عن العمل والحركة .. فإذا انقطعت الحركة ، كان ذلك آية الموت .

وكذلك القلب ، يجب أن لا يكف عن يقظته الربانية مادامت الحياة الروحية تجيش فيه ... حتى إنه إذا نام صاحبه ظل على يقظته وانتباهه ، وهذا تفسير ما وُصف به صلى الله عليه وسلم ، من أنه : تنام عيناه ، وقلبه لاينام ، وتفسير أن رؤيا القلب الصالح ، تأتى كفلق الصبح ، وهى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، فإن الله سبحانه يرسل المبشرات بأمر من نبأه ، فالقلب اليقظان يحس بها فيلتقطها ، كما تلتقط الأجهزة اللاسلكية السليمة مافى الأثير من إشارات ... أقول : إن يقظة القلب ، مظهر سريان الحياة الروحية ، فإذا كف عن يقظته ، وانطفأ نوره وأظلم ، كان ذلك آية الموت ، على مثال ماتقرر فى الجسم ... فذكر الله — على هذا — لازم لنا فى كل وقت ، وعلى كل حال ، حتى يستمر مدد الحياة وارداً على قلوبنا .

ومن حسن الحظ أنه ليس من أسهل على الإنسان ، ولا أحلى فى قلبه من ذكر الله ... فإذا كان فى الصلاة مشقة على بعض النفوس وإذا كان فى الوضوء ما يشبه الحرج لبرد أو نحوه ، وإذا كانت الصدقة تثقل أحياناً ، وإذا كان الزهد — على ما بيناه — يشق على الإنسان ، وإذا كان عمل الجنة حزناً[1] بربوة كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم — فاعلم أن ذكر الله على كل حال ، وفى كل وقت ، يدخل على النفوس من الأسرار والأنوار مابه تزول كل مشقة ، قال صلى الله عليه وسلم : « من عجز منكم عن الليل أن يكابده ، وبخل بالمـــال أن ينفقه ؛ وجبن عن العدو أن يجاهده ؛ فليذكر الله عز وجل » .

بل إن هذه الأعمال إذا سهلت عليك ، لاتلبث أن تصير لدى نفسك من الضرورات التى تشتهيها ، والتى لا تطيق عنها صبراً ؛ فإنه يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان إذا انتظر الصلاة هامت إليها أشواقه ، فيقول : « أرحنا بالصلاة يابلال » ؛ ألا ترى إلى عباد البطون حين يصيحون بخدمهم أو أهليهم : أريحونا بالطعام يا هؤلاء ؛ ولله ولرسوله المثل الأعلى .

وعلى محمل هذه السهولة ، أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » وعليه ، فلا تضارب بين الحديثين ، فهو يقول

---

(١) الحزن بفتح فسكون : الطريق ذو الحجارة والعقبات التى يصعب معها المسير .

للمقصرين فى ذكر الله : « إن عمل الجنة حزن بربوة » ويقول لمن ذاقوا حلاوته ، ووجدوا سره وبركته : « إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » .

معنى الذكر على كل حال

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدوة الذاكرين ، فاتخذه قدوتك ، تر المثال العالى فى تحقيق الذكر على كل حال ، فقد كان عليه السلام يذكر الله إذا تناول الطعام ويذكره إذا قام عنه ، فإذا شرب أو انتهى من الشراب كان على ذكر . . . فإذا خلع ثوبه أو لبسه ، وإذا خرج من بيته أو دخله ، فله فى الذكر صيغ مأثورة ، وإذا أوى للنوم أو نهض منه كان أول ما يسبق إلى لسانه ذكر الله ، بل إنه إذا تقلب من الليل لا يخطر بباله إلا اسمه سبحانه ... وإذا خرج إلى سفر أو عاد منه ، وإذا ركب دابة ، أو دخل قرية فكل هذا بذكر ؛ وإذا لبس جديدا ، أو دخل سوقا ، فالله حاضر فى كل ذلك ؛ وإذا فزع من النوم أو أرق ؛ وإذا أراد جلب رزق ، أو حفظ نعمة أعجبته ؛ وإذا أراد دفع هم وضيق أوقضاء دين . . . وإذا زار المقابر ، وإذا أمسكت السماء وأراد الاستقاء ، وإذا هاجت الريح أو أرعدت السماء ، أو نزل الغيث ، أو فاض المطر وزاد على الحاجة ، أو رأى هلالا جديدا ، لم يكن له صلى الله عليه وسلم من شأن فى هذا كله ، إلا تنبه قلبه لله سبحانه ، فيجرى لسانه بما يشاء من صيغ الذكر .

طبيعة الذكر فى نفس الرسول

ولا نستطيع أن نورد هنا أحواله كلها صلى الله عليه وسلم ، فهى فوق الحصر ، وقد جمعت كتب السنة كل مارواه الرواة منها ، وأوردت ما كان له صلى الله عليه وسلم من صيغ الذكر فى كل ... مما يريك حياته كلها مصورة فى عمل وذكر .

كان عليه السلام شديد الإحساس بمعنى العبودية . . . لا يغيب عنه أنه عبدٌ لله يعمل فى ملك سيده ، فوق أرضه ، وتحت سمائه ، باسمه سبحانه ، لا باسم شىء آخر ، لا يعزب ذلك عن عقله وقلبه لحظة ؛ فهو عبد ربانى ، يرى شرفه فى العبودية ، وحياته فى ذكر مولاه ، ليس له فى الملك مثقال ذرة ، قائم بحق ذلك كله حق القيام يرى الانحراف عنه ، أو التقصير فيه ، هو الهلاك المفزع ، فيبكى ويقول : « بعثنى على مثل حد السيف ، إن زغت عنه هلكت » ويدعو : « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا ما هو أقصر من ذلك » .

الاقتداء بنهج الرسول

وليس فى طوق أحد أن يسمو فى الذكر إلى أفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن فى طوقه أن يجعل هذا الرسول العظم قدوته ، فيقتفى أثره ، وينسج على منواله ، ولن يتكلف فى هذا مجهودا بدنيا يذكر ، أو مشقة نفسية تثقل عليه ، فما هو إلا أن يكون راغبا فى معية الله ، وأن يتمثل عبوديته له ، ويستحضر له قلبه ، حتى يبدو له الكون حيا قويا ، منفعلا بروح الله فيه ؛ وحتى يرى نفسه عبدا ربانيا ، ليس له من الأمر شىء ؛ فالشربة يشربها تحدثه أنها فضل الله عليه ؛ واللقمة يلقمها تخاطبه أنه يأكل مالا حول له فيه ولا قوة ، والعاصفة يراها ، فتقول له : ياهذا إنما تدفعنى يد الله ... وهكذا يتأثر وجدانه بكل شىء ، ويؤثر كل شىء فى وجدانه ؛ فيكون له فى كل حال حديث خاص ، ومعنى ربانى معين .. أو قل : يكون له فى كل حال ، صيغة من الذكر خاصة ، يصوغها له دوام حضور الله فى سريرته . . . وخير صيغ الذكر ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قلبه خير القلوب الذاكرة ، وآيات الله وأنعمه تؤثر فيه أبين الآثار ، وتنطق فيه بأصدق صيغ الحمد والثناء عليه سبحانه ؛ وصدق هذه الصيغ ، تلمحه فى مطابقتها لمقتضى الحال تمام المطابقة ، فإذا لبس المرء جديدا ، وللجديد لذته أو فتنته وغروره ، فموقف العبد الربانى الكامل فى هذا المقام أن يقول : « الحمد لله الذى كسانى هذا بلا حول منى ولا قوة » . . . وإذا ودعت مسافرا ، والمسافر قد أعد لنفسه عدتين : الزاد من الطعام أو النقود ، وعدة الرجاء الذى يرجو به نجح مسعاه ، فموقف المودع هنا ، أن يفيض قلبه الذاكر بما يقتضيه المقام : « زودك الله التقوى ، ووجهك إلى الخير أينما كنت » . . . وإذا لقيت قوما تنكرهم فى الله ، أو أدخلت على سلطان مخوف ، فهل لك عدة غير الله أيها الذاكر ؟ إذاً فقل : « اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » . . . وإذا دخلت سوقا — والسوق هو الدنيا مصغرة مجموعة فى مكان . . هو الدنيا بلهوها وغفلتها ، وهو الدنيا بزينتها ومالها ، وهو الدنيا بأطماعها وتنافسها ومكائدها وهو الدنيا بأرباحها وخسائرها .. وما ينسى الإنسان نفسه وربه كما ينسى فى هذا المكان — فالذاكر المعتصم بالله ، يدخل السوق على ذكر يدفع عنه الغفلة ، ويصونه أن يصبو إلى المتاع الزائل ، فيستفتح رؤيته بقوله : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحى ويميت ، وهو حى لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير » .

نحو الربانية

ولسنا بصدد استقصاء صيغ الذكر المأثورة عنه صلى الله عليه وسلم ، فليطلبها فى كتب السنة من أراد الخير لنفسه ، فمن عز عليه أن يحفظ ، أو شق عليه أن يجد الكتب ، فليستقبل أموره وأحواله كلها بهذا القلب الرقيق ، فإنه يرى نفسه وكأنه يقرأ فى وجه كل أمر ، كلاما ربانياً ، هو صيغة ذكره المناسبة للمقام .. وبهذا تطرد الحياة فى القلب . والحركة فى الصدر ، واليقظة فى الملكات ، فيكون الإنسان حيا فى الظاهر ، وحيا فى الباطن .. تتصل الحياة الخارجية بحياته الروحية ، وتتصل حياته الروحية بالحياة الخارجية ، ولكل منهما أثر فى الأخرى ، وصدى يتردد فى آفاقها ، فتلبس دنيا الشخص حلة من السماحة والبشاشة والسهولة ، وتمحى الكزازة وتعقيدات النفوس الشحيحة ، أو على حد تعبير الاخوان : « يتطهر محيطه من جراثيم الفساد الاجتماعى ؛ فكأن الربانية هى الطهور القاتل لهذه الجراثيم ، وكأن قلبه مضخة إلهية تبث هذا « المطهر » فى المجتمع فتطهره وتنقيه » ؛ وليس هناك معنى للربانية الاجتماعية غير هذا .

هذا واجبك أيها الداعية

والآن فإذا عجز الناس أن يحققوا لأنفسهم هذا المنهاج الفاضل ، فأنت أيها الداعية لا بد أن تفعله ، وأنت المقصود قبل غيرك بهذه الكلمات .. لا نطلب إليك أن تكون مفطوراً على العصمة ، والعزوف عن المتاع الأدنى ، وإنما نطلب أن تكون لك مجاهدة قوية ، دائمة غير منقطعة ، تصل بها نفسك — على قدر استطاعتك — بروح المبادىء التى تدعو إليها ، حتى تكون ممتازاً ممن تدعوهم ؛ فليس سائغا فى العقول أن يكون الداعية كالمدعوين فى احتياجه إلى البر الذى يدعو إليه ، أو أشد منهم حاجة ؛ ودعنى أذكر لك بصراحة ، أن هذه الروحية هى وحدها مصدر إلهامك ، وفقهك لدعوتك ، هى .. الجهاز النابض الفعال فى حياة الداعية إلى الله ، هى (الدينامو) المولد لقواه العاطفية ، وإلهامات مداركه الباطنية ، وما ملكاته البيانية ، والفكرية ، واتجاهاته العملية ، إلا آلات تتحرك ، لتعبر عن هذه القوى السيالة ، تعبيراً بيانيا ، أو عمليا ؛ فإذا خلا الداعية من هذه الروحانية ، فقد خلت حياته من (الدينامو) ، وظل باطنه فارغا خربا ، ليس فيه ما يحرك أو يلهم ؛ فإن هو سلك نفسه مع هذا الحرمان فى سلك الدعاة ، فهو شخص دخيل أنانى ، لا يريد فى الحقيقة أن يدعو إلى الله ،

وإنما يريد أن يدعو إلى نفسه ؛ فاحذر يا أخى أن تكون فى هذه المنزلة إن الطريق إلى هذه الروحانية أو هذا (الدينامو) سهل ، إذا جمعت همتك على المضى فيه ، هو تقوى الله تبارك وتعالى على النحو الذى بيناه سابقا ، أو على نحو أفضل منه إذا استطعت ، والله لن يحرمك ثمرة خطوة واحدة تسيرها فى هذا الطريق المبارك المأنوس ، فهو الذى يقول ، وهو أصدق القائلين : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم » ، فهذا الفرقان هو الروح الملهمة التى شبهناها (بالدينامو) فى عالم الآلات والحركات .

بعض معالم الطريق

ولا بأس هنا أن نضيف إلى ما تقدم معالم توضح للانسان طريق هذه الحياة وتؤنسه فيها ، وتعينه على متاعبها .

أولا : أن يكثر مطالعة كلام الله عز وجل ، فهو جلاء البصائر الكليلة ، وشفاء الصدور العليلة . . . فإذا لزم قراءته فى تمهل ، وترو ، انفتحت أغلاق قلبه ، وسطعت أنوار القرآن وبشاشته فى آفاق نفسه ، وإلى هذا يدعونا الله تبارك وتعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ! » . . . وكان عليه السلام يديم قراءته ويسأل الله : « اللهم إنى أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى » . وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ بأيدى أصحابه إلى هذا المنهل العذب ، ويفتح أعينهم على أنواره وأسراره ، فقد روى أبو سعيد الخدرى عنه عليه السلام : « أعطوا أعينكم حظها من العبادة ، فقالوا : يارسول الله ، وما حظها من العبادة ؟ قال : « النظر فى المصحف ، والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه » ويقول عليه السلام : « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد » قيل : وما جلاؤها ؟ قال : « تلاوة القرآن وذكر الموت » .

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى : « وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ، الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى ، وكانوا لا يستطيعون سمعا » أنهم هم الذين يعرضون عن القرآن والتأمل فى معانيه ، والتدبر فى آياته ... وليس هذا بعزيز عليك يا أخى ، إذا أردت أن تأخذ بالأسباب ، وتدخل البيوت من أبوابها ، وتدفع الثمن الذى يسلكك فى أرباب القلوب من الدعاة ؛ أما الاغتصاب بدون مقابل ، فهيهات أن يغتصب أحد من الله موهبة من المواهب ... الاغتصاب شأن قطاع الطرق ، لا شأن الدعاة إلى الله .

ثانياً : أن تكثر مصاحبة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيرته المطهرة ، مصاحبة وجدانية عميقة ، تجعلك فى مجلسه عليه السلام إذا جلس ، وفى ركابه إذا ركب ، وفى معيته إذا سار ، وتسمعك قوارع وعظه ، وتسرب إلى قلبك رقة مناجاته إذا ناجى ربه فى جوف الليل ، أو فى خلوات النهار ... وتصل عواطفك بعواطفه صلوات الله عليه ، حتى تكاد تشعر بخلجات قلبه العظيم إذا غضب ، وبشاشته وسماحته إذا تسهل لشىء وتهلل ، . . . وتسلكك فى صفوف المؤمنين به ، فأنت معهم حين يسامون العذاب . تألم كما يألمون ، وتهاجر كما يهاجرون ؛ تهاجر معهم بوجدانك وخيالك وعواطفك ، إلى الحبشة أو غيرها من بلاد الله .

فإذا شرع له الجهاد فى المدينة ، فأنت تحت لوائه المظفر ، تشهده ممتطيا صهوة جواده ، وقد لبس لأمة الحرب ، وتقلد السيف ، وأخذ برمحه ، فهو فارس الميدان ، وقائد الفرسان ، تزهر عيناه الشريفتان من تحت مغفره صلى الله عليه وسلم ، فما يصعد شرفا ، ولا يهبط وادياً ، ولا ينال من عدو نيلا ، إلا وأنت معه عليه السلام ، تكاد تضرب إذا ضرب ، وتقدم إذا أمر ، وتفديه بما تملك ، وتحوطه بكل ما فى سويداء قلبك من حب وعاطفة . . .

صاحبه عليه السلام هذه المصاحبة الكريمة ، فإنها تدخلك فى محيطه النبوى الكريم ، فيلين قلبك بتيارات روحه صلى الله عليه وسلم ، ويصفو طبعك ، وتتهذب غرائزك ، ويستبين لك النهج الصالح ، والغاية العليا من الحياة ، وكل هذا من الروحانية الاجتماعية التى تدعوك إلى رعاية حقوقها .

ثالثاً : صحبة الأخيار والصالحين وأهل المعرفة بالله ، إذا وجدت إلى صحبتهم سبيلا ؛ ومن علامتهم الاشتغال بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس ، والتزام أمر الشرع ونهيه فى صدق وطاعة ، والقيام على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قوة وإيمان ، وما تحدثك به نضارة وجه أحدهم عن سعادة قلبه برزق السماء لا برزق الأرض ، وفضل الله لا فضل العبيد ، فلا يمد عينه إلى ما متع به سواه من زهرة الحياة الدنيا .

صحبة هؤلاء تلين القلوب ، وتطهر من الذنوب ، وهى بيئة طيبة ، يحيا فيها القلب حياة طيبة .

رابعاً : غض البصر ، والعزوف عن مجالس المنكر ، فنحن فى عصر تقذفنا موجته المادية بالإباحة التى تكاد تكون مطلقة من كل قيد ، فالمرأة متبرجة بزينتها لكل من يهوى ! وأهل المنكر يستعلنون برذائلهم تحت سمع الناس وأبصارهم ، والعرف غدا

لا يثور بها ، بل قد يتلقى ذلك أحيانا بالقبول والاستزادة ، . . . والنظرة يا أخى بريد الشيطان إلى القلب . وركون النفس إلى مجالس المنكر يطفى ثورتها عليه ، ويسلبها الشعور بكراهته . . .

فغض البصر ، ومقاطعة هذه المجالس — يقيمان حولك سورا منيعا ، يحفظ قلبك من شرور هذه الإباحة وسمومها ، ويرد عنك ضربات موجاتها المتتالية .

لقد سأل أحد الإخوان : ما العمل والموجة المادية يتوالى سيلها ، حتى غمر قلوبنا وأفسدها ؟ فأجابه صاحبه : أقم حولك فى الحال سورا يحفظك مما ترميك به هذه الموجة ، ثم اشرع فى رفع ما فى داخل هذا السور من آثارها وبقاياها ، واقذف به إلى خارجه ، حتى يجف محيطك ، ويفيق قلبك مما يغمره ، ويتنفس من الهواء النقى الطهور . . هذا السور هو غض البصر ، والعزوف عن مجالس المنكر . . . ورفع البقايا التى بداخله ، هى تخليص النفس مما دخلها من غريب العادات وفاسد الأخلاق . . . وهذا أيها الأخ جهد لن تجد فى تكلفه مشقة ، إذا أردت أن تدعو إلى الله بقلب سليم .

خامساً : وعليه بدراسة أحوال الروح ، وعالم ما وراء المادة ، فى القرآن والحديث ، وأقوال الصحابة والتابعين والصالحين ، ودراستها فى معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء الصادقين ، ففى كل ذلك أوصاف نظرية ، أو حقائق عملية ، تكشف للانسان كثيراً من هذه الأسرار الجليلة .

والإسراء والمعراج ، والنار التى صارت برداً وسلاماً على إبراهيم ، وغير هذا مما يطالعك فى القرآن الحديث أنواره وأسراره ، إن هو إلا عرض عملى لعجائب هذه العوالم العليا ؛ فعليك بهذا اللباب من حقائق الوجود ، وحذار يا أخى أن تحاول تعليل شىء من ذلك تعليلا علمياً طبعيا ، أو تفسيره بمقتضى العقل والمنطق ؛ فهو من أمر ربى . وأمر ربى فوق قوانين الطبيعة ، ومتناول العقل : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ولا بأس أخيراً من قراءة ما كتبه المحدثون ، ولكن حذار الفتنة بما كتبوا ؛ فعليك أن تعرض كل ما تقرأ لهم على الكتاب والسنة ، فما وافقهما فهو الحق ، وما خالفهما فهو الباطل ، وما سكتا عنه فاجعله تحت التجربة والاختبار . . .

دراسة ما وراء الطبيعة ، تعود الإنسان الإيمان بالروح ، وغيب الله الرهيب الخطير ، مما لا سبيل إلى فهمه إلا بالقلب ، فتنفسح آفاق نفسه ، وتنشط الحياة الروحية فى كيانه الباطنى .

سادساً : ولقد قدمنا الفكر والذكر ، ونقول الآن الصلاة والصيام ، وأنواع العبادة والقربات . . . والصلاة أيها الأخ هى : وقوفك أشرف موقف فى هذه الحياة ، بين يدى الله العلى الكبير ؛ وإن وقوفك هذا الموقف خمس مرات فى اليوم ، لكفيل أن يصلك بالله ، ويجعلك منه فى شىء كثير ؛ وليس مما يصعب عليك أن تجعل الصلاة صلة بينك وبين الله ، فإذا اتصلت به وأحسسته ينظر إليك ، ويطلع عليك ، ويملأ محرابك من حولك ، فوقفت خاشعاً مطرقا ، وقوف العبد أمام سيده ، وأخذ قلبك يخفق بهيبة الموقف ، ورقة الخشوع . . . إذا اتصلت بالله عز وجل خمس مرات فى اليوم هذا الاتصال أو بعضه ، كنت ذا قلب حى ، تفيض منه الربانية ، وكنت أهلا لأن تدعو إليه ، وتتحدث عنه ، حديث العارف ، الذى يجد فى قلبه مادة الحديث .. أما إذا لم تتصل فلم تك من المصلين ، أو صليت وكنت من الساهين ، فابحث عمن يدعوك إلى الله ، قبل أن تسير فى زمرة الداعين إليه

ولا بد لك أيها الداعية من نوافل شتى فى العبادات ، تتقرب بها إليه سبحانه ، فالله تبارك وتعالى يقول فى الحديث القدسى المشهور : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . . إلخ » ؛ وأن تجعل أكثر ما تتقرب به من الصلاة والدعاء والفكر فى جوف الليل . . . لا بد من هذا ، فأنت داعية ، والدعاة طراز فوق مستوى العامة ، والنوافل فى حقهم ترتفع إلى مرتبة الواجبات ، وقد عقد كثير من العلماء فصولا رائعة قوية ، بينوا فيها أن النوافل فى حقه صلى الله عليه وسلم فرائض . . ولهذا كان عليه السلام يقوم الليل — كما تقول عائشة — حتى تتفطر قدماه .

فهذا الزاد من تقوى الله ، وقيام الليل ، عدة الداعية على أمر دعوته الثقيل فهل ترى يسير المرء بغير زاد أو عدة ؟

قد يقول بعضهم : وما له وكل هذا ؟ ونقول : وما لنا ومالك ؟ إنك تريد أن تكون داعية ، فوصفنا لك بعض الأعباء ، فإن رأيتها فوق طاقتك فأت منها ما استطعت ، وإلا فإن الله قد عذر أمثالك ، فالزم صفوف الضعفاء ، واتق الله فى هذا الصف الخطير .

وبعد : فاعلم يا أخى : أن الليل مركب الصالحين إلى الله ، ونواشئ الأسحار أجنحة أهل الأشواق والوجد الإلهى ، : « وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد « وأقرب ما يكون الرب من عبده فى جوف الليل » « ومن الليلِ فاسجدْ له وسبحْه ليلا طويلا » « ومن الليلِ فسبحه وإدبارَ النجوم » .

الروحانية الاجتماعية والاعتزالية

ونريد أن ننبه هنا إلى أمر دقيق هام ، هو أن هذه الروحانية الاجتماعية يجب أن تكون لصاحبها ولغيره ، أما الروحانية الاعتزالية التى تقبض صاحبها عن الناس ، فلا يتصل بهم ولا يتصلون به ، ولا يعلمهم ولا يتعلم منهم ، فهى روحانية الضعفاء والأنانيين ، روحانية الضعفاء الذين لم يستطيعوا التماسك أمام الشر والفساد ، ففروا إلى العزلة واعتصموا بها ، وروحانية الأنانيين الذين يبغون السعادة لأنفسهم فقط ، وهى على ما فيها من جمال الوسيلة وسمو المقصد ، نوع من المرض .

قد تضع الشاب الجلد القوى فى قصر جميل ، مؤثث بأثاث أنيق ، تفد عليه الأرزاق كل يوم بأطيب الطعام . . . وتبيح له أن يقيم فى هذا الترف ، ويستمتع بهذا النعيم ، ولكنك لا تبيح له أن يخرج من القصر للرياضة والمشى وتنشيط الجسم .

وسيقيم الشاب فى نعيم القصر ، ويأكل منه ، وسينمو جسمه بلا شك ، ويسمن لحمه بلامراء ، ولكن لاجدال فى أنه لحم مترهل غير مكتنز ، وأنه عارض من عوارض المرض وليس سمة من سمات الصحة والقوة . . . فإذا أكل الشاب ثم خرج للرياضة والمشى ، وجعل حياته بين القصر والخارج ، والأكل والحركة ، استقام أمر الجسم واطرد نموه على قانون الصحة . . . فالأكل بلا حركة ، نذير المرض ، كالحركة بلا أكل سواء بسواء ، وكذلك الذى يعتزل الناس ويخلو للعبادة والتقوى ، زاعماً أنه يربى روحه بهذا الزاد المبارك . . . ستتفتح آفاق نفسه بلاشك ، وستنمو روحه وتتسع بلا مراء ، ولكن لا جدال فى أنه نمو الترهل والمرض ، لا نمو الصحة والقوة . . . الروح تتغذى كما يتغذى الجسم ، وتترف كما يترف الجسم ، وتمرض كما يمرض ؛ الجسم يتغذى بالأطعمة الأرضية ، والروح تتغذى بزاد السماء ؛ والجسم يترف بطيب الطعام ، والركون إلى لين المهاد ؛ والروح تترف بطيب زادها من العبادة ، وركونها إلى مهاد العزلة المرىء ؛ فإذا أفضى ترف الجسم إلى مرض ، أفضى ترف الروح إلى مرض يقابله .

قانون الحياة الطبيعية أنها تمنحك الطعام ، لتمنحها أنت العمل والحركة ، وتكون بين عناصرها عنصراً مثمراً نافعاً ، وفى هذا تقدمها وعمرانها ، كما أن فيه صحتك وسعادتك . . . فإذا منحتك الطعام ، ومنحتها الكسل والركود ، فقد خالفت القانون وعرضت نفسك لقواه النافذة الجارفة ، ومن عرض نفسه لسنن الله تهدم وانحطم .

وقانون ما وراء الطبيعة ، أنه يمنح روحك الزاد ، لتمنحه أنت العمل والحركة وما العمل والحركة هنا ؟ إلا أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو إزالة باطل ،

أو ثورة على طاغوت جائر ، أو إقامة نظام عادل تستقر عليه الفضيلة ، وتتحقق المساواة والمواساة ، فإذا منحك الزاد ومنحته العزلة والانقطاع ، أفسدت نفسك بالوقوف عن مسايرة سنن الله ، وعرضت نفسك لما ينجم عن هذا التخلف من سقم ومرض .

فالسلامة فى مسايرة قوانين الوجود . والضعف والسقم . بل الاضطراب والخلل فى معارضتها والتخلف عنها .

فعلى الداعية إذا أحس من نفسه هذا الانقباض إلى العزلة أن يقاومه ، وأن يتوجه بتيارات روحه إلى الناس ، يعلمهم وينير لهم الطريق ، ويفتح عقولهم وقلوبهم على حقائق الحياة . . . يعرض عليهم نماذج من عبادته الصادقة ، ومواعظه الحسنة ، ومعاملاته المستقيمة ، وتوجيهاته النافعة ، وغير ذلك مما يتم به التأثر وتكمل القدوة .

إنك داعية ، والداعية مسئول عن رعيته ، فإذا غاب عنها فقد تخلى عن واجبه ، وعرض أمته لعبث المبطلين ، وغواية الشياطين ، ولن يسوغ له هذه العاقبة بحال من الأحوال ، أنه حسن النية فى الخلوة بربه ؛ وإنا نقرأ فى كتاب الله عز وجل ، أن عملا كهذا سبق من موسى عليه السلام ، فأوقفه الله به موقف الحساب والمؤاخذة لأن شعباً بأسره ضل بغيابه عنهم : «وما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال : هم أولاء على أثرى ، وعجلت إليك رب لترضى ، قال : فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى ، فرجع موسى لى قومه غضبان أسفا » .

وإنا لنرى فى سيرة سيد الدعاة صلى الله عليه وسلم ، أنه لم يلجأ إلى هذه العزلة مرة واحدة مذ أمره الله سبحانه بالدعوة والتبليغ ، فقد ظل مع أصحابه وأتباعه لا يفارقهم ، فهو معهم فى المسجد ، والسوق ، والحقل ، والبستان ، وسائر مجالسهم ؛ وكان يصحبهم فى حروبهم ومواسم حجهم ، ويزورهم فى بيوتهم ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنازاتهم ويجاملهم ويواسيهم ، ويشاطرهم ما ينزل بهم من خير وشر ؛ وهو فى كل ذلك مصدر رشاد وهداية ، وزاد لقلوبهم وأرواحهم ، ونور يمشون به إلى الله عز وجل . . .

نعم إنه كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، ولكن أين كان يعتكف إنه كان يعتكف فى مسجده الشريف فى وسط المدينة . . . والمسجد كما كان دار عبادتهم ، كان دار ندوتهم ، ومجلس شوراهم ، وما كان ينقطع دخول الناس فيه ليلا أو نهاراً ؛ فهو اعتكاف أشبه بمخالطة ، ومخالطة أشبه بعزلة ، وهو على أى حال اعتكاف لا يعزله عن الناس ، ولا يعزل الناس عنه ، ولا يدع الرعية للسامرى بدون راع . .

شكا أحد الإخوان فقال : كان لى من العبادة كذا وكذا قبل انتظامى فى جماعة الإخوان المسلمين ، وكان لى من سهر الليل كيت وكيت ، وكان لى من الخلوات والعزلة

مالا أزال أذكر حلاوته وهناءته . . وإنى لأحن إلى تلك الأيام ، وأتمنى العودة إليها ، ترى هل جنت علينا الدعوة ، فأضعفت عزائمنا عن العبادة ، وصرفتنا عن الله ؟ فقال له صاحبه : لا يا أخى ، إن أيامك هذه خير من السابقة ، فقد كنت معتقلا فيما مضى ، فأصبحت الآن حراً طليقا ، كانت روحك محبوسة عن العمل ، فأصبحت الآن تعمل ، والعمل قانون السلامة وشارة الصحة . . كانت روحك فى معتقلها تأكل ، وتستمرىء البطالة والكسل ، أما الآن فهى فى ميدانها الطليق ، تأكل وتمنح الحياة ثمن ما تأكله . . قد تقول : إن زادها فى معتقلها كان كثيراً ، واليوم أصبح قليلا .. ونقول لا بأس ، فالزاد القليل إذا أثمر عملا مباركا ، خير من الزاد الكثير إذا لم يثمر شيئاً مذكورا « والأكل بلا عمل نذير الهلاك ، كالعمل بلا أكل سواء بسواء » فلا تتمن أيامك الأولى يا أخى ، واحمد الله على أن فتح لك ميدان هذه الدعوة الكريمة ؛ وكل ما أرجوه لك ، وأنصحك به ، أن تضاعف العمل لتشتد حاجة روحك إلى القوت فيعظم إقبالك على العبادة . .

وبعد : فهذا فهمنا للروحانية الاجتماعية ، وهذه حملتنا على الروحانية الاعتزالية ، فلا تعتز يا أخى بأهل العزلة — إن وجدوا فى هذه الأيام — وبما يظهر لهم من الخوارق والكرامات ؛ فكفاهم إثما أنهم يعطلون فريضة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ؛ وكفاهم إثماً أنهم يعطلون فريضة الجهاد ، فى وقت أصبح الجهاد فيه فرض عين على كل من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر . كان عبد الله بن المبارك يرابط فى سبيل الله بثغر من ثغور المسلمين ، وكان صديقه الفضيل بن عياض منقطعاً لعبادة الله فى المسجد الحرام بمكة ، فكتب إليه عبد الله يقول له :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد كتب ابن المبارك هذا الكلام لصديقه فى وقت لم يكن فيه الجهاد فرض عين ، ومع هذا وصف عبادته بأنها لعب ، وهى عبادة تقع فى أشرف بقعة على هذه الأرض . ترى ماذا كان يقول ابن المبارك لصديقه ، لو أن الجهاد يومئذ كان فرض عين ؟ وماذا كان يقول عن العبادة لو أنها كانت فى غير المسجد الحرام ؟

لا يصح للداعية أن يطاوع نفسه فى العزلة مهما زينت له المقاصد والأسباب ، فصومعة الداعية ميدان دعوته ، ومحرابه الذى يستنزل فيه من الله الهدى والمعونة هو العمل لخير الناس ، وإن الله يتجلى على العاملين فى ميادينهم بأفضل مما يتجلى على العابدين فى محاريبهم ، وما أبعد الفرق — يا أخى — بين من ينهض إلى الله يوم القيامة ومعه أمة ، ومن ينهض إليه وليس معه إلا نفسه .

أثر هذه الروحانية فى الدعوة والداعية

ونريد أخيراً أن نجمل نفع هذه الروحانية للداعية فيما يأتى :

أولا : إن الداعية — كما ذكرنا — طبيب يعالج الإنسانية من علتها الكبرى التى تتسلل منها سائر الأمراض . ومعلوم أن دواء هذه العلة ، ليس مما ينبت فى حقل ، أو يخرج من منجم ، أو يركب فى صيدلية ، إنما هو روح إلهى فى قلب العبد المؤمن ، يشيع الربانية فى قلوب المرضى ، فإذا هى شفاء ورحمة ، ونور وقوة ، ورضا وبهجة . فهذا القلب الحى الكبير هو « الصيدلية الإلهية » ،وكل كلمة تصدر عنه ؛ هى « علبة دواء » أو « حق » فيه شفاء .. فما لم تكن أقوال الداعية وأفعاله صادرة من محيطه الروحانى ، منبعثة من حياته التى يحياها وراء المادة — كانت أقوالا غير مغموسة بالنور ، لا تمس القلوب بشىء من أسرار الشفاء ... نعم قد ينمق المتكلم كلامه ، ويوشى عبارته ، فيثير العواطف ، ويحظى بالاستحسان ، ولكنه استحسان الزيف والتهريج ، أترى المريض يشفيه أن تقدم له علبة فارغة ، أوحقا ليس فيه شىء ؛ وحسبه أنها علبة موشاة بالذهب ، وأنه حق مطعم بالعاج والصدف ؟

فهذه الربانية هى الدواء ، فإذا خلت أقوال الداعية وأعماله منها فلا بركة فيها .

ثانيا : إن الداعية لا يبلغ هذه الروحانية إلا بعد تجارب ، جرب بها مرارة الحرمان. ومشقة المجاهدة . . والصبر على تنفيذ أمر الله ونهيه . . وطبق مفردات المنهاج الإلهى على نفسه فى حياته الخاصة ، تطبيقاً عملياً لا هوادة فيه ، وجرى ذلك كله فى عصبه ، وانصهرت به نفسه ؛ فإذا دعا إلى فضيلة بعد هذا ، أو نهى عن رذيلة ، أو وصف لذة من لذائذ النفس العليا ، تكلم عن « معرفة ويقين » ، وتجربة ومشاهدة . فلا يتكلم إلا بالحق المجرب ؛ هذا إلى أنه يجد مادة الكلام حاضرة فى قلبه وعصبه ، دون رجوع إلى كتاب ، فهو نفسه كتاب هذا الحق ، وصحيفة تجاربه العملية ، وفوق هذا فإن النفس التى صهرتها التجربة ومرارة التنفيذ . تطل رائعة من خلال عينيه ، وعضلات وجهه

وخطوط أساريره . وإشارات يده . ونور طلعته فتتحدث إلى الناس بأفصح مما تتحدث به عبارته ؛ بل إن نبرة الصوت ، ولهجة الحديث — تبلغ من القلوب مالا يبلغه الحديث نفسه . . بربك هل نظرت إلى وجه « حسن البنا » وهو يتحدث أو يخطب ؟ هل نظرت إلى عينيه ، وعضلات وجهه ، وحنان صوته ، وخشوع لهجته ، وإشارة يده ؟ إن هذا المرشد الكريم ، يتكلم فما يأتى بجديد ، لأنه يتكلم بكلام الله القديم ، ولكن الوجه جديد ، والصوت جديد ، واللهجة جديدة ، والعين جديدة ، وكل هذه ألسنة صدق تتكلم معه ، فتجعل الكلام القديم جديدا ، لأنها تتكلم بقوة التجارب ، وخبرة التنفيذ ، وشدة المجاهدة والحرمان ؛ وكل هذه أسرار شهدتها جدران بيت هذا الرجل العظيم وهو يجرى تجاربها فى حياته الخاصة ، ويطبقها على نفسه وذويه . . ومالى أستشهد لك بالمرشد ، فالحساد كثير ، والمتنطعون أكثر ، ومابنا حاجة أن نقدم لهؤلاء أو هؤلاء سببا للتقول علينا بأننا نعبد الأشخاص ، أو نبالغ فى الثناء على الرجال ؛ فدعنى أستشهد لك على غرضى بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان يتحدث إلى من لايعرفونه ، فيقولون : « والله ما هذا بوجه كذاب ، ولا صوت كذاب » . ومعنى هذا ، أنهم تأثروا بالصوت والوجه ، أكثر مما تأثروا باللفظ والعبارة ، وليس لهذا من تفسير إلا ماذكرناه سابقا .

فهل لك يا أخى فى هذه الفرقة من الخطباء تخطب معك ؟ وهل لك فى هذه الطائفة من الألسنة الصادقة تتحدث بحديثك ، وتؤيدك ، وتصدقك ؟ . لا يُنطق هذه الألسنة ، ولا ينهض هؤلاء الخطباء ، إلا قوة النفس التى صبرت ، وجاهدت وذاقت ، وجربت الحلو والمر . . .

قالوا : تكليف ثقيل ! وخطة شاقة ! وثمن مرهق باهظ ! فقال لهم صاحبهم : لابد من ذلك ، فالرسالة أثقل ، والمهمة أخطر ، والبضاعة أربح ، والمنزلة سامية ، ورضوان الله سبحانه أسمى وأكبر . . ألم أقل لكم : إنكم دعاة . . ومهمة الدعاة هى مهمة الأنبياء ؟ فكيف تبغون هذه المنازل ، دون أن تتسنموا إليها مشقة الصعود ؟

ثالثا : إنه قائد ، والقائد إذا لم يقد بقوة روحه وهيمنة نفسه ، فهو قائد ضعيف التأثير ، ولن يغنيه فى جمع القلوب من حوله قانون مفروض ، أو أمر من أوامر ذوى السلطان ؛ وإنما يجمعها لك ، ويهوى بها إليك ، كيانك المعنوى ، وإنسانك الباطنى ، الذى يترعرع فى رياض هذه الروحانية .

رابعا : أنها تمده بزاد من العلم الفطرى ، ونور من المعرفة يتبين به حقائق الحياة

ويصحح له خطأه فى فهمها والنظر إليها ، ويهتدى على ضوئه إلى الصواب فى معضلات الأمور ، « ومن لم يجعل اللهُ له نورا فما له من نور » .

نعم ، فإن جوانب النفس فسيحة ، وآفاقها متعددة ، ولكن أكثر الناس يعيشون فى جانب واحد منها ، جانب ضيق ، يحصر صاحبه فى أوهام المادة ، وظاهر الحياة الدنيا ، فيقع فى تخيلات الباطل ، ويغتر بزينة الفقاقيع ، ويغدو فهمه للحياة ، وإدراكه للحقائق والمعارف ، متأثرا بهذه الأوهام ، فيكثر الخطأ فى أحكامه ، ويقع الزلل فى مقاييسه وموازينه . فإذا أشرقت الربانية ، وطلعت شمسها الوهاجة فى قلب أحدهم ، استنارت نفسه ، وامتد النور الواضح إلى سائر جوانبها ، فإذا الأفق آفاق ، وإذا الجانب الضيق آماد شاسعات ، وإذا معارف جديدة ، ومشاعر جديدة ، وحقائق جديدة ، تظهر لنا فيما كان مخبوءا عنا : وإذا بنا نرى الأشياء بفهم جديد : ونقيسها بمقياس جديد .

قال بعض الإخوان : إن فلانا تلميذك القديم يقول : إن ماركونى خير من الغزالى ، ماركونى كشف للانسانية واخترع : أما الغزالى فماذا أفاد منه الناس ؟ فقال صاحبه : إن هذا التلميذ القديم محجوب عن حقيقة نفسه : فهو لا يدرك مما حواليه إلا المادة : ولا يرى الناس خلقوا إلا للهو واللعب : والعيش فى محيط هذا الحطام وكفى ؛ ولو أنه أحس لنفسه بكرامة لتمرد على هذه الفكرة : وراح يلتمس رسالة أخرى فى حياة أخرى تلائم ما يشعر به من سمو الهمة : وترضى ما ينطوى عليه من معان إنسانية : ولكان هذا الإحساس الكريم مصدر نوره وإلهامه الذى يكشف له حقيقة نفسه : ويريه مقعده فى دار الكرامة : بين أحياء الدنيا والآخرة . . هذا التلميذ القديم : وقع فيما خدع به أكثر الناس من زخارف الحضارة المادية وزينتها : فهم يفرحون بكل من يمدهم بأسباب اللهو واللعب : ووسائل الترف والنعيم : وألوان الطعام والشراب : ويشبع جوارحهم وحواسهم بأكثر ما يمكن من هذه الشهوات الحيوانية . . وتقدم الإنسانية ليس من هذا فى شىء : كما هو مقرر فى فطر الناس جميعا . تقدم الإنسانية فى سمو عواطفها : وتهذيب غرائزها : وكمال حقائقها المعنوية : واشتغال ملكاتها القلبية بالله وما عنده من نعيم مقيم . . إن الرجل ليغضب ويثور : إذا قال له آخر : ياحيوان : فلماذا يغضب إذا قيل له هذا : ولا يغضب على نفسه أنه يعيش عيشة الحيوان ؟

لا يظن الإنسان أنه امتاز من الحيوان : لأنه أكل الشعير مخبوزاً : وظل الآخر

يأكله غير مخبوز . . ولأنه أكل الفول مطبوخا ، وبقى صاحبه يأكله غير مطبوخ ، ولأنه استتر بالثياب ، ونام على الفراش ، وبقى زميله القديم على ما خلقه الله ! ! . . لماذا يغالط الإنسان نفسه — إذاً — كل هذه المغالطة ؟ . ولماذا يعتبر الترقى فى خدمة البدن ترقيا ؟ . . لماذا يعتبر نفسه تقدم لأنه أكل « الجاتو » بعد أن كان يأكل الرغيف فقط ؟ وأكل اللحم أصنافاً مختلفة بعد أن كان يأكله مسلوقا أو مشويا فحسب وأكل بالشوكة بعد أن كان يأكله بأصابعه ؟ وركب السيارة بعد أن كان يركب الناقة ؟ وأرسل الرسالة بالبرق بعد أن كان يرسلها مع رسول ؟ ، وسمع من بعيد بالراديو والتليفون ، بعد أن كان لا يسمع إلا من قريب ؟ الخ الخ إذا كان يغضب أن يوصف بأنه حيوان ، وإذا كان لا يمتاز منه إذا ترقى فى ألوان الطعام ، فلماذا يعتبر المبالغة فى خدمة الجسم وترف جوارحه تقدما ؟

هذه الغضبة المباركة ، يجب أن تسمو بهمته أن تنضمر فى مطالب الحيوان يجب تجعل له شأنا غير هذا الشأن ، ومستوى فوق هذا المستوى : ويجب أن تريه الفارق الهائل بين ناحيته الحيوانية وناحيته الإنسانية . . ويجب لهذا أن يقيس رقيه عن الحيوان بمقدار ما يسمو بعواطفه إلى المعنويات ، لا بمقدار ما يخترع بجوارحه البدنية من أسباب المتاع . .

فكل جهد يبذله أو يبذله غيره فى محيط التقدم الظاهرى ، دون أن يكون له امتداد ونشاط فى المحيط الآخر ، هو جهد يزيد للناس متاعهم الأدنى ، ويقف بهم فى محيط حيوانيتهم العادية ، بل قد يرتد بهم إلى ما هو شر منها . . وكل جهد يبذله أو يبذله غيره لإحياء القلوب ، وإسعاد الملكات بالنفحات السماوية . هو جهد مبارك ، يخفف من انفعال الجوارح المسعورة ، ويعين الناس على الخروج من عيشة الحيوان وغفلته ، إلى أفق السعادة الإلهية ، حيث تنمو إنسانية الإنسان ، ويصل إلى ما قدر له من كمال . . ؟ فهذا شفاء ورحمة ، وهدى للناس ، وكل من له سهم فى هذه الغاية ، فهو صديق الإنسانية حقاً . فانظر يا أخى : أين مكان ماركونى من خدمة الإنسانية ، وأين مكان الغزالى ؟

هذا عالم ، وهذا عالم ؛ فأى العالمين أجدى بعلمه وعمله على الإنسانية ؟

إن الغزالى كان يمسى ويصبح ، وهو ينهل من وحى قلبه ؛ فهو فى ذكر وفكر وصلاة إذا خلا ، فإذا خرج للناس ، جلس للوعظ والتدريس يحذر ويذكر ، ويخاطب القلوب ، ويلين النفوس ، ويبث المشاعر الطيبة فى سامعيه ، ويسمو بذلك كله إلى الله

عز وجل ؛ فإذا انتهى من وعظه وتدريسه ، انصرف يكتب ويؤلف ، ويحلل أمراض النفوس ، ويذكر أحوال القلوب ، ويصف رحيق الدواء ، ويبين حقائق الإيمان ، وينير للناس طريقهم إلى الله سبحانه وتعالى ، ولا تزال كتاباته مصدر حياة ، وتهذيب للغرائز والطباع إلى اليوم ... أما ماركونى فماذا أغنى فى هذا الأفق الإنسانى ؟ إنه لم يزد على أن كشف قانوناً أو أكثر من قوانين الطبيعة ، قوانين كانت موجودة ، فكشفها وعثر بها ، وهذا كل فضله ... ونحن نستخدم الآن مخترعات ماركونى ، فماذا هذبت لنا من غرائز ، وكم شبراً قربتنا إلى الله ؟ ؟ ؟

قال الأخ : وكم شبراً قربتنا إلى الله آثار الغزالى ؟ ...

فقال صاحبه : إنها لم تقربنا شيئا ؛ ولكن أتدرى لماذا ؟ لأننا لم نستعملها ... لقد استعملنا آثار مركونى ، ولم نستعمل آثار الغزالى ، فلك أن تتصور أى كرامة تفاض على الإنسانية ، وأى فضل تسمو إليه العواطف والأرواح ، لو أننا أقبلنا على آثار الغزالى إقبالنا على آثار مركونى .

قال الأخ : أتنهى أن يكون من الناس مخترعون ؟

فقال صاحبه : لم أقل هذا ، ولكنى أريد أن تقاس أقدار الناس بمقياس الإيمان بالله ، وأن توزن أعمالهم بما أجدوا على الإنسانية فى لباب معانيها ، لا فى قشور ظاهرها فقط ، وإن ليلة من ليالى الغزالى ، لأرجح فى ميزان الحق من عمر ماركونى كله ، وإن صفحة واحدة من كتاب الإحياء للغزالى — مثلا — لأرجح فى هذا الميزان من كل ما اخترع ماركونى ؛ وإنى لأعنى ما أقول . . . فإنك إذا خيرت ضمير الإنسانية الراقى : أن تمحى مخترعات ماركونى كلها ، أو تمحى المثل العليا ، والمبادىء الفاضلة ، والروح الربانية ، التى فى صفحة واحدة من الإحياء — يمحى ذلك كله ، فلا يبقى له فى الوجود أثر . . . لو أنك خيرت ضمير الإنسانية بين هذا وهذا لهلع لهول الخسارة ، ولثار يدفع عن نفسه غبن هذه الصفقة ..

فمتى نفقه هذا الفقه ؟ .

كم من أفكار فاسدة ، وآراء خاطئة ، تصححها الربانية ، وتجلو لنا وجوه الحق فيها ! ! .

خامساً : يلين بها قلب الداعية ، فيصير يقظاً مرهف الحس ، ينتفض بتيارات الروح القرآنى ، فيستخرج من دقائق إشاراته ، وخفى عباراته ، مالا يلتفت إليه غيره ؛ وهذا ضرورى جداً للداعية الذى يجعل القرآن الكريم أهم موارده وأمداده .

نعم : فالعقل وحده لا يستقل بفهم القرآن ، فالقرآن روح من الله ، لا معان وألفاظ فحسب ، فإن استطاعت العقول — وهى لن تستطيع — أن تفهم الألفاظ ، وتستخرج منها كل المعانى ، فليس من طبيعتها أن تحس الروح الإلهى فيه ، فذلك شأن القلوب لا شأن العقول . . . وهذا الحس ، هو الذى يكشف ما وراء العبارات ، ويفتق لك أكمام الألفاظ ، عن أسرار وإشارات ، لا يدركها إلا الموهوبون . . .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يقدم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، ويعرف له فضله ومكانه من فقه الكتاب العزيز ، على حداثة سنه ، وكان يدخله مع أشياخ بدر ، وهم من هم فى السابقة والفضل ، فأحس عمر رضى الله عنه كأن بعضهم وجد فى نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ قال ابن عباس : فدعانى ذات يوم ، فأدخلنى معهم ، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم . . . فقال : ما تقولون فى قول الله تعالى : « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا » ؟ فسكت بعضهم ولم يقل شيئا ، وقال بعضهم : أمرنا أن نحمده ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا . . . وأنت ترى يا أخى أنه تفسير مستقيم جداً مع ظاهر الآية ؛ ولكن عمر الذى جعل الله الحق على قلبه ولسانه ، كان يرى خلال السطور إشارة غير ظاهرة ، فالتفت إلى ابن عباس فقال له : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ قال : فقلت : لا ؛ قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه الله إياه وأخبره به ، فقال : إذا جاء نصر الله والفتح . . . — وذلك علامة أجلك — فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ؛ فقال عمر رضى الله عنه : ما أعلم منها إلا ما تقول ! خبرنى بربك أى عقل يلتفت إلى هذه الإشارة الدقيقة بين السطور؟ إنه سر القلب الحى الذى يحسن أن يفهم عن الله سبحانه وتعالى . . . ولعلك تسأل : من أين لنا أن هذا التأويل هو الصواب ، وبأى مرجح ترجحه على قول الصحابة ؟ ونجيب بأن المرجح هو عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ففى صحيح مسلم : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول قبل أن يموت : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك » فقالت عائشة : قلت : يا رسول الله ، ما هذه الكلمات التى أراك أحدثتها ؟ قال : « جعلت لى علامة فى أمتى ، إذا رأيتها قلتها . . . « إذا جاء نصر الله والفتح إلى آخر السورة » . . .

وقد يكون معنى بعض الآيات واضحاً ، ولكن العقول لا تنتبه إليه ، فيقف الفقيه

فيظهره ويفيض عليه من حسن التوجيه والتأويل ما يجلو إشراقه وروعته . شكا بعضهم عاصم بن زياد إلى على كرم الله وجهه ، لأنه لبس الخشن من الثياب وترك الطيب منها ، وغم أهله وأحزن ولده ؛ فقال : ائتونى به ؛ فلما رآه عبس فى وجهه ، وقال : ويلك يا عاصم ! أترى الله أباح لك النعم ، وهو يكره أن تأخذ منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك ! أما سمعته يقول : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ » حتى قال : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ » ؟ والله إن إظهار نعمة الله أمام الناس بكثرة الاستعمال والفعال ، أحب من إظهارها بكثرة الحديث والمقال ، وقد سمعته يقول : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ [١] » وهذا التفات جميل ، ولكن لا يلتفته إلا الأيقاظ ، أرأيت كم مرة قرأنا يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فلم نقف على شىء فيها ، حتى وقف أبو الحسن رضوان الله عليه يؤول ، ويوجه ، ويقول : أرأيت أن الله خلق هذه النعم وأباحها لك ، وهو يكره أن تأخذ منها ؟ أنت أهون على الله من ذلك ! ؟

ومثله وأجمل منه ، لمحته الملهمة ، التى التفتت بذهنه هذا الالتفات الخاطف ، من سورة الرحمن إلى سورة الضحى ، فربطت له فى سرعة فائقة ، بين قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وقوله : « وأما بنعمة ربك فحدث » ربطاً لا يرد على بال الفقيه العادى ، ليستنبط هذا الحكم الموفق الطريف . . . إن إظهار فضل الله عملياً باستعمال نعمه ، أحب إليه من إظهاره بالتحدث عنها فقط . . .

لقد كان الناس يعجبون لهذا العلم الثمين ، فظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خص أهله بشىء من العلم ، فقال بعضهم : يا أبا الحسن ، نشدتك الله ! هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء من العلم دوننا ؟ فقال رضى الله عنه : « لا والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، اللهم إلا فقهاً فى كتاب الله يؤتيه عبداً من عباده » .

وقد يكون المعنى واضحاً ، ولكن تقاصر الهمم والركون إلى زينة الحياة الدنيا ، والإصغاء إلى وسوسة الشيطان ، يجعل المرء ينظر إلى الآية ، فلا يرى فيها إلا ما يوافق هواه ، وهذا كثير جداً بين الناس ، نكتفى منه بالأمثلة الآتية :

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ

---

(١) تصرفنا فى عبارة على كرم الله وجهه ، بعض التصرف .

إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » ؛ فإن أكثر الناس لا يرى فيها إلا أن يشتغل كل إنسان بنفسه ، ولا شأن له بضلال غيره ، فإن هذا الضلال لا يضر إلا صاحبه .

وهذا التفسير من وسوسة الشيطان ، وتقاصر الهمم كما قلنا ، فإنه يناقض ما ورد فى القرآن الكريم — فى مواضع كثيرة — من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مناقضة صريحة ؛ والقرآن لا يناقض بعضه بعضا « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا » .

وقولهم إن الضلال لا يضر إلا صاحبه ، يناقض قوله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

ويمكن فى هذا المقام إيراد الأحاديث التى تهدم هذا التفسير ، ولكننا نكتفى بإيراد هذه المناقضة ، وبتفسير الآية تفسيراً يستخرج المعنى من لفظها بدون تعسف ، فالآية من الوجهة النحوية مؤلفة من الأمر وجوابه ، فالأمر هنا[1] هو « عليكم أنفسكم » — بالإصلاح — ... والجواب المترتب على هذا الأمر هو : « لا يضركم من ضل » ؛ فنحن أمام مقدمة ونتيجة لا محالة . . . والمقدمة أن نصلح أنفسنا بكل ما فى وسعنا من أسباب الإصلاح ، والنتيجة أن هذا الإصلاح حصن لنا من كيد الأعداء ، فلا يستطيع هؤلاء الضالون أن يلحقوا بنا ضرراً ما . . . نأخذ هذا من قوله تعالى : « لا يضركم من ضل » . . . فمن أين جاءهم هذا الذى يهرفون به ؟ اقرأ الآية يا أخى مرة أخرى ، فإنك لا ترى لها إلا معنى واضحا لا تحتمل غيره . . . فالله تعالى يأمر المؤمنين أن يعنوا بأنفسهم وأن لا يهملوها ، وأن يقبلوا عليها بكل ما يصلح شأنها ويقوى أمرها ، وأن لا يفرطوا فى شىء من هذا . . . فإذا استجابوا لأمره قصرت يد العدو عنهم ، وعجز عن أن ينال منهم نيلا .

والآية الكريمة ، تخاطب جماعة المؤمنين ، أو تخاطب المؤمنين كجماعة وأمة : « عليكم أنفسكم » ، ولا تخاطبهم أفرادا متفرقين : عليك نفسك . . . والفرق بين الخطابين كالفرق بين أن تقول : يجب على الأمة أن تفعل كذا ، وعلى الفرد كذا . . فهى إذاً تقتضيهم أن يقدموا لأمتهم أداة النجاة ، ويقيموا لها حصن الأمان ، وتترك لهم تقدير ما يلزم من وسائل الإصلاح والحماية ، على حسب ما يلائم روح العصر والبيئة ؛ وهى على كل حال لا تخرج فى كل عصر عن الأسس الآتية : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والتزام سائر قواعد الإسلام الخمسة ؛ فقوة الروح ضرورية قبل كل قوة ،

---

(١) عليكم أنفسكم ، هو اسم فعل أمر ، ولكننا تجوزنا فقلنا إنه أمر .

ويأتى بعدها العلم ، وقوة الذخيرة والسلاح ، تنفيذا لأمره تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » . . . ولا بد لإتمام العدة من تدريب كل قادر على الرماية وسائر فنون القتال . . فلو أن جماعة المؤمنين عنوا بأنفسهم هذه العناية ، وأقبلوا عليها بهذا الإصلاح ، فإن أعدى أعدائهم لا يستطيع أن يضرهم بشىء . . . فأين هذا يا أخى من المعنى الذى يفرق الأمة أفرادا متخاذلين ، لا يهتم أحدهم إلا بشأن نفسه ؟ ألا قاتل الله الهمم القاصرة !

(ب) قابل أحد الإخوان صديقا له ، يعمل معه فى عمله الرسمى فقال له : إنى أعتب عليك ، إنك لا تعمل معنا فى الدعوة إلى الله ، وأنت رجل آتاك الله علما ، ورزقا حسنا ، وشبابا وصحة ؛ فقال الصديق : إن عملنا الرسمى ما هو فى الحقيقة إلا دعوة إلى الله ، فإذا أحسناه وأعاننا الله عليه ، فهو حسبنا وفيه الكفاية . فقال الأخ : إن هذا العمل الرسمى ، نؤديه بقيود رسمية ، داخل الغرف والجدران والأسوار ، فلا يستفيد الناس شيئاً منه ، ونحن نريد الصوت الحر ، الذى يقف بين الناس لا بين الجدران ، ويعمل بتكليف من الله لوجه الله . فقال الصديق : « كفاية كده » ! إن الله يقول : « فاتقوا الله ما استطعتم » فقال الأخ : هذه حجة عليك وليست لك ، فليس معناها : اتقوا الله على « أد الحال » ، وليس معناها اتقوا الله « كلشىْ كان » وإنما معناها : ابذلوا فى تقوى الله كل مافى استطاعتكم من جهد ، ووقت ، وعلم ، ومال ، ولاتدخروا من ذلك شيئا . . . فإذا بقى فى الاستطاعة فضل لم يبذل ، فهو تقصير عن أمره سبحانه ، وتفريط فى تقواه .. ولماذا ياأخى تذكر : « فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » وتنسى قوله : « اتقُو اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ » ؟ فابتسم الصديق ومشى . وهذا التفسير الخاطىء ، يقع فيه كثير من الناس ، ومثله تماما ، نظرهم إلى قوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ؛ فوسوسة الشيطان ، وتقاصر الهمم عن أمر الله ، جعلهم يستشهدون بهاتين الآيتين الكريمتين على أن الله « يدلل عباده » ، ويقبل منهم جهد الكسالى المتراخين .

(ح) وكثيراً مانكون بصدد التحذير من فتنة المال والأولاد ، ليظل القلب سليما لله تعالى ، فينبرى لك أحدهم محتجا عليك بقوله تعالى : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » متوهما أن فى هذه الآية الكريمة حجة تفحمك وتسكتك ، مع أنها حجة عليه لا له ؛ فلو أن عزيمته ناهضة بأمر الله حقا ؛ لوضعت له إلى جنب هذه الآية قوله تعالى : « إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » وقوله تعالى :

« إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » ... ولكن انحلال عروته الدينية ، وقف به على هذه الآية فقط ، وجعله يرى فى ظلها مهاداً لينا ، يركن إليه فى دعة واستسلام ... ومع هذا فالآية على حدتها لا تفيد الثناء على المال والبنين ، وليس فيها مايحض على الحرص عليهما ، بل فيها مايشبه التزهيد ، إن لم يكن هو التزهيد الصريح ؛ فهما زينة الحياة الدنيا ، وليسا زينة الحياة العليا ، وما أبعد الفرق بين الزينتين . . .

وإن روحا قوية مباركة ، تطالعك من خلال هذه الآية ، تندد بأولئك الذين رضوا لأنفسهم وقلوبهم ، أن تكون مقفرة من زينتها الفاضلة ، خالية من بواعث الهمة إلى الجمال الأعلى ، واكتفوا بهذه الزينة السطحية الفارغة ، التى لاتعرض أصحابها إلا فى سوق الأطفال .. وهيهات أن يرغب فى هذه الدمى الكبيرة أحمق المساومين .. وبعد ، فلو أننا قرأنا الآية كلها ، لوجدنا أن آخرها يحكم على أولها .. كان أحد الإخوان فى موقف من هذه المواقف ، فاعترض عليه معترض بهذه الآية ، فأجابه الأخ على الفور : اقرأ ياأخى بعد هذا : « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » . فانقطع من الإفحام وسكت . .

ومثل هذا مايلقاك به بعضهم فى احتجاج وإنكار قائلا : « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » ، فلك أن تفحمه على الفور بما قال الله أول هذه الآية : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ » ... ولك أن تأخذ بيده إلى الصواب ، فتقارن له بين أول الآية وآخرها ، وتريه الفرق بين قوله تعالى : « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ » وبين قوله : « وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ » ... فنحن أمام أمر الإقبال على شىء ، ونهى عن نسيان شىء آخر ... فالآية الكريمة تفترض فيمن تخاطبهم حسن تقديرهم لمعالى الأمور ، وقوة إقبالهم على أمر الله ، فى استغراق ينسيهم حظوظهم الأخرى . فنبهت إلى هذه الحظوظ ، تنبيها يسيراً يلائم قدرها اليسير . فقالت : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ..

وبعد فإن المجال يطول بنا لو ذهبنا إلى استقصاء أوهام الضعفاء فى تأويل كلام الله وهى أوهام لاعدة لتبديدها إلا يقظة القلب ونور الربانية فيه ؛ وهى عدة لازمة للدعاية كما رأيت :

سادسا : الداعية المجدد المنشىء ، أوالموجه المكمل ، لابد أن يستلهم هذه الروحانية الاجتماعية ، لأنها من أمر الله .

ونعنى بالمجدد ، الذى يجدد ماتداعى من كيان أمته الاجتماعى ، والاقتصادى ، والدولى ... وبالمنشىء ، الذى ينشىء دولة جديدة ، على غير مثال سبق ، على نحو مافعل مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ... وبالموجه المكمل ، الذى يجد نفسه بصدد أمة تحتل بين الأمم مكانا طيبا ، ولكن طموحه إلى الكمال يبعث بهمته إلى غاية أبعد وأسمى ؛ هؤلاء الدعاة ، لابد لهم من روحانية اجتماعية يستلهمونها الحق الذى لايضل ، وبدونها يكون الداعية رجلا مشغوفا بالمجد ، يتورط فيما يتورط فيه المجانين من أخطاء وكوارث .

الإنسان المؤمن ، خليفة الله فى الأرض ، وجنديه المختار لتطهيرها من الشر ؛ وهذه المهمة ، تقتضيه أن يواجه الشر ، ويعرف أوكاره ، ويستقصى مآسيه ؛ فما لم يكن ذا وجدان نقى ، وقلب يقظ ، فإنه لا يستطيع أن يشعر بحسن الحسن ، وقبح القبيح ، ولا يتنبه إلى مواطن الضعف ، وما يلزمها من ضرورات العلاج . . . فالمسألة مسألة شعور ووجدان ، ومسألة تنبه وإدراك عاطفى ، قبل أن تكون مسألة العقل المنظم الذى يرسم خطوات التنفيذ . . ومهما أوتى الشعور من صفاء طبيعى ، فلا بد له من الاتصال بالله لا محالة ، ولا غنى له عن ذلك بحال من الأحوال ، وإلا كانت الجهالة والفتنة والفوضى .

على هذا الجندى أن يتصل دائما بقائده الأعلى — ولله المثل الأعلى — عليه أن يبسط صفحة قلبه لله ، وأن يطيل بها التسمع إلى ما فى الكون العالى من إشارات وخطرات ، فإن صفحة قلبه تغدو رقيقة رفافة ، تهتز وتختلج لما يهبط عليها من أمر الله سبحانه وتعالى ؛ وهنا يمشى الجندى فى محيطه ، وهو مزود « بآلة الإحساس » التى تنتفض كلما رأت أثرا من آثار الفساد والشقاء ، وتهش وترتاح كلما رأت مظهرآ من مظاهر الخير والنظام . . . ولن يكون لذلك أثر فى نفسك إلا الرغبة الشديدة فى أن تعمل لعلاج الفساد ، وبناء المجتمع على أسس الخير ، وتغدو وكأن هاتفا فى أعماق نفسك يهتف بك فى كل موطن بما يجب أن تتجه إليه من مطالب وأعمال .

ولقد ذكرنا فى المقدمة أن الداعية سياسى فى بيئته ، وقائد فى محيطه ، وزعيم لفكرته ولمن يتبعه فى ناحيته . . . ومعنى هذا ، أن أفق الداعية قد يتسع ، فيكون قائد الأمة كلها ، وزعيم فكرتها ، وقد يضيق ، فيكون قائدا إقليميا ، أوقرويا ، عاملا فى محيطه الصغير ، على ضوء فكرته ، وإلهام صلته بالزعيم الكبير . . . نقول هذا حتى لا يظن أحد أن رسالة الإصلاح مقصورة على الزعماء الكبار ، ذوى الآفاق الواسعة .

وبعد ، فإن خطورة هذه الناحية العملية ، تقنع الداعية بضرورة الإقبال

على الله سبحانه ، وتنظم حيـاته الروحية على قدر استطاعته .

سابعا : أن هذه الروحانية ، تسمو بفضائله النفسية ، وقواه العاطفية ، إلى ذروة رفيعة من الفضل ، فإذابه ينظر إلى الناس ، كأنما ينظر إليهم من قمة جبل شامخ ، فيراهم وقد زالت جسامة أجسامهم كأنما صبوا فى قوالب الأقزام القصار . . وامحى بهاء ما لبعضهم من مظهر ورواء ، فاستووا فى تقديره على منظر هين متشابه ، يسلك الجميع فى منزلة واحدة . . . ويترتب على هذا أمران :

الأول : أنهم جميعا أمامه هياكل ضعيفة ، لا تضر ولا تنفع ، ولا تملك لنفسها شيئا ؛ فهو لذلك لا يرهب ، ولا يرغب ، ولا يخاف ، ولا يخشى ، مهما استعلن الأقوياء بما لهم من جاه وسلطان ، فهيهات أن يغتر بهذه الأوهام الضعيفة صاحب الأفق العالى . . فهو شجاع غاية الشجاعة ، قوى بالله غاية القوة ، غنى بما يجد فى قلبه من رزق الله ، واثق بنفسه وربه كل الثقة . . . وذلك من ألزم الصفات للداعية الأصيل .

الثانى أنه يقبل على الناس وهو فى ذروته العالية ، وأفقه العاطفى الفسيح ، فيعطف على عيوبهم كما يعطف الرجل الـكريم على عيوب الأطفال ، ويعالجهم بروح الرفق والتسامح ، وبالحـكمة والموعظة الحسنة ، لا يضيق بهم ولا يحقد على جهلهم ، بل هو الصبر ، والملاينة ، والتماس المعاذير ، ومسايرة الأمل فى هداهم ؛ فإذا بقى منهم أحد على علته ، رثى لحاله ، وحزن وتألم ، كما يألم الرجل الرحيم لبقاء العلة فى مريضه العزيز ؛ ولأمر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزن على قومه ، ويحرص على هداهم ، حتى كادت نفسه تذهب عليهم حسرات .

هذه الصفة الـكريمة ، هى التى تجعل الداعية ، جديرا بشرف الدعوة إلى الله ، فهو عالمى العاطفة ، ربانى النفس ، تتسع نظرته لأتباعه ومخالفيه ، وتشمل الناس جميعاً بحبها ؛ غير أن حبه لأتباعه يتخذ سمة المودة والبشاشة ، وحبه لمخالفيه يتخذ سمة الرثاء والإشفاق ، والحرص على إسعادهم ، وعلاجهم بمختلف الوسائل . . . بل إن عواطفه لتتسع إلى ما وراء الإنسانية ، حتى تشمل الحيوان والجماد ، فيرحم الحيوان ويوصى به خيراً ؛ ويرق للجماد ، ويحن لما له من عهود وذكريات ، على نحو ما ترى فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

تلك يا أخى هى الروحانية الاجتماعية ، لا الاعتزالية ؛ فخذ نفسك بها ، وزن ما ترى من حالك بميزانها ، حتى تعرف أين أنت منها ، وأين هى منك . واسأل الله لى ولك أن يرحم ضعفنا ، ويكمل نقصنا ، ويجعلنا أهلا للفضل والحـكمة ؛ إنه ولى التوفيق ، وهو ذو الفضل العظيم !

الفصل الثالث

الطبيعة التنفيذية

تمهيد

الروحانية تصل المرء بالله ، وتلهمه روح رسالته .

والطبيعة التنفيذية تصله بالحياة ، ليصوغ تعاليم الرسالة أعمالا نافعة ، وأوضاعا عمرانية صالحة .

وهذان هما طرفا الإيمان ، ولا بد من اجتماعهما فى قلب المرء المؤمن . . . فإذا ادعى لنفسه الروحانية ، ولم يكن له عمل ، فهو إيمان ناقص ، بل إيمان زائف مضطرب . وإذا رأيت له عملا ودعوى عريضة فى الإصلاح ، ولم يكن له حياة روحية سليمة تصله بالله ، فهو امرؤ يخبط فى ضلال مبين .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشرح لنا هذا بقوله : « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل » .

بعض خصائص الإيمان

والإيمان الكامل الصحيح ، الذى يستقر فى القلب فيبعث صاحبه على العمل ، له سمات عديدة ، وخصائص كثيرة من أهمها :

١ — فهم الرسالة .

٢ — حب تعاليمها ، وتعلق القلب بجمالها .

٣ — الغيرة على حرمتها .

١ — الفهم

ولسنا نعنى بالفهم ، أن يحيط الداعية بعناصر الرسالة ، وتوجيهاتها ، وأمرها ونهيها ، وحلالها وحرامها ، فذلك فهم العقول لا القلوب ، وشأن التلقين لا اليقين . . وإنما نعنى بالفهم ، الفهم العاطفى ، والتصديق القلبى ؛ وهذا التصديق شعور يحل

فى كيان المرء ، وإحساس يستولى على وجدانه ، فيدرك به من حقائق الرسالة ، ما لا يستطيع العقل أن يدركه . . . وأوضح مظاهر هذا الفهم أو هذا الشعور ، أن يدرك أن الرسالة حق ، وأن ما عداها باطل . . ويميز الفرق بين الحق والباطل ، كما يميز أحدنا الفرق بين صور الأوهام التى تتراءى لنا فى أضغاث الأحلام ، وبين ما نراه فى عالم اليقظة والمشاهدة ؛ فإذ أدرك أحدنا الحق والباطل هذا الإدراك ، وميز بينهما هذا التميز ، فقد بلغ رشده القلبى ، وتم فهمه العاطفى ، وصح أن يكون مع المؤمنين . وإذا لم يفهم هذا الفهم ، فليعلم أنه لم يبلغ رشده بعد ، وإن بلغ من العمر ستين أو سبعين سنة ، ونال من الإجازات العلمية ما نال .

والعلامة الظاهرة التى تدل على أن المرء فهم هذا الفهم ، أن يرى متجافياً عن دار الغرور لأنها باطل ، منيبا إلى دار الخلود لأنها حق ، مستعداً للموت قبل لقاء الموت . وعلامة عدم الفهم أن يعرض عن حقائق الآخرة ، ويغتر بأوهام الدنيا يظنها شيئاً ؛ فيكون مثله كمثل الأبله ، الذى زعموا أنه رأى فى المنام كأنه يصرف جنيها من رجل آخر ، فقال له الرجل : أعطيك فيه تسعة وتسعين قرشاً ، فقال : لا ، بل مائة قرش ، وأصر كل منهما على قوله ، وهنا استيقظ من حلمه ، فلم يجد فى كفه شيئاً ، فما كان منه إلا أن أغمض عينه ، ومد يده لعالم الأحلام ، يقول للرجل الوهمى : لقد رضيت بما تريد ، فهات التسعة والتسعين . . ولو كشف عنا الغطاء ، وأصبحنا من أهل الإيمان والفهم ، والنظر إلى حقائق الوجود ، لرأينا أكثر الناس فى إقبالهم على متاع الغرور ، كهذا الأبله الذى يستمنح الأوهام قروشه المزعومة .

فاللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

٢ — حب التعاليم .

الفهم على ماقررناه يجعلنا نقدر الحق قدره ، ونعرف قيمته ... ولكن القوة الإيجابية ، التى تشغف المرء بالرسالة غير واضحة فيه ؛ فأودع الله القلوب سر الحب وجعله من خصائص الإيمان ... وفى الرسالة جمال ، لايدرك إلا بالحب . كما أن فيها نفاسة لاتدرك إلا بالفهم .

ومقتضى هذا الحب ، أن يكره الإنسان الطاغوت ، ويبغض الباطل ؛ ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينص على خصوصية الحب فى الإيمان بقوله : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه مع ماجئت به » ؛ وينص على خصوصية بغض الطاغوت بقوله : « ثلاث

من كن فيه وجد فى قلبه حلاوة الإيمان : ا .. ب .. وأن يكره أن يعود إلى الـكفر ، كما يكره أن يلقى فى النار » . ويجمع الله عز وجل المعنيين فى قوله ممتنا على عباده : « ولـكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ، وكره إليكم الـكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلا من الله ونعمة » .

ومن دلائل هذا الحب الظاهرة ، أن يرى صاحبه ناهضا ، منبعثا إلى الدعوة لرسالته فى همة وجد ، مطبقا تعاليمها على نفسه وآل بيته ، فى غير هوادة ولارياء ، وإلا فكيف يكون محبا ، وهو لايجـد فى نفسه إلا الـكسل فى التنفيذ ، والـكراهة للتكاليف ؟؟ .

٤ — الغيرة :

الغيرة من لوازم الحب ، وكلما كان الشىء محبوبا ، لاصقا بخاصة نفس المرء ، عظمت حرمته لديه ، وقامت الغيرة تحرس حماه ، وتصون محارمه أن تستباح .

والغيرة على الحق من صفات الله عز وجل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ماحرم الله عليه » .

ومن علامات غيرة المؤمن ، الغضب إذا انتهكت محارم الله ، والثورة لإبطال مايرى من منكر .. قالت عائشة رضى الله عنها : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، وقد سترت سهوة[1] لى بقرام[2] فيه تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هتكه[3] وتلون وجهه ، وقال : « ياعائشة أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » .. ومن علامات الغيرة كذلك أن لايطيق أن يرى رسالته معطلة ، أوخاضعة لسلطان رسالة أخرى ، ومن هنا نرى المؤمن الحق ، والداعية المفطور ، يلح فى أن يجمع لرسالته كل سلطان روحى ومادى يكفل لها الهيمنة على ما سواها .

معنى الطبيعة التنفيذية

ونحب أن نستخلص من هذا كله : أن الايمان ليس معنى روحيا سلبيا يصل الإنسان بالله فقط . بل هو كذلك قوة إيجابية ، تبعث على التنفيذ ، وتنهض إلى العمل ، أوهوسر إلهى مشبوب فى قلب الداعية وعصبه ، موكل بإنفاذ رسالته إلى الحياة العملية . . .
فلا يهدأ القلب ولا العصب حتى يكون كل شىء فى الحياة يجرى على مناهج الدعوة

(١) السهوة مايشبه النافذة . (٢) القرام ستار . (٣) هتكه مزقه .

وتعاليمها .. وإلافهو العمل الصادق والجهاد القوى ، حتى يقر الله عينه بما يحب ، أويقضى له شيئاً آخر » .

وأنت ترى فى هذا السر الإلهى المشبوب خصوصيتين واضحتين :

الأولى : أنه جذوة متقدة ، يستمد منها الداعية القوة على العمل ، والغيرة على الدعوة .

الثانية : أنه قوة منهضة ، يشعر بها الداعى كأن ضرورة ملحة تضطره إلى التنفيذ ، أو أن حافزاً نفسانيا ينهض أعضاءه إلى العمل ، فيشعر براحة عظيمة ولذة عميقة ، إذا هو استجاب له ؛ أو بضيق ثقيل خانق ، إذا هو لم يعمل ولم ينفذ ولم يطبق .. وهذا ما نسميه الطبيعة التنفيذية .

وبدون هذا السر ، يكون الداعية رجلا كسائر الذين تمتلىء رءوسهم بأوهام الإصلاح ، وكل ماينفعون به الأمة ، مقالة يكتبونها أومحاضرة يلقونها ، وحسب الواحد منهم بعد هذا ، أن يقبل عليه القراء أوالمستمعون « فيهنئونه » بما كتب أو بما خطب ، فيشيع السرور فى نفسه ، ويعمد إلى تصنع التواضع المغرور .. وإنى أعد هذه التهنئة كارثة تقتضى الحزن لا السرور . فلو أن داعية مطبوعاً كان كل حظه أن يثنى الناس على ما كتب أو خطب ، لانفلقت كبده من الغيظ والحسرة ، فإنه لايريد شيئاً من هذا ، لايريد ثناء لنفسه ، ولا يطيق أن يرى هؤلاء البله ينصرفون من قراءته أو سماعه فى غير مبالاة ، إلى حيث يغطون ويتثاءبون فى حياتهم الراكدة الخاملة .

بدون هذا السر يكون الداعية واحداً من هؤلاء المرائين الفارغين المرتزقين ، ومن الارتزاق ما يكون لكسب الثناء ، كما أن منه ما يكون لكسب الغذاء . . على أن هذا امتياز فطرى للداعية المطبوع . . . ولا نريد أن نقول إن الداعية يجب أن يكون هكذا وإلا فليرح نفسه ، ولا يكلفها ما ليس من طبيعتها . . . لا . . إن كل مهمتنا هنا أن ننظر إلى الدعاة العظام ، الذين بعثهم الله للبناء والإنشاء ، ونرصد ما يمكن أن ندركه من صفاتهم وامتيازهم ، ثم نضعه مثلا أعلى يحتذيه الدعاة الراغبون فى الإصلاح . وما أقصد بهؤلاء البنائين المنشئين غير رسل الله صلوات الله عليهم ، بل غير مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففيه اجتمعت كل صفاتهم الفاضلة ، وثمار تجاربهم النفسية والعملية .. فإذا نظرنا إليه ، واتخذناه قدوتنا فى الدعوة ، فإن الكثير مما حرمناه من الصفات الفطرية ، يتأتى لنا حظ منه بالتجربة والممارسة والمران .

كيف نكتسب الطبيعة التنفيذية

فما على الراغب فى الخير والدعوة إليه ، إلا أن يستوعب سيرته صلى الله عليه وسلم فى الدعوة ، وأن يلم بروح رسالته فى القرآن . . ومن حسن الحظ أن الله سبحانه وتعالى ، قد جمع لنا هذه الرسالة فى قواعد كلية واضحة . . ولم يكتف بذلك ، بل أجرى هذه القواعد فى صور من الأمر والنهى تضع القارىء على أبوات التنفيذ ، وتقفه على رأس طريقه إلى العمل ؛ فما عليه إلا أن يسير ، وينفذ ما يريد الله سبحانه وتعالى أمراً ونهيا ، لا بروح التابع المأمور فقط ، بل بروح الداعية المكلف بالدعوة كذلك . . فإنه بعد أمد قريب أو بعيد يحس أن شعاعا من هذه الطبيعة التنفيذية ، وقبساً من جذوتها المقدسة ، قد سرى بإذن الله فى أعماق نفسه .

نبرأ من البعد عن الله

ونريد أن ننص هنا على أن هذا السر التنفيذى المشبوب ، يجب أن يكون متصلا بروحانية الداعية كل الصلة ، عاملا بإلهامها ، آخذاً من معينها . . وإنا نبرأ وتبرأ معنا الإنسانية العالية الكريمة — لا إنسانية الماديين المحصورين فى قوميتهم ووطنيتهم — من كل رجل منفعل المزاج ، ينطلق على غير هدى من الله ، إلى إقامة نظام اجتماعى ، أو سلطان عملى ، ينفذ به على الناس مايزين له مزاجه المختل . . ولقد قلنا فى الروحانية الاجتماعية إن الدعاة المجددين المنشئين ، لابد لهم من هذه الروحانية ، يستلهمونها الحق الذى لا يضل ، وبدونها يكون الداعية رجلا مشغوفا بالمجد الوهمى ، يتورط فيما يتورط فيه المجانين من أخطاء وكوارث .

هذا الصنف المختل المخبول ، نبرأ إلى الله منه ، ونحذر الشباب وغير الشباب أن يغتروا بشأنه ؛ فهو بعيد عن الله ، ضال عن الحق ؛ وهو بلاء على نفسه ، وعلى الناس ، وإنا لنهيب بشبابنا ودعاتنا ، أن يصلو نفوسهم بالله قبل كل شىء ، وألا يظنوا أن قوى الشباب فيهم ، وأشواقهم المشبوبة إلى المجد ، هى الكفيلة بتحقيق ما يصبون إليه . . لا ياشباب ويا دعاة ، لابد من النور الذى تسيرون على ضوئه ،وتعملون بوحيه ، وإلا فكم من عشواء جمحت بين النخيل ، حتى أوردها الصدام موارد الهلاك .

على الداعية أن يعرف غايته أولا

والآن فماذا يراد من الداعية ؟ أو ماذا عليه أن يعمل ؟

يراد منه أن لا يحبس مبادىء رسالته وتعاليمها فى صدره وفكره ، بل يصوغها

أوضاعاً اجتماعية ، وصوراً عملية حيوية ، وأنظمة عمرانية ، يستقيم بها شأن الناس فى معاشهم ومعادهم .

وهذا كلام غامض لا يشفى علة ، ولا ينقع غلة كما يقولون . . . فكيف يصوغ رسالته هذه الصياغة ، وعلى أى أساس يفعل هذا ؟ . . أما الداعية المفطور ، فله من وحى قلبه ووحى ربه ما ينير له الطريق ، ولا يحوجه إلى هذا التساؤل ؛ وأما الداعية الذى نحن بصدده ، فمن حقه أن يلتمس معنا من نور الحق ما تقربه نفسه .

الغاية الله

على الداعية فى ميدان التنفيذ والعمل ، أن يعرف غايته أولا ، وأن يفهمها حق الفهم ؛ فإذا تأتى له هذا ، استطاع بفطرته أن يدرك الوسائل التى تحقق له هذه الغاية وتصل به إليها .. وغاية الداعية ، هى غاية كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا ، مسلما كان أو غير مسلم ، فى مشارق الأرض ومغاربها . هو الله سبحانه وتعالى . . فعلى الداعية وعلى كل إنسان أن يعلم أنه خلق لله أولا ، وأنه خلق لله آخرا ، وأنه لم يخلق لغير الله على أى اعتبار من الاعتبارات ، . . . وأنا أدرك أن هذا الكلام غير براق لاسحر له ولا خلابة ، فالشباب المتحمسون ، والكهول الذين فتنوا بزينة الحضارة المادية وأحداث العصر الجارية ، إنما يفتنهم المجد للشخص فى عالم المال ، والصناعة والحرب والسياسة . . ويفتنهم المجد للدولة بعلو سلطانها وكثرة مستعمراتها ... فمجد الشخص ومجد الأمة هما قبلة أنظارهم ومطمح عزائمهم ، وكل كلام يستحث هممهم إليه فهو الكلام الساحر البراق ، الذى يحلو فى قلوبهم المخدوعة .

لا ، أيها الناس ؛ إنما خلقنا لله لا لهذه الأوهام ، والمجد كل المجد أن ينجح الإنسان فى سبيل هذه الغاية العليا ، فإذا لم يكن لهذا الكلام بريق لامع ، فإن له من منطق الفطرة ، ما تخشع له القلوب ، وتعنو لقهره الطباع ؛ فنحن مخلوقون لله ، رضينا أم لم نرض ، راجعون إليه لا محالة ، أطعنا أم لم نطع ؛ والخير للانسان أن يمضى إلى مالا بد منه فى كرامة ، من أن يكره على المضى إليه فى هوان وذلة ؛ ولقد عنت السموات والأرض لقهر الله وسلطانه ، حين استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا : « أتينا طائعين » ؛ فمن ركبه شيطان الغرور فسوف يرد إلى ربه لا محالة ، وهناك تنكشف له الحقيقة التى طالما تجاهلها ، فيقطعه

الندم ولات ساعة مندم ، ويزيد من فجيعته ونقمته على نفسه ، أنه لم يبصر ما أبصره العمى ، ولم يفهم ما فهمه الجماد ، يوم قالت السموات والأرض : « أتينا طائعين » ؛ كل ذلك وواعظ الله يهتف به فى موقف حسرته : « لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ، « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على مافرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ساء ما يزرون » .

فإذا عرف الداعية غايته ، فقد عرف واجبه ، وأدرك أن عليه أن يركز همته ويحصر كل ماله من جهد فكرى وعاطفى وبدنى فى بلوغها ، وقطع مراحل الطريق إليها .

وهذا يا أخى هو المحور الذى دارت حوله رسالات الله ، وما أنزل من وحى وعلم على أنبيائه ورسله وأوليائه ، فمن أراد أن يرى هذه الرسالات مجموعة فى كلمة واحدة ، أو موعظة واحدة ، فلينظر إلى هذه الحقيقة ، فإنه يرى كل ذلك يتجه إليها ، ويتجمع عندها ، ... وما نقول هذا افتراء على الله سبحانه ، واجتراء على رسالته ، فهو أمره عز شأنه ، وقوله لرسوله : « قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى .. ثم تتفكروا » ؛ فالغاية الله تبارك وتعالى ، والواجب أن نفكر ونعمل لبلوغ الغاية من رضاه سبحانه ، وأن يكون طريقنا إلى الله سهلا هادئا مأمونا . وهو واجب الداعية نحو نفسه ونحو الناس ، وهو الذى نكل تنفيذه إلى الطبيعة التنفيذية .

إحياء القلب

والآن فما معنى أن نجعل الطريق إلى الله سهلا هادئا مأمونا ؟

ونحن على رأس رحلة إلى الله سبحانه وتعالى ، فإذا اجتزنا مراحلها على ما يرضيه ، فعند الصباح يحمد القوم السرى ، ويحطون رحالهم فى دار المقامة من فضله ، « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

وهى بعد رحلة لا تقطع بقطار أو سيارة ، وإنما تقطع بالقلب ، والقلب فيها هو كل شىء ... فيه يبصر الإنسان غايته ، أو يبصر الله تبارك وتعالى كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وغايتنا لا تدرك بالأبصار ، ولكن تدرك بالقلوب التى فى الصدور ، وما لم يبصر الإنسان غايته ، لم يعرف إليها سبيلا ، ولم يدرك لها جمالا .

وبه يستبين الطريق إليها ، فلا تلتبس المعالم على ذوى القلوب الحية : « أو من كان

ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » ؟
وما المعالم هنا إلا الطيب والخبيث ، والحسن والقبيح ، والنافع والضار ، والحلال والحرام.

وهو الذى يضاعف أشواق المرء إلى غايته ، ويستحث همته إليها ، فتهون عليه المراحل والعقبات ؛ وكلما أدركه كلال أو ملل ، لاحت له بوارق من دار السلام ، فيتجدد عزمه ، ويحيا رجاؤه على حد قول الشاعر :

لها أحاديث من ذكراك تشلغها عن الطعام ، وتلهيها عن الزاد
إذا اشتكت من كلال السير أوعدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد

فالقلب يا أخى هو كل شىء فى هذه الرحلة الأزلية ، هو كل شىء فى حياتك ، وما الجسم إلا مطية له ، أو ظرف يصونه ، ولقد تقدم فى غير موطن ، أن الإنسان ما هو إلا قلبه ، وسيأتى فى باب مصادر الداعية أن القرآن الكريم يجب أن يقرأ على أن الغرض الأول والأخير منه هو إحياء القلب ، والمحافظة عليه سليما مطمئنا بذكر الله ، وأن السنة النبوية كلها ترمى إلى هذا المعنى من قريب أو بعيد ، مباشرة أو بطريق غير مباشرة ؛ ولقد قلنا منذ قريب : إن مثل هذا الكلام لا بريق له ولا سحر ، فهل يظن أولئك المخدوعون ، أن القرآن الكريم نزل لتنظيم خدمة الجسم ؟ أو أن السنة المطهرة تعلمنا كيف نجمع لهذه المطية زادها ؟ . . . وإذا لم يكن الإنسان هو قلبه الفياض بمعانى النبل والكرامة ، وعواطف المواساة والإيثار ، وطمأنينة الذكر والتقوى ، أفيظنون أنه هو جسمه الطاعم الكاسى ، وشهواته الجائعة المنهومة ؟ .

إذاً فواجب الداعية يا أخى — بعد معرفة الغاية — ينحصر فى إحياء القلب ، وجعل طريقه إلى الله سهلا ، هادئا مأمونا ، لا يعتريه فيه ما يطفئه ، أو يخمده ؛ وهذا فيما يبدو لى يتحقق بالأمرين الآتيين :

أولا : دوام التذكير بالغاية ، بما يجعل الإنسان مشغولا بها مفكراً فيها ، مقبلا بكليته عليها ؛ وليس للقلب من زاد يحيا به إلا معرفة هذه الغاية ، وتعلقه بها ، وتفكره فيها . . . ولقد يؤنسنا فى هذا المعنى قوله تعالى : « ثم تتفكروا » .

أما كيف يتأتى للداعية دوام التذكير ، فإن الله سبحانه وتعالى قد فرض علينا الصلاة ، وجعلها دروساً عملية فى مناجاته سبحانه والثناء عليه ، والتفكر فى يوم الدين ، والتماس الصراط المستقيم . . و . . . وترك للداعية أن يقيم المسجد ليكون مدرسة ربانية يزاول طلابها فيها هذه الدروس بإرشاده وإمامته . . « خمس حصص كل يوم » .

وهذا توجيه إلهى ، ومثال عملى ينصبه الله سبحانه وتعالى للداعية ، لينسج على منواله ، ويسير على هداه فى تقرير الغاية والتذكير بها . . فعلى داعيتنا أن يحمل الناس

على إقامة الصلاة ، ويرد للمساجد أنسها وروحانيتها . . وأن يضع برامج التعليم فى مدارس البنين والبنات لتكون مذكرة بالغاية الأساسية ، موجهة إليها ، غارسة لها فى قلوب الصغار والكبار . . وأن ينتفع بوسائل الثقافة الأخرى ، كالمسرح والسينما والصحف والمجلات ، وما استجد من أساليب الدعاية . . . ولايسوغ بحال من الأحوال أن تجند كل هذه الوسائل الفعالة ، لتقرير العقائد الزائفة ، وإذاعة المبادىء الفاسدة ، والتوجيه إلى حياة اللهو والباطل ؛ ويقف دعاة الحق كأنهم لا يرون ولا يسمعون ، ولا يعيشون مع أحياء هذا العصر .

ثانياً : إذا تقرر أن القلب هو كل شىء فى عوامل الرحلة ، أو هو أهم شىء فيها — فهو الذى يبصر الغاية ، وينير الطريق ، ويجدد العزائم ، ويستحث الأشواق — فقد وجب أن نتيح له من الهدوء وفراغ البال ، ما يحمله على ذكره وفكره ، وإقباله على الله سبحانه فى طمأنينة وسكينة . . . وفى رأيى أن القلب إذا أحيط بما يقيه ويحفظه من المؤثرات العارضة ، مضى إلى غايته على هدى وصراط مستقيم . . . ويمكن الداعية أن يجعل هذه المؤثرات فيما يأتى :

(ا) مؤثرات اقتصادية

نعم ، فمطالب العيش وكل ما يتصل بالحياة الاقتصادية له تأثيره المباشر القوى على القلب ، كالفقر والتعطل عن العمل لمرض أو شيخوخة أو سبب آخر ، وثقل الدين والغرم ، ونزول الآفات والحرائق ، واليتم والترمل إذا مات رب الأسرة ولم يترك شيئاً ، وما يشبه ذلك مما تضيق به النفس ، ويغدو به المرء موزعا فى أودية من الهموم والأفكار والذلة والحيرة . . . فهل يتأتى للقلب أن يظل فى هدوئه وسكينته ، وهذه الهموم تتقسمه وتتوزعه ؟ .

على الداعية أن يترك هذا ، وأن يبذل غاية جهده لصيانة القلب منه ، والمحافظة على بقائه فى روض سلامه ، ونعيم ذكره وفكره . . . ونحب أن نذكر هنا مرة أخرى ، أن سلام القلب ليس من الأمور الكمالية التى قد يتهاون المرء فى العناية بها ، وليس هذا النعيم من قبيل التدليل والتزيد فى مطالب الترف . . . لا . . . إنه الضرورة الأولى ... إنه الحياة التى ليس بدونها حياة ... وإنه النجاة ، وليس بدونه إلا الهلاك ، ولا يدرك هذا إلا من فقه وأيقن أنه خلق لأخراه لا لدنياه ... فإذا عنينا بالنص على على هذه المؤثرات المتصلة بمعيشة الناس ، فإننا ننص على قيام سبب من أسباب الهلاك ،

وليس للانسان إذا هلك ، من فرصة أخرى يصلح فيها شأنه ، إنها الجنة أبداً ، أو النار أبداً . . . وإذا كانت الحكومات تسارع إلى مكافحة الأوبئة لسلامة الأبدان ، فأحرى ثم أحرى أن تكافح ما يفد على القلب من الهموم والأزمات ؛ ولأمر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ... وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » ويقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر » ... وليس من البشر كافة من هو أسمى همة من رسول الله ، فهل تراه فزع إلى الله واستعاذ به ، إلا لأن الحزن والهم وغلبة الدين والفقر من مهلكات القلب ، كالذنوب والشهوات سواء بسواء ؟ أم تراه فزع منها لأنها تصد نفسه عن الطعام ، وتقعد بهمته عن السعى فى الأرض لجلب الحطام ؟ . قد يجوز لأى باحث اجتماعى نفسانى أن يستخرج من هذا الكلام ما يشاء ، من تأثير الهموم على همة المرء وعزيمته وما لذلك من أثر اقتصادى وعمرانى فى الحياة المادية ، وهو حسن ... ولكن ما نعلم من سمو همته صلى الله عليه وسلم ، وصفاء إدراكه للحقائق العليا ، يجعلنا نجزم بأنه يقصد قبل كل شىء سلامة قلبه ، الذى هو مستودع الحياة فى الدنيا والآخرة .

فإذا نحن عنينا بتقرير هذه العوامل الاقتصادية ، وأثرها على حالة المرء النفسية ، فلسنا نقف بمرادنا عند حدود اللقمة التى تسد جوعه ، وتستر عريه ، كما يقف كثير من المهتمين بعلاج مشكلات الفقر والبطالة ... بل نرمى إلى ما وراء هذه الحدود من انقشاع الظلمة عن القلب ، وصفاء الأفق من حوله ، وعودة الطمأنينة إليه ، ليواصل سيره إلى غايته ... فإذا أمكن أن نصل إلى هذه الغاية مع بقاء أسباب الجوع ، فتلك مرتبة لا يدركها إلا المشمرون ... ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجوع فلا يذله الجوع ، ويخلو بيته من القوت فلا يتضعضع لأحد لينال من فضله شيئاً ، ولا يهمه ذلك أو يغمه ، بل يربط الحجر على بطنه ، ويقول لمن حضر من أصحابه : « ألا رب نفس طاعمة كاسية فى الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم » ؛ ولكن أنى لنا بهمة رسول الله ، وعظمته الشامخة المترفعة على ما يذل الناس من قيود وضرورات ؟ ! .

لقد ذكرنا ما ذكرنا ، لنبين أن مرادنا الإسعاف بالمال والطعام واللباس ، غير مراد أصحاب العقول المحصورة ، والنفوس الضيقة ... ولذا نرى دائماً أن يقترن هذا الإسعاف المادى ، بإسعاف روحى يربط على القلب ، ويمسح عنه بحنانه ما مسه من هجير الحاجة ،

ويملؤه رضا بما قسمه الله له ... وهذا يا أخى فرق ما بين مناهجنا ، ومناهج أعظم المصلحين المعاصرين . . . فقد بشر الإنجليز — وحرب السنوات الست قائمة — بمشروع بفردج واعتبروه — واعتبره الناس فى المشارق والمغارب — حدثاً جديراً بتقدم الإنسانية ؛ فهل لنا فى غير زهو أن نفاخر بمنهاجنا ونبشر به ؟ بل هل لنا قبل ذلك أن نثق بأنفسنا ، ونعتز بما عندنا من إيمان ويقين ؟ .

ونعود إلى ما نحن بصدده من تقرير اضطراب الحالة النفسية بالعوامل الاقتصادية المتصلة بمعيشة الناس ، ليرى الداعية أن علاج هذه الطوارىء مما لا يحتمل الهوادة أو التراخى ؛ فليس يصبر على هلاك الناس إلا جاحد القلب ، غليظ العاطفة ، وليس هذا من الدعاة فى شىء . . . وليرى كذلك أن ضرورة الموقف تقتضيه فرض التكافل والتعاون بين جماعته ؛ تقتضيه أن يجعل هذا التكافل نظاماً مفروضاً على الجميع . . . ولقد فرض الإسلام الحنيف الزكاة ، ولم يجعلها تطوعاً متروكا إلى اختيار المرء ورغبته ، ففتح بهذه الفريضة العملية الإيجابية ، الباب على مصراعيه أمام الداعية ، ولم يتركه إلى حدسه وتخمينه ، وأمره أن يأخذ كل القادرين بأدائها ، وأن ينزلهم بالسيف على حكمها ، إذا هم قعدوا عنها وبخلوا بها . . . وليس على الداعية بعد هذا إلا التنفيذ ، وإقامة الأنظمة ، وسن القوانين التى تحقق هذا التكافل بين الجماعة ، وتجعله حقيقة عملية واقعة .

وننبه هنا أخيراً إلى ما ألمعنا إليه سابقاً من أن مهمة الداعية لا تنتهى بإقامة هذا التكافل ، بل لابد من أن يجعله نظاماً سائغاً فى قلوب الكافلين والمكفولين ، يرضون عنه ، ويغتبطون به ، ويرونه فى صالحهم على السواء ؛ فإن المتبادر إلى الذهن أنه فى صالح من قعدت بهم الحاجة فقط ، وهذا خطأ . . . فإن عضة الفقر على القلب ، تعدل عضة الحرص وحب المال ؛ وتفسير هذا ميسور لمن يدرك أن حياة القلب فى الاشتغال بالله سبحانه وتعالى وحده ، وليست فى شىء آخر ، وأن هلاكه فى انصرافه عنه ، واشتغاله بغيره ، وهذا الانصراف يتحقق بشواغل الفقر ، كما يتحقق بشواغل الغنى والمال ؛ والعبرة بالنتائج لا بالمقدمات . . . فإذا وقف الداعية عند إقامة التكافل ، وتيسير سبله ووسائله الظاهرة ، فقد أقام نظاماً آليا ، قد يحلو فى قلوب الفقراء دون الأغنياء . . . وإذا صح هذا فى منطق المصلحين المحجوبين ، فلن يصلح فى منطق المصلح الإسلامى ، الذى يرى بنور الله ، ويتخذ القرآن دستوره وإمامه . . . والله تبارك وتعالى يقول : « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ » . . . أما الوقوف عند الفرض بالقوة والسيف ،

فإنه يقيم الناس على ترقب الفرص المناسبة للانتقاض والعصيان والوثوب على النظام .

ومن حق الدعوة عليك ، ومن حق الناس كذلك ، أن تطيل النظر فى قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » ، فإنه قول جامع لكل ما يمكن أن يقال أو يعمل فى هذا الباب ، فقد قال الله تعالى :

١ — « خذ من أموالهم صدقة » وهذا حق الفقير ، وهو أمر القانون ، وحكم السيف لا محالة .

٢ — « تطهرهم وتزكيهم بها » والتطهير مرتبة ، والتزكية مرتبة أخرى فوقها ، وكلتاهما فى غنى عن الشرح والبيان ؛ وها هنا حق القلب ، ولا يصل هذا الحق إلى القلب بمجرد أخذ الصدقة ، بل بالأسلوب الذى تؤخذ به ، وصرفها فى المصارف التى سنت لها ! وهو أسلوب الوعظ الرقيق ، الذى يجعلها عبادة وقربة إلى الله سبحانه ، ووسيلة إلى الدار الآخرة . . . وأسلوب النظام الذى يشعره أن الدولة راعية له ، مسؤولة عنه ، فى يسره وعسره ، وأن أبناءه فى كفالة الإمام ، إذا هو مات عنهم ولم يترك لهم شيئا ؛ وإنها لكفالة رحيمة لا قسوة معها ، عزيزة لا ذلة فيها ؛ كفالة ترقب الله فى الجميع ، ولا تبغى لنفسها شيئا من جاه أو منفعة مادية . . . أسلوب العدالة والمساواة فى الحقوق الإنسانية ، بحيث يأمن الظلم ، ويشعر أن خير الدولة للجميع ، لا لطائفة دون طائفة . . . أسلوب السماحة فى البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وتيسير المصالح ؛ وهو أسلوب تسنه الدولة ، لتجرى عليه معاملتها مع الناس ، ويجرى عليه معاملات الناس بعضهم مع بعض ، فلا طمع ولا استغفال ، ولا ربا ولا غرر ، ولا شىء مما تؤكل به أموال الناس بالباطل . . . وإنما هى السماحة العامة ، التى تخرج الإنسان من حدود بدنه الضيقة ، ودنياه المستعرة بجحيم المطامع والأزمات ، إلى آفاق قلبه ونعيم الحياة الآخرة .

بهذا الأسلوب تلين القلوب ، وتنحل عنها أقفالها ، وتؤتى الصدقة ثمارها الاجتماعية والروحية .

٣ — « وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ » وادع لهم بخير ، وأفض عليهم من نور قلبك وحنان نفسك ، فإنه سكن لهم من الفتن والثورات والانتقاض على النظام .

ويلاحظ من ظاهر الآية الكريمة ، أن الضمائر فيها عائدة على أرباب الأموال والقادرين ، وهذا معناه أن خير الصدقة مردود على المتصدقين ، ونفعها عائد عليهم

وحدهم . . . ويعضد هذا قوله تعالى : « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ » فهم الذين نالهم التطهير ، وهم الذين أصابوا التزكية ، وصدقاتهم قد تقبلها الله سبحانه بيمينه ، وهو يربيها لهم حتى تكون كل منها مثل الجبل ، على ما ورد فى الحديث الشريف . . . أما الفقراء ، فماذا نالهم من هذا ؟ رغيف ؟ ثوب ؟ درهم ؟ هل تطهر الفقير بالرغيف والثوب والدرهم ؟ ومتى كان المسكين قد تدنس حتى تطهره الصدقة ؟ إن الذى تدنس حقاً هو الذى دخل حب المال قلبه ، فأفسد عليه طمأنينته ونظام تقواه . . أما الفقير ، فكل شأنه أن عقبة وقفت فى طريقه ، أعنّاه على اجتيازها ، وأزلنا عنه ما كان يشغله بها .

ومن زعم أن أكل الرغيف ، أو لبس الثوب ، أو إنفاق الدرهم طهارة لآكله ولابسه ، فليزعم إلى زعمه هذا ، أن الأغنياء أكثر الناس طهارة ، لكثرة ما يأكلون ويلبسون وينفقون . ! ؟

إن آخذ الصدقة فى الحقيقة هو الله تعالى ، وهو سبحانه القائل ذلك بنفسه : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » .

فهذا كما ترى توجيه فى فهم الآية ، يتفق تمام الاتفاق مع ظاهرها الذى لا لبس فيه ، وهو بهذا يسبغ رداء الكرامة على الفقراء ، ولا يجعل لأحد من المتصدقين فضلا عليهم ؛ فصدقاتهم دائرة بينهم وبين ربهم ، يطهرهم بها ويربيها لهم ، ويضاعف أجرهم عليها . . وهو من المدركات العالية فى كتاب الله سبحانه .

وقد يرى بعضهم أن يرجع الضمائر فى قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » إلى الأغنياء والفقراء جميعاً ، ويستأنس لرأيه ، بأن المال مال الله ، كما ورد فى القرآن الكريم ، والجميع خلقه سبحانه ، فهم شركاء فى ماله ، لكل منهم حق معلوم ، ونصيب مقرر ، كما ورد فى كتابه أيضاً . . فالصدقة على هذا التوجيه تطهر الأغنياء من الشح وحب المال ، ومن رذائل اجتماعية خلقية كثيرة . . وتطهر الفقراء لا من الفقر ، ولكن من الذلة وعبادة أرباب المال . . وكلا الفهمين يستند إلى كلام الله ؛ وفى كل خير وبركة . والعبرة بالعمل ؛ وفقنا الله سبحانه وتعالى إليه !

هذه خواطر رأينا تقييدها ونحن نتكلم عن المؤثرات التى تتصل بمعيشة الناس فتبلبل أفكارهم ، وتعوقهم عن المضى إلى غايتهم الربانية . . وقد رأى الداعية أن الإسلام

قد رسم له كل ما هو أساسى وضرورى ، فما عليه إلا أن ينفذ ، وأن يكون مشبوب الرغبة فى التنفيذ ، منبعثاً إليه فعلا بقوة الواجب . وخطورة المسئولية .

(ب) مؤثرات نفسية

وهى عوامل ترجع إلى غرائز الإنسان الحيوانية ، وأهمها كلها هنا ، غريزتا الجنس وحب المال ؛ وكل منهما إذا ثارت بصاحبها عصفت بعقله ، وفرقت همة قلبه ، لتعبث به كالريشة فى مهب الريح . . ولا بد لانتظام سير الإنسان ، أو لانتظام سير قلبه إلى الله ، من معالجة جموح هذه الغرائز ، وتلطيف حدتها وثورتها . . وليس معنى هذا ، محاربتها واستئصالها ، بل الغض من عنفها واصطراخ شياطينها فى القلب ، حتى تغدو مهذبة نبيلة . . ولا يكون هذا إلا بعلاج طبيعى قبل كل شىء ، علاج يمس طبيعة البدن ، ويؤثر مزاجه الحيوانى . . . وهذا بعض الأغراض الحكيمة التى شرع الله من أجلها فريضة الصيام ، ففيها هدهدة لغرائز البدن ، وكفكفة لقواها الثائرة ؛ ولقد ترى من هذا شيئاً فى قوله عليه السلام : « يامعشر الشباب ، من وجد الباءة منكم فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ؛ فمن لم يستطع ، فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء [1] » .

وداعيتنا لاهيمنة له على سرائر الناس ، فيعرف من صام ومن لم يصم ؛ فالصوم سر بين العبد وربه ، ولاسبيل لأحدأن يعرف شأن غيره إلا إذا رآه يستعلن بالإفطار ، ومعنى هذا أن كثيرا من الأفراد يتحللون من هذه الفريضة الكريمة ، وتبقى غرائزهم على ما هى عليه من العنف والتنزى ، تهدد هذا فى ماله ، أو ذاك فى عرضه ؛ وقد أعد الإسلام لهذا الاحتمال عقوبة صارمة حازمة ، تقمع لفورها شياطين الفتنة ، وتريح القلب من اصطراخها وبلبلتها ، فللسارق قطع يده ، وللزانى جلده أو رجمه حتى يموت .

وما على الداعية إزاء هذا النظام العملى لعلاج الغرائز ، إلا أن يكون حازما فى تنفيذه ، لا تأخذه شفقة فى دين الله بمجرم أو مجرمة ، حتى يستقر أمن الناس على أعراضهم وأموالهم ، وحتى تنقمع شياطين الغرائز فى قماقمها ، فيصفو الأفق حول القلب ، وينصرف إلى دار سلامه ومعين حياته .

(ح) مؤثرات اجتماعية

وهى عوامل ترجع إلى العادة والعرف فى تقدير قيمة العرض والعفة والفضيلة ، وأبرز ما فى هذا الباب ، تبرج النساء ، واستعلان الناس بما يأتون من منكر

---

(١) مأخوذة من وجأه إذا ضربه فى عنقه .

وليس من قصدنا هنا أن نحدثك بما يجرى فى الشوارع ، أو يدور فى حلقات الرقص ومجالس الخمر ، وتنشره الصحف والمجلات على أنه من آيات الرقى وسمات التحضر ؛ وإنما نريد أن نذكر أن هذه العوامل مما يقطع على القلب طريقه ، ويفسد عليه هدوءه وطمأنينته . . والنظرة سهم مسموم ، وهى بريد الشيطان إلى القلب ، والمرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان ، وما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده فتنة أضر على الرجال من النساء ؛ وهذا ما نحذر منه دائما ، لأنه الهلاك ، كما تقرر فى غير موطن

ومطلوب إلى الداعية أن يعمل بكل ما يستطيع من الوسائل ، على تطهير البيئة من كل فساد يضر بحياة القلب ؛ وقد فتح له الإسلام الباب ، فنهى عن التبرج ، وشرع لشارب الخمر عقوبته ، ثم ترك له أن يتم تطهير البيئة بما يحضره من سلطان روحى ، أو نحو ذلك مما استحدث فى العصر الحديث . . وعندنا غير التبرج : صحافة خليعة ، وملاه لإثارة أحط الغرائز ، وصور تلصق على جدران الشوارع للفتنة والإغراء ؛ فليعلم الداعية أنها من أعدى أعدائه ، وأن القضاء عليها من أهم واجباته .

وقد وفدت علينا من الغرب سخافة رقيعة ، تدعى أن المرء حر فى حياته الخاصة ، يفعل بها ما يشاء ، وليس للناس إلا أن ينقدوا أخطاءه فى صلته بالجمهور ، وخدماته العامة ... وقد قبل أهل الشهوات والمفتونون منا هذه السخافة ، وتبعهم عليها كثير من الجماهير ؛ فإذا عبت على فلان أنه يشرب الخمر أو يلعب القمار ، أو يراقص النساء ، أو ... أو .. قيل لك ، هذه أمور شخصية لا يصح لك أن تتكلم فيها ، فانقد مشاريعه ، وتصرفاته العامة ، وآرائه فى السياسة أو الأدب أو الاقتصاد ، أو نحو هذا . . فليدخل الداعية هذه السخافة فى حسابه ، فالمرء كله وحدة متماسكة ، بحياته الخاصة والعامة ، ولا صلاح لإحداهما بفساد الأخرى ؛ ومن الجحود للفضيلة ، أن تزدريها وتخذلها بقبول هذه الرذيلة السمجة . . . ولسنا مكلفين مناقشة هذه الحماقة ، وإقناع ذويها بالبرهان فليس بعد أمر الله ونهيه مجال للتردد والجدل ، فعد أمر وكفى ، وليس فى المقام إلا إنزال العقوبة الصارمة التى تردع السادر ، وتوقظ الغافل ، وتقيم الجميع على شرع الله ، فى جد واعتدال .

***

والآن . أين نحن من فصلنا هذا ؟ لقد تقرر أن واجب الداعية — بعد معرفة الغاية — ينحصر فى إحياء القلب ، وجعل طريقه إلى الله سهلا هادئا مأمونا ، لا يعتريه فيه ما يطفئه أو يخمده .. وذكرنا أن هذا يتحقق بأمرين .

١ — دوام التذكير .

٢ — إحاطة المرء ببيئة ذات أوضاع فاضلة ، تقيه هموم الأزمات الاقتصادية ، وتهذب غرائزه الحيوانية ، ويقوم العرف فيها على استهجان الرذيلة ورعاية حقوق الفضيلة .

أما التذكير فغير مستطاع فى البيئات الفاسدة ، أو قل على الأصح إنه لا جدوى له ، فالمجتمع إذا فسد ، تبلبلت فيه الآراء ، ومضى أفراده يعجب كل منهم برأيه ، يعبد هواه ، ويذهب مع ما يسمونه الحرية الشخصية إلى أبعد مدى مستطاع ، فماذا ينفع التذكير فى هذا المحيط ؟ البيئة الفاسدة تدعو إلى الإباحة والانطلاق ، فما لم يكن فى يد المذكر سلطان يأخذ به الجامحين ، فإن أمره يكون أقرب إلى العبث منه إلى أى شىء آخر ... ومن هنا يجب العمل أولا على إيجاد البيئة الفاضلة ذات الأوضاع الصالحة .

ولقد ذكرنا ما جاء به الإسلام من قواعد هذه البيئة ، فما على الداعية المصلح إلا أن يشرع فيما يريد ؛ عليه :

١ — أن يدخل فى بيئته ما يريد من المبادىء الخلقية والأوضاع العملية .

٢ — وأن يعدل ويصلح ما لا يعجبه منها .

٣ — وأن يزيل ويستأصل كل فكرة أو وضع يعارض الحق الذى ينشده .

هذا هو الترتيب الطبيعى ، وإلا فإن وعظ الواعظين وخطب المذكرين لا تمكث مع الناس إلا ريثما يخرجون من معابدهم ، حيث يطغى على العقول والقلوب سيل مما يصنع الشيطان وجنوده فى الحياة .

وجوب معالجة العقبات بالرفق

قال أحد الإخوان : هذا كلام معقول ، ولكن تحقيقه من الصعوبة بمكان ، إذ كيف يتأتى للداعية أن يتصرف فى أوضاع بيئته هذا التصرف ؟ . . إن العقبات أمامه كثيرة : فهناك العرف الذى استمرأ ما هو عليه ؛ وهناك ثقافة مغرورة مفتونة لا تعترف بدعوتك ؛ وهناك قوانين لها معك حساب عسير إذا قمت تتحداها ؛ وهناك من لهم مآرب خاصة فى حماية الأوضاع الفاسدة ، فلن يدعوك لتحرمهم حظوظهم منها . فكيف السبيل إلى ما تدعو إليه ؟ .

فقال له صاحبه : نعم ، السبيل واضحة جلية ، وإن كانت شاقة بعيدة المدى . . . السبيل أن تدعو الناس إلى ما تريد ، وتحذرهم ما هم فيه ، وتبين لهم خطأ ما هم عليه . ثم تنظر إلى العقبات ، فتسوس كل عقبة بما يفتيك به قلبك ، وبما يحضرك من أمر الله . لا تنتظر يا أخى أن أرسم لك خطة ، فليس الداعية آلة تنفذ ما يراد لها ، إنما هو قلب

حى ، وفكر يقظ ، جاءه الرسول بالمنهاج الكامل ، وأمره أن يستهدى فطرته فى تفاصيل التنفيذ ، ويستفتى قلبه فيما يعن له ، وإن أفتاه الناس ، وأفتوه . . . واعلم أنك بالغ بأمر الله ما تحب ، ما لم يعجلك شىء عن أناتك وحلمك . .

مثال لنجاح الأسلوب اللين

واعلم أن مثل الداعية القوى المؤمن ، كمثل السيل المنحدر من شواهق الجبال . . فيه منه قوة الاندفاع ، وفيه منه للناس سر الانتفاع ؛ ولكن السيل لا يعجل إلى العقبات أو الهضاب فيمزقها ويزيلها ، بل يدور حولها ويحيط بأطرافها ، ويمضى إلى ما خلفها ، ويتركها معزولة عما عداها ، ثم يعلو ماؤه ويغزر فيضه ، فيرتفع على جوانبها بالتدريج ، حتى يغطى قممها ، ويخضع لسلطانه رءوسها الشامخة . فإذا كنت لم تفهم هذا المثل ، فرسالتك قد نزلت من السماء لا من الجبل ، وسر اندفاعها وانتفاعها فى قلبك أنت ، لا فى جهة أخرى ... وأنت الذى يجب أن تسبح بدعوتك فى كل مكان فإذا صادفتك عقبة من قانون عتيد ، أو شخصية طاغية ، فلا تعرض لها بغير ما يعرض لها السيل ؛ اُدعها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا تقف عندها فذلك خرق وجهل ، بل أفعل ما يفعل السيل ؛ در حولها ، وامض فى سبيلك إلى ما وراءها ، وادع الناس إلى جانبك ، حتى تغدو منعزلة عما عداها ، ويقنعها الواقع بقوة أمر الله ، أو يغيبها أمر الله عن الأنظار . .

وسر ذلك — قطعا — إلى الطبيعة التنفيذية الموفقة ... ولا نستطيع تحليل هذا السر ، ولكنا نستطيع أن نشير إلى مظاهر نجاحه وتوفيقه فى محيط الدعوة الخارجى ؛ ونشير كذلك إلى بعض الخصائص النفسية التى تلازمه ولا تنفك عنه .

دعائم النجاح فى المحيط الخارجى

١ — الحركة

ولقد قلنا إن الطبيعة التنفيذية سر مشبوب لا مدى لقواه الهائلة . . ومن شأن هذا أن يجعل صاحبه حركة دائبة ، لا يكف عن الدعوة ، ولا يخمد عن العمل ؛ يزور هذا ويدعو ذاك ، ويتحدث إلى آخر ، ويدور على الأندية والمجالس ، ويقيم الولائم ويدعو إلى الحفلات ، ويتحدث إلى كل من يقابله . . فإذا وفدت وفود الناس فى المواسم أوغيرها ، فهى فرصة حسنة متاحة للقائهم ، وعرض دعوته عليهم . . وهو لا يقر فى مكان ،

بل لا بد له من التنقل فى المدن والقرى ، والمغايرة بين البدو والحضر ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يركن إلى دعة ، فراحته فى تعبه ، وسعادته فى دعوته .

أفتظن هذا يا أخى يكون بغير تلك العاطفة القوية ، أو بغير هذا السر الإلهى المشبوب ؟

لا يقل أحد إنى لا أملك هذه العاطفة ؛ فإن كل راغب فى الخير يمكنه أن ينهض ، وأن يتحرك ، وأن يذهب ويجيء ، حتى ينقدح زنده ، ويمور باطنه ؛ والحركة تلد الحركة ، والهمة تدفع الهمة بإذن الله . . أما دعاة المجالس الراكدة ، والكراسى الجامدة ، والكلمات التى لا تكلفهم إلا حركة اللسان ، فنسأل الله لهم حسن التوجيه ، وأن يخرجهم من إثم ما هم فيه .

٢ — الاشتغال بالدعوة فى صميم حياة الناس

ومن أول هذا النجاح أن يمعن الداعية بدعوته إلى صميم حياة الناس ، إذ ليس كل من تكلم داعية ، وليس كل من غدا وراح وذهب وجاء ناجحاً فى دعوته ؛ إن النجاح كل النجاح أن تدخل دعوتك فى صميم حياة الناس ، وأن تسكنها فى قلوبهم وأعصابهم ، أما أن تبقى على هامش الحياة فلا ؛ إن نجاحك أيها الأخ ، أن تجعل دعوتك مسألة حيوية حارة ، يتحدث بها الناس فى مجالسهم ومنازلهم ، مع أصدقائهم وأهليهم . . تأمل هذا جيداً ، فليس النجاح حفلة تقام ، أو خطبة تقال ، أو رحلة تشق فيها كثيراً من القرى والأمصار . . النجاح أن تكون الدعوة هى مسألة الساعة فى حياة الناس : يلقى الرجل أخاه فلا يحدثه إلا عنها ، ويزور الصديق صديقه فتكون أقرب المسائل إلى حديثهما ، ويسمر السامرون فيدور جدلهم حولها ، كما هو شأن الناس فيما يشغلهم من المسائل العامة كل وقت .

هذا معنى اشتغال العقول والقلوب بالدعوة ، وليس ضروريا أن يتناولها الجميع فى استحسان وإعجاب وتأييد ، وإنما المهم أن يتحدثوا عنها فى اهتمام وكفى ؛ فإذا رأيت منهم الخصوم والموالين ، هؤلاء يعارضون ويحتدون فى معارضتهم ، وهؤلاء يؤيدون ويتحمسون فى تأييدهم ، فذلك من صميم النجاح . . وقد آمنت القلة من أهل مكة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكفرت الكثرة العظمى ، ولكن الدعوة كانت هى المسألة الحاضرة فى المجتمع المكى كله ، تشغل أذهان المؤمنين وغير المؤمنين على السواء ؛ وكان الداعية الأكبر صلوات الله عليه لا يكف عن الدعوة ساعة من نهار ؛ وكان

المتحدثون لا يكفون عن الخوض فى حديثها ساخطين أو راضين ؛ وكان الأذى لا يفتأ ينصب على المؤمنين ، أذى اللسان ، واليد ، والسوط ، والنار ، والحراب ؛ وكان الإغراء يبذل بسخاء لمن يرتد منهم عن دينه : إغراء بالمال ، أو السلطان ، أو زواج الجميلات الشريفات ، أو غير ذلك ؛ وكان الآباء والأمهات يستعطفون أبناءهم ، ويتوسلون إليهم بكل وسيلة ليرجعوا عن شأنهم الجديد ؛ وكان الجدال والشقاق والخصام يدخل البيوت ، فيفرق بين القلوب ويباعد بين الأحبة . . . كان ذلك كله ، وكان هو النجاح بعينه ؛ لقد جدّ الداعية صلوات الله عليه وعمل ونصب ، حتى أدخل دعوته فى صميم الحياة ، ولم يبقها خافتة على الهامش الخامل ؛ وحسْبُ دعوة الحق نجاحا أن تنفذ إلى « لب حياة الناس — حياتهم العاطفية والعقلية — نفوذَ عداء أو نفوذ ولاء . . ولا نقول هذا ، لتقف من الآن للناس موقف العداء ، لتحملهم على معارضتك فيكون هذا آية نجاحك ، فلا بد من الحكمة والموعظة الحسنة . . لا تجعل أحداً يخاصمك لعيب فى أسلوبك الخاص ، وطريقة معاملتك ، بل دع الذين يخاصمونك يخاصمونك فى جوهر الدعوة نفسها ، فإنهم حينئذ لا يخاصمون إلا الحق ، والحق لا يبغى أكثر من الدخول فى قلوب أوليائه وأعدائه ؛ فإن هؤلاء الأعداء لا يعادونه إلا بعد أن يعرفوه ، ولا يرفضونه إلا لأنه يحرمهم جاها أو متعة استباحوها ، أو لنحو ذلك من الأهواء والاعتبارات الطارئة على الناس . . لا يرفضونه إلا لداع وقتى ، فإذا تغيرت الظروف وزالت هذه الدواعى الوقتية ، لم يبق فى القلب إلا شىء واحد ، هو الحق الساكن فى منزلة العداء ، فيتحول حينئذ فى غير كلفة إلى منزلة الولاء .

أما الجهد الذى يقف بدعوته على الهامش ، فهو جهد الأموات الهازلين أو المرائين ، ممن لا إيمان لهم بأنفسهم ودعوتهم ، وليس من المعقول أن يشتغل الناس بدعوة لا تشغل صاحبها .

أيها الأخ ، اجعل مثلك الذى تقتدى به فى التبليغ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتم بدعوتك ، وانصب لها نفسك فى محيطك ، فى قريتك أو مدينتك أو أمتك ، واقتحم بها إلى كل مجلس وناد ، وتحين لها كل فرصة سانحة ، وتخير لأحاديثها ما يلقى الناس من كوارث الطاغوت وآلامه ؛ ولا تجعل كلامك مقصوراً على الجنة والنار ، والبعث والحساب ، والقلب والبدن ، بل بث ذلك بثا فى ثنايا حديثك عن شذوذ الأوضاع ، وبلايا المطامع ، وفساد الأخلاق وضحايا الطغيان والطاغوت ؛ ولا تكف عن الكتابة والخطابة ، والحديث والسعى ، حتى تحيا دعوتك فى قلوب من يفزعهم أمرك أو يرضيهم ، ويشتغل بك الجميع فى حضورك وغيابك .

وهذا سر من أسرار الطبيعة التنفيذية ، يكون به الداعية جادا غير لاعب ، شجاعا غير خائف ، عملياً غير خيالى ، ممتزجاً بآلام الناس وآمالهم ، مغنياً لهم بالنغم الذى يفزع ويطرب ، ويرضى ويغضب ، ويقيم ويقعد ! ! . وإلا فما معنى أنه سر موكل بإنفاذ الرسالة إلى الحياة ، إذا هو لم ينفذ بها إلى قلوب الناس وصميم شئونهم .

٣ — التجميع :

وهناك أمر ثالث ، تلتفت إليه الطبيعة التنفيذية الناضجة ، ألا وهو « التجميع » : أى تجميع من يقبلون على الدعوة بالولاء والتأييد . . ولا يكون هـذا نتيجة تفكير عقلى أو اجتهاد نظرى ، إنما هو شعور من القلق ، لا يطمئن معه الداعية على هؤلاء المؤيدين أن يتفرقوا بلا نظام فى بيداء الحياة .

وليس من قصدنا أن نذهب إلى التحليل النظرى لعناصر هذا الشعور الذى يحفز الداعية إلى « التجميع » . . وليس من قصدنا كذلك أن نتحدث عن مزايا الجماعة إذا تجانست عقائدها ، وتلاقت ميولها على خدمة مبدأ معين ، ولا أن نسوق لك ماسن الإسلام لتجميع أفراد المسلمين من صنوف كثيرة من العبادات ، ولـكنا نريد أن نذكر أن كل جهد يبذل فى الدعاية دون أن يقترن بالرغبة فى التجميع ، أو دون أن يعقبه التجميع فعلا ، فهو جهد نظرى ، لا يلبث أن يزول أثره بعد حين قريب أو بعيد .

وهذا معنى نلمحه فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه . . إلى أن يقول له : وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاثة خصال أو خلال ، فأيتهن ما أجابوك ، فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكف عنهم ؛ ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين . . إلخ إلخ .

فأنت ترى أن الرسول عليه السلام يهتم بأن يدعو من يسلم إلى أن يتحول إلى دار المهاجرين « المدينة المنورة » فلماذا ؟

عليك أن تفكر ،وأن تستخرج المزايا العملية لهذا «التجميع» الذى يجمع المؤمنين ويركزهم حول قطب الدعوة الأعظم صلوات الله عليه .

ولا نريد أن يكلف الداعية فى العصر الحديث أنصار دعوته أن يتحولوا عن قراهم ومدنهم ليقيموا من حوله ، وإنما نريد أن نثبت الأفـكار حول مرامى هذا التجميع الذى كان يبغيه عليه الصلاة والسلام ؛ فإن رأى الداعية وأنصاره من أنفسهم الرغبة

فى تحقيقه فليجتمعوا ، فإنه طريق النبى عليه السلام . . . وإلا فإن سهولة المواصلات البريدية ، والبرقية ، والجوية ، والبرية ، ونحوها ، مما يحقق للدعوة هذا التجميع بانتقال الداعية إلى أعوانه حيث يقيمون ، انتقاله بشخصه ، أو بآرائه وتوجيهاته ، على أن يكون له فى كل مكان جماعة تمثل نفوذه ، وتعمل صادعة بأمره .

وكان الرسول عليه السلام ، يعذر من لم يستطع الهجرة إليه والتجمع حوله ، فكان يرسل إليهم من يقوم فيهم بالدعوة مقامه ، ويجمعهم على أمر الله .

ولقد قامت منذ قريب دعوة إصلاحية دينية ، وكانت قوية بقوة من نادوا بها ودعوا إليها ، فأين هى الآن ، وأين آثارها ؟ .

إن عهدنا بها قريب ، ولا زال الجيل الحاضر يذكر رجالها بالثناء والتعظيم ، ويُحلهم محل الإمامة والأستاذية والصدارة ، فماذا أثمرت هذه الدعوة ؟ إن رجال هذه الدعوة لم يعوزهم العلم ، ولا الجاه ، فقد كانوا فى الذروة من هذين ؛ ولكنهم لم يفطنوا إلى سر « التجميع » فلم يهتموا أن يقيموا لهم جماعات تمثلهم ، وترعى دعوتهم فى المدن والقرى .

حقاً لقد اجتمع حول هؤلاء كثير من رجال القضاء والمحاماة وكبار الموظفين والكتاب والأعيان والأغنياء ! ولكنه كان اجتماعا ، لا تجميعاً ؛ وكان فوق هذا اجتماعا يسوده معنى إعجاب التلاميذ بعبقرية أستاذهم ، لا معنى الجندية فى الجنود الناهضين بطاعة قائدهم . . . كان هؤلاء الأنصار ما بين مأخوذ بعلم الأستاذ وذكائه ، أو واقع تحت تأثير شخصيته القوية ، أو راغب فى مزايا الجاه الذى يتمتع به الإمام ، وقليل منهم من كان راغباً فى الإصلاح حقاً .

كان الدعاة مقتصرين على الجهر برغبات الإصلاح ، ولم يعملوا على تنظيم آثار هذه المجاهرة فى البلاد .

ولو كنت بصدد ذكر الأسباب المختلفة لعدم بلوغ هؤلاء الرجال العظماء إلى أكثر مما بلغوا بدعوتهم ، لقلت إنهم على فضلهم وقوة اعتصامهم بالله ذهبوا فى الدعوة مذهباً عقلياً لا وجدانياً ، فكانوا يعولون كثيراً على ثمار العقول لا القلوب ، ويعنون بتنبيه الأذهان بالدروس العلمية وللمقالات العصرية ، لا بإثارة خصائص الإيمان ؛ وكانوا يحسنون الظن بالنهضة الفكرية ، فصرفتهم عن إيقاظ الحقائق الروحية . . . وبالجملة كانت البلاد جسما هامداً فدبت الحياة على أيديهم فى رأسه فاستيقظ الذهن وهتف اللسان ، أما القلب فلم ينبض ، وأما البدن فلم ينهض ؛ ولو شئنا لقلنا إنهم لم يذهبوا

إلى كل مكان فى البلاد ، ولم يدخلوا بدعوتهم فى صميم شئون الناس على النحو الذى قررناه سابقاً ، فلم يهبط إلى قرارة المحيط طلباً لما رسب فيه من معادن القوى الشعبية ، وظلوا فوق اليم يجمعون ما يطفو لهم من جيد وردىء .

ولو شئنا لقلنا غير هذا ، ولكنا لسنا بصدد شىء منه ، وإنما نحن نقرر أن التجميع أمر لا بد منه ، فهو الخطوة العملية التى تضع فى يدك ثمرة ما بذلت من جهود فى الدعوة ؛ فإن لم يكن تجميع كنت كالصياد الذى ألقى شبكته فى الماء ثم رمى خلفها بحبالها وخلاها فى اللجة يتسرب الصيد من خلالها .

كنا نقرر هذا ونستشهد له بما ورد فى السنة المطهرة ، وبما تعرضت له دعوة هؤلاء الأئمة الأعزة بسبب انصرافهم عنه ، ففاتهم الصيد المرموق ، وظلوا قادة بلا جند ، وظل الشعب جنداً بلا قادة .

أصول التجميع

وما دمنا بصدد التجميع ، فلابد أن نذكر أن الدعوة إنما تنتصر بقلوب من يؤمنون بها ، لا بأموالهم ولا جاههم ولا قواهم البدنية ؛ فإذا أقبل عليك إنسان فلا عليك أن يكون غنياً أو فقيراً ، سيداً أو سوقة ، فحسبك أن ظفرت منه بقلب ، فالدعوة بذرة مباركة لا تينع إلا فى تربة القلوب المؤمنة ؛ وحذار أن تخدعنا المظاهر أو الألقاب العلمية وغير العلمية ! وحذار أن تفرط فى شخص ما ، مهما بدا لك أنه تافه الرأى ، شاذ السلوك ؛ فإن لكل شخص مزية ، وإن الله سبحانه أعدل من أن يخلق شخصاً ما ، دون أن يسلحه بمواهب جليلة ، والعبرة بحسن الاهتداء إلى هذه المزايا ، واستخراجها والانتفاع بها ، وقد يكون لأحد هؤلاء من المواقف ما لايبلى فيه غيره بلاءه ؛ فاشغل كل واحد ممن حولك بعمل ، وأعط كلا ماتميل إليه نفسه ، ليشعر أنها دعوته ، وأنه منها وهى منه ، واستغل كل قوة وموهبة ... وأخرى أريد أن أنص عليها : اقبل فى جماعتك كل من يعطيك من ظاهر أمره الاستعداد للعمل معك ، والاستقامة على أمر الله ، وليس لك أن ترده بحال من الأحوال ، اجتهاداً منك فى أنه مقيم على المعصية ، فإنك لم تشق عن قلبه ، ولا تحتج عليه بماضيه ، فعسى أن يكون قد أحدث توبة بينه وبين الله ؛ وكل ماعليك أن تتعهدهم من آن لآخر بالنصيحة والموعظة ، وأن تأخذهم بتنفيذ تعاليم الرسالة وتطبيقها على أنفسهم فى غير هوادة .

على أن تلاحظ فى تجميع هذه القوى والمواهب ، أو فى تأليف هذه الجماعات ، أن يسودها معنيان أساسيان :

الأول — النظام

فلابد من الرجوع إلى قانون وأمير . . أما أن يركب كل شخص رأسه ، فيعمل كل مايخطر بباله ، ويدخل فيما لايعنيه ، ويتصرف فيما ليس من اختصاصه ، فتلك هى الفوضى التى تنذر كل جمع بالشقاق والانحلال . . وخير مظهر للنظام الطاعة الدقيقة ، التى لاتردد معها ، ولاحرج فى تقبلها ... وليس من همنا هنا أن نتكلم عن مزايا الطاعة وآثارها فى نظام كل جماعة ، ولا أن نورد كل ماورد عنها فى الكتاب والسنة ، ولكننا نحب أن ننوه أن الطاعة لاتجرح العزة ، ولاتهدر الكرامة بحال من الأحوال ؛ فليحذر الناس هذا ، وليعلموا أنه من مداخل الشيطان لهدم الجماعات ، وتفريق كل شمل ملتئم .. إننا نعمل لله ، والله لاينظر فى تقدير الأعمال إلى مناصب أصحابها ، ولكن إلى صدق النية فى ابتغاء وجهه سبحانه . . وقد يتقبل الله من أهل الصف الأخير ، مالا يتقبل من أهل الصدارة والإمارة ، وإنما شرع الطاعة لتكون نظاما ينعقد به الجمع ، وتتوجه به الأعمال ، فما تحقق لنا هذا المعنى ، فهى الإمارة الرشيدة ، ولو وليها عبد حبشى ، وما لم يتحقق فهو الهدف الذى يجب أن تسعى الجماعة لتحقيقه . أقول هذا لالنستحسنه نظرياً وعقلياً ، بل لنستحسنه عاطفياً قبل كل شىء ، ونجعل أعمالنا مصدقة له محققة لثماره المباركة . . ولنذكر دائما : أن القليل المتجمع ، خير من الكثير المتفرق .. وأن الاجتماع والائتلاف على بعض الخير أو بعض الحق ، خير من الجمع الذى يتفرق أعضاؤه وكل منهم يرى أنه وحده على الحق . . فيجب أن نحقق ثمرة الطاعة أولا ، ثم ننظر بعد هذا فى شأن الإمارة ؛ فإذا كنا ننقم منها أنها لاتتمتع بحسب أونسب أو جاه أو نحوه ، استعذنا بالله ، وطرحنا هذه الأهواء جانباً ، وإذا كنا ننقم عدم الخبرة ، وسوء التصرف ، والاضطراب فى العمل ، أو الذهاب مع الأهواء الذاتية — عالجنا الأمر بالحكمة ؛ والحكمة هنا هى الحرص التام على سلامة الجماعة ، فإذا أنذر العلاج بالتصدع كان من الجريمة الاستمرار فيه .

الثانى — الإخاء الفاضل

فيجب أن يسود هذه الجماعات مايسود الأخوة الموفقين . . وأهم عناصر الإخاء : الحب . . والمساواة . . والتعاون على الخير فى السراء والضراء .

فإذا رأيت إخوة غير متحابين ، فقد دخل عليهم أمر أفسد ما بينهم ؛ وإذا رأيتهم يفاخر بعضهم بعضاً بجاهه ، ويكاثر بماله ، ويتعالى بمنصبه ، فهذا شذوذ لايجرى

عليه أمر الأخوة ؛ وإذا رأيتهم يتثاقل بعضهم عن بعض فى المعونة ، فاعلم أن أواصر القلوب متقطعة .

ونوصى هنا بخصلتين كريمتين كبيرتين :

الأولى خفض الجناح

وأعنى به انكسار الأخ فى هذه الدعوة الربانية لأخيه ، مسايرة للقول الطيب المأثور : إذا عز أخوك فهن . . ونحن إذ نوصى بهذا ، نرجو أن تتخذه كل جماعة دستوراً عملياً لها . . عملياً لا نظريا . . فإن الآفة هى انصراف النفس عن إساغة مثل هذه المبادىء الكريمة . . فلو أننا رضنا أنفسنا على إساغتها وتجرعها ، فقد انتصرنا نصراً عظيما ، وأذللنا شيطانا مريداً كان ينفخ فى الأوداج ، بما يسميه العزة والكرامة والانتصار للنفس . . ولأمر ما قال رسول الله صلى عليه وسلم : « وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما ! ما كظمها عبدٌ لله ، إلا ملأ الله جوفه إيماناً يجد حلاوته فى صدره » .

فإذا أخذنا أنفسنا فيما بيننا بسياسة الذل لإخواننا ، ولو فى حالة البغى ، رجونا أن يكون ذلك ماحقا لأسباب الفرقة والتقاطع .

وبديهى أن هذا الذل الذى نوصى به ، ليس ذل الضعيف للقوى ، ولا ذل الفقير للغنى ، ولاذل المتخلفين فى نسبهم لذوى النسب والجاه ، ولا ذل الرجل لعدوه حين ينزله حكم القهر على الاستكانة .. ليس الذى نوصى به شيئاً من هذا ، فهذا كله من الرجس الذى نبرأ إلى الله منه ومن الآخذين به ... وإنما هو ذل المؤمن للمؤمن ، والأخ لأخيه ، ومن تنتظمهم دعوة الإصلاح الإلهى فى رباط المساواة ، هؤلاء هم الذين يجب عليهم أن يتعاطوا هذا الذل فيما بينهم ، فإن لم يتعاطوه فهم آثمون ، عاملون بيد الشيطان فى هدم دينهم ، وإن زين لهم الشيطان أنهم على الجادة الواضحة المستقيمة .. فإن فساد ذات البين هى الحالقة التى تحلق الدين ، وتذهب بمعالمه . . فإذا كان لابد لأحد أن يرى حظه من العزة ، فلينظر إلى ممثلى البغى والعدوان والطاغوت : أى موقع يقعون من نفسه ، فإذا وجد بغضاً ينهضه إلى الوقوف فى وجوههم ، فذلك هو العزة الصحيحة ؛ وإذا وجد غير ذلك فليعلم أنه ذليل ، ولو انحنت أمامه رقاب وهامات .. وهذا هو المعنى الصريح لقول الله تعالى : « أذلةً على المؤمنين ، أعزّةً على الكافرين » فهو ذل الرحمة والرغبة فى استبقاء الأخ إلى جانبك ، وهو كذلك ذل يحمل معنى الاستعلاء ، ولأمر ما عداه الله بأداة العلو فقال : « أذلة على المؤمنين » ، ومضى إلى

الغاية فقال : « أعزةً على الكافرين » . أما حين ينقلب الأمر إلى عكس هذا ، فقد انقلب إلى حال من الشذوذ لا يرجى معها صلاح .

كبرا علينا وجبنا عن عدوكم   لبئست الخلتان الكبر والجبن

ولا يظن أحد أن انكسار المرء لأخيه ، قد يغرى المعتدى بالاسترسال فى بغيه أو حدته ، فليس هذا من القوانين المطردة ؛ وقد قرأنا أن أباذر رضى الله عنه هفا مرة فعير بلالا بسواده ، فسكت عنه بلال ، فندم أبو ذر ، وألقى بنفسه على الأرض ، وأقسم لا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه ، ولم يرفع رأسه حتى فعل بلال ما أقسم عليه صاحبه .

أيها الناس ، اعلموا أن الرسول عليه السلام يقول : « المؤمن كالجمل الذلول » ؛ فمن أراد منكم أن يكون رجلا عزيزاً ، فليتعلم أن يكون جملا ذلولا ، وليضع مثال أبى ذر وبلال بين عينيه ... أما الهوس والعنف ، وأما الشدة والحدة ، وأما المسارعة بالرد الغليظ ، والكلام الجافى ، فهو لا محالة شأن الحمقى الفارغين ، الذين لا تقوم بهم رسالة ، ولا يناط بهم أمل ، قد خلت رءوسهم من التمييز والنظر فى عواقب الأمور

الثانية ترك المراء

وليس من قصدى أن أسترسل فى بيان المراحل التى يمضى فيها الجدل ، حتى ينتهى إلى حقد وبغضاء ، وتدابر وتقاطع ، وإنما ندل الأخ على ربح قيم مضمون .. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنى زعيم — أى كفيل — ببيت فى وسط الجنة لمن ترك المراء وهو مُحقّ ، وبيت فى أرباضها لمن تركه وهو مبطل » . فإذا كنت ترى أن الحق معك أو عليك ، فاعلم أن الرسول عليه السلام يمد يده « بهذه الضمانة » يقول لك إن هذا البيت خير لك من استمرارك فى الجدل ؛ فلينظر المرء هل يرفض يد رسول الله ويرد عليه كفالته ؟ إن قال : نعم ، فلماذا يبقى مع السائرين تحت لواء هذا الرسول ؟ . وإن قال : لا . فليقذف بالمراء وأسبابه فى وجه الشيطان ، وليغنم ما تقدم له يد الرسول صلوات الله عليه .

المراء روح خبيث شرير ، شديد الأثر فى محق المحبة ، وهدم الجماعة ، والجماعة من لب الدين ، والفرقة من صميم الشرك ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول شىء نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان ، المراء » وليس مما يشق على نفس الإنسان أن يترك المراء ولو كان محقاً ... قد يقول قائل : إنه الرأى ، وإنه الحق تجب المناضلة عنه حتى يظهر .. ونقول : لكل رأيه ، فليعمل به لخاصة نفسه ، إن رآه حقا . . وإن

رأيك يا أخى ليس أغلى ولا أعز من الجماعة ، فإن الله تبارك وتعالى يقول : « لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم » ؛ فانظر المقابل الذى ستخسره الجماعة بتحقيق رأيك وإظهاره .. وأحب أن أقول أخرى . إن الحق الذى يختلف فيه ، هو حق قليل الضوء ، خافت النور ، لكثرة ما يلابسه من أخلاط الباطل ، ولا ضرر من إرجاء البحث فيه ، أو العدول عنه ، اكتفاء بالحق الذى لا خلاف عليه ، ولا جدال فيه ... واشتغال الناس بما ظهر لهم من الحق ، أكفل لسعادتهم وأهدى إلى سبيل ربهم .

تلك هى دعائم نجاح الداعية ، ومظاهر توفيقه فى المحيط الخارجى ، أما الخصائص النفسية التى قلنا فيما مضى : إنها تلازم سر الطبيعة التنفيذية ولا تنفك عنه ، فهى :

الصبر

فقد ابتلى رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه بعقبات ، وأوذوا وهددوا بالقتل والنفى ، وغيرهما من ألوان العذاب ، فكان العلاج الأكبر الذى عالجوا به أمرهم ، هو الصبر .

« وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُم نَصْرُنَا ، وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جَاءكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِين » .

وما نرى الله عز شأنه ، أوصى رسله بشىء أكثر مما أوصاهم بالصبر ، وليس معنى الصبر هنا الاستكانة والذلة ، والقعود عن الدعوة ، والكف عن التفكير فى معالجة من يستطيلون بالأذى على الأحرار الأبرياء ، وإنما الصبر هنا معناه :

١ — أن يهضم الداعية ما يلقى من إعراض وعناد ، وتحد ، وأذى . . . بحيث لا يشعر أن هذه العقبات غصة يشرق بها حلقه ، فإن ذلك يضايقه ، ويعجله عن حسن علاجها ، بل عليه أن يروض نفسه على هضم ذلك كله ؛ أما « النرفزة » من كل حادث لا يعجبه ، فهى بمثابة وقوف اللقمة فى الزور ، وهو مالا يستقيم عليه أمر الدعوة والداعية ، فعليه بحسن الاحتمال ، واستقبال كل شدة بالرضا والتسليم ، وحمد الله على كل حال ، وطلب المغفرة لمن يجهلون عليه ، فإنهم لا يعلمون..

٢ — أن يرتقب ما يأتى به الزمن ، فللزمن مفاجآته وفرصه التى تجىء بغير ما ينتظر ، وقد يجرى الله فى غضونه من الأحداث والتصرفات ما يهون به شأن هذه العقبات أو يزيلها ، وما على الداعية إلا أن يحذر انطفاء حماسته بطول الزمن ، بل

عليه أن يتخذ مما هضمت أعصابه مددا لثورته الباطنة وقواه الكامنة ، فلا تزيده الأيام إلا قوة على أمره .

٣ — أن يتخذ سبيله فى غير طريق هذه العقبات ، عليه أن يدور حولها ، ويمضى إلى ماخلفها .. عليه أن يمضى فى دعوته ، يدعو الناس ويجمع حوله الأنصار ، ويتألف قلوب الجماهير ، بما يبذل لهم من شتى الخدمات والمنافع والمساعدات ... أمامه مفاسد لايحميها القانون ، ولامنفعة لأحد فى استمرارها ، فعليه بعلاجها وإبعاد الناس عنها . وهناك مبادىء لاحرج عليه ولا على أتباعه إذا هم نفذوها ، وطبقوها فى حياتهم الخاصة وكانوا مثلا عملية لها ، تجلو للناس فضائلها ، وتدعوهم إلى التحلى بها ... وأنت بهذا إنما تقيم « بيئات » لدعوتك ، وتنشىء « حقول تجارب » لبعض تعاليم رسالتك ، ولايخفى مافى هذا من قوة التوجيه ، والانتفاع بما يبدو من خطأ .

عليه بهذا وبما يشبهه ، فكل جهد يبذله فى دعوة الحق ، إنما هو مدد يزيد به رصيد النصر الذى ينتظره ... فإذا قعد وكف عن العمل ، معتذرا بأن ليس هناك من يسمع نداءه ، أو بأن العقبات والظروف غير مساعدة ، فقد كف عن مدد مؤكد للنصر ... ومانقول هذا ذهابا مع عاطفة نظرية ، أو تزيينا للكلام بشىء من الاستعارة والمجاز ، بل هو الحق الذى لامرية فيه ، وهو الأمر الواقع ، والله تبارك وتعالى يقول : « أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثي » ، « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم » ... وقد نعود لبيان هذا المعنى بعد قريب ، وكل مانوصى به هنا عدم الكف عن العمل فى الميادين التى لاحرج من العمل فيها ، فإنك ياأخى بهذا ، إنما تصنع بيديك جنود نصرك .

هذه بعض معانى صبر الداعية فى سياسة العقبات ، وقد قص الله عز وجل على رسوله مثلين فيهما الكثير من التوجيه الحسن فى هذه السياسة :

أما الأول : فإن موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى ، راعته مظاهر الظلم التى ينزلها المصريون بالشعب الإسرائيلى . . . وموسى شاب يهيئه الله سبحانه للرسالة ، فهو ذو نفس حساسة ، تكره الظلم ، وتثور على مظاهره ، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها : « فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ، هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ ، فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ، قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ،

فَاغْفِرْ لِي ، فغفر لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ؛ وَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَى : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ : يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ؟ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ » .

إن الظلم جريمة يجب استئصالها بدون نزاع ، وموسى إنما كانت رسالته تخليص بنى إسرائيل مما كان يقع بهم ، فهل سلك موسى بهذا العمل سبيلا سديداً فى علاج هذا الفساد ؟ .

ماذا عاد على الإسرائيليين من قتل المصرى المعتدى ؟ هل استؤصل الظلم وامتنع الأذى ؟ .

إن المصرى قد يكون له بعض العذر فى ضرب الإسرائيلى وظلمه ، لأنه إنما يجرى فى ذلك على عادة شائعة موروثة ، وسنة مرعية ، يرعاها ويباركها فرعون مصر الأكبر ، فإذا أردنا العلاج الصحيح ، فلن يكون بعلاج الحوادث الفردية ، وإنما بتغيير العادة الشائعة ، وإبطال السنة أو القانون الذى يرعاه فرعون . . . أما قتل فرد أو عدة أفراد كما حدث من موسى عليه السلام ، فهو عمل لا يقرب من الإصلاح خطوة واحدة ، وقد نعته موسى بأنه من عمل الشيطان .

على أن علاج الفساد بعلاج حوادثه الفردية ، كثيراً ما يوقع تحت طائلة القانون ، ويغضب مقامات كبيرة لها منفعة فى استمراره على ما هو عليه ، وحينئذ يعرض الداعية نفسه لحكم القانون ولبطش الجبارين فى غير نفع يعود على الرسالة .

لا نشير بالجبن ، ولا بالاستكانة ، ولكننا نحب للداعية أن يتسع أفقه العقلى والنفسى ، فيعالج مبعث العلة وأصلها بالحكمة والروية ، وحسن النظر فى مبادىء الأمور ونهاياتها ، فذلك هو السبيل الطبيعى للعلاج ؛ أما الوثوب على الحوادث الفردية ومظاهر الفساد المتفرقة ، فشأن البسطاء الذين يذهبون مع حرارة العاطفة ، دون تقيد بالنظر فى عواقب الأمور ، وشأن من لا يدخرون أنفسهم لما هو أجل . .

هذا الخطأ يقع فيه الكثير بحسن نية ، كما وقع موسى وهو شاب يميد به عنف

الشباب ، فكانت العاقبة الحتمية أن تنبه الملأ من قوم فرعون إلى خطر هذا الشاب ، فائتمروا به ليقتلوه ، ولكن الله بالغ أمره ، وقد أعد موسى ليقوم فى الوقت المناسب برسالته الإصلاحية الخطيرة . . .

ورأى عز شأنه ، أن هذا الشاب قد نضج شبابه ، وقويت حرارة إيمانه ، ولكن تجاربه لم تكتمل بعد ، ورأى أن أخطاءه ستكثر ، كلما رأى مظهراً من مظاهر الأذى المألوفة ، ورأى سبحانه أن هذا من شأنه أن يقطع الطريق على المصلح بالقبض عليه ، أو بقتله ، فكان من تدبيره جلت حكمته أن أراد له أن ينضج على مهل ، فى بادية بعيدة ، فى رعاية نبى صالح . . فقيض له من نصحه بالخروج من المدينة ، لأن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، نخرج منها خائفاً يترقب .

هذا المثل يقصه الله عز شأنه ، ليتدبره كل داعية ، فهو بعيد الغور عميق العبرة قيم التوجيه . . فلما تم نضجه عليه السلام ، وبلغ سن النبوة عاد إلى رأس الفساد يعالجه بالقول اللين و بالبرهان المبين ، دون أن يلتفت إلى مظاهر الفساد التى كانت من قبل تخف به إلى الخطأ .

وما على الداعية فى علاج هذه العقبة الكبرى إلا أن يستمسك بعزته ، ويعتصم بربه ، ولا يفرط فى رسالته ؛ عليه أن لا يفتر عن الدعوة إليها ، وسوف يرى أن فيض الرسالة سيغرق العقبة ، كما أغرق الله فرعون فى نهاية أمره .

أما المثل الآخر — فإبراهيم عليه السلام — فإنه راغ إلى أصنام المشركين ضرباً باليمين . . . وهذا عمل طيب فى حد ذاته ، لأن صاحبه ينبعث إليه بباعث شريف ، ويقصد به غاية كريمة . . . ولكن هل ترى هذا المنهج كفيلا بقطع دابر الأصنام ، وإقناع الناس بالعدول عن عبادتها ؟

إنه عمل العاطفة الطيبة بلا نزاع ، ولكنك ترى فيه الملاحظات الآتية :

١ — أن تكسير الأصنام شبيه بالعمل الفردى ، كلاهما لا يبطل الفساد ، ولا يستأصل عبادة الأصنام ، لأن سبيل استئصالها بث العقيدة الصالحة فى القلب ، وتمكينها من قرارة النفوس بالوسائل الخالية من الاستفزاز .

٢ — أن القوم لا يبعد أن يكونوا قد صنعوا أصناماً غير التى كسرت ، وقد تكون الجديدة أبهى وأجمل من القديمة ، فعمله إذاً لم يعقب ثمرة .

٣ — أن القوم غضبوا لآلهتهم ، وعاجلوا هذا الفتى بالنار التى تحسم أمره وتريحهم منه ، لولا أن أدركه الله فى آخر لحظة ، فنجاه إلى أرض أخرى .

ونحن نلاحظ فى سيرة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد ثبت فؤاده بهذا القصص ، فلم يعجل عليه السلام بعلاج فردى ، بل قد كان يصلى فى الكعبة فى جوف الليل ، والأصنام تطل عليه بعيونها الجامدة البغيضة ، فلم يرفع إليها يداً ، ولم يحرك نحوها ساكنا ؛ ولو أنه صنع ما صنع إبراهيم بأصنام قومه لما رآه أحد ، ولكن ماذا كانت تكون العاقبة ؟ تعود الأصنام لما كانت ، بل إلى أحسن مما كانت ، ويعاجل رسول الله بالأذى كما عوجل من سبقه ؛ ولكنه صلى الله عليه وسلم علم أن سبيل العلاج شىء غير هذا ، هو الصبر والاستمرار على الدعوة ، وتجميع الأنصار ، وتعبئة القوى ، فلما أن أتى الله باليوم الموعود ، كان عليه السلام يشير إلى الصنم بقضيب فى يده قائلا : جاء الحق وزهق الباطل ؛ فينكفىء إلى وجهه إلى حيث لا رجعة ، وإنا لنعلم أن شبان الدعوة المحمدية الأولين ، كانوا كثيرا ما يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يثوروا إلى أسلحتهم ، وأن يهبوا فى وجوه أعدائهم ، فكان عليه السلام يسكن ثورتهم ، ويطلب إليهم أن ينتظروا . . . لقد كانوا يعلمون وهم فى مكة قبل أن يشرع الجهاد ، أنهم موعودون بيوم يحملون فيه السلاح للبطشة الكبرى ، كانوا يقرأون فى القرآن المكى قوله : « علمَ أنْ سيكونُ منكم مرضى وآخرونَ يضربون فى الأرضِ يبتغونَ من فضلِ اللهِ ، وآخرونَ يُقاتلونَ فى سبيلِ اللهِ » فتهفو نفوسهم إلى هذا اليوم ، ولكنه عليه السلام لم يعجل بعجلة هؤلاء الشباب ، ولم يخف لخفتهم ، بل كان يطلب إليهم أن يكفوا أيديهم عن هذا الآن ، ويكتفوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى تكتمل القوى وتنضج الثمرة ، وتطلع الأقدار بأيام الله .

ونحن نأثم أشد الإثم إذا نصحنا للداعية فى علاج العقبات بغير المنهج الذى سنه الله لرسوله ، والتزمه صلى الله عليه وسلم فى حكمة وأناة وقوة .

***

فإذا انتهى الداعية من علاج عقباته ، وخلا له الجو ، وصار سيد أمره شرع فى إقامة النظام الذى تريده دعوته ، واستقبل مرحلة لا تقل خطورة ومسئولية عن مرحلة العقبات ، وما لابسها من مشقات ، إن لم تزد عليها . على أن كل مشقة ستهون أو ستزول إذا هو التزم ما أنزل الله سبحانه من أمر ونهى ، واستهدى ما رسم له من ترغيب وترهيب . . .

والداعية فى هذه المرحلة يبنى أمة ، ويؤسس دولة على تقوى من الله ورضوان ؛ وقد ذكرنا له فيما مضى شيئا من أصول رسالته ، فعليه أن يقيسها بما لديه من أمر الله

سبحانه ونهيه ، فإذا اطمأن إليها فبها ونعمت ، وإلا استقبل أمره على بصيرة ، وشرع باسم الله فى بناء ما يريد لدعوته ، ولن يضل سبيله أبداً ما دام زمامه معتورا بيمين الله عز وجل فى كل ما يأتى أو يدع .

***

وقد تقرر فيما مضى أن هـذه الطبيعة التنفيذية هبة إلـهية للأفذاذ المسعودين ، ولـكن الإنسان يستطيع أن يحصل لنفسه حظاً كسبياً منها ، إذا هو أخذ بالتجارب الآتية ، أو بما هو خير منها إن وجدها :

أولا : الاطلاع على تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . واستخلاص سيرته كداعية ... ثم تقسيم هذه السيرة إلى مراحل فى الدعوة منظمة . . . ثم الوقوف عند كل مرحلة لدراستها ، وتفهم ما كان له عليه السـلام فيها من أسلوب خاص فى معالجة ظروفها .

وما أظن أن المقام يقتضينى أن أعرض لبيان أقسام هذه السيرة الجليلة ؛ على أننا سنذكر — إن شاء الله — فى باب مصادر الداعية فى فصل قراءة القرآن ، شيئاً عن جهاده عليه السلام .

ثانياً : جمع ما ورد فى القرآن الـكريم عن الأوامر الإلهية التى خوطب بها الرسول كداعية ، وتصنيفها وتبويبها ، ليخرج منها دستور عملى للداعية ، إذا سار عليه فقد أدرك من غبار النبيين مالم يدرك غيره .

ثالثاً : جمع ما أخذ الله على رسله وعاتبهم عليه ، كالذى سجله القرآن على موسى وإبراهيم عليهما السـلام ، وإحصـاء ما أثنى به عليهم ، والانتفاع بكل ذلك فى حرص ورغبة .

رابعاً : العمل ، والتنفيذ ، والتطبيق ، والتمرين ، والحركة ، فإن ذلك كله يقدح زنده ، ويثير رواكد نفسه .

خامساً : الأخـذ بما أوصينا به فى الروحانية الاجتماعية . . . وهو مبسوط فى مكانه سابقاً .

سادساً : وصل نفسه بالدعوة ، وكثرة التفـكير فى مشكلاتها ومسائلها ، وما يحيط بها من ظروف ، وما يعترضها من عقبـات ، والاجتهاد فى تذليلها ، فإن هذا بمثابة عملية المزج التى تخلط الدعوة بقلبه ، وتخلط قلبه بالدعوة ، ويغدو هذا القلب ميدانا موقوفاً على هواتفها ، تتصايح فيه وتتصاول ، ولا مجال فيه لغيرها من شواغل الحياة

الرخيصة .. وإذا بلغ الداعية هذه المنزلة ، فقد أدرك حظاً كبيراً مما نريد له ، إذ تصبح خواطره كلها ربانية مطهرة .

***

من بركات الطبيعة التنفيذية

وقد مضى فى تضاعيف هـذا الفصل ، بعض بركات الطبيعة التنفيذية ، ولا بأس بالإشارة إلى بعض آخر ، لعل الرغبة فى تحصيل ثماره تثير الهمة إلى أن تكون من أهل العمل والتنفيذ .

١ — اتساع فقهه فى الدعوة ، ورسوخه فيها ، وازدياد خبرته بالحياة وطبائع الناس . . . ذلك أن الطبيعة التنفيذية تنقل الداعية من حيز إلى حيز ، تنقله من حيز القواعد المتصورة إلى حيز القواعد المطبقة المنفذة ، وهو الذى يطبقها بنفسـه ، أو بإرشاده وتوجيهه ، ويرى أثرها فى الحياة .. هذا إلى أن مهمته ليست تطبيق القواعد فحسب ، بل مواجهة مطالب المجتمع — وهى كثيرة متشعبة — بما لا يخرج عن روح رسالته ... وهنا يجد كأن أصول الرسالة قد أثبتت فى ذهنه فروعاً لها ، وكأن القواعد الكلية قد ظهرت لها نتوءات بمثابة الجزئيات ، وهكذا تصبح الرسالة مرنة فى ذهنه ، وذهنه مرناً للرسالة ولمطالب الجماعة ، فيتسع أفقه الفقهى والعملى ، ويعظم تعمقه فى فهم أسرار الدعوة ، وملابسته لطبائع الناس وما يصلحهم . وهذا باب واسع نكتفى فيه بهذا القدر ، ولا شك أن الناس يدركون الفرق الهائل بين الفقه الذى محصته المسئولية وتجارب الحياة ، وبين الفقه الذى لم يكن من حظه إلا أن ينقل من سطور الكتاب ، إلى رؤوس النظريين الكسالى .

***

٢ — مقاساة الداعية لمشقات التنفيذ وتطبيق القواعد والجزئيات على نفسه يلين أعصابه ، ويطهر نفسه ، ويثير الحرارة فى قلبه ... ومعنى هذا أنه يصير ذا وجدان يقظ ، ووعى باطنى متنبه ، يتأثر بما يعرض عليه ، ويتلفت لكل ما يمر به . . . وأهم ما يهمنا هنا أن الداعية بهذه الحالة يصبح أقدر من غيره على الاتصال بروح القرآن الكريم ، على ما سيأتى فى باب مصادر الداعية إن شاء الله ، وتغدو أعصابه بهذه الليونة كأنها « موصل جيد » لكهربائية الكتاب العزيز وأسراره .

٣ — أكبر مظاهر الطبيعة التنفيذية ، إنهاض الداعية . . . والعمل قانون الله فى هذه الأرض ، وهو رسالة الإنسان فيها ، وقانون العمل ارتباطه بالأجر والثمر ،

وهو قانون لا يتلف فى الدنيا ولا فى الآخرة ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

وبدهى أننا نقصد عمل الخير العام ، لا العمل الذى تبعث إليه مطالب الجوارح ، ويؤدى ثمره إلى مخالب الأنانية .

حقاً إن هذا القانون لا يتخلف ، حتى فى العمل لهذه المآرب الذاتية ، « وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها » ولكننا نتكلم عن العمل الأصيل ، والرسالة العليا للانسان ، فليس العمل مالا وعقاراً ، وليس الأجر تسنم الذروة فى المناصب أو الشهرة ، وإنما الأجر أن تبنى لنفسك ولغيرك فى عالم الحقائق أعمالا من الباقيات الصالحات ... كنت أعود مريضاً شيخاً ، فى مرضه الأخير ، وكان قد أسرف على نفسه طوال حياته فى شبابه وشيخوخته ، وارتكب أكثر ما يرتكب آثم من ذنوب ، وكانت شخصيته محبوبة مهيبة معا فى الناس . . . وحضرته نوبة من تباريح العلة وأنا عنده ، فلما فرغ منها أو فرغت منه ، قال وهو يتنفس : إنى أنظر الآن إلى عمرى الذى مضى ؛ أنظر إلى الستين سنة ، فأجدها قد انضمرت كلها فى يوم واحد ، بل لو انضمرت فى يوم واحد لهان الأمر ... إنى أنظر فلا أجد إلا كلاما فارغا ، وأعمالا كلها لهو ولعب ، وأياما كالأوهام الهائمة ، وأنا فيها إنسان عابث تافه لا قيمة له ... لقد طالما اغترت بنفسى ، وطالما غرنى الناس فاحترمونى ، وأقبلوا على وأحبونى ، ولكنى الآن أنظر إلى نفسى ، وإلى أيامى فلا أجد شيئا ؛ فلو كان لى أن أنصح الناس لنصحتهم بالعمل الباقى ، الذى يبقى فى صحتهم وموازينهم ، يوم ينظرون إلى أنفسهم وصحفهم بمنظار الحقيقة لا بمنظار الأوهام ... ثم بكى وقال : يا ليت لى يوما واحداً أرد فيه إلى عافيتى ، لأعمل شيئاً ، بل لأبنى فيه نفسى ، وألقى الله وأنا ابن يوم واحد ، لأنى إن لقيته وليس لى شىء يوضع فى ميزان إلا العمر الطويل الذى قضيته فى لا شىء . . »

واستمر حديث الرجل فى كثير من هذا المعنى ، ولكنى أقتصر على إيراد هذا القدر ، فهو يبين أن الحياة ليست مالا ولا منفعة ذاتية ، وأنها ليست متعة يقضى منها الإنسان مأربه ، وأنها ليست طعاما وشرابا ولباساً . وأنها ليست كسلا ودعة وراحة ، وإنما هى العمل الباقى الذى تعمله لمؤازرة الحق والفضيلة والخير العام ، ترجو به وجه الله ، لا وجه نفسك والناس ، فهذا وحده هو الذى يتراءى فى أواخر أيامك ، حين تنظر بمنظار هذا الرجل النادم .

تمثل معى يا أخى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الأخير ، وهو يجر وراءه عمره جراً . . . ماذا كان يرى عليه السلام فى هذا العمر ؟ إنه كان يرى أياما بل ساعات بل دقائق ، تكدست فيها الحقائق وأعمال الجهاد الشاق الطويل . لا يرى فيها دقيقة فارغة بلهو أو لعب ... حتى أيام جاهليته عصمها الله من الشرك والأوزار ، وكانت كلها تنفح بريح النفس الزكية الطيبة ، إذ كان يقرى الضيف ، ويحمل الكل ، ويصدق الحديث ، ويعين على نوائب الحق ، فهو عمر بأعمار ، وحياة لو وزنت بأجيال البشرية كلها لرجحتها .

فانظر يارعاك الله إلى فضل الطبيعة التنفيذية ، حين تبعث صاحبها إلى العمل ليبنى نفسه — ومن جاهد فإنما يجاهد فى الحقيقة لنفسه — فيلقى ربه حين يلقاه بأيام حافلة ، وأعمال ضخمة ، وهيكل إنسانى ، أثقل فى ميزان الله من جبال الدنيا ؛ فتعساً لأولئك السخفاء التافهين ، الذين يلقى أحدهم ربه وهو هامة فارغة ، تتزايل كالأوهام حين ينظر إليها فى عالم الحقائق .

إن كلامنا إنما يكتب تاريخه بنفسه ، وما الأعمال التى نعملها إلا سطور هذا التاريخ ... فجلسات المقاهى ، والأندية الفارغة ، والأحاديث التافهة ، والأيام اللاهية ، والحركات الغافلة ؛ كل هذا نقش على الماء ، أو نقر فى الهواء ، ويبقى بعد ذلك مسئوليتك الخطيرة ، عن عمرك فيم قضيته ، وشبابك فيم أبليته ! ؟

لا أدرى متى يصحو الناس ، ومتى يفيقون من هذه الغفلة الغليظة الكثيفة ؟

إن قانون الله العمل ... فمن أخذ به فقد وضع الله فى يده مفاتيح الدنيا وسر إدارتها ، ومن تركه وعاش فى بطنه وشهوته وغروره ، فهو خارج عن سنة الله ، وهو أشبه بالطفيليات والحشرات المؤذية التى تضايق الأجسام الحية والبيوت العامرة .

وإن قانون العمل الثمر وليس الثمر كما قلنا مالا ولا عقاراً ، وإنما هو ازدهار للفضيلة وقوة للحق ، وتمكين لمعانى المساواة والإيثار والبر العام ، فهذا هو الثمر الحق ، يثمره العمل الحق ؛ ولا عمل بلا ثمر ، بل إن العمل ليحمل فى تضاعيفه سر الثمر الذى لاريب فيه ، فمن غابت عن عينه ثمار عمله ، فليعلم أن لحصد الزرع وقتاً لايعلمه إلا الله ؛ وهو على كل حال لن يخرج من هذه الدنيا إلا بعد أن يكشف له الله عما عمل ، ويريه ثمر ما عمل .

فأولئك الذين يطمعون فى الأجر بلا عمل ، قوم عجيب شأنهم ، فهم إنما يأملون نتيجة بلا مقدمة ، ويبغون أن يبنوا نفوسهم بلا لبنات ، ويكتبوا تاريخهم بلا كلمات ؟

وهذا لا يجوز إلا فى دنيا من الأوهام ، لا فى حياة من الحقائق ، نحاسب على دقائقها وجلائلها ، لا يفلت ميزانها ذرة من ذراتها .

كثير من الناس يريدون النجاح ، ويحبون أن ينتصر الحق ، ولكن السبل تعمى على أحدهم ، فيجد نفسه مفكراً ماذا أعمل ؟ .. فليعلم هؤلاء أن كل كلمة عمل ، وكل خطوة عمل ، وكل حركة عمل ، وكل إشارة عمل ، والحركة تلد الحركة ، والعمل يفجر آفاق العمل ؛ فما عليه ، إلا أن ينهض وأن يتحرك ، وأن يغدو ، وأن يروح ، وأن يهتم ، وأن لا يركن إلى سابق كسله ومجالسه التافهة .. قانون الله العمل ، وهذا يصدق على أصغر كلمة ، وأقل حركة : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » . والعبرة أن يكون كل ذلك مقصوداً به وجه الله ، مراداً به خدمة الحق ، ولن تظل سبل العمل معماة أبداً ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

وأخيراً أيها الدعاة ، إن الذى تنهضه طبيعته التنفيذية إلى العمل ، فإنما تضع فى يده باسم الله مفاتيح الدنيا ، وسر إدارتها ، مفاتيح كنوزها وقصورها ، وخزائنها وممالكها ، فلينظر أحدكم أى أمانة ألقيت بين يديه ... بهذه المفاتيح — مفاتيح العمل — مَلك الداعيةُ الأكبر صلوات الله عليه ما ملك ، وملك الدعاة من بعده ما ملكوا ، فانظروا ماذا تأخذون من هذه المفاتيح وماذا تدعون .. وماذا تفتحون من هذه الدنيا وماذا تهملون ... ألا ما أزهد الناس فى الخير الذى بين أيديهم ، وأبعدهم عن النصر وهو قريب منهم ، وأجهلهم بحقائق أنفسهم وهى سافرة لهم .. العمل — أيها الناس — سر النصر ، وقانون العزة ، وسبيل السعادة والسيادة .. ألا ليت الناس يفهمون ! .

***

٤ — نور من البشاشة يسطع فى آفاق الداعية ، فلا يشعر معه بيأس أو خيبة رجاء .

قل إن هذا البشر هو الثقة ، أو هو الأمل المتجدد ، أو هو حقيقة الرجاء ، ولكنه على كل حال من أسرار الطبيعة التنفيذية وهباتها الكريمة الغالية .

ولا أحب أن أدخل بك فى معنى الأمل ، أو بيان حقيقة الرجاء ، ولكنى أريد

أن أقول : إن الطبيعة التنفيذية تملأ قلب الداعية بشعور هنىء سعيد ، كله يقين بأنه فى الميدان المخصب لامحالة .. شعور الزارع المطمئن إلى جودة بذوره وسلامتها ، وإلى خصوبة أرضه وقوتها ، وإلى ملاءمة الجو وطبيعة الهواء .

فانظر ماذا تسمى شعور هذا الزارع ؟

هل تسميه أملا ؟ انه شىء فوق الأمل ؛ لأن الأمل قد لا يتحقق ، ولأن الأمل فيه شىء من خداع الأمانى وشطط الخيال ، ولأن الأمل يفترض حسن الظن بالظروف وسوء الظن بها ، ولأن الأمل يرمى بأنظار صاحبه إلى توقع الثمر فى المستقبل فقط ، ولـكنه لايتوقع ذلك فى الحال .

أما شعور هذا الزارع فهو فى الحقيقة يقين لايتطرق إليه شك ؛ فالبذرة سليمة ، والتربة جيدة ، وطبيعة الجو ملائمة مأمونة الآفات لامحالة ... هذا الزارع هو الداعية الحق . وهذه البذور هى الدعوة التى يلقيها فى الناس ، وهـذه التربة هى فطرة الله فى الناس ، إذا بلغت البـذرة أعماقها حضنتها وتفاعلت بالخير معها . وملاءمة الجو ، هى رعاية الله سبحانه ، وكفى بالله راعياً وكفيلا .

لقد قلنا فى صدر هذا الفصل : إن أوضح مظاهر فقه الداعية أن يدرك أن الرسالة حق ، وأن ما عداها باطل ... وأن يميز الفرق بين الحق والباطل ، كما يميز أحدنا الفرق بين صور الأوهام التى تتراءى لنـــا فى أضغاث الأحلام ، وبين ما نراه فى عالم اليقظة والمشاهدة .

فالداعية فى ميدان الدعوة ، يثق ويوقن إيقانا عميقاً بأن ما معه هو الشىء الوحيد المثمر ، وأن ما عداه لا ثمر له لأنه وهم لا وجود له ... ولك أن توازن بين شعور زارع يبذر بذورا سليمة ، وآخر يبذر بذوراً عفنة وهو يدرك أنها عفنة ... بل لك أن توزن بين هذين ، أحدهما يبـذر البذور السليمة ، والآخر ليس فى يده شىء ، إلا أنه يقبض قبضته ثم يبسطها فى الجو ، لينثر على الأرض لا شىء ، محاكيا فعل الرجل الأول ... فأى العملين حق ، وأيهما باطل ؟

لا تظن يا أخى أننا نفترض فروضا جدلية أو وهمية ، بل إننا نجلى لك وجه الحقيقة ونحن ندرك مع هذا أننا لم نبلغ من التعبير كل ما نريد ، لأن هذا فوق طاقتنا .

فالداعية يرى أن ما معه حق لا محالة ، وأن ما عداه فهو صور الأوهام التى تتراءى للناس فى أضغاث الأحلام ... وأن هذا الذى معه هو البذر ... لا أقول هو البذر الذى سيثمر لا محالة ، بل أقول هو البذر وهو الثمر فى الوقت نفسه ، أى هو البذر ذو الثمر

الحاضر ؛ ولا نحب أن ندخل بالناس فيما قد لا يفهم ، فنكتفى بإحالة القارىء العزيز إلى ما يحكيه الله عن سحرة فرعون فإنهم ما كادوا يرون الحق الذى ألقاه موسى حتى وقعوا ساجدين مؤمنين ... فهل تراهم تقبلوا الحق ثم حضنوا بذره فى فطرتهم ، ثم أخذت البذور تخضر ، وتكبر وتطول حتى أثمرت سجوداً وإيمانا ؟ أم أن الثمرة كانت حاضرة فى البذرة على مايقصه الله تعالى : « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُون » (١) « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ... وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون (٢) ؛ هذا المعنى العالى هو الذى نعنيه ، وهذا الفقه العميق هو الذى نسميه شعورا متمكنا من قلب الداعية ، لا يحس معه بيأس ولا خيبة رجاء ، بل هو نور اليقين الذى يرى من ثمر البذور ما لا يراه أقوى المبصرين . .

كنت أركب سيارة من سيارات الأوتوبيس الريفية مع الداعية المشار إليها بالبنان رضى الله عنه ... ووقفت بنا السيارة عند إحدى نقط المرور ، وأخذ الجندى يعد الراكبين ، ويؤدى واجبه المعتاد نحو كل سيارة ؛ وإذا برجل كان يجلس مع الجندى يقبل على فضيلته ويسلم عليه ويقبل يده ، ويدور بينهما الحديث القصير الآتى :

مش فضيلتك فلان ؟

نعم ، وأنت من ؟

قال أنا فلان من مواليد هذه القرية وأهلى بها .

قال فضيلته : ومن أين تعرفنى ؟

قال رأيتك فى شعبة الإخوان المسلمين بامبابه تخطب ... وأنا عامل أطلب العيش هناك ، وأتردد أحيانا على الشعبة . وأنا هنا الأن فى زيارة قصيرة لأهلى .

وهنا كان جندى المرور قد أتم إجراءاته العادية واستأنفت السيارة سيرها فالتفت إلىّ فضيلته وقال :

لقد تألفت فى هذه القرية شعبة ... فعجبت وقلت : هل أفضى لك هذا الرجل بشىء لم أسمعه عن هذه الشعبة ؟

قال : لا ... ولكن هذا كلام فى الله لن يضيعه ... سيجلس الرجل مع من كان معهم الآن ، فيقولون له : من هذا الذى سلمت عليه ؟ فيقول لهم : إنه فلان ، فيقولون

(١) سورة الشعراء (٢) سورة الأعراف

له : وما شأن فلان هذا ؟ فيقول : إنه يدعو إلى كذا وكذا ، ويقول فى دعوته كيت وكيت . قال فضيلته : وهذا كلام حق ، أو بذرة طيبة صالحة ألقيت فى أرض طيبة صالحة ، عودنا الله أن تؤتى أكلها طيبا صالحا .

وإنى أدعك أيها الأخ تتأمل هذا الحديث القصير ، وتتأمل كيف استخرج منه هذا الداعية الفقيه حقائقه الصحيحة الجميلة . . . ثم أسألك بعد هذا : أى شعور كان يملأ قلب هذا الداعية حين رأى فى تلك الكلمة القصيرة كل هذه المعانى الجميلة .

إنه شعور الثقة بالأجر المعجل ، والثمر الحاضر ، شعور اليقين الذى يدرك حقيقة الحق ، وأثره فى هذه الحياة ؛ وإذا كان هذا شعوره تلقاء كلمة صغيرة من كلمات الحق ، فكيف يكون شعوره تلقاء كلام عظيم كثير ؟ .

لا تقل إن شعوره تبعاً لذلك يقوى ويعظم لأن الحق هو الحق ، لا يقوى ولا يضعف بكثرة الكلام أو قلته ، فالحق فى الكلمة الواحدة لا يقل جلالة عن الحق فى الكلام المتوارد الكثير .

ومن هنا ترى الداعية الحق ؛ يفطن لقيمة كل كلمة يلقيها فى دعوته ، كما يفطن لجلال كل كلمة تمر به من كلمات الحق ، فتراه يطرب لما لا يطرب له غيره ، ويستبشر به ، ويتسهل له ، ويرى فيه من الخير مالا يراه الحاضرون . . . لا تقل إنه الأمل ، فهو أمر فوق الأمل وغير الأمل ، وسمه ما شئت إن كنت لا ترضى أن تنعته بأنه نور اليقين والثقة ، وشعور الاطمئنان والبشاشة ، بالثمر الحاضر والأجر المعجل ، أترى هؤلاء يتطرق إليهم يأس ، أو قنوط ، أو سأم ؟ أم هو الفرح المتجدد بفضل الله ، والهمة التى يرد عليها كل آن من قوة الحق مدد وأمداد ؟ .

واعلم أن ثقة الداعية فى الناس وحسن استعداد فطرتهم ، لا تقل عن ثقته فيما لديه من الرسالة . . . ولهذ تراه يدعو الصغير والكبير ، والغنى والفقير ، والسوقة والأمير ، يدعوهم وهو يرجو الخير فى فطر الجميع ولا يتوقع الإعراض والصدور أبداً عند أحد .

هل يسىء الزارع ظنه بأرضه الخصبة التى قامت كل الشواهد على سلامتها وقوتها ؟

إذا فكيف يسوء ظن الداعية بفطر الناس التى فطرهم الله عليها ؟ إن الفطرة حق ، وهى من أمر الله ، فإذا أعرض بعض الناس عن الحق ، فإن الفطرة لم تعرض ، ولكن أهواء من الباطل وأغطية من الشهوات حالت بين الدعوة والفطرة . ألا تسمع

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ! وهل أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون ، إلا وهو يعلم أن هذا الجبار العنيد ، يحمل فى أطواء نفسه فطرة مستعدة للخير ؟ ولهذا قال سبحانه : « لعله يذكرُ أو يخشى » .

فالداعية الفقيه يستقبل الناس جميعاً ، وهم لديه فى حسن الاستعداد سواء ، وكله رجاء بل يقين فى أن يجد من الجميع أعوانا له على الخير الذى يدعو إليه ؛ فإذا أعرض عنه إنسان ، أو رده بسوء ، فإنه لا يتوقع الشر من الآخرين أبدا ، إذ هو يدرك أنهم ينطوون على فطرة الحق ، والحق مبعث الأمل والرجاء بل مبعث الثقة واليقين . . ولهذا تراه يستقبل الآخرين برجاء جديد ويقين حديد ، كأن له فى كل فطرة وفى كل وجه هاتف يهتف به : هنا النصير ، فلا يفوتنك هذا النصير ! ولعل من خير ما نوضح به هذا المعنى ، ما كان منه عليه السلام فى العام الحادى عشر لبعثته .

خرج عليه السلام هذا العام ، إلى وفود العرب وقد حضرت إلى مكة فى موسم الحج . . خرج إلى الوفود ، والقبائل ، والبطون ، والعشائر وهم شىء كثير ، قد ضربوا خيامهم ، فوق الآكام ، أو انتشروا بها على وجوه القيعان .

خرج إليهم عليه السلام فى العام الحادى عشر يدعوهم إلى الله ، وقد جاوز الحادية والخمسين من عمره ، فأخذ يجوس خلال الديار ، ويمشى بين الخيام ويتنقل بين المضارب يوماً وآخر طيلة أيام الموسم ، يقضى نهاره سائرا فوق رمال الصحراء الثقيلة ، أو حزونها وحجارتها المتعبة ، يغشى مجالس القوم ، ويرتاد منتدياتهم ، ويعرض نفسه على شتى القبائل ومختلف العشائر . يأخذ منهم ويعطيهم ، ويناقشهم ويناقشونه ، ثم يردونه أخيراً رداً جميلا أو غير جميل ، ويعود فى آخر يومه ويده صفر .

وها هو ذا الموسم أو شك أن ينفض جمعه ، وأن يرحل أهله ، ولم يظفر رسول الله منه بشىء . . . وها نحن أولاء فى أحد أيامه الأخيرة ، وقد أخذ الجميع يستعدون للرحيل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل على شأنه ، لا يثنيه إعراض الناس ، ولا يوئسه انقضاء الموسم بلا نتيجة ، بل يستقبل كل يوم ببشر جديد ، ويستقبل كل وجه بشعور جديد . . . فى هذا اليوم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من طوافه بين مضارب الخيام ومجالس العشائر ، وقد أنهكه تعب الأيام السابقة ، وهو رجل قد نيف على الخمسين ، وأثقلته السنون . . . وبينما هو عائد رأى من البعد نفراً ستة من أهل يثرب لم تبلغهم دعوته بعد .

لو أن أحدنا فى هذا المقام لسخط على يومه ، ونفض يده من الناس ، ولهتفت به هواتف الضعف ، تؤنسه من هؤلاء الستة ، كما يئس من جماهير الموسم وجموعه .

ولو أن أحدنا فى هذا المقام ، وهو يجر جسمه الثقيل فى سن الخمسين ، عقب طواف نهار طويل ، للوى وجهه عن هؤلاء الستة ليسرع إلى بيته ، حيث يريح هذا الجسم المهدود المكدود .

لقد كان هؤلاء الستة يصلحون من شأنهم ، ويحلقون رءوسهم ، فلو أن أحدنا فى هذا المقام ، لانطلق فى إعراضه قائلا : وماذا أجد عند هؤلاء الذين يحلقون رءوسهم من الإنصات لكلامى . . إنه لم ينصت إلى الفارغون ، فهل ينصت الذين يحلقون ؟ . . بل لو أن أحدنا فى هـذا المقام لاستنكف أن يغشى بدعوته مجالس الحلاقين أو ماشبه الحلاقين .

أيها الأخ ، قف ! فقد وقف مولانا سيد الدعاة . . ، لقد يمم وجهه نحو هؤلاء النفر الستة . . . ها هو ذا يخطو فى وقار السن ، وجلال النبوة ، وبشر اليقين ، حتى يقف على النفر الستة .

تبارك الله رب العالمين ! ! لقد كان هؤلاء النفر ، هم أهل العقبة الأولى ، ونواة الأنصار بالمدينة ، ومفتاح العهد الجديد ، الذى استقبله الإسلام ، بعد الهجرة الكبرى !

ولا يسعنى إلا أن أترك لك أن تتأمل هذا المثل ، وبعد مراميه وعمق معانيه .

ولا تحسبن العبرة فى هذا المثل ، أن رسول الله وجد من هؤلاء النفر مطاوعة لأمره ، بل الشاهد هنا ، هو هذا الشعور القوى ، الذى يلازم صاحبه حين تبعثه النهضة إلى العمل ، وحين يظن به اليأس والملل . . . وليس ضروريا بعد هذا أن يكون قد آمن به نفر أو أقل ، أو لم يؤمن به أحد . .

إن هذا الشعور صادق حق لا محالة ، آمن الناس بالداعية أو لم يؤمنوا . . فإن استجابة الناس شىء ، وصدقة فى نفس صاحبه شىء آخر ، فليس إيمانهم دليل صدقة ، كما أن إعراضهم ليس دليل على كذبه .

ولقد عرضنا حديث الداعية المشار إليه بالبنان ، والشعبة التى تحدث عنها لم تؤلف بعد ، أفتظن هـذا يغير من حقيقة ماقيل مثقال ذرة ؟ أو ينال من صدق هذا الشعور شيئاً ؟

إن معك قرشاً ، فإن شئت جعلت هذا القرش رغيفاً فاشتريت به رغيفاً ، وإن شئت جعلته ثوبا ، وإن شئت جعلته سلاحا ؛ أى أن هذا القرش ، يحمل من قوة

الشراء ما يصيره فى يدك ، رغيفاً ، أو ثوباً ، أو سلاحاً ؛ فإذا لم تجد فى السوق رغيفاً أو سلاحاً ، فالقرش محتفظ بقيمته ، حتى يظهر الرغيف أو الثوب أو السلاح .

وكذلك شأن الحق ، فهو « عملة » هذا الوجود التى تقوم عليها سننه وينتظم بها أمره ، وكل من يقتنى هذه « العملة » فهو غنى قادر ، يلازمه شعور الأغنياء القادرين . . . وكل من يقتنى « عملة » غيرها ، فهو مفلس مزيف ، يلازمه شعور المفلسين المزيفين ؛ وهذا الشعور الذى يبث اليقين والثقة فى نفس صاحبه بأن حياته مليئة بالجد ، والحق ، والكرامة ، هو الذى يعنينا من هذا كله ، لأنه يشعر صاحبه بمعنيين عظيمين :

الأول : أنه لا يعمل عملا إلا وهو يدرك أن ثمره حاضر حضور الرغيف فى جوف القرش ، وهذا يجعل حياة المرء حافلة بجلائل الأعمال ، أو حافلة بأنواع الثروة والغنى ، فلا يتصور معه قعود عن عمل ، أو زهد فى قول ، أو إعراض عن حركة ، أو خطوة متى كانت فى الحق ؛ لا يتصور هذا أبداً ، إلا إذا تصورت رجلا يلازمه الشعور بحب المال وعدم حبه فى الوقت نفسه . . . إن الشعور بقيمة الحق ، كالشعور بقيمة النقد ، ولكن الساعى فى الحق ، ليس كالساعى فى المال ؛ لأن صاحب المال قد ينجح سعيه ،وقد لاينجح ، أما صاحب الحق فنجاحه منوط بصدق نيته ، فإذا صدق النية ، كان عمله هو نفس النجاح ، لأنه هو نفس الثروة . . . إن القلب هو الدار التى تضرب فيها هذه الثروة ، فكل كلة منها ، وكل عمل عليه طابع القلب ، فهو « عملة » حق وثروة صدق لاقيمة لغيرها فى هذا الوجود .

والداعية الممتاز هو الذى يشعر بقيمة الحق ، ويشعر بشدة افتقاره إليه ، بل بشدة افتقار الناس جميعا إليه ، فهو يعمل لتحصيله ، ويعمل لتأييده وتثبيته ، وهو فى أثناء عمله ، يلازمه الشعور بتدفق الثروة بين يديه . . فانظر يا أخى هل ييأس مثل هذا ؟ أم هو العزمة السعيدة المجددة ؟

الثانى : أنه يسمو بمعنوية صاحبه وبكرامته ومقومات رجولته ، ولا نقول كما يسمو القرش بمعنوية حامله ، لأن النسبة بين طرفى التشبيه شاسعة الآماد ، وإن كان كل منهما يماثل الآخر فى الاستمداد من العملة التى يحملها . وإذا كان الحق يصنع الرجال ، ويصوغ الأبطال ، فهذا السمو بمعنوياتهم ، هو سر الصناعة وجوهر الصياغة ؛ وماظنك برجال ينظرون إلى الناس وهم يتعاطون الباطل ويتعاملون به فيما بينهم ؟ . . إنهم ينظرون إليهم كما ينظر أحدنا إلى أطفاله ، وهم يصطنعون فيما بينهم عملة من الصفيح

أو الحزف أو الورق الملون . . وما أظن موقفا يبرز للرجل حقيقة نضجه ، وامتياز رجولته ، كهذا الموقف الذى يقفه على هؤلاء الأطفال .

***

٥ — إن الطبيعة التنفيذية إذا دفعت بالداعية إلى ميدان الدعوة وغمرته فى محيطها ، نشأت بينه وبين مختلف الطوائف معاملات متباينة ، وصلات متعددة ، منها ماهو سار ، ومنها ماهو غير ذلك .

فالناس منهم المؤيدون ، ومنهم المخالفون ، ثم منهم المعارضون المعاندون ، ثم منهم المعادون الذين ينحرفون فى عدائهم إلى الأذى والاعتداء . . . وهو مضطر حيال ذلك إلى أن يسلك مع كل طائفة سياسة خاصة ، إلى جانب مايعانيه من مشقات الجهاد وسياسة العقبات ... وكثيراً مايبيت الداعية ليله مهموماً مفكراً يميد قلبه بتفاعلات ماحدث له ، بل كثيراً مايسبب ذلك أزمات تثقل كاهله ، وتسحق همته ، وتتركه أعجز مايكون ، يسىء الظنون بحوله وقوته ، فليس فى الوجود ماهو أعجز منه ، ولا أضعف منه ، ولا أفقر منه إلى حول الله العلى القدير .

هذه الأزمات القاسية التى تجرد الداعية من حوله وقوته ، وتسحق فيه كل شعور بمزية شخصية ، وتدعه حطاماً لاسر فيه ، إلا أن يتداركه الله بفضله ، هى أزمات مباركة ، تصهر قلب الداعية بحرارتها المباركة ، فإذا انصهر تخلص مما فيه من شوائب الغفلة والسهو ، وصار صاحبه أشد مايكون إحساساً بضعفه وعجزه ، وأصدق ما يكون افتقاراً إلى عون الله وقوته ، وأقوى مايكون انبعاثاً وفراراً إلى حمى الله عز وجل ؛ فإذا دعا الله حينئذ كانت دعوته من الأعماق ، تهتف بها معه كل جوارجه ، وينطق بها وإياه كل كيانه ، فتصعد ناصعة قوية ، تتنحى لها الحجب حتى تخر أمام عرش الله عاجزة ساجدة . تسأله الغوث والمعونة والنصر . . وإن الله سبحانه لأشد ما يكون استجابة ، حين يكون عبده منصهراً فى هذه البوتقة المباركة ، يخاطبه بلسان العجز المحض ، وشعور الهوان المصفى .

هذه الحالة ، مباركة الجوانب ، كثيرة النفع والخير ، فهى تنفى عن صاحبها ماعساه أن يكون قد دخله أثناء غفلته أو سهوته ، من أنه مجاهد ذو عمل وأثر ، أو ذو موهبة وبلاء ، أو ذو حول وطول ... فإن بذور الطغيان إذا نمت فى النفس وشاعت معانيها فى القلب ، أثمرت اكتفاء المرء بنفسه عن الله سبحانه ، وهذا مركب الطغيان ؛ وهو من معانى التصوف العالى ، المأخوذة من قول الله سبحانه : « كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ

لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » ؛ أى أن الإنسان إذا رأى نفسه استغنى بعلم أو موهبة ، أو جاه ومنصب ، أو مال وقوة ، أو نحو ذلك ، ركبه الطغيان ، أو ركب الطغيان إلى ما شاء له شيطانه ؛ ومن هنا كان عليه السلام يبرأ إلى الله من حوله وقوته ويقول : « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا ما هو أقصر من ذلك » ... هذه الحالة العالية المطهرة ، لابد منها لترحض عن الداعية ما قد يلحقه من الأذى ، ولترده دائما إلى معرفة حقيقة نفسه ، وهوان قدره ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه .

ومن بركاتها أن الإنسان حين يدعو الله من بوتقة الضعف ، ويخاطبه بشعور العاجز المقهور ، يقبل الله عليه ، بما لا يدور فى حسبانه من النصر . اقرأ معى ما يحكيه الله عن نوح عليه السلام فى إحدى هذه الأزمات الوجدانية المنصهرة « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ » ، فأنت ترى فى قوله عليه السلام : « أنى مغلوب » شعور الرجل المنهار ، الذى فرغت نفسه من كل حول وقوة ، ففزع إلى الله سبحانه فى صدق ، أن ينتصر له من أعدائه المستكبرين . . فتكون الإجابة بما ليس فى الحسبان « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ » .

أيها الداعية ، إن دعوة الضعيف الذى يقبل على الله بشعور القهر والغلبة تفتح أبواب السماء ، وتفجر ينابيع الأرض ، بأسباب النصر وجنده ، فهل نتعلم كيف نسخر جنود السموات والأرض بإذن الله لنصر الله ! وهل ندرك سر قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما تنصرون بضعفائكم » .

وهذا رسول الله ، يظله عام الحزن بفقد نصيريه الكبيرين فى الدعوة : زوجه خديجة وعمه أبى طالب ، ويشعر بوحشة لفقدهما ، وخلو ظهره من سندهما ، فيخرج إلى الطائف ، وهى بعيدة عن مكة ، لعله يجد من أهلها ظهيراً لدعوته ، فيردونه أشنع رد ، ويغرون به سفهاءهم ، فيبكى قلبه ، ويحس بوحشة الانقطاع ، ويحضره شعور الضعف والانكسار والهوان ، فينبض قلبه ، وينطق لسانه ، ويرسلها إلى الله أنفاساً حارة : « اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى قريب يتجهمنى ؟ أو عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ! »

ولست بصدد أن أقف بك على قوله عليه السلام : « أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس » ، ولا قوله « أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى » ؛

ولكني أترك لك أن تقف وأن تتأمل عمق العاطفة ، وصريح اليقين ، حين تمحضه الأزمات ، وترى بأى شعور يجب أن نقبل على الله ... أترك إليك هذا لأمضى فيما أنا بسبيله فأقول : إن الله استجاب لأنات هذا القلب ، بما لا يدور فى حسبان أحد ، فقد جلس عليه السلام من جوف هذا الليل ، جلسة أشرف سكان الملأ الأعلى على روعتها ، وأنصت لها الجن من سكان هذه الأرض ، وهو يرتل القرآن بأعذب صوت ردد هذا اللحن القدسى الخالد ؛ وكانت ترانيم أنغامه عليه السـلام تحمل إلى جنبات الوجود ، وأعماق الكون ، خشوع العبودية ، وسر الألوهية ، مجتمعين فى نغمات أطهر قلب عرف الله فى هذه الأرض ؛ وإذا بالجن تلبى النداء ، ويأتيه النصر من حيث لا يحتسب .

فمن الأعمال ما هو حى لأن الروح تسكنه ، ومنها ما هو ميت . لأنه ولد بلا روح . لا يحتسب ، وتنزل البشرى بقوله سبحانه: « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا : أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ، مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِىَ اللهِ ، وَآمِنُوا بِهِ ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » .

ونحن نوصى الداعية ، أن يغمر نفسه فى محيط الدعوة ، ويكثر من أسباب هذه الأزمات ، استصفاء لقلبه ، ولصوقاً بربه ، فإن الله سبحانه لا يسمع إلا لمن يدعوه من خلال هذه القلوب .

٦ — وهذه سادسة من أمر الله سبحانه ، فأرجو أن يشرح لها صدرك ، وأن يؤنس بها فقهك ، وأن يقبل بك على تثمير أسرارها . . يقول أحدنا فى حياته اليومية لعمل من الأعمال : هذا عمل ميت لا روح فيه ، ويقول لعمل آخر : هذا عمل قوى حى ؛ وهو بهذا يقصد أن العمل الأول منبعث عن قلب راكد لا حياة فيه ولا إيمان ، ولولا ذلك لبعث فى هذا العمل قوة ، ولنفخ فيه من روحه ، ونسمع فى محيط أهل الورع والتقى مثل قولهم : هذه صلاة ميتة أو ولدت ميتة ، أما إذا استحضر لها قلبه ، فأتم خشوعها ، وأقام ركوعها وسجودها ، وأودع كلماتها من نبضات قلبه ، فهى صلاة حية ، تصعد إلى الله تعالى ، وعليها حلل القبول .

وهذا كلام حق لا مجاز فيه ولا كناية ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر ، والروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

وإذا كنا لا نشاهد هذه الأعمال الحية أو الميتة ، فهو ليس حجة على أنها غير موجودة . . فإن فى هذا الكون من الكائنات والعجائب ما لا نستطيع رؤيته أو لمسه ، أو سماعه ، أو شمه ، لأن الله خلق حواسنا قاصرة عن إدراك هذه الأمور الروحية المعنوية ، أو قل إنه خلقها لإدراك الأمور المادية فقط ، أما ما وراء المادة ، فلا سبيل لها إليه ، إلا أن يجهزها الله بأسرار ليست عادية .

ونحن إنما نحصل علومنا ومعارفنا عن طريق هذه الحواس القاصرة ، فما جاءتنا به من علم أفتينا به ، ووقفنا عنده . . أما ما يأتينا من أنباء الكائنات الأخرى ، مما ليس من معارفنا ، فليس لنا أن ننكره ونجحده ، وعلينا أن نصدق فيه كل من قامت الشواهد الصادقة على رجحان عقله ، ونفوذ بصيرته ، وصدق قوله .

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه أبو هريرة فى أحوال من يوضع فى قبره : « فإن كان مؤمناً ، كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه » .

وحكمة قيام هذه الأعمال من حول صاحبها . أنها تبغى رد كل مزعجة عنه حتى سؤال الملكين ، فإنها لا تسمح لهما بالخلوص إليه ، إلا بعد أن تعرف أنها رسول الخير إليه . واستمع معى إلى تتمة الحديث السابق : « فيؤتى — أى الميت — من قبل رأسه ، فتقول الصلاة : ما قبلى مدخل ؛ ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قبلى مدخل ؛ ثم يؤتى عن يساره ، فتقول الزكاة : ما قبلى مدخل ؛ ثم يؤتى من قبل رجليه ، فيقول فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والمعروف والإحسان إلى الناس : ما قبلى مدخل » .

ولا يجوز لنا أن نتأول فى كلامه عليه الصلاة والسلام ، زاعمين أن هذه أمور تمثيلية ، يقرب بها إلينا رسول الله ما يدور فى العالم الآخر . . لا يجوز لنا أن نزعم هذا ، فهو اجتراء على مقام الرسول ، وصرف لكلامه عن ظاهر معناه بلا دليل ولا سند . . ولقد قلنا إن جهلنا بحقائق هذه الكائنات ، لا يصح أن يكون حجة لردها . . فإذا قال الرسول عليه السلام : إن الصلاة تقف على رأس الميت وتقول : كيت وكيت فهو الكلام الحق ، وليس لنا — بل ليس من كرامتنا العقلية — أن نتخذ جهلنا حجة لتأويل كلام غيرنا ، بل ليس مما يصلح عقولنا ونفوسنا ، أن يظل أحدنا فى مستوى قصوره العادى وكلما رأى كلاماً من أفق رفيع ، جذبه وأدناه إليه ، وظل يمسخه ويشوهه ، حتى يلائم

بينه وبين مستواه القاصر . . ليس هذا مما يصلح عقولنا ونفوسنا . إنما يصلحها ، أن نسمو ونتسلق إلى المستوى الذى يرفعنا إليه كلام هؤلاء الأفذاذ . . فإذا قال عليه السلام : إن الصلاة تقف وتقول وتفعل كذا وكذا ، فليس لهذا من معنى إلا أنها تقف وتقول وتفعل ما أخبر به عليه السلام . . أما كيف تقف وهل لها رجلان ؟ وكيف تتكلم ؟ وهل لها لسان ؟ وكيف تفعل ، وهل لها يدان ؟ فهذا ما لا شأن لنا به ، فليكن الكيف ما يكون ، وكل الذى علينا أن نسلم به . أن الصلاة ستقف وستتكلم ، على ما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله عليه . . وإلا فما قول هؤلاء المتأولين فى قوله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » كيف تؤدى الرجل شهادتها ، وكيف تؤديها اليد ؟ هذا ما لا شأن لنا به ، فليكن الكيف ما يكون ، أما الذى لا شك فيه أن الشهادة ستؤدى لا محالة « وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قالوا : أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شىء وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

فالأعمال الصالحة من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، ومعروف ، وإحسان ونحوه ، هى كائنات حية ، مؤلفة من ظاهر وباطن ، أو من غلاف وسر ، فالظاهر هو صورة العمل ، والسر ، هو الروح الذى يسكنه . . وصورة العمل هى فعل الإنسان ، وأما الروح فمن أمر ربى ؛ وعملية المزج بين الروح وصورة العمل ، تتم فى داخل القلب ؛ فكل عمل طيب يخرج من القلب المؤمن ، فهو عمل حى ، تسكنه روح طيبة ؛ وكل عمل يتم من وراء القلب ، فهو عمل ميت لا روح فيه ... والذى نريد أن نجلوه فى هذا الكلام للداعية ولغير الداعية ، أن هذه الأعمال الحية بأرواحها الطيبة ، تلازم صاحبها فى حياته وفى مماته ، حتى يلقى الله بها يوم القيامة ... وهى إذ تلازمه لا تكون معطلة عن النفع ، مكفوفة عن العمل ، بل فى خدمة صاحبها فى حياته ومماته . ترد عنه كل مزعجة وتسوق له كل خير مستطاع ... ولقد أوردنا حديث أبى هريرة فيما سبق وهو يبين لنا هذا المعنى ويؤكده ؛ ومع هذا فإنا نورد حديثاً من كلام سيد المرسلين يقطع الشك ويقرر اليقين قال صلى الله عليه وسلم فى حديث طويل نكتفى بإيراد بعضه : « رأيت البارحة عجباً — رؤيا الأنبياء حق ، لأنها وحى — . رأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين ، فجاء ذكر الله عز وجل فطرد الشياطين عنه ، ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا ، كلما دنا من حوض منع وطرد ، فجاء صيام شهر رمضان فسقاه وأرواه ؛ ورأيت رجلا

من أمتى ، ورأيت النبيين جلوسا حلقا حلقا ، كلما دنا إلى حلقة طرد ، فجاء غسله من الجنابة فأخذ بيده ، فأقعده إلى جنبى ... ورأيت رجلا من أمتى يتقى بيده وهج النار وشررها ، فجاءته صدقته فصارت سترة بينه وبين النار وظلت على رأسه ... ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله فى ملائكة الرحمة ؛ ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه ، وبينه وبين الله عز وجل حجاب ، فجاء حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ... ورأيت رجلا من أمتى قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف فجاء حسن ظنه بالله عز وجل فسكن رعدته ومضى ؛ ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » .

وكل هذا صريح فى أن للأعمال الحية قدرة على التصرفات ، بما أودع الله فيها من أسرار الأرواح ، ونحب أن نذكر أن تصرفات الأعمال ، أو أرواح الأعمال ليست مقصورة على نفع صاحبها فى الآخرة ، بل فى الدنيا كذلك ، فقد قال عليه السلام : من قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسى » ؛ وقد أورد الترمذى فى نحو هذا عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قال إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له كفيت وهديت ووقيت وتنحى عنه الشيطان فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى ؟ » بل إن لها من عون صاحبها فى الأمور المادية ما يكاد يكون من العجب ، فقد روى البخارى أن فاطمة رضى الله عنها ، شكت إلى أبيها شدة ما تقاسيه من الطحن والسعى والخدمة ، وطلبت إليه أن يعطها خادما ، فما كان منه عليه السلام ، إلا أن علمها هى وزوجها ، أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثا وثلاثين ، ويحمدا ثلاثا وثلاثين ، ويكبرا أربعا وثلاثين وقال : « إنه خير لكما من خادم » .

وكان حبيب بن سلمة ، يستحب إذا ناهض حصناً ، أو لقى عدوا أن يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، وقالوا : إنه ناهض يوما حصنا من حصون الروم فقالها ، وقالها المسلمون معه وكبروا ، فانهدم الحصن وانهزم العدو . . . ولعل حبيب ابن سلمة رضى الله عنه ، كان يستأنس فى فعله هذا بما ورد فى بعض الآثار ، أن الملائكة

لما أمروا بحمل العرش ، قالوا : يا ربنا كيف نحمل عرشك ، وعليه عظمتك وجلالك ؟ فقال : قولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقالوها فحملوه .

ولقد قلنا : إن عملية مزج الروح بالقول أو بالعمل ، محلها القلب ، فليس كل قول نافعاً ، وليس كل عمل مساعدا . . فليعلم الداعية هذا ، وليدرك قيمة القلب الذى ركبه له الله فى صدره ، فهذا القلب يستطيع أن يصنع بنفسه جنود نصره على ما أشرنا إليه سابقاً ، وليختر لنفسه : أيزهد فى هؤلاء الجند المباركين ، أم هو سيفتح آفاق القلب ليستخرج منه هذا الخلق الكثيف من جند الله ؟ إن هؤلاء الجند تربطهم بك رابطة الجند بقائدهم . إنهم خرجوا من سويداء قلبك ، فهم منك وأنت منهم ، يعطفهم عليك ما يعطف الأبناء البررة على أبيهم ؛ ولك أن تقول : إنهم ذرية أنجبها قلبك ، إلى جانب الذرية التى ينجبها صلبك ، غير أنهم أصدق وفاء ، وأطول بقاء ، وأقدر على العون والمؤازرة ... لك أن تقول هذا ، وتستأنس لما تقول بقوله تعالى : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً » ففيه مقارنة خفية بين ضربين من البنين ، لم يكشف الله عنهما الغطاء ، حتى لا يدخل على الناس ما يبلبل أفكارهم ، وترك لذوى البصائر أن يستشفوا هذا المراد وهم راسخون

ولعل مما يسندنا فى هذا الاستئناس ، قوله تعالى : « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ » رداً على الذين كانوا يشمتون به عليه السلام ، لموت أبنائه الذكور ، ويقولون : إنه أبتر ، لاذرية له تبقى من بعده وتحمل ذكره ، فقرر بهذا سبحانه أن الذى لاعقب له ولا ذرية ، هو فى الحقيقة الذى فسد قلبه ببغض الرسول ، فليس له من ذرية القلوب والأعمال ، ما يبقى بعده مذكوراً فى ضمير الأجيال ، أما ذرية الصلب ، فلا خير فيهم لأبيهم ، إذا كان رجل سوء مقطوعا عن أعمال البر والتقوى .

وبعد فاعلم يا أخى أنك فى جهادك أحوج ما تكون إلى هذه الذرية ، فأكثر من العمل والنية ، يكثر من حولك هؤلاء الأبناء فى عالم الخفاء . . . ولن يكونوا كلاً على أبيهم ، بل سيعملون معه من دون أن يراهم ؛ بل قد يكون فى مخدعه نهارا أو ليلا قد أضناه العياء ، فلا يقرون حول مضجعه ، بل يسيحون فى مختلف الأماكن يتلمسون عملا يساعدون به أباهم أو صاحبهم ، ويارب قوم جلسوا يذكرون جهادك ، فتنبرى هذه الذرية الخفية المباركة ، تبث العواطف فى القلوب بإذن الله ، وتثير خواطر الخير فى أذهان القوم ، فإذا بالحديث يسترسل بالثناء عليك ، وتأييدك ووجوب مناصرتك ؛ وإذا بهذه الأرواح الخفية تفعل ما لا تفعل المقالات والخطب . . . وقد تستقبل فى

غدك واحدا من هؤلاء أو أكثر ، يبايعك على دعوتك ، ويطلب إليك أن تشركه فى تأسيس هيئة فى قريته .

أيها الأخ ، هذه هى الذرية ، فاحرص عليها فى جهادك ، جهادك القولى والعملى ، وجهادك السلمى والحربى ؛ واعلم أن المجاهد الذى ينزل إلى الميدان بدون جمع من هذه الذرية ، لهو أضعف نصيرا من المجاهد الذى ينزل ميدانه بغير سلاح ؛ واعلم كذلك أن هذه الذرية تعمل لأبيها ، وبيد أبيها ، من ألوان الكفاح ما يثير الدهشة ، ويدعوا إلى العجب ؛ وفى مثل هذا يقول ابن القيم : « إن العسكر كانوا يشاهدون من قوة الإمام ابن تيمية فى الحرب أمرا عظيما » . ألا هل بلغت . . . اللهم فاشهد .

الباب الثالث

مصادر الداعية وموارده

لا نريد بهذه المصادر ، أنها مدد خطابته وموارد بلاغته ، ومناهل المعانى التى يتدفق بها حديثه . . . وإنما نريد قبل كل هذا ، مصادره النمو لملكاته ، والوحى لروحه ، والإلهام لمشاعره النفسية ، والتوجيه العملى لسير رسالته ، وموارد البناء للمجتمع الفاضل الذى ينشده ؛ ونحن نذكر من هذه الموارد على سبيل المثال لا الحصر

(١) القرآن الكريم . (٢) السنة المطهرة . (٣) تاريخ الأمم والشعوب وسيرة الرجال والأبطال . (٤) واقع الحياة الجارية .

ولا بأس من ذكر كلمة توجيهية عن كل مصدر منها .

١ — القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلاَ الْإِيمَانُ)

كثير من الناس ، بل كثير من أهل العلم والبحث ، إذا تكلموا عن القرآن الكريم ، قالوا إنه ذو ناحيتين : ناحية المعانى ، وناحية الألفاظ ؛ ثم يتشعبون شعباً ويتفرقون فرقا بعد هذا .

فأهل الأدب ينظرون فى جمال المعانى . وجودة العبارات والأساليب ، ثم يجهدون أنفسهم فى تعرف وجوه إعجازه : هل هو معجز بألفاظه وتراكيبه ، أم هو معجز بمعانيه ، أو معجز بكليهما ؟

وأهل الفقه ينظرون فى الألفاظ والمعانى ، ليستخرجوا منهما الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات ونحوها .

وأهل الجدل والكلام ينظرون فى الألفاظ والمعانى ويتساءلون : هل القرآن قديم

بمعانيه وألفاظه ، أو قديم بمعانيه دون الألفاظ ؟ إلى آخر ما هناك من خلافات لا طائل وراءها إلا ضعف العقيدة ، واتساع الهوة بين الآراء .

والاجتماعيون ينظرون إلى ألفاظه ومعانيه ، ليستخرجوا منهما ما يستطيعون من توجيهات خلقية وأدبية واجتماعية ، فى الشورى والمساواة ، وحقوق الإنسان وغيرها ؛ ولكنهم بكل أسف لا يذهبون فى هذا الاتجاه مذهباً جديا .

هذه الطوائف وغيرها لا ترى فى القرآن غير ناحيتى الألفاظ والمعانى ؛ وقد أوردنا هذه الآيات الكريمة على رأس هذا الكلام ليعرف القارىء أن القرآن « روح » وليس ألفاظاً ومعانى فقط .

ولست أبيح لنفسى أن أفاضل بين الروح والمعانى والألفاظ ، فكله من الله سبحانه وهو بكل شىء عليم ؛ ولكنى أقول : إن الاهتمام بناحية الروح فى القرآن يجب أن يأخذ مكانه فى قلوبنا وعقولنا . وليس حسناً أن نهتم بالروح فى جسم الإنسان والحيوان ولا نهتم بها فى كلام الله سبحانه وتعالى ، فكلاهما من أمر الله عز وجل . فهو يقول هنا عن الروح فى الكلام « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، » ويقول فى موطن آخر عن الروح فى الأجسام : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً »

فعلى الذين يبحثون فى إعجاز القرآن وغير إعجازه . أن يلتمسوا هذا الروح قبل كل شىء ، ثم يطلبوا ما فى الألفاظ والمعانى من قوة وجمال وموعظة وأحكام ؛ فإن الباحث فى إعجاز الألفاظ ، لا يعدم مكابراً يدعى أنه لا يشعر بإعجاز ، ويدعى أن لديه من الآثار الأدبية ما هو أروع منه ؛ أما الروح الإلهية فإن إعجازها قائم لا شك فيه ، وإفحامها مسلم به من الجميع ، فلن يحدث أحد نفسه بمعارضة آثارها فى كلام الله سبحانه كما أنه لن يفكر فى معارضة آثارها فى أجسام الكائنات ، وقد أشار القرآن إلى كلا الإعجازين فقال: « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ » وقال : « لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » لأن المسألة ليست صورة بدنية أو كلامية ، فهذا ما يستطيع كل مكابر أن يدعى القدرة على صنعه وإنشائه ، ولكن الإعجاز أظهر ما يكون ، فى بث الروح الذى تحيا بها الأبدان ، وينهض بها شأن الكلام .

ولست هنا بمتكلم عن إعجاز القرآن فأسترسل فى بيان آثار الروح الإلهى فيه ،

وإنما أتحدث باعتباره أعظم مصادر الوحى والنمو لملكات الداعية ومشاعره ؛ فيجب على الداعية بل كل إنسان أن يراعى التوجيهات الآتية أثناء تلاوته للقرآن الكريم :

القرآن روح

أولا : أن يقرأ القرآن على أنه روح ؛ وللروح آثارها ، ومن آثارها الحياة والنمو والقوة ، والسمع والبصر . . . ولا نريد أن نطيل بذكر الآيات التى تدل على أن القرآن حياة للقلوب والأرواح ، وأنها تنمو به وتقوى وتسمع وتبصر ؛ ولكنا نطلب إلى الداعية أن يلتمس هذا الروح وأن يحتال لإيجاد الصلة بينه وبين قلبه ، حتى تسرى تياراته وإشراقاته فى كيانه كله . . . وليس ضروريا لانتقال هذا الروح القرآنى إلى قلب الإنسان ، أن يقرأ القرآن كله ؛ بل الضرورى أن يزيل الفوارق والحجب التى تفصل بين قلبه وبين القرآن ، فإذا زالت وصار القلب أمام القرآن وجها لوجه ، أحس بالحياة والقوة والنور والخشية والحنان تملأ وجوده . . . وآية واحدة من كتاب الله كفيلة بهذا لو أحسنا الاتصال بها ؛ وأنا أعنى ما أقول فإن التحقق بمعنى آية واحدة ، سلباً وإيجابا وعملا واعتقاداً والتزاما بتكاليفها فى غير تهاون ولا رخاوة ، مع مخالطة روحها لخفايا القلب ، يحيي الإنسان ظاهراً وباطناً ، ويجدده وينيره . . . كالذى يلمس السلك الكهربائى إذا لمسه من أى طرفيه أو من أى نقطة فيه سرى سر الكهرباء فيه واضطرب وانتفض دون أن يتوقف ذلك على لمس أجزائه كلها مرة واحدة . . القرآن حبل الله المتين كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه بيد الله وطرفه الآخر بيد الناس ، فأى جزء أخذنا بجد وقوة سرى سره إلى القلوب فارتجفت به وحيت « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ؛ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ » .

ولعلك تقول وما فائدة القرآن كله — إذاً — ما دامت آية واحدة منه كافية لإحياء القلوب ؟ ولماذا لم يكتف الله سبحانه بآية أو بضع آيات ؟ وهذا سؤال حق ، واعتراض له وجاهته ؛ ولكن الاعتراض يزول ، إذا علمنا أن مهمة القرآن ليست حياة القلب فحسب ، بل وضع مناهج العمل الذى تنتظم به الحياة كذلك ، حتى لا يضل صاحبها عملا واعتقاداً أثناء سيره إلى الله ؛ ويقول بعض العارفين : « من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق » والتصوف هنا حياة القلب والتفقه معرفة أحكام الله وحدوده التى سميناها مناهج العمل ، والزندقة ضلال عن سبيل الله . ألا ترى يا أخى أن الله عز وجل

حين أحيا الإنسان بما بثه فيه من أسرار الروح لم يتركه سدى بل خلق له العقل الذى ينظم له هذه الحياة ويدبر له أمره ، بما يدرك من أصناف الضرر والنفع ؟

كذلك روح القرآن به تحيا القلوب ؛ أما عقل هذه الحياة الذى يوجهها إلى الله على بصيرة ، فهو الأحكام الشرعية ، ولذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » . . . وهذه الحياة كما — ذكرنا — تحدث بآية واحدة بل كلمة واحدة لأنها روح لا دخل لها بالأحجام والمساحات ، ولا بطول الكلام وقصره ؛ أما الأحكام ، فإن الله عز وجل يعلم من طبيعة تكويننا أن عقولنا لا تتفقهها ، إلا وهى متفرقة فى مواضع شتى وفى أزمان مختلفة . . . ولو كانت طبيعة العقول كطبيعة القلوب فى تقبلها للحقائق جملة واحدة فى لحظة واحدة كلمح البصر أو هو أقرب ، لساق لنا الأحكام فى آية واحدة ، أو لكان للأحكام شأن لا نعرفه ، غير هذا الشأن الذى نعرفه ؛ ولكن الله سبحانه يجرى كل شىء على سنته التى فطره عليها والله عليم حكيم ؛ فليس المعول عليه فى إحياء القلوب مقدار ما نقرأ من القرآن ، إنما هو كيف نطالع القرآن . ونوصى هنا .

١ — بالتأمل والتدبر والوقوف على كل عبرة ومعنى . . . ويجب أن تكون القراءة فى خلوة هادئة ، ولا سيما خلوات الليل حيث يشف القلب ، وتنكشف أغطية النفس .

٢ — سل نفسك قبل قراءة القرآن : هل هواك مع الله أو مع الدنيا ؟

وأعلم يا أخى أن كل هوى من الأهواء الدنيوية ، إنما هو حجاب كثيف بينك وبين الله ، وبين قلبك وبين القرآن ؛ فحب المال حجاب ، وحب البنين حجاب ، واشتغال القلب بشواغل الدنيا حجاب أو حجب ، وإعجاب المرء بعلمه أو ذكائه أو صلاحه أو قوته أو جاهه ، من الموانع الكثيفة الثقيلة ؛ وميل الطبع إلى شىء مما حرم الله ، وبغضه الخير لمنافسيه ، وحسده وحقده ، ورغبته فى نزول الأذى والمصيبة بمن يكره ، هذا ونحوه أكنة يبتلى بها القلب ، فتحول دون وصول الروح القرآنى إليه .

فعليك يا أخى أن تعرف فى صراحة — بينك وبين نفسك — هل بينك وبين القرآن حجاب من هذه الحجب أم لا ؟ والمقياس أمامك ، فأنت وشأنك « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » ، « وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ، وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا »

يا أخى حياة القلب هى كل شىء ، وأنت طالب حياة ، فلا تبخل بأى جهد يجعلك من الأحياء : مهما شق عليك ؛ ونحن فى رسالة لا ينهض بحقها إلا القلب الحى ، وفى رحلة إلى الدار الآخرة ، لا ينفع فيها مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ؛ فجرد قلبك من هذه الأهواء على ما بيناه فى الروحانية الاجتماعية ، ليكون قلبك سافراً غير محجب ، فإنك حينئذ تدرك وتحس وتحب وتبكى وتخشع ، وأنت فى روضة من رياض الجنة .

٣ — ويجب أن تستحضر عبوديتك لله ؛ استحضرها حقيقة لا مجازا ، استحضرها شعورا قويا ، يريك ذلة العبد أمام سيده الكبير العظيم ؛ ونحن جد خبيرين بحالة الاضطراب والذبذبة التى تعترى المرء بين يدى رئيسه القوى الجبار ، ونعرف أن كيان هذا المرءوس يتركز كله فى أذنيه ، يسمع بهما ما يقال له ، ويتركز فى قلبه ليتلقف ما يلقى عليه ، فإذا عينه وملامح وجهه وحركات رأسه ، تؤذن كلها بالطاعة ، وتلقى ما يقال لها أو تؤمر به بمزيد القبول والارتياح . كل هذا ليشعر المرءوس رئيسه أنه يتحرى مواضع رضاه ، وأن لا إرادة له إلا فيما يريد رئيسه العتيد .

هذه الحالة التى يدخل فيها عبد لعبد مثله ، هى التى نريد أن يدخل فيها العبد لمولاه ذى الجلال والإكرام ؛ فلو وفق إلى مثلها لتطايرت من فوقه الحجب ، ولرأى نفسه أمام عظمة عرش الله عز وجل وكأنها لا شىء ؛ فإذا به فى سلطان الله يفر منه إليه ، ويتركز وجوده فى أذنه وقلبه ، فيغدو لأمر الله ونهيه وقع فى قرارة نفسه لا يدانيه وقع كلام آخر . . . وتلك حالة يمكن كسبها بالممارسة والمران ، وهى بلا شك موصل جيد لروح القرآن إلى قلب الإنسان .

٤ — واستحضار تلك العبودية بصفة جدية حقيقية ، يورث الإنسان نهضة إلى أمر مولاه ، ومسارعة إلى إنفاذ ما كلفه به وألقاه عليه فى القرآن ، وهذا يعنينا من ناحيتين :

الأولى : أن تنفيذ الأمر إن هو إلا تفسير عملى له ، يكشف خفاياه ويجلو غوامضه ، ويكسب صاحبه فقهاً فى كتاب الله ، لا يناله النظريون الواقفون عند حدود التلاوة النظرية .

والثانية : أن تنفيذ الأمر إن هو إلا تنفيذ لتكاليف شاقة ، كم تقاصرت دونها الهمم ؛ فاذا راض المرء نفسه على التنفيذ ، وتحمل مشقة الرياضة والمجاهدة ، ونهض بهذه التكاليف بغير هوادة ولا رخاوة ، فقد أحدث مورانا فى قلبه وعصبه ، وتنبها

فى وعيه ، ويقظة فى ملكات نفسه ، وهذا مما يزيد فى تفهمنا لكتاب الله ، والوقوف على كثير من أسراره ومعانيه . . . وبدون التنفيذ الحار تكون الأعصاب بليدة فاترة وملكات النفس غافلة راكدة ، فلا يصلح شىء منها لمطالعة روح القرآن .

٥ — والقرآن يا أخى كلام الله ، وقد تفرد الله بكل صفات الكمال والجلال ؛ ومن شأن كل كلام — حتى كلام البشر — أنه يدل على أسرار صاحبه ، وصفات ذاته ؛ فإذا أراد أحدنا أن يدرس شخصاً ما اتخذ كلامه مادة من مواد الدراسة التى تعينه على مراده . . . فأولى بنا ثم أولى أن نلتمس أسرار الله فى كلامه سبحانه وتعالى ، ومطالعة صفات كماله وجلاله فيه ؛ قال جعفر بن محمد الصادق رضى الله عنه : لقد تجلى الله عز وجل لخلقه فى كلامه ، ولكنهم لا يبصرون .

ولكى نبصر تجليات الله فى كلامه ، أرى أن نستحضر ماله سبحانه وتعالى من صفات الكمال فى القدرة والعلم ، وغير القدرة والعلم مما لا طاقة لنا بالإحاطة به ؛ نستحضر من ذلك ما نستطيع فى هيبة وخشوع . . . فإذا أقبل أحدنا على القرآن ، وفى قلبه شعور بهيبة هذه الصفات ، وفى نفسه شوق لمطالعتها واستجلائها فإن آيات القرآن ستشف له بإذن الله عنها .

إن أحدنا قبل أن يقرأ المقالة ، يقرأ اسم صاحبها ، فإذا كان من كبار الكتاب استحضرنا له فى الحال ما نعرف من صفات بلاغته ، وقوة معانيه ، وسداد آرائه ، بل وملامح نفسه ، فيعيننا هذا على تعرف ما فى المقال ، وحسن الالتفات إلى إشاراته ومراميه ... وكثيراً ما نقرأ المقال بدون إمضاء ، فنراه عاديا ، فإذا قيل لنا إنه لفلان من كبار الكتاب أعدنا قراءته ، بعد أن نستحضر ما لهذا الكاتب من صفات القوة والامتياز ، فإذا بنا نجد فى المقال ما لم نجده أولا ، وإذا بروح الكاتب تطالعنا من خلال سطوره ، بعد أن كانت وراء الحجاب غير منظورة ؛ ولله المثل الأعلى ؛ ولعلك يا أخى أدركت ما نريد :

٦ — وأخيراً يجب أن نقرأ القرآن ، كأنما نسمعه من الله سبحانه وتعالى ، وهذا أمر يكاد يكون من البديهيات التى نغفل عنها ؛ فالقرآن كلام الله ، خاطبنا به ، ووجهه إلينا ، وأبسط مقتضيات هذا ، أن نصغى إلى هذا المتكلم العظيم ونحسن الاستماع إليه :

« وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » .

والإنصات إلى الله لا يكون بالأذن ، بل بالقلب وبوعيك كله ، وهى منزلة تقتضى الإنسان مراناً ورياضة وتدرجاً فى مقاماتها الرفيعة . . . قال بعض السلف : كنت

أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة ، حتى تلوته كأنى أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت إلى مقام فوقه فكنت أتلوه كأنى أسمعه من جبريل عليه السلام ، يلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم جاء الله بمنزلة أخرى ، فأنا الآن أسمعه من المتكلم به ، فعندها وجدت لذة ونعيما لاصبر لى عنهما .

وهو من مقامات الشهود التى لاقبل بوصفها إلا بذكر آثارها ، فقد رووا عن بعض آل البيت ، أن حالة لحقته فى الصلاة ، فخر مغشيا عليه ، فلما سرى عنه قيل له فى ذلك ، فقال : مازلت أردد الآية على قلبى ، حتى سمعتها من المتكلم بها نفسه ، فلم يثبت جسمى لمعاينة قدرته سبحانه وتعالى .

هذا ياأخى بعض مايصلك بروح القرآن ، فإذا اتصلت نمت الحياة فى نفسك ، واهتز قلبك وترعرع ؛ وكان مالك ابن دينار يقول : مازرع القرآن فى قلوبكم ياأهل القرآن ؟ إن القرآن ربيع المؤمن ، كما أن الغيث ربيع الأرض .

القرآن قصة الجهاد النبوى :

ثانياً : فى القرآن الكريم قصة كاملة لأروع مظاهر الجهاد ، وأصدق حقائقه ، وأشرف مقاصده ؛ لواء القيادة فيها معقود لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن خلفه صحابته رضوان الله عليهم .

ونحن نوجب على كل إنسان — أو كل داعية على الأقل — أن يطالع أنباء هذه القصة فى أجزاء القرآن الكريم ، ويدرس طبيعة الجهاد فى الميدان المكى ، وطبيعته فى الميدان المدنى ، مطالعة دراسة وتفهم ، لامطالعة تلاوة وتسلية .

وتيسيراً لعبء الدراسة ، نذكر أن الجهاد المكى ، كان صراعاً هائلا بين عقليتين متغايرتين تمام التغاير :

عقلية تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتنظر إلى حقائق الوجود وإلى الغاية من الحياة على ضوء هذا الإيمان .

وعقلية مادية جاهلة لاتفقه من حقائق الإيمان شيئاً ، تنظر إلى الوجود على أنه هو هذا الأفق الدنيوى المحدود ، الذى يبدأ من المهد إلى اللحد .

فالتوحيد مسلم به من العقلية الأولى ، ولكنه عجب لدى الأخرى : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَاب ، وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُراد ، مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرَةِ ،

إنْ هَذَا إلا اخْتِلَاق » . وهكذا تفكير العقلية المادية المطموسة ، فقس عليه كل مايدور حول التوحيد من جدل ونقاش .

والإيمان بالرسل لا غرابة فيه لدى العقلية المؤمنة . ولكن العقول المادية تنكر هذا أشد الإنكار : « أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً ؟ » وقالوا — متهكمين ساخرين : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاق » ، واتخذوا من فقر الرسول حجة تدعم رأيهم ، فلو جاز فى زعمهم أن يختار الله رسلا من البشر لاختارهم من ذوى المكانة والجاه والمال : « أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » ؟ « لَوْلاَ أُنْزِلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم » .

وملائكة جهنم تسعة عشر ؛ فلا يتصور هؤلاء الماديون ، إلا أن الملائكة مثلهم ، فيتهكمون ويتندرون بهذه النار التى يعذب فيها من لا يحصى من البشر ، وليس يحرسها إلا تسعة عشر ؛ فينزل فيهم قوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ، وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَر » .

أما البعث ، فأبعد هذه العقائد كلها عن عقولهم : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيد ؟ »

هذه أمهات العقائد التى دار عليها الجدل بين هاتين العقليتين ، ونرى القرآن المكى يسجل الكثير منه ، فهو يقرر العقيدة ويذكر وقعها لديهم ويورد جدلهم حولها ، وما لهم فيها من شبهات وشكوك ، ويرد على ذلك كله بالبرهان القوى ، والمنطق الفطرى الواضح ، مما يبين لك خصائص العقلية المادية ، ويعطيك صورة واضحة لهذه الحرب الجدلية التى اضطرمت نارها فى مكة ثلاثة عشر عاماً .

وكما كان الصراع بين عقليتين ، كان كذلك بين قوتين : قوة الإيمان العزلاء ،

وقوة الطاغوت الغاشمة المتغطرسة ، وقوة الإيمان لا تبغى لنفسها شيئاً ، وقوة الطاغوت أخوف ما تخافه أن يضيع سلطانها ، وتفقد ما تحصل عليه من منافع على حساب الضعفاء ، فهى تصب غضبها وأذاها على المؤمنين ، لا تعرف فى ذلك إلا ولا ذمة . . . وقوة الإيمان لا تقابل هـذا الطغيان بالاستكانة والذلة ؛ بل تنتصر لنفسها فى حدود طاقتها . . .

والقرآن المكى يصور هذا كله ويورد أمثلته وحوادثه .

فإذا قرأت أنباء هذين اللونين من ألوان الصراع فى تؤدة وتمهل ، وتتبعت وقائعها فى القرآن المكى وحده ، وتنقلت من سورة إلى سورة على حسب ترتيب النزول — وهو فى مصحف الملك — فإنك لا تلبث أن تدخل بعواطفك فى هذ الصراع وتدب حرارته وحماسته فى قلبك ، وتكون بهذا أقدر على فهم القرآن ، وتمثل حقائقه ومعانيه ، وأجدر أن تنتفع بأنباء هـذا الجهاد العملى فى معترك جهادك ، وميدان رسالتك ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، والمعول عليه الفطنة التى تحسن العرض والاستشهاد .

***

أما الميدان المدنى فكانت قوة المؤمنين تنازل فيه ثلاث جبهات مختلفة : اليهود ، والمنافقين ، ومشركى العرب جميعاً ، لا مشركوا مكة وحدهم ؛ مع ملاحظة أن قوة المؤمنين هنا فى المدينة أكثر عددا وعدة ، فهى قوة مسلحة خطيرة .

١ — أما اليهود فهم أهل علم وكتاب سماوى ، وثوره منذ قرون عن آباء صدق ، ولكن ورثوا نصوصه ، ولم يرثوا روحه ، فاستقرت نصوصه ، فى أدمغتهم وأقفرت نفوسهم من روحه ومثله العليا ؛ وطال بهم الأمد فقست قلوبهم ، وفسق كثير منهم عن أمر ربه ، ودخلهم حب الدنيا ، وتعاملوا بالرشوة ، وأخذوا الربا وقد نهوا عنه ؛ فهم يأخذون عرض هذا الأدنى باطلا وسحتا ويقولون : سيغفر لنا ، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه فى غير تورع ولا استحياء ، لأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فلن تمسهم النار إلا أياما معدودة . . وهكذا أخضعوا دينهم لدنياهم ، واشتروا بكتابهم ثمنا قليلا . . ذلك موجز أمرهم وأمر آبائهم من قبل .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، حدد علاقته بهم بمحالفة مرضية ، تكفل لهم الأمن والنظام والحرية والعيش الحسن ، لو أرادوا . لكنهم لما رأوا قوته تزداد ، وسلطانه يعظم ، ودينه يهيمن ، وزمام الأمور الاقتصادية والسياسية

ينتقل إليه ، أكلت قلوبهم الغيرة ، وزاد بهم الحقد والغيظ : « وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

فهاتان صفتان خسيستان : بيعهم الدين بالدنيا ، وهو داؤهم القديم ... والغيرة الحاقدة ، وهي داؤهم الجديد ... مع دهاء ومكر ودس وغدر . وقد سجل القرآن صفقتهم الخاسرة ببيعهم الدين بالدنيا في مثل قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ » .

ويدور كثير من آيات القرآن المدني حول تسجيل هذا المعنى واستهجانه . أما حرصهم على الدنيا وتشبثهم بها ، فإنك تراه في مثل قوله تعالى : « وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا . . يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » . وتنكير كلمة « حياة » وخلوها من « أل » يدل على أنهم يريدون حياة وكفى ، دون أن يهمهم نوع الحياة ، فأي نوع وقع لهم فهو حسبهم ؛ فسواء لديهم الحياة الوضيعة والرفيعة ، والدنيئة والشريفة ، والذليلة والعزيزة . فليس المهم عندهم النوع ، وإنما المهم « حياة » من أي نوع كان .

وسجل غيرتهم وحقدهم في قوله تعالى : « مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ » وقوله تعالى : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ » « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ . قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

وهل تنتظر يا أخي من هؤلاء الذين حرصوا على الحياة الدنيا في ذلة ، وباعوا بها دين الله ، أن يكونوا صرحاء كالمشركين في حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لقد كان المشركون يشنون عليه حربهم العدوانية بالجدل والأذى ، في صراحة وجرأة ؛ أما هؤلاء الأذلة فإن تنتظر منهم إلا حرب الجبناء الدساسين ، وهي حرب يحرصون فيها على حياتهم وسلامتهم قبل كل شيء . ولن يهمهم بعد ذلك أن يتخذوا ما شاء لهم

الجبن الذليل ، من الأساليب الدنيئة فى غير تورع ولا كرامة ، وإذا كان هؤلاء باعوا دينهم بدنياهم ، واشتروا بكتابهم ثمناً قليلا ، فهل تظنهم يتورعون أن يحرفوا هذا الكتاب ؟ وإذا اقتضت أساليب الحرب الدنيئة أن يحرفوه ، فهل يكلفهم هذا قطرة دم واحده ؟ وهل يعرض حياتهم وسلامتهم لأى نوع من الأذى ؟

لقد سمعوا النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلموا أن القرآن يقول إنه جاء بمثل شريعة موسى والأنبياء من قبله : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ » ويستشهد على هذا بالمماثلة الواضحة بين تشريع التوراة وتشريع القرآن ، ويسوق من أمثلة هذه المماثلة قوله تعالى : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاص » .

هذه دعوى النبى الجديد ودعوى قرآنه الذى جاء به . وقد استشهد بهم وبكتابهم ؛ فإن قالوا : « نعم » فقد أمكنوا عدوهم من أنفسهم ، وإن قالوا : « لا » أبطلوا حجة الخصم ، وشفوا أنفسهم من غيظها . . أفتظنهم يتورعون . . وذكر القرآن أيضاً أن التوراة بشرت بهذا النبى ، وذكرت بعض صفاته — فقال إنهم يجدونه عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . . الآية

أفيتركون هذا الاسم مكتوبا عندهم فى التوراة ؟ وهل يعترفون أن كتابهم بشر حقاً بهذا النبى الأمى ؟ أم أن هذه فرصة أخرى لتحريف الكتاب وإخفاء الاسم الكريم ؟

هل يتورع الجبان النذل ، أن يشفى غيظه بهذا التحريف ؟

هذا يا أخى هو القطب الذى دارت عليه أساليب الحرب اليهودية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . فإذا استحضرناه فى أذهاننا ، كانت معانى القرآن التى سجلته أكثر وضوحا فى قلوبنا ومداركنا ، وذلك مثل قوله تعالى : « وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » « وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هٰذَا فَخُذُوهُ ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا . . وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ ، فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . . « وَإِنَّ مِنْهُمْ

لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . . « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ » وقالوا فى إبطال نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أخذ علينا عهداً فى التوراة أن لا نؤمن لرسول إلا إذا جاءنا بقربان تنزل عليه النار من السماء فتأكله ، ولا نراك جئت به ، فنحن معذورون إذا لم نؤمن بك ، لأن هذا عهد الله ؛ ومن يدرس هذه الحجة الواهية ، يجد فيها ضعف الجبناء الأذلاء ، الذين لا يرون مواجهة خصمهم فى شجاعة .

ولو كان ما يقولون حقاً ، لآمنوا قديماً بالرسل التى جاءتهم بهذه القرابين ، فإنهم كفروا بهؤلاء الرسل وقتلوهم . . وقد ألم بهذا المعنى كثير من آيات القرآن الكريم : « الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذى قلتم — وبالقربان الذى قلتم — فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ » « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم — ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ؟ »

لم يكن هذا هو السلاح الوحيد الذى حاربوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن التحريف وكتمان الحق ، أقل مظاهر الحقد والغيظ ، ولا يشفى هذه القلوب إلا عمل إيجابى يتصدع به بناء هذا الدين الذى يعظم شأنه ، وتتوالى أنباء نصره فتحرق أكبادهم : « إن تصبكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » .

ولكن هذا العمل الإيجابى ، يجب أن يكون عمل الجبناء الأذلاء ، الذين يحرصون على حياتهم وسلامتهم قبل كل شىء ، فماذا عسى أن يكون هذا العمل ؟ هو الدس بين أنصاره ، ومحاولة تشكيكهم بحركات شيطانية . . ومن أمثلة الدس ، أنهم رأوا جمعاً من الأوس والخزرج يجلسون إخوانا بعضهم مع بعض فى مجلس واحد ، يتجاذبون أطراف الحديث فى ألفة ومودة ، فغاظهم هذا ، وأرسلوا من اندس بينهم ليذكرهم شيئاً من الحروب التى كانت بين القبيلتين قديماً ، فذكر شيئاً من مفاخر الحرب يوم بعاث ، وأنشد أشعاراً فى أمجاد الفريق المنتصر ، فتهلل

لهذا أحد الفريقين ، وثار الفريق الآخر ، وما لبثوا أن قاموا يضرب بعضهم وجوه بعض ، فبلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسرع إليهم ، وكف بعضهم عن بعض ، وكشف لهم عن مراد اليهودى الدساس ، فندموا وأقبل كل فريق على الآخر ، يصافحه ويعتذر إليه ، وفى هـذا ينزل قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُم كَافِرِينَ » ...

ومن أمثلة التشكيك الشيطانية ، أنهم كانوا يبعثون فريقاً منهم فيؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيفرح بهم المسلمون ، ويشيع خبرهم فى المدينة ، ثم يعود هؤلاء الذين آمنوا فيتظاهرون بأنهم درسوا حال الرسول عن قرب ، ودرسوا طبيعة دينه ، فلم يجدوه هو الرسول الذى تذكره التوراة ، ولم يجدوا قرآنه على شىء . . وبعد تمثيل هذا الدور الخسيس ، يعلنون فى أسف أنهم مضطرون إلى أن يعودوا إلى دينهم القديم ، ما دام النبي المنتظر لم يبعث بعد .. وبهذا يصدون عن سبيل الله من آمن ، أو من يريد الإيمان ؛ ويتركون كثيرين فى شك وحيرة . . « يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُم شُهَدَاء ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ؟ » « وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ ، وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ » .

ولجأوا أيضاً إلى الاستهزاء والسخرية بشعائر الدين وبما ينزل الله من آيات القرآن ، ليوهموا البسطاء أنه ليس بشىء ... لما نزل قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ » ؟ سخر بعض اليهود وضحك ، وقال إن رب محمد فقير ، ويطلب أن نقرضه ، وأخذ يعلق على هذا المعنى ويسترسل فيه ، ليلقى فى روع الناس ، أن الرب الذى يحتاج إلى القرض ، لا يصح الإيمان به ، وغضب أبوبكر ، وضرب ذلك المتجنى الأثيم ، فارتفع الرجل إلى رسول الله يشكو ، فقص عليه أبو بكر ماحدث ، فأنكر الرجل وتبرأ على عادة الأذلاء الأدنياء ، فأنزل الله سبحانه وتعالى فى هذا قوله : « لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ، وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » .

وهزئوا كذلك بالأذان، وتغيير القبلة، ونحوهما من شعائر الدين: « وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا » « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا » « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا، وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا؛ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ » ومثل هذا كثير فى القرآن الكريم.

على هذا دار شأن اليهود مع الدين الجديد:

(١) تحريف للكتاب وإنكار لما فيه وكتمان له (٢) ودس بين أنصاره وأتباعه وتشكيك لهم (٣) واستهزاء بشعائره وآياته. منبعثين بذلة الجبان الدنىء وغيظ المحنق الحاقد، وبه نقرب كثيراً من فهم القرآن الكريم فهماً عاطفياً، لا فهماً منطقياً فقط.

أما موقف النبى صلى الله عليه وسلم منهم، فنورد منه ما يأتى:

(١) الجدال بالتى هى أحسن « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »

والنفس القوية المؤمنة لا يعقل أبداً أن تنازل الأدنياء بسلاحهم.. ولقد ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم صابرا على ما ذكرنا من أمرهم، أخذا بالتى هى أحسن، ولو شاء لانتقم منهم لدين الله، وفى يده من السلطان والقوة المسلحة ما يعينه على هذا، لكنه ترك أمرهم لله، وظل على جدالهم بالحسنى والمنطق القوى.

حقاً لقد أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهم عن المدينة، وقتل الآخرين؛ ولكن لم يكن هذا انتقاما لما حرفوا فى الكتاب أو نحوه، إنما كان لأنهم نقضوا مخالفتهم معه، وحاول بنوا النضير أن يقتلوه غدراً فى إحدى زيارته لهم، وهموا — فعلا — بما حفظ الله منه نبيه وذكر قصتهم فى سورة الحشر.. وغدر بنو قريظة فى غزوة الخندق، ودبروا من الخيانة ما لو تم أمره لما بقى مسلم واحد على ظهر الأرض، ولتغير مجرى التاريخ، ولكانت الدنيا على غير ما نراه الآن. وقصتهم مفصلة فى كتب السيرة، وقد أورد القرآن طرفا منها فى سورة الأحزاب.

فرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يأخذهم فى جدالهم إلا بالتى هى أحسن، والصفح عما يأتون من جرائم الذلة والدس والحسد: « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

(ب) دعوتهم إلى الإيمان بالرسل جميعاً . وبالكتب المنزلة كلها ، لأن القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب والرسل ؛ وما دام الجميع يدعون إلى الله ، وغايتهم واحدة ، وكتبهم متفقة فى القواعد والأصول ، فالإيمان بهم جميعاً واجب ، ونصرة من يجىء من هؤلاء الأنبياء واجبة ، لأنها نصرة لله سبحانه : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ، لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا : أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » .

وهذه دعوة خالصة ، إذا وجهت إلى من يدعو إلى الله فرح بها ، ولا يضيق بأهلها ، فالدعاة إلى الله مجاهدون لغاية واحدة ، يفرح بعضهم ببعض وينتصر بعضهم بنصر بعض ، وكلما نزلت إلى الميدان طائفة جديدة ، تعمل بعملنا وتدعو بدعوتنا ، ولها شاهد فى كتبنا ، وجب أن نفرح بها ، لأنها تعزيز لقوتنا . . . أما مناوأتها والتفرغ لخذلانها ، فهو شأن من يعمل لنفسه لا لله . . . ولهذا رأينا اليهود يضيقون ذرعاً برسول الله صلى الله عليه وسلم . . . لقد دعاهم إلى الإيمان بالكتب كلها لا بكتابه فقط ، فأى حرج فى هذا ؟ « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » لقد ضاقوا بهذه الدعوة السمحة ، ولم يحضرهم إلا كزازة النفس ولؤم الطبع الأنانى : « وَقَالُوا : كُونُوا هُودًا — فقط — أَوْ نَصَارَى — فقط — تَهْتَدُوا ، قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، قُولُوا : آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

واستمر الرسول صلى الله عليه وسلم على هذه الدعوة العامة يقررها ، ويثبتها فى إنسانية سمحة فسيحة ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . . . وهو موقف لا تعلق به ذرة من غبار موقف القوى بإيمانه ، الواثق من وعد ربه .

(ح) تذكيرهم نعم الله عليهم ! وما خصهم به من فضل : « يا بَنِي إِسْرَائِيل اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِين ... وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيم ، وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ، فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ... وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى » إلخ وهو أسلوب إذا تقربت به لأعدى أعدائك لان وأسلس ، ولكن الأنانى الحاقد الذليل ، لا يرضيه إلا أن يخلو له وحده وجه الأرض .

وكان لا بد من الحملة عليهم ، وتعقب مخازيهم ، وهتك أستارهم وأسرارهم ؛ ولكنها حملة هى غاية فى العدل ، فلم تتجاوز تقرير الحقائق ، وبيان ما ارتكبوا من جرائم التحريف والتغيير ، وذكر ما لأسلافهم فى الماضى من مواقف مع الأنبياء ، ابتداء من موسى إلى عيسى عليهم صلوات الله وسلامه ، وما كان لهم من خلاف وتعنت وجحود بآيات الله ؛ وقتل لبعض هؤلاء الأنبياء وتكذيب لبعض . . . يسرد ذلك كله حتى لا يخدع الناس بهم . ويعرفوا أن موقفهم اليوم من القرآن إن هو إلا حلقة من سلسلة ماضيهم الطويل ، وعادة يجرون فيها مع ميراث قديم . وهو فى كل هذا لا يتجاوز ما هو مكتوب عندهم فى التوراة .

وإنك لتتبين عدالة هذه الحملة ، حين ترى الإسلام فى تقريره للوقائع يذكر ما لهم وما عليهم ؛ فيقول عن أصولهم وأجدادهم « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ » . ويقول فيهم : « ولقد اصطفيناهم على علم على العالمين » ولكنه مع هذا يقرر أنه مسخ بعض هؤلاء القدامى ، فجعل منهم القردة والخنازير ، بما فسقوا عن أمره . . . ويعدل معهم فى حاضرهم فيقول : « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ، يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ، وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . . . « مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلوك هذه الخطة العادلة ، يطمع أن يؤمن هؤلاء به ، فقطع الله له كل طمع فيهم وقال له : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

« ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك » ، « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون ؟ »

وبعد : فيمكن تتبع أخبار الجبهة التى نازل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود فى سور القرآن المدنى ، ولا سيما البقرة وآل عمران والمائدة ؛ ولعل ما مضى يرسم لنا خطوطاً أولية ، لسير هذه المعركة ، تساعدنا على قوة فهم ما جاء عنها فى القرآن الكريم ، لا فهم الباحث فقط ، بل فهم الداعية ، الذى يريد أن يصل عواطفه بنبض الحوادث فى كتاب الله كذلك ، وأشير دائما بأن يكون تفسير ابن كثير بجانبك فإنه بعد معرفة هذه الخطوط الأولية ، يساعدك على أن تعيش فى جو هذه المعركة ، كأنك تراها أو تسمعها ، ولهذا أثره العظيم فى إبلاغ روح القرآن إلى قلب قارئه ، وفى أن يشهد الداعية ألوانا من المنازلة والمصاولة ينتفع بها فى دعوته .

جبهة المنافقين

لما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة ، كان أهلها على أهبة المناداة بعبد الله بن أبى ملكا عليهم ، فتغير مجرى الحوادث على غير ما يهوى هذا الرجل فأقام مدة وحوله جماعة من أنصاره وأصدقائه يقلبون الأمور ويبتغون الفتن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أعز جنده ، وأعلى كلمته ، فأقبل بعضهم على بعض يوم بدر ، وقالوا : هذا أمر قد توجه . . . ورأوا الناس يدخلون فى دين الله ، ويقبلون على رسوله بالسمع والطاعة والمحبة ، فكرهوا أن يظلوا وحدهم ، فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ، وبقيت قلوبهم على جحودها وغيظها . فكانوا يقومون بمهمة « الطابور الخامس » لليهود ولغير اليهود من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأعلم الله رسوله بنبأ هؤلاء المنافقين ، بصفة عامة لا خاصة ، ليأخذ حذره ، فقال : « وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ، وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ » ثم زاده معرفة بهم فقال : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخرِجَ — يظهر — اللهُ أَضْغَانَهم ، وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ » .

وقد عرفنا موقف المشركين بمكة ، واليهود بالمدينة ، ثم موقف هؤلاء ؛ ولا شك أنهم أحقر الثلاثة ، وأخسهم نفسا وألأمهم طبعاً ؛ فليس كالنفاق آفة تحلق المروءة والرجولة ، ولهذا يقول الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرا » . وتتلخص أساليب هذه الحرب السرية فى الأنواع الآتية :

(ا) إضعاف شأن المسلمين فى الحروب ، وهؤلاء المنافقون أقدر من غيرهم على القيام بهذه المهمة ، فقد دخلوا فى الإسلام ، وأظهروا الإخلاص لنبيه ، وأتقنوا دورهم ، حتى أن عمر نفسه لم يكن يعرف عن أكثرهم إلا الصلاح والورع ؛ فكان هؤلاء « الصلحاء الأكابر » يقعدون عن الخروج للقتال . أو يستأذنون فى القعود ؛ فإذا رآهم من هو أقل منهم من العامة ، اقتدى بهم وأدركه شىء من الفتور والتثاقل . وكانوا كذلك يشيرون على غيرهم بالقعود معهم ، فيقعد من يقعد ، ويخرج إلى القتال من يخرج مخالفاً مشورتهم . فإذا قتل . قالوا : « لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

وكان بعض هؤلاء المنافقين يخرج ولكنه يعود من الطريق ، ويقول : والله ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟ فإذا رجع رجع معه طائفة كبيرة من الجيش ؛ كما حصل يوم أحد . . فإذا خرجوا ولم يرجعوا من الطريق سعوا بالفتنة ، وبثوا روح التخاذل فى الجيش ؛ كما حصل فى غزوة تبوك : إذ قال بعضهم : « يظن هذا — يعنى رسول الله — أنه يفتح قصور الروم وحصونها . هيهات هيهات ! » ويقول آخر : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبـــال ! » وصدق الله العظيم « لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ — مشوا بالفساد — يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ » .

(ب) كانوا ينتهزون كل فرصة سانحة للوقيعة بين المسلمين وإثارة الفتن فى صفوفهم . فى غزوة بنى المصطلق تدافع غلامان على الماء ، أحدهما لرجل من المهاجرين والآخر لرجل من الأنصار . . . فصاح المهاجرى : ياللمهاجرين ! وصاح الأنصارى : باللأنصار ! وسمعها عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين ، فلم يتركها تمر دون أن يستغلها

فى الوقيعة التى يريد ، فقال : قد ثاورونا فى بلادنا ، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه ، إلا كما قال القائل : سمِّن كلبك يأكلك . . . ثم أقبل على من فى مجلسه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ؛ أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها . . . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وأرادها الرجل فتنة بين المهاجرين والأنصار ، ولكن الله أحبط كيده وحفظ جنده من التفرقة .

(جـ) محاولة الغض من جلال الرسالة بالاستهزاء برجالها ، واختراع الأراجيف فى حقهم ؛ فهذا عبد الله بن أبى يخترع حديث الإفك ويتولى كبره ؛ وهو ضربة موجهة للاسلام بطريق غير مباشر . . فإن شك الناس فى عرض عائشة وعرض أبيها وأسرته ، وشكهم فى النبى الذى كان فى زعمهم معاشرا امرأة زانية — هذا الشك من شأنه أن يضعف الحماسة لرسول الله وزعماء الإسلام ؛ وقد تفاقم خطب هذا الحديث ، وأفاض فيه كثير من المسلمين ، وكاد يتحول إلى كارثة إسلامية ، بتنازع الأوس والخزرج ، لولا حكمة رسول الله الذى أسرع بحسم الشر . . .

وكانوا يتنقصون أتقياء المؤمنين فى سخرية وتهكم ؛ قال رجل منهم فى جماعة من صلحاء القراء : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء ! فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا ، غضب وجاء الرجل يعتذر ويقول : إنما كنا نخوض ونلعب .

وقالوا عن النبى : إنه أُذُن ، كلما قال له أحد شيئاً صدقه ، فإذا قيل له ضده صدقه أيضاً .

وكانوا يهزءون بالمطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، فمن أعطى جزيلا رموه بالرياء ، ومن أعطى قليلا لأنه لا يجد إلا جهده ، سخروا منه . . . كل هذا وهم معدودون من المسلمين ، لا يستطيع أحد أن ينكر عليهم إسلامهم ، لأنهم يقولون بألسنتهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتحت ستار هذه الشهادة يأتون ما يأتون من الجرائم ، فإذا سئلوا اعتذروا ، أو أنكروا وأقسموا .

(د) تدبير الاتصالات السرية باليهود ، والمشركين ، والنصارى ، للايقاع برسول الله والمسلمين ، وأنباء هذه الاتصالات ، مذكورة فى كتب السير والتفاسير ، ونذكر منها على سبيل المثال ما كان من منافقى رهط أبى عامر الراهب ؛ فقد سافر هذا الرجل ، إلى ملك الروم ، يستنصره على النبى ، فوعده ومناه وأقام عنده وكتب

إلى جماعته من أهل النفاق ، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم عليهم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويغلبه ، ويرده عما هو فيه ؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلا منعزلا ، ليستقبلوا فيه رسله وكتبه ، وليكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فبنوا لهذا الغرض مسجداً سمى فيما بعد مسجد الضرار. وهو الذى نزل فيه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ، وَكُفْرًا ، وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى . وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » .

أما موقف النبى صلى الله عليه وسلم من هذه الفئة فهو موقف لا يقفه غيره عليه السلام .

(ا) كان يترك إلى الله سرائرهم ، ويعاملهم بما يبدو من ظواهرهم . جاءه منافق ليتوب من نفاقه ، فقال : « يارسول الله : الإيمان على لسانى ، والنفاق فى قلبى ، ولا أذكر الله إلا قليلا ، فقال عليه السلام : اللهم اجعل له لساناً ذاكرا ، وقلباً شاكراً ، وارزقه حبى وحب من يحبنى ، وصير أمره إلى خير !. فقال الرجل : يارسول الله ، إنه كان لى أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ فقال عليه السلام : من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على أحد سترا » .

(ب) كان يشفق عليهم من إثم ما يجرمون ، فإذا أنبأه الله من أمرهم شيئاً استدعى أحد أصحابه وقال له : « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا » كما حدث فى غزوة تبوك لما حاولوا إرهاب المسلمين من الروم .

(ح) كان يشعرهم أن إغضاءه عنهم هو إغضاء الكريم الذكى الفطن ، لا إغضاء الغفلة والبلادة ؛ فكان أحياناً يغمزهم بما يكاد يكشف أمرهم . . . فكلامهم غير كلام المؤمنين الصرحاء : « فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » وأحوالهم غير أحوال المؤمنين المطيعين : « وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً » ولكنهم لم يعدوا شيئاً كما أعد غيرهم ، فكان من علامة المنافقين عدم اهتمامهم بالاستعداد للقتال ، اكتفاء بعذر كاذب يعتذرون به للرسول صلى الله عليه وسلم . . . بل كان الاعتذار نفسه من جملة صفاتهم المميزة لهم : « إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ » الآية .

(ى) وصف ماهم عليه من الجبن وتفاهة القدر : « وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ ، وَقَالُوا : ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ — أى النساء — فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ، وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ » .

وكل منصف يرى أن اكتفاء القرآن بوصف حقيقتهم هو أعدل المواقف ؛ ولك أن تقدر ما كان يحل بهؤلاء الخونة المستترين ، لو أنهم كانوا فى دعوة من الدعوات الحديثة ، لترى السماحة التى قوبلت بها جرائم هؤلاء .

فطبيعة الموقف فى هـذه الجبهة ، أن المنافقين كانوا يجهدون لإضعاف الروح المعنوية فى الجيش الإسلامى ، ويعملون لشق جماعتهم ، ويحاولون الغض من جلال الرسالة ليهون شـأنها فى قلوب الناس . ويتصلون سراً بأعداء الإسلام فى الداخل والخارج للقضاء عليه ؛ أما الرسول صلى الله عليه وسلم فكأن يقبل منهم ظاهر أمرهم ويترك إلى الله سرهم ... ويشفق عليهم من إثم ماهم فيه ... ويكتفى بأن يشعرهم بفطنته التى لا يروج لديها نفاقهم ... ولا يوقع بهم من الأذى أكثر من وصف مجموعتهم بالجبن وتفاهة القدر ، دون أن يعرض لأشخاصهم بشىء .

ولعل فى هذا التلخيص ، مايعين الداعية على فهم ما ورد فى القرآن الكريم خاصاً بهذه الناحية ، وهو — طبعاً — فى السور المدنية . ولا سيما فى صدر سورة البقرة ، وسور : النساء ، والتوبة ، ومحمد ، والمنافقين ...

جبهة المشركين :

وهى هنا جلاد بالسيف ، ومعارك تراق فيها الدماء . . غير أن القرآن لاينحو فى تسجيلها نحو المؤرخين ، ولا يسرد أنباءها سرد المراسلين الحربيين فى ميادين القتال ، ولكنه نمط عجيب يعرض عليك من حوادث الأبطال ، وكلمات الرجال ، ماهو جدير بالخلود والتسجيل ؛ نمط يريك الروح المعنوية للمقاتل المسلم ، أعظم ما تكون الروح المعنوية قوة ، وأنقى ماتكون طهراً ، وأصفى ماتكون إشراقا .

على أن هذا النمط ينفرد بلون من الإعجاز ، إذ يبث فى ثنايا الحوادث والمقالات ، قوانين الحرب ، وأحكام القتال ، وآداب الجهاد ... فتقرأ حين تقرأ دروساً فى البطولات القوية المثيرة ، دون أن تشعر بما اعتاد الناس أن يشعروا به حين قراءة القوانين من الملل والركود ، فهى بطولة مؤسسة على القانون ، وقانون يعرض نفسه عليك فى أنباء البطولة ؛ فإن قلت : إن سر القانون لبس القوم فكانوا أبطالا ، فأنت صادق ؛ وإن قلت : إن القوم صاغوا بأعمالهم صوراً حية لهذه القوانين ، فأنت كذلك صادق .. والقرآن الكريم ، إنما يرمى إلى كلا المعنيين : يشيد بفضل القوانين، ليبعث بالهمم إليها ، ويشيد بأعمال المؤمنين ، لتكون منوالا لمن ينسج عليها .

ولسنا بصدد إيراد كل ماجاء فى القرآن عن قوانين الحرب وآداب القتال ، وإنما بصدد تحليل لون من ألوان جهاده صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؛ والمقام يقتضينا الاقتصار على ما يبين لنا طبيعة الموقف فى هذه الجبهة الثالثة من جهات جهاده صلى الله عليه وسلم .

١ — والمادة الأولى من هذا القانون ، توجب أن يكون القتال فى سبيل الله ، وقد قرأ المسلمون هذه المادة وفهموها ، ورعوها حق رعايتها ، لأن قلوبهم استوعبتها، وآمنت بها حق الإيمان ، ونحن نكتفى بأنواع ثلاثة من أغراض القتال فى سبيل الله .

الأول : لنشر العقيدة الإسلامية ، إذ يقول الله تعالى : « وَقَاتِلُوهم حَتّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدين كُلُّهُ لِلّهِ » .

الثانى : لتحرير الأوطان ، وتخليص أهلها المستضعفين من ذل السيطرة الأجنبية ، والله تعالى يقول : « وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلونَ فى سَبيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ، الَّذِينَ يَقولونَ رَبَّنَا أَخرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ، واجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً » ..

الثالث : تأديب الغادرين الذين نكثوا أيمانهم ونقضوا عقودهم ، وهذا قول الله سبحانه : « ألا تُقَاتِلون قَوْماً نَكَثُوا أَيمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُول وَهُم بَدَءُوكم أَوَّلَ مَرَّةٍ » . وقد نزل هذا القرآن الكريم فى مشركى قريش لما نقضوا عهد الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ — والمادة الثانية من هذا القانون المبارك ، توجب على المقاتل أن لا ينتظر أجراً على قتاله إلا من الله سبحانه ، وذاك قوله تعالى : « فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ » أما الذين يشرون الحياة الآخرة بالدنيا فليسوا من أهل هذا القانون .

وجزاء الله مكفول لا محالة فى الدنيا لمن كتب لهم النصر والغلبة ، وفى الآخرة لجميع المقاتلين : « وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً » « قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ » ؟ .

والحسنيان هنا هما : النصر فى الدنيا ، وأجر الشهادة إذا كان القتل . . وأحب بهذه المناسبة أن أنبه إلى خطأ يقع فيه بعضهم بحسن نية ، ذلك أنه يجعل إحدى الحسنيين مغانم القتال عند النصر ، والأخرى أجر الشهادة . . . ووجه الخطأ أن القاتل المسلم إنما يبغى وجه الله لا وجه غرض من أغراض الدنيا ، وهذا المقصد السامى الجليل ، يجب أن نتزهه عن أن يتعلق به أغراض رخيصة كهذه ، . . . هذا إلى أن جعل مغانم القتال إحدى الحسنيين فى مقابل أجر الشهادة فى الآخرة ، مما لا يسيغه أهل الفقه المستنير ، فأين هذه المغانم اليسيرة مما أعد الله للشهداء من جزاء لا يحيط به وصف الواصفين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ » فانظر ماذا تقع هذه المغانم من متاع الدنيا القليل ، ثم انظر ماذا تقع من أجر الشهادة الضخم الجزيل . . وسل نفسك بعد هذا هل تطمئن إلى أن تكون هذه المغانم فى ميزان الله إحدى الحسنيين مقابل أجر الشهداء ؟ .

إن الذى يطمئن إليه ضمير المؤمن ، أن تكون عزة النصر هى إحدى هاتين الحسنيين ، وهو الذى يساير قول الله تعالى : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . . فهل يسمى الله مغانم الحرب أجرا عظيما ، وهو الذى يقول عن متاع الدنيا كلها : إنه قليل ؟ وبعد فما كان المؤمنون عبيد درهم ولا دينار ، وهم يحملون سيوفهم بأيديهم وقلوبهم فى صدورهم ،لا تهتف إلا بالله ولا تنظر إلا لثوابه . . فإذا وقع أخيراً بين أيديهم شىء من الأسلاب والغنائم ، فهو شىء قد أحله الله لهم ، ولكنه لا يمكن أن ينزل فى قلوبهم منزلة الفرح بنصر الله سبحانه .

٣ — والمادة الثالثة من جريدة هذه الآداب تنص على أن مصدر القوة والتأييد الذى يلقاه المسلمون فى قتالهم ، هو الله سبحانه وتعالى ، فليس لمخلوق قوة ذاتية ، إلا

أن تكون مستمدة منه جل شأنه . . وقد وصف الله ذاته بأنه قوى ، وبأنه القوى ، وأنه ذو القوة المتين ، وأنه القاهر فوق عباده ؛ ولكن الجامع لقوته سبحانه ، المانع أن يكون لغيره قوة ، هو قوله تعالى : « لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ » .

فإذا حرك المؤمن يده ليضرب بها ، فإنما يحركها بقوة الله ، لا بقوته هو : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ » .

. . . وكم صرع المسلمون الرجال ، وجدلوا الأبطال ، فنزل القول الحكيم يقرر الحق فيما فعلوا : « فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ » .

. . . ولقد جاء الرجل فقال : يارسول الله ، إن القوم قد جمعوا لك عددهم ، وعدتهم ، وأرى أن تستقبل أمرك بشىء من الحذر والخشية ؛ فنظر الرسول إلى عرش الله ، فإذا قوة ساحقة ماحقة ، لو توجهت إلى كل من فى الأرض وما فى الأرض جميعاً لجعلته لا شىء ، فزاد إيمانه صلى الله عليه وسلم بالله ، وقال : حسبنا الله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » . وليس هذا بغريب ممن أدبه الله بمثل هذا الأدب فى قوله : « أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ، إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ » .

ولقد كان بعض المسلمين يدخل عليهم أحياناً — من باب السهو — شىء من الإعجاب بكثرتهم ، فيحيق بهم فى الحال ما يردهم إلى حقيقة قانون الله : « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ » .

٤ — والمادة الرابعة من هذا الدستور الحربى الكريم ، أن نصر الله ليس هبة توهب ، ولا منحة تمنح بدون مقابل ، وإنما شرطه أن ينبعث المرء فعلا إلى الجهاد فى سبيل الله : « إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » فمن تمنى على الله الأمانى ، وقعد فى بيته ينتظر أن ينصره الله ، فقد دل من نفسه على غفلة خائبة ، وأضاع عمره فى غير جدوى .

ونظام العمل فى هذه المادة ، أن ننهض نهضة قوية شاملة ، وأن نأخذ بكل الأسباب الممكنة ، وأن نعذر إلى الله باستفراغ كل ما فى الطاقة من جهد ، ولو كان جهد المقل ؛

(١٦)

فهذا وحده مفتاح نصر الله ، وهو وحده السر الذى تحرك به جنود الله ، فى السماء والأرض .

واعلم أن هناك كثيرا من آيات القرآن تدور حول هـذه القوانين ، وتتصل بها من قريب أو بعيد ، فتشرحها شرحا مستفيضاً . فإذا كان هناك من يظن أنى ألممت بالشرح الوافى لكل مادة ، فليحذر هذا . . فإنما هى موجزات مضغوطة ، لو أردنا أن نسرد كل الآيات التى تشير إليها لامتد بنا القول . . . فتنبه لهذا ، والله معك .

وأعود أخيرا . فأقرر أن القرآن الكريم فى هذه الناحية لا يسرد أخبار الجيوش وحركات الجند ، وإنما يقرر هذه القوانين ونحوها ، ويذكر من أقوال المجاهدين ، وأعمالهم ماهو تطبيق لها ، وتفسير عملى لأسرارها ، وتجريب واقعى لصحة موعودها ، فلا بد من استحضار هذا كله فى الذهن ، عندما نقرأ أثناء هذا اللون الدامى من ألوان الجهاد فى سبيل الله ، فإن الآية حينئذ تفصح لنا عن مكنونها ، بأكثر مما كانت تفصح من قبل ...

واقرأ على هذا من الآن غزوات : بدر ، وبنى النضير ، وأحد ، والخندق ، وبنى قريظة ، والحديبية ، وحنين ، وتبوك ، فى سور آل عمران ، والأنفال ، والتوبة ، والأحزاب ، والفتح ، والحشر ، وكلها مدنية ؛ فإنك واجد إن شاء الله ما حدثناك به ، على أن تجعله مصباحاً تهتدى به فى رسالتك وجهادك . . .

أسس المجتمع فى القرآن

ثالثا . يجب أن نقرأ القرآن على أنه يرمى إلى بناء مجتمع فاضل ، أو مجتمع نموذجى كامل ، وعلينا أن نلتمس مواد هذا البناء فى آياته البينات على النحو الآتى :

١ — ما هى التعاليم التى سنها القرآن للفرد ، ليجعله عضوا سليما نافعا فى هذا المجتمع ؟

٢ — ما هى المبادىء الاجتماعية ، والاعتبارات العاطفية ، التى قررها للجماعات ليكونوا متعاونين على البر والتقوى ؟

٣ — ما هى القواعد التى شرعها لنظام الدولة العام ، ليتربى فى ظلالها خير أمة أخرجت للناس ؟

ولتسهيل البحث ، نذكر أن كل ما جاء عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفضائل النفس الذاتية ، إنما هو خاص بإعداد الفرد ؛ فعليك بتسريح طرفك فيه ، طرفك القلبى لا العادى وحده ، فسترى أن القرآن جاء بالممتع المشبع ،

الذى يبنى كيان الشخص أفضل البناء وأقواه ، وسترى أنه أفاض فى هذا الباب ، وأحاط بكل جزئياته وتفاصيله ، بما لا يرد على البال ؛ وحبذا لو جمعت لنفسك طائفة مختارة من هذا الباب ، تكون مرتبة حاضرة على لسانك عند الاستشهاد .

وفى دستور الجماعات المتعاونة ، جاء نظام الطبقات ، وإقرار الفروق المادية ، وكفالة الحقوق الإنسانية ، فى ظل الإخاء العام ، الإخاء الحقيقى لا النظرى ... جاء حق الفقير فى مال الغنى ، والنص على أن المال مال الله سبحانه وتعالى ، ونحو هذا مما تتيسر به الأزمات النفسية ، ويسهل به امتزاج العواطف ، وتوافر الحب بين الجماعة ، فعليك باستقصاء هذا النوع من المبادىء فى القرآن ، مع الاهتمام بمعرفة موقع كل مبدأ فى بناء الجماعة على الحب والإخاء .

وفى نظام الدولة : واجب الرئيس الأعلى فى أصلين كبيرين : (١) العدل فى الحكم (٢) ورعاية ما ائتمن عليه من حقوق النـــاس المختلفة : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

وقرر واجب الأفراد فى أصلين كبيرين أيضا : (١) الطاعة المطلقة ، إلا فى معصية الله (٢) والارتفاع إليه بمنازعاتهم التى يعجزون عن حلها بالوسائل السليمة : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » .

هذا إلى التشريعات الخاصة بحماية النفس ، والعرض ، والملكيات ، وتقرير قواعد المعاملات فى البيع والشراء ، والدين ، والرهن ، والإجارة ، والميراث ونحوها ؛ والنص على أصول السياسة الخارجية للدولة ، من حيث الحرب والسلم والمعاهدات ، والتصريح بأسباب ضعف الدولة ، وقوتها ، بما ليس وراءه زيادة لمستزيد .

فإذا نحن قرأنا القرآن ، وليس فى أذهاننا هذا الاعتبار ، بدا لنا كأنه مصمت مغلق ، كأنما نسير فى مدينة غريبة مجهولة التخطيط . . ولكنا إذا راعينا هذا الاعتبار بدقة ويقظة ، انكشف لأبصارنا وبصائرنا حقائق جميلة ، ما كانت تخطر بالبال .

القرآن وقوانين الوجود :

رابعاً : وعلينا أن نقرأه على أنه جامع القوانين التى يدار بها هذا الوجود ؛ فإن كل شىء عنده سبحانه بمقدار ، وكل أمر يجرى على سنة وقانون ، فمن هدى إلى هذه السنن والقوانين ، وصدقها وآمن بها ، وأحسن توجيهها والانتفاع بها ، فقد انحازت إليه مفاتيح هذا الوجود ، فلينظر كيف يتصرف فيه .

وإليك بعض هذه القوانين على سبيل التمثيل :

١ — الاستغفار مفتاح أرزاق السماء ؛ ولا تحسبن أنا نقصد الأرزاق المعنوية القلبية فحسب ، بل هو قانون الأرزاق المادية أيضاً .. ولا نحب أن نتركك إلى حدسك وتخمينك ، فاقرأ معنا قوله تعالى : « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً » .

وقد ابتلينا فى العصر الحديث بالغفلة والشك ، وذهبنا نظن أن هذا الكلام ومثله إنما أريد به مجرد الترغيب والترهيب ، لا أنه حقيقة واقعة ، وقانون صادق ؛ ابتلينا بهذا فخسرنا كل شىء ... وقد كان سلفنا الصالح يفطنون إليها ، ويوقنون بخيرها ، ويستفتحون أبواب السماء بسرها ، فيسعفهم الله بما يريدون .

روَوا أن السماء أمسكت ، والأرض أجدبت ، على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فخرج مع الناس ليستسقى لهم ، أى يدعو الله أن يمطرهم ، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه الشدائد ، فاستغفر عمر ربه هنيهة ، ثم عاد بالناس ، فقالوا له :

— مانراك استسقيت لنا .

— قال : لقد استسقيت لكم بمجاديح السماء .

— قالوا : وما مجاديح السماء ؟

— قال : الاستغفار .

وكأنهم حاروا فى أمرهم : أيقول هذا من عنده . أم هو شىء فى كتاب الله ؟ فقال لهم : حيث يقول الله سبحانه : « فقلتُ استغفِرُوا رَبَّكُم إنهُ كانَ غفَّارًا ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا » وها قد استغفرت لكم ، وسيرسل الله السماء عليكم بما يشاء . . . قالوا : فما أتم عمر كلامه ، حتى اهتز الأفق ، وبدأت الرياح تثور ،

وأقبلت السحب تترى ، حتى انعقد فى سماء المدينة ظلة من الغمام ، وأنجز الله موعوده :
« فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبكُم إنهُ كَانَ غفَّارا ، يُرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا » .

٢ — حِصْن النعم أن تقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ... وهو قانون كريم ، وتعليم صادق حكيم ، أجراه الله فى سورة الكهف على لسان الرجل المؤمن ، حين قال لصاحبه وهو يحاوره : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ! » . . . وكم قرأنا نحن هذا القول ، دون أن نلتفت إلى ما فيه من الخير ، حتى أوقفنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد ، فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة ، دون الموت » .

ولهذا كان بعض السلف يقول : من أعجبه شىء من حاله أو ماله أو ولده ، فليقل : ماشاء الله لاقوة إلا بالله . وهو قول مأخوذ من الآية الكريمة ، ويستند إلى الحديث الشريف .

٣ — كل عمل السوء يرتد على صاحبه ، فيوبقه : هذا قانون لايتخلف من قوانين الله . فنية الشر تلد فى كل عمل روحا شريرة ، تكمن فيه كالوحش ، ترتقب الوقت المناسب لتثب فيه على صاحبها . واقرأ معى قول الله تعالى « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ » وقوله سبحانه : « وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ » وقوله : « فَمَنْ نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِه » . قال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزلن به : المكر ، والبغى ، والنكث ؛ وتصديقها فى كتاب الله تعالى : « ولايحيق المكر . » إلخ إلخ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصور لنا شدة إلحاح الشر فى طلب صاحبه بقوله : « إياك ومكر السيء ، فإنه لايحيق المكر السيء إلا بأهله ولهم من الله طالب ! » بل إن الله عز شأنه يبين لنا بصريح العبارة أن هذا قانون من قوانينه ، فيقول عز شأنه : « وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بأهْله ، فَهَلْ يَنْظُرونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لسُنّةِ الله تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجدَ لِسُنّةِ اللهِ تَحْوِيلا » .

٤ — إن كل هدف يسعى إليه المرء باسم الله ، فهو مدركه لامحالة . ومن السهل على الإنسان أن يصدق هذا بعقله ، ولكن ليس من السهل أن يحيط به قلبه ، لأنه من حقائق اليقين ، التى لايلم بها إلا ذوو القلوب .

ولقد قلنا فى غير موضع : إن شأن القلوب فيما تفقه ، هو التسليم المطلق بما فقهت ، تسليما غير مقيد بعلة أو برهان .

أما شأن العقول ، فإنها لاتقبل شيئاً إلا بميزان المنطق القائم على الأسباب والمسببات ، والعلل والمعلولات ، والأقيسة والمفهومات ، وما إلى هذا من قوانين التفكير .

فاذا انبعث المرء بحقائق فكره ، انبعث وهو يقدر لرجله قبل الخطو موضعها .

وإذا انبعث بحقائق قلبه ، مضى على قانون التسليم المطلق ، كأن ما انبعث إليه حقيقة واقعة .

وليس من قصدنا هنا أن نشرح حقيقة الفهم العقلى والقلبى ، وإن كنا نحس أن هذا من الضرورات التى لاغنى لأحد عنها ، فإن فى القرآن والسنة مدركات تبدو كأنها وهم إذا نظرنا إليها بالعقل وحده ؛ فنكتفى بما قررناه ، مؤكدين أن الإنسان فى أشد الحاجة إلى كلا النوعين من الفهم ، على أن يحسن الانتفاع بكل منهما فى مقامه .

رووا أن المسلمين جاءوا مصر لفتحها ، واجتمع أولو الأمر فيها ، وطلبوا إلى قائد الحملة أن يرسل إليهم رسولا ، يفاوضهم ويفاوضونه .. وكان مما جرى فى مفاوضاتهم أن حاولوا توهين عزيمته ، وإلقاء اليأس فى قلبه من فتح البلاد ، فما كان منه إلا أن أجابهم بكل بساطة : ياهؤلاء ، إننا لسنا بصدد فتح البلاد ، فإن الله قد فتحها لنا منذ أن قطعنا إليكم من الأودية ماقطعنا ، فهو سبحانه يقول : « وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ »

ونحن نترك لك أن تتأمل هذا الاستخراج الجميل ، والفقه الدقيق ، واليقين الصادق ، الذى من الله به على هؤلاء المؤمنين .

٥ — والله سبحانه يقول : « وهو يتولى الصالحين » . فكون الله تعالى يتولى الصالحين ، قانون نافذ ، وقول صادق ، فليعلم هذا كل من يحب أن يدخل فى الرعاية التى لا يرام حماها ، وكل ما عليه أن يأخذ بأسباب الصلاح ، حتى تجرى عليه أحكام هذا القانون الكريم .

وقد يموت الرجل الصالح ، وله ذرية ضعفاء ، فتمتد رعاية الله إليهم ، توسعاً منه سبحانه فى عموم رحمته ، ولأن رعايتهم رعاية لأبيهم ، لما فيها من تطييب قلبه ، وتسكين خواطره ؛ وأنت تقرأ تصديق هذا الكلام فى سورة الكهف إذ يقول سبحانه : « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ، ويستخرجا كنزهما ، رحمة من ربك ؛ وما فعلته عن أمرى » .

فالله سبحانه قد سخر الخضر عليه السلام لإصلاح الجدار، إبقاء على ثروة الغلامين اليتيمين، وإنفاذاً لمشيئته فى رعاية أبيهم الصالح بعد مماته.

وقد قرأنا استخراجا لطيفا من هذه القصة، لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أجدبت الأرض على أيامه، وشكا إليه الناس ما يلقون من شدة، وكان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حيًّا، فأخذه بيده وخرج ليستسق للناس، فقال فى معنى استسقائه: اللهم إن نبيك كان يستسقيك لأمته فتجيبه وها نحن أولاء اليوم، وليس من يستسقى لنا! اللهم وهذا العباس عم نبيك، وبقية أهله، فاحفظ نبيك الصالح فى هذه البقية، فإنك قلت وقولك الحق: «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا»، فما لبثت السماء أن أقبلت عليهم بالمطر الغزير.

ولعل فيما أسلفنا من هذه الأمثلة، ما يغنينا عن الاسترسال فى الاستشهاد، ويقف بنا على حقيقة المراد.

ومع أن من السهل أن يلتفت الإنسان إلى هذه القوانين فى القرآن، ويستخرج منها ما يهديه الله إليه، فإنا نذكر هذه التوجيهات البسيطة تيسيراً لمهمته:

١ — يستطيع كل قارىء أن يجد الكثير من هذه القوانين، فى صيغ المبتدأ والخبر — وما هو فى حكم المبتدأ — كقوله تعالى: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا، لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»، «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» ... فعليك بملاحظة أمثال هذه الصيغ فإن فيها الشىء الكثير.

٢ — وفى صيغ الأمر وجوابه، يسوق الله طائفة كبيرة منها: «اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا»، «قَاتِلُوهُمْ، يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ».

٣ — وفى صيغ الشرط وجوابه يطالعك الكثير من سنن الله فى حزم وقوة: «إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ»، «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا»، «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»، «إِن تَتَّقُوا اللَّهَ

يجعل لكم فرقانا »، « ولو[1] أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض »، « فأما[2] الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ».

٤ — وتستطيع أن ترى فى صيغ الحصر والقصر، قوانين فى غاية الظهور والجلاء : « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا »، « ويأبى الله إلا أن يتم نوره »، « ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم »، « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ».

٥ — كل جملة تفيد ترتيب الجزاء على عمل سابق : « نسوا الله، فأنساهم أنفسهم »، « نسوا الله فنسيهم »، « ففررت منكم لما خفتكم، فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ».

ليس على المرء بعد هذا، إلا أن يعنى عناية جدية بالتنقيب عن هذه القوانين، فهى سنن الله الباقية النافذة ... وليست هذه الصيغ التى أشرنا إليها كل شىء فى موضوعنا هـذا، فإن كل حكم يمكن استخلاصه من آية من الآيات يعتبر قانوناً من هذه القوانين ... والمدار كله على النظر، بل كيفية النظر فى هذه السنن، المدار على الاهتمام القلبى، والحرص الذى يشغفك بها كما شغف الذين من قبلنا ... اقرأ القرآن على هذا الاعتبار، تنفسح فى نفسك له آفاق وآفاق ...

القرآن خزائن المعانى وجامع المعارف :

خامساً — والقرآن، كلام الله سبحانه، وخزانة معانيه، وجامع علومه ومعارفه .. وهذه ناحية لا يدرك الناس غورها، ولا يفقهونها حق فقهها، بل ولا بعض فقهها .

فإذا افترق أهل الأذواق الأدبية فى نقد كلام البشر، إلى قائل يدعى أن جودة الكلام راجعة إلى اللفظ دون المعنى ... وإلى آخر يمارى بأن المعنى هو كل شىء، وما اللفظ إلا وعاء له، وأن العبرة بلباب الشىء لا بظواهره .. إذا افترق الأدباء

---

(١) لو هنا من حروف الشرط .

(٢) أما من أدوات الشرط كذلك .

إلى هذا وغيره ، فإن مما لاشك فيه أن الكتاب يتفاوتون بتفاوت ملكاتهم وخصوبتها فى إنتاج المعانى القيمة ... وأن كلامهم بعد هذا يتدرج فى أقدار الشرف ، بحسب مايتضمن من هذه المعانى كيفاً وكمًّا .

إذا سلمنا بهذا ، دعوناك يا أخى إلى تصور الفروق الهائلة بين البشر وبين الحق تبارك وتعالى — إن صح أن يكون هناك فرق بين مخلوق يكاد يكون لا شىء ، وبين خالق عظيم جليل هو كل شىء فى كل شىء — ولكننا نضطر إلى محاولة تصور هذه الفروق ، لنرتب عليها إدراك شىء من الفروق الهائلة بين ما يصنعه البشر العاجز الضعيف كلامه ، وبين ما جاءنا فى كلام الله القديم ، من معانيه القديمة ، ومعارفه التى لا يحيط بها حصر ، ولا يدرك لها غور .

نريد أن نقرأ القرآن الكريم ، ونحن مستحضرون هذا الشعور ، أو هذه الفروق ، فى مشاعرنا ومداركنا ، فإن هذا يجعلنا نتوقع أن تشف لنا كل كلمة ، بل كل حرف ، عن محيطات من المعانى لا ساحل لها ؛ ونحن لا نقول هذا بروح المتعصب الإسلامى . . ولكن بروح الإنسان الذى تمثل — على قدر ما يستطيع — ما هنالك من فروق هائلة بين البشر وبين الله سبحانه ، فلم يجد ما يعبر به عن مراده إلا هذا القول الصادق ، البالغ غاية الصدق .

إن الله سبحانه ساق كلامه فى قدر محدود ، من صفحات المصحف الشريف ، وسور مقدرة معلومة ، هى سور القرآن الكريم ؛ وقد استطاع العلماء أن يَعُدُّوا آيات القرآن ، ويعدوا كلماته ، بل أن يعدوا حروفه . . . فهى إذن حروف معدودة ، تحوى معانى كلام الله القديم كلها . . فكيف نتصور احتواء هذه الحروف على علوم الله سبحانه ، إن لم يكن فى كل حرف إشارات إلى آفاق وأعماق ؟

إن كاتباً من الكتاب يستطيع أن ينتج فى إنتاجه الأدبى ، من الحروف عدداً يساوى حروف القرآن ، أو أكثر

فإذا جمعت كل ما أنتج جيل كامل من الكتاب ، وأحصيت حروفه ، وحاولت أن تستخلص ما فى هذه الحروف من المعانى ، ثم حاولت أن تقارن هذه المعانى ، بما جاء فى كتاب الله ؛ لأدركك الحياء ، وأعرضت عن المضى فى هذه المقارنة ، تنزيها لعقلك أن يستمر فى شىء غير معقول . . . فإذا جمعت كل ما أنتج كتاب البشرية وفلاسفتها ، فى كل أجيالها وعصورها ، وتسنى لك إحصاء حروفه ، واستخلاص معانيه ، ثم حاولت أن تقارن بينها وبين كلام الله ، لرفض فقهك ويقينك بالله أن يلتفت إلى هذه الحماقة ، ولدوى صوت الوحى فى أعماق قلبك يخاطب هذه الأجيال البشرية فى شخصك :

« وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » . . « وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ » .

ولمضى الوحى الكريم يتكلم عن الطرف الآخر فى المقارنة ، وهو علم الله سبحانه :
« قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » . . « وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

فإذا أنت حاولت أن تجمع علم البشرية كلها ، وهو قليل ، وتضغطه فى حيز معدود من الحروف ، مماثل لعدد حروف القرآن وكلماته ؛ أفلا يحق لك أن تقول إن تحت كل حرف إشارات وإشارات إلى علوم ومعارف كثيرة ؟ فكيف والقرآن الذى بين يديك ، جامع علوم الدنيا والآخرة ؛ مما لا يحيط به إلا الله سبحانه ؟

حقاً يا أخى ، إن تحت كل كلمة من القرآن لأسراراً بعيدة الأغوار ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه ، بأن له ظهراً ، وبطناً ، وحدا ، ومَطلعا ، ويقول وقد فقه منه ما لم نفقه : إنه « لا تنقضى عجائبه ! » . . . فانظر شأن هذا الكلام الذى حوى من العجائب ما لا ينقضى !

ولقد كان علماء المادة يقفون فى أبحاثهم عند الذرة ، ويقولون : إنها الجوهر الفرد الذى تتركب منه المادة ، ولا يقبل التجزئة ، لتناهيه فى الصغر والدقة . . ولكنهم عادوا يطالعوننا بعجيبة من عجائب الذرة ، وهى قابليتها للتجزئة والتحطيم ، إذ حطموها فعلا ، واستكشفوا ما فيها من خلائق الله وأنواع الإشعاع ، وما زالوا يطالعوننا إلى الآن من أسرار جزئياتها بالعجيب الرائع ؛ وإذا بالقرآن يطالعنا بسر تحطيم الذرة كأنما نقرؤه لأول مرة فى قوله تعالى : « وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » ... فكلمة « أصغر » وحدها ، ليست إشارة إلى الذرة فقط ، بل هى تصريح جلى بإمكان تجزئتها وتحطيمها ؛ ولك أن تحصى كم من الجهود والتجارب والمعارف سخرت وبذلت فى سبيل تجزئة هذه الذرة .. وكم من العلوم والمعارف وأسرار القوى يندرج تحت أجزائها ! وإذا عرفت أن تحطيم الذرة إنما هو باب — فقط — لآفاق من العلوم جديدة ، أمكنك أن تدرك أن كلمة « أصغر » هذه كانت تسخر من

معارف البشر ، حين كانوا ينكرون تجزئتها ، وأنها حينئذ كانت تشير للغافلين عما وراءها من المعارف الهائلة الخطيرة .

وإذا كان هذا شأن كلمة واحدة من كلماته ، فكيف بكلماته كلها ؟ . . بل إذا كان هذا شأن كلمة من الكلام الذى يمس المادة المحسوسة ، فكيف بكلمة تتناول من أسرار الروح ما لا نرى ولا نحس ؟

ولست بعد هذا أطمع أن أكلف نفسى أو غيرى ، أن يسبر أغوار هذه الأعماق ، وإنما أطمع أن يستحضر ذلك الشعور الذى يلفته إلى أنه يقرأ كلاماً لا كالكلام . . . يقرأ كلاما حافلا بأسرار المعارف والعلوم ، حتى لا يترك سطراً واحداً دون أن يستخرج منه معنى واحداً على الأقل . . وليعلم أننا لم نشبع أنفسنا بالكلام عما نشعر به نحو القرآن ، وما تحوى آياته من وجوه المعانى العجيبة ، فإن هناك لحظات تمر ببعض العارفين ، ينكشف فيها الغطاء عن قليل من وجوه هذه المعانى ، فإذا عوالم رهيبة خطيرة ، لا ينجى منها إلا أن يعود الغطاء إلى ما كان : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ . وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ » . . « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

فقف يا أخى ، وابحث ، ونقب فى كلام الله ، على هدى وبصيرة ، فإن المعانى تفتح لك ما استغلق من أبوابها .

اقرأ القرآن على أنه خزانة المعانى ، وجامع المعارف ، وانظر ماذا تحصل لنفسك منها ؟

ابسط مصحفك أمامك ، واقصد سورة من سوره ، ونقب فيها ، تنقيب الأثرى الحاذق العالم ، عن ثمين الآثار وجواهر الكنوز . . اقرأها آية آية ، وضع على هامش مصحفك عنوانا لخلاصة ما يبدو لك من معناها . . ثم اجمع ذلك فى جريدة أو « قائمة » تجد نفسك أمام عناوين — أو رءوس موضوعات — كلها فى غاية العمق الملىء بعلوم الحياة وحقائقها ، مما لو أردت استنفاد الجهد فى شرح كل منها وتفصيله ، لطال بك الأمد . .

لقد فتحت مصحفى ، ووجدتنى أمام سورة الزخرف ، وهأنذا أنقل إليك بعض رءوس موضوعاتها لا كلها : . . جلال شأن القرآن . الله لا يحقرنا بذنوبنا . عروق التوحيد فى أصول الفطرة . نعم الله وأدب التمتع بها . الأنثى فى رأى الحمقى . افتراء

الجهلة فى خلق الملائكة . جمود المترفين على التقاليد التافهة . إنكارهم للحق . كلمة باقية . الترف يورث الصدود عن الحق . عقلية مادية . الفيصل فى فهم حقيقة المادية والربانية . لكل نفس مادية شيطان يلازمها . قرين السوء . الأخسرون أعمالا . ندامة الغافلين يوم القيامة . صبر الداعية المصلح يورثه إحدى حسنيين . عقلية مادية تتخبط فى أوهام الضعف . عاقبة المبطلين . أخلاء السوء يعادى بعضهم بعضاً فى القيامة . دقة إحصاء الله لأعمالنا . سر الألوهية يملأ السموات والأرض .

ومع أن هذه العناوين ليست كل ما يؤخذ من الآية الواحدة ، ومع أننا لم نستوعب كل آيات السورة الكريمة ، فأنت ترى أن الطائفة التى سقناها لك من العناوين ، طائفة قيمة ، تمتاز بأن كلا منها يتناول لونا من ألوان الحياة العملية ، أو القلبية ، بل إن منها ما يتناول ما هو وراء المادة ، كالملائكة ونحوها ؛ وكل منها فى موضوعه يتضمن الحق من لباب المعارف الإلهية ، التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

قراءة القرآن على هذا النحو ، تقتضيك استحضار قلبك وعقلك ، وهذا وحده هو الذى يفتح لك خزائن تلك المعارف القدسية ؛ وهى معارف تنقلك إلى الملأ الأعلى ، وتذيقك من نفحات رضوان الله ما لا قبل لأحد بوصفه . . ولقد حدث أخ مسلم جرب هذه الطريقة فقال : لقد كنت أجلس إلى مكتبى ساعات طويلة ، أربعاً أوخمساً أو أكثر ، فلا يزيدُنى مر الزمن إلا استغراقا فى حسن ما أنا فيه ؛ ولقد كانت تفيض بى النشوة ، فأضطرب أو يضيق نطاقى عن احتمال طاقات السرور المتدفق ، فأضرب بيدى على المكتب ، أو أبدى من ألفاظ الاستحسان على غير إرادة منى . أقول : وقد استطاع هذا الأخ أن يقرأ القرآن كله هذه القراءة ، وأن يجمع من هوامش مصحفه فى ثلاث سنوات ما هديت إليه مواهبه ، ولا يزال كلما أعاد النظر ، يطلع على شموس ربانية من المعانى القيمة الغالية .. وأنا أشير عليك هنا بكتاب « تفسير القرآن العظيم » للامام الحافظ ابن كثير القرشى .. فهو يعينك على فهم ما تحتاج إلى فهمه ؛ فعليك به واحرص على اقتنائه .

والذى أريده الآن ، أن أقول لك : اجمع محصول يومك ، وهو فى المتوسط لا يزيد على نصف ربع ، وهيِّئه تهيئةً طيبة فى قلبك وعقلك ؛ ثم تحدث به إلى إخوانك الذين اعتدت أن تحدثهم ، أو إلى من تشاء من الناس ، مرتباً الترتيب الذى ترضاه ، فإن تحدثك به وهو جديد فى وجدانك ، حى فى مشاعرك ، لين عبق فى فؤادك ، يبلغ درجة كبيرة من التأثير فى نفوس سامعيك ، بل فى نفسك أنت كذلك ..

وهذا من شأنه من جهة أخرى أن يجعل المعانى تربو وترسخ ، وتتمكن منك ، وبكثرة ما تلقى على الناس من هذا المحصول ، تنمو ذخيرتك ، ويسلس لك قياد الاستشهاد .

وأوصى فى ختام هذه الكلمة ، أن تجمع الآيات التى تتماثل فى الإلمام بمعنى واحد ، أو معان متقاربة ، بحيث يتألف من كل عدد منها طائفة يتكامل فيها عناصر موضوعها . اشرع فى ذلك بالتدريج فى غير تصنع ، وستجد الإمام ابن كثير يعينك أجدى معونة على غرضك هذا أول أمرك ، ثم لا تلبث أن يكون لك كتابك الحافل الزاخر إن شاء الله ؛ وقد نصحنا بالتدريج ، لأنه يركز الغرض على مهل ، فى ذهنك وقلبك ، فيكون الموضوع فى عقلك ، قبل أن يكون فى كتابك ، ويكون انتفاعك به على طرف الثمام ، قريب المرام ؛ والله الموفق إلى خير السبل !

القرآن يعد الإنسان للدار الآخرة

سادساً : أن تقرأ القرآن على أن الغرض الأسمى له ، هو إعداد الإنسان للدار الآخرة .

فكل ما أشرنا إليه من روح الله فى القرآن . وما جاء فيه من قصص الجهاد ، وما ضمنه من نظم الاجتماع ، وما أودعه من القوانين والمعارف ؛ ليس مقصوداً لذاته ، وليس غاية تنتهى إليها أهداف الإسلام ؛ وإنما يراد بها إيقاظ القلوب ، وإحاطتها بكل وسيلة مادية أو معنوية ، لتكون سليمة حية ، حتى ينصرف المرء بها إلى غايته الأخيرة .

فعلينا أن نلاحظ هذا المعنى فى كل آية ، فإن العبرة لا تكمل إلا به ، وجمال التوجيه لا يظهر بدونه . . وفى المقام ما يغرى بالاستطراد والاستشهاد ، ولكننا نمسك ، اكتفاء بفطنة القارىء الأريب ، سائلين الله عز وجل ، بكل اسم هو له ، سمى به نفسه ، أو أنزله فى كتابه ، أو علمه أحدا من خلقه ، أو استأثر به فى علم الغيب عنده ، أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وذهاب همومنا ، وجلاء أبصارنا ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم !

٢ — السنة

السنة هى المرجع الثانى — بعد القرآن الكريم — لعلوم الدنيا والدين ، وهى نفحات نفس قدسية ، وخلاصة كاملة لتجارب أعظم عقل فهم القرآن ، وسنن الاجتماع وعلل النفس ، ومشكلات الحياة ، وضروب الإصلاح — وبعبارة أخرى : السنة هى صورة لحقبة من الزمن « نموذجية » فى سمو كمالها ؛ لا يخطر ببالك لون من ألوان

الحياة إلا وجدته فى تلك الحقبة ، حتى إن الألوان التى لم تكن موجودة فى عهده صلى الله عليه وسلم ، تنبأ بوقوعها ؛ وقد جاء الزمن مصدقا بإذن الله لما تنبأ به عليه السلام . . . فإذا أسمعك متحدث : « قال صلى الله عليه وسلم » ؛ فأرهف أذنيك ، واستجمع مواهبك ومشاعرك ، لأنك ستسمع أصدق قول ، وأنفع قول ، وأطهر قول نطق به بشر ؛ وهو بهذه الصفات غنم ، تتضاءل إلى جانبه الدنيا وما فيها . غنم عقلى وروحى واجتماعى وعملى ، يجد فيه كل باحث رى ظمئه إلى ما يشتهى من خير المنافع .

السنة هى الإسلام الواضح فى صورة عملية سهلة لا شائبة فيها ؛ فعليك بالتزود منها من كتب السيرة ، وكتب الحديث والمناقب ، واقرأها كلمة كلمة ، وحرفا حرفا ، على ما أوضحنا فى قراءة القرآن الكريم ، ومثل الحوادث لنفسك على مهل ، لتبدو لك حارة حية ، واستخلص من أجزائها ما تستطيع من عبر .

وأريد أن أنص على معنى يغيب عن ملاحظة بعض المعاصرين ، ممن لهم مشاركة فى السنة ؛ ذلك أن تاريخه عليه السلام ليس كالتاريخ المدرسى أو الجامعى ، أو ليس كتاريخ الأبطال والرجال . . . فتاريخ هؤلاء يؤرخ ما تأثرت به الحياة بفعلهم وتوجيهم الذاتى المنبعث من عواملهم النفسية الشخصية ؛ أما تاريخه عليه السلام فهو تاريخ عمل الله السافر وغير السافر ، أجراه سبحانه بيد عبد ربانى ، ليس له من الأمر من شىء ، إذا نطق لم ينطق عن الهوى ، وإذا رمى فليست رميته ، ولكن الله رمى .

هذه الآفاق الإلهية فى سنة الرسول عامرة بعبر وحوادث تخاطب القلب والعقيدة ، ولا تعبأ بالعقل المادى الخاضع لقوانين المادة وحدها ، ولذا ترى الباحثين المعاصرين والمدرسين ، والأساتذة ، يمرون مثلا بقتال الملائكة فى صفوف المسلمين يوم بدر ، وبالرمية المباركة التى أعمت عيون المشركين . ونحو ذلك ، مما لا يجدونه سائغاً فى منطقهم المادى ، لأنه من فعل الله المهيمن على المادة وغير المادة ؛ أقول : يمرون به وكأنهم لم يروه ، وهم له فى قرارة نفوسهم منكرون ، فيجب أن يكون شأنك غير هؤلاء . . . فالتمس فى أخباره صلى الله عليه وسلم دائماً ناحيتين : العوامل الإلهية السافرة غير المحجوبة بحجاب ، والعوامل النفسية الشخصية الخاصة به عليه السلام . . . وهذه إن بدت مطبوعة بطابعه الذاتى ، لأنها من بنات قلبه وانبعاثات نفسه ، هى أيضاً ربانية إلهية ، لتعلق مشاعره وعواطفه صلى الله عليه وسلم بربه دائماً . . . فالأولى عوامل ربانية سافرة ، والأخرى ربانية بالواسطة ، لا يظهر فيها السفور إلا لمن يقرءون ما وراء

السطور ، ويطالعون ببصائرهم مشارق أنوار الله فى أمثال هذه الصدور . وقد عنيت بأن أنص لك على ذلك ، لكى تقرأ تاريخ الحقبة النبوية على حقيقته .

هذه واحدة . . . أما الأخرى فهى لتعلم عملياً أن الشخص الذى يعيش فى الدنيا بإلهام مشاعره الربانية ، لا بوحى معدته وجوارحه الحيوانية ، عاملا بأمر الله لا بهواه ، مجاهداً فى سبيل الحق للحق لا فى سبيل نوازعه الخاصة ، هو شخص لا يحجبه عن الله حجاب ؛ فهو ينتصر بالله لا محالة ، مؤيداً بجنود السموات والأرض ، ما ظهر منها وما بطن ؛ فافهم هذا يا أخى ، فهو من لب لباب الحقائق العملية ، التى ترى شواهدها شاخصة لك فى سيرته عليه السلام ؛ ومن ثم فاحرص أن تملأ حيـــاتك بهذه الجنود ، ولا تزهد فى نصر الله كما يزهد الجهلة المطموسون .

يا أخى : الخير أمامك ، ليس بينه إلا أن تمد يدك . . . يدك الربانية .

هذا فى تاريخه العملى ؛ ونقول مثله فى تاريخه القولى صلى الله عليه وسلم : فهو كلام لا ككلام الناس ، فإذا حدثك أن مجالس الذكر تحف بها الملائكة ، فاعتقد أن هذا حق من الحق ، لا مجاز فيه ولا كناية ، فهو يقول لك ما يعرف ، لأنه يعرف من علم الله ما لا يعرف غيره .

وإذا دعا المؤمن لأخيه بخير بظهر الغيب ، قالت الملائكة : آمين ، ولك بمثـــل ما دعوت ، فهو لذلك دعاء مستجاب لا محالة ؛ وإذا وعدك على عمل جزاء ما ، أو وصف لك حقيقة من الحقائق ، أو نصحك نصيحة ، فهو الحق الذى لا مرية فيه .

إذا قرأت السنة هذه القراءة ، فهمت الإسلام حقائقه وأسراره كما كان يفهمه الصحابة ، أو قريباً مما كانوا يفهمون ، وحق لك أن تعرض نفسك للتبشير بدعوة القرآن الكريم ، والله يسلك بنا وإياك مسلك القدوة به صلى الله عليه وسلم !

٣ — التاريخ وسيرة الرجال

ليس الغرض أن ينظر الداعية إلى التاريخ نظرة المدرس الذى يجمع المعلومات جمعاً علمياً مرتباً ، ثم يقدمها لطلابه .

وليس الغرض أن يتظرف الداعية ، فيقص القصص للتسلية ولقطع الوقت فى غير عناء . فإنما نرى كثيرين يركبون هذا النهج التافه ، فيسوقون القصة تلو القصة دون ربط بينهما ، ودون غاية مقصودة بكل منهما .

وإنما ينظر الداعية إلى التاريخ على أنه مستودع لأخطاء الإنسانية وصوابها ، وضلالها وهداها . وما جنت فى عواقبها من خير وشر ، ويأخذ من ذلك لموضوعه بمقدار .

أرأيت إلى نهج القرآن الكريم فى ذلك ؟ . إنه هو الذى نقصده !

. . . فليس الغرض من القصص ، وسياق التاريخ فى القرآن ، أن تعرف أحوال القرون الأولى فقط ؛ بل الغرض الأعلى هو علاج الإنسانية ، إذ يتناول الغرائز الأصيلة فى الإنسان ، ويؤرخ لها ، ويذكر أثرها ، وما أحدثته فى بيئتها من خير وشر .

أما الغرائز العارضة . والطباع المتغيرة ، فلا يحفل القرآن بتاريخها ، لا ندثارها وبطلان تأثيرها كلما تغير الزمان والمكان . والقرآن كتاب خلود ، فلابد أن تعلق عبرته بأعمال الغرائز الأصيلة ، التى تلازم الإنسان فى كل عصر وبيئة ، والتى تجعل من بنى آدم ، مجموعة إنسانية متشابهة فى جوهر التكوين ومعدن النفوس ، ولا شك أن هذه الغرائز — مع وحدتها فى بنى آدم — تتشعب باختلاف الظروف إلى مناح متعددة ، وتتخذوا ألوانا اجتماعية متغايرة ؛ ولكن مع تعددها وتفاوت مظاهرها وصورها ، يمكنك أن تحكم على ما يظهر أمامك ، وترجعه إلى بواعثه الأصيلة وتلحقه بغريزته التى دعت إليه ، وأوحت به .

فما يريد القرآن تفصيل الحوادث ولا سرد دقائق الوقائع ، إنما يقف فقط على اللب الذى هو عبر الحادث ، فتراه مثلا فى موقعة طالوت وجالوت ، لم يسردها السرد التاريخى ، ولم يعرضها عليك العرض الذى يعيد صورتها إلى ذهنك ، فليست الصور الظاهرية بذات بال ، ولكنه يكتفى بما يشعرك أن هناك فئة قليلة جداً تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة كثيرة العدد . فأيد الله الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين . . اقرأ القصة فى سورة البقرة ، تجدها دائرة على الإيمان وأثره فى تثبيت العزائم والإقدام ، واستنزال النصر من عند الله العزيز الحكيم ؛ وكل ما يدخل فى هذ المحيط من أجزاء الموقعة تركه القرآن جانبا .

وهذا النوع من التحليل التاريخى العميق ، يقتضى الداعية أن يكون عظيم الفهم لدعوته ، قوى الشعور بمقتضيات موضوعه ، حتى لا يقع فيما يخل ويمل .

ومما تجب ملاحظته أن القطعة التاريخية قد يبرز منها عدة معان ، فيسوقها الداعية فى مواقف تتعدد بتعدد معانيها ، ويعرضها فى كل موقف فى لون مغاير لألوان سابقة ؛ وهذا كما ترى يرجع إلى حكمته ولباقته ويقظة إدراكه ، بحيث يضرب كل مرة على

وتر من الإحساس جديد ؛ فنهضة هتلر مثلا تستطيع أن تعينك على غرضك إذا كنت بصدد البرهنة على أن الأمة إذا عثرت فكبت — تسترد شأنها السابق إذا اجتمعت عزائم أبنائها وهممهم على ذلك ، أما إذا لم يكن منهم همة لتحقيق هذا المطلب العظيم فلا . . وتستطيع أن تعرض هذه النهضة لتبرهن على أن الفقر قد يخرج من أكواخه من العباقرة من ينتشل أمة كاملة من حضيض كبوتها ، وأن يتبوأ منها أسمى مراكز القيادة والسيادة فيها ، وهو أمى أو شبه أمى إذا قيس بمعاصريه من عظماء الساسة ورؤساء الشعوب . . وتستطيع أن تعرضها إذا كنت تتحدث عن الباطل وسرعة انهياره مهما قوى جنده ، فتحمل على عقيدة النازى التى تجعل منهم رؤوس الناس وسادة الأجناس ، وتجعل منا نحن عبيداً وخدماً ، وتدعى أن ذلك هو روح الطبيعة ووحى الله ، والله من ذلك برىء ، فالناس لآدم وآدم من تراب ، أكرمهم عند الله أتقاهم ، ذلك هو الحق الذى يقذف به الله على الباطل فيدمغه ويهزمه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره . ولو ذهبت أستقصى لك الألوان الكثيرة التى يمكن أن تعرض فيها هذه النهضة لخرجت عن قصدى .

وفى التاريخ حوادث على هامشه قد تبدو تافهة ، ولكن الوقوف عليها قد يستخلص لنا كثيراً من ملامح النفوس وصفات الطباع واتجاهات القلوب لجماعة ما أو لشخص ما ، فعلى الداعية أن يتيقظ لذلك . . . وفى تاريخ الجبرتى كثير جداً منه .

٤ — واقع الحياة العملية

واقع الحياة العملية هو تاريخها الجارى ، الذى سيصير يوماً ما تاريخها الماضى ، فهو أيضاً مستودع صوابها وخطئها وضلالها وهداها ، وما ترى من عواقب الهدى والضلال والخطأ والصواب . . . وهو يمتاز من التاريخ الماضى بأنه يتولى عرض الحياة نفسها أمامك على صفحات الوجود — لا صفحات الكتب — عرضا عمليا حيا يتعرض به نظرك وسمعك ومشاعرك ، لا يجمل فى ناحية ويفصل فى أخرى ، بل يقفك أمام حوادث فردية ، تتبين فيها مبلغ اختلال قوانين المجتمع أو سلامتها ، قوانينه الاجتماعية أو الخلقية . . . ويقفك أمام ضحايا تفجع القلوب وتذيب الأكباد ، أو أمام لصوص ذهبوا فى الناس بسمات الرفعة والفخر ؛ فأنت تقرأ وترى فى كل يوم ، وفى كل طريق ، وفى كل صحيفة ، وفى كل بيت ، وفى كل محكمة ، وفى كل دار من دور اللهو البرىء أو العابث — تقرأ وترى ذلك كله فى ثوبه العملى الواقعى الأخاذ . . .

فعليك — بما فقهت من دعوتك وأرهفت من مشاعرك — أن تتأمل ذلك الضرب من التاريخ القيم ، وتتفهم دوافعه ومراميه ، وتحلل علله ونتائجه ، وأن تصنفه أصنافا بعد دراسته وإبداء الرأى فيه على ضوء فكرتك ، وليكن لك سجلك تجمع فيه مختاراتك من الحياة ؛ وسترى بعد ذلك أن إيراد بعض ما تجمع من الأمثلة ، يجعل كلامك حاراً قيما ، فعالاً جياشاً فى نفوس سامعيك . . . فعليك بمطالعة هذا التاريخ العملى ، والوقوف على مآسى الناس ومخازيهم ، وأمراض الاجتماع ، وشذوذ أوضاعه ؛ ولا ضير عليك فى كل هذا ، فأنت طبيب .

الباب الرابع

الداعية فى كلماته

(١) المحاضرة (٢) الدرس (٣) الخطبة (٤) المقالة (٥) الحديث العادى

* * *

ليس هناك — فيما أرى — فرق بين المحاضرة والدرس . ولكنهم درجوا على أن تكون المحاضرة أكثر استيعابا لعناصر الموضوع ، وأوسع تفصيلا وإفاضة فى معانى هذه العناصر ، وأن تكون عناية المحاضر أتم وأوفى ، وأن يحاط السامع بما يجعله يتهيأ لتلقى معلومات ممتازة وتوجيهات قوية صالحة ، وأن يلتزم الترتيب والنظام فى المحاضرة ، فلا يكثر المحاضر الانسياق مع عواطفه ، والاستطراد مع الخواطر الطارئة ، مما يبعد بالسامعين عن الموضوع الأساسى ، بينما الدرس قد يقبل شيئاً من هذا ويعذُب به ؛ وعلى هذا الاعتبار أو الاصطلاح ، سنوجز الحديث عن المحاضرة والدرس .

١ — المحاضرة

(ا) يختار موضوع المحاضرة — طبعا — من صميم ما تجرى به الحياة ، وهذا يقتضى الداعية أن يكون متصلا بهذه الدنيا ، منفعلا بما يجرى فيها من خير وشر ، وحلو ومر ، ومعروف ومنكر . . . فما كان من صالح رضى به ، وحمد الله عليه . وما كان من فاسد قام له ، وأخذ فى علاجه وتغييره بوسائله الحكيمة ، وموعظته الحسنة .

ومعنى هذا أن الداعية يختار موضوعه مما يعرض له من مشاكل الحياة ، أو مما تمليه الحياة عليه . . . ومثل هذه الموضوعات ، يجعله أقرب إلى قلوب الناس ، وأملك لزمام انتباههم وعواطفهم ... فلا تجعل الموضوع يعرض نفسه عليك ، فتهرب منه ، أو تقعد عن الاستجابة إليه ، فالحياة فى هذه الحال هى التى تختار لك ، واختيارها أصدق اختيار ، لأنه إلهام الله ، وصوت القضاء ، وصدى ما جرى به القلم فى أم الكتاب ؛ ولأمر ما نزل القرآن الكريم منجما على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال .

وطبيعى أن الموضوعات التى يوحيها محيط الزراع ، غير التى يوحيها محيط الطبقات المظلومة من المدرسين . . . وللعمال آلام وآمال تلهم موضوعات غير التى تجرى فى المحيطين السابقين ؛ ولصغار الموظفين مشكلات وأزمات نفسية ومالية ، لا يتبينها إلا من يصغى إلى شكواهم ، ويقف على أحوالهم ، وفى علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفى المعاملات التى يلقاها بعض الطوائف من بعض ، وفى طبيعة السلوك الاجتماعى الذى تجرى عليه حياة بعض الأصناف من الناس ، وفى اختلال الموازين التى يزن بها الناس خلق الرجل وكرامته ونجاحه ؛ وفى نظام الدواوين والتعليم ، والمحيط التجارى والإدارى . . . فى هذا وفى غيره موضوعات أنت فى غنى عن بيانها ، لأنها شاخصة مستعلنة ، تفرض نفسها وحوادثها على جهازك العصبى اللاقط .

(ب) يجب أن يكون الموضوع مدروسا دراسة وافية مستفيضة ، محللا إلى عناصر بارزة ، وخطوات واضحة مرتبة ترتيباً طبيعيا ينتقل بالسامع من حلقة إلى حلقة ، ويفضى فى النهاية إلى خاتمة يحسن السكوت عليها ؛ فإذا كنت تريد التحدث إلى طائفة من الشباب المثقف — مثلا — عن مقومات الإنسان الفاضل الذى ينشدونه وينشده معهم الإخوان المسلمون ، كان من السهل عليك أن تفترض فى هذا الإنسان وجوب العزة ، أما الدليل فليس لنا به حاجة ، ثم يجب أن يكون لهذا الإنسان رسالة فى الحياة يعمل جاهدا لتحقيقها ، أما الرجل الذى يعيش بلا غاية معينة ، ولا مبدأ معروف ، فهو من السوائم الهمل .

وأخيرا لابد له بعد العزة والرسالة ، من العلم [1] ؛ ليكون من أمره على هدى وبصيرة ، ومن لا علم له لا بصر له .

فدعائم البناء إذن عزة ، ورسالة ، وعلم ؛ فإذا أوضحت ذلك ، أقنعت سامعيك بما تريد ؛ أما الكلام المرسل بغير نظام فخيره غير متحقق .

(حـ) أن تستحضر لكل عنصر ما يؤكده ويوضحه من كتاب الله وسيرة رسوله

---

(١) يجب أن يكون مفهوما أننا نقصد بالعلم هنا العلم بالله عز وجل عن طريق التأمل فى السماء وما فيها من عجيب صنع الله وآياته ، والأرض وما أحدث فيها من كائنات وآثار ، وما بين السماء والأرض من ظواهر كونية ، وما أفاض علينا من نعم فى أبداننا وأرزاقنا وأسرار نفوسنا وطباعنا وغير ذلك مما يفضى بنا مع النظر والاعتبار إلى الله عز وجل ، وهذا هو العلم الحق الذى يجب أن تتجه إليه جهود الإنسانية ، وكل علم لا يوصل إلى الله فهو علم لا بركة فيه — وليس معنى ذلك أننا لا نتعلم الصناعات أو طرق معالجة الأشياء لنعيش ونأكل ، بل أقصد أن يكون لله عز شأنه غرضنا الأعلى مما نعرفه .

صلى الله عليه وسلم قولا وعملا ، أو سيرة صحابته ، أو عبر التاريخ ، أو حوادث مما تسمع أو تقرأ أو تشاهد ، على نحو ما سقناه لك فى مراجع الداعية .

فإذا كنت بصدد شرح العزة فى الموضوع السابق مثلا ، وجدت طبيعة العنصر تلهمك أن العزة معناها ألا يذل المرء لمخلوق مثله . وهو يذل فى هذه الحالة لغرض من اثنين : ليدرك منفعة شخصية ، أو ليدفع ما قد يؤذيه فى رزقه أو نفسه ، وحينئذ يزدحم حولك نصوص كثيرة من كتاب الله وأحاديث الرسول ، تؤكد لسامعك أن الإسلام يغرس العزة فى نفس المسلم ، ويذهب بأصولها إلى أبعد الأعماق ؛ فهو من ناحية ابتغاء المنافع والخوف على الأرزاق ، قد علم أن رزقه فى السماء . . . وما كان فى السماء فهو مصون ، بعيد عن أن تتطاول إليه يد عابث من أهل الأرض . . ويعلم كذلك أن الله قد فرغ من قسمة الأرزاق بين الناس قبل أن يخلقهم ، وقد جفت الأقلام وطويت الصحف على ذلك ، فليس للحوادث بعده أن تجرى على خلافه . . . والقرآن والسنة حافلان بما يشبع رغبتك فى هذا الباب . ولابد من الحملة طبعاً على أولئك الذين يذلون أنفسهم ، ويبذلون أخلاقهم وأعراضهم ، زعماً أن ذلك هو سبيلهم إلى ما يصبون إليه من جلب المنافع أو درء المساوىء . . . وما أحراك أن تفرد حملة خاصة على أولئك الذين يتعبدون بالمثل السائر : « إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدى » . . . أما الاستكانة إلى الذل تخوفاً على النفس مما يصيبها من أذى القتل ، أو الضرب ، أو السجن ، أو نحوه ، فالمسلم قد ربى على قول الله عز وجل : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ ، وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » .

وإذا أقدم المسلم فى جرأة وشجاعة ، فلامه اللائمون من الجبناء ، وحذره المحذرون من الضعفاء ، ألقى الله على لسانه رداً حاسماً : « وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً » .

وإذا اعتراه فى موقف من مواقف البأس ذبذبة أو تردد ، ناداه هاتف العقيدة من أعماق نفسه : « قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً » . وسيجتمع عليك الكثير من نصوص القرآن

والسيرة ، وكل منها يعرض نفسه عليك ، فسُقْ ما تختار منها مرتباً واضحاً على قدر ماتراه وافياً بأداء غرضك .

ويجب أن تتحكم فى الاختيار ، وفى ترتيب العناصر ، وفى جمع الشواهد ، وفى سوق الحديث ؛ يجب أن تتحكم فى ذلك كله العقلية العملية ، ممثلة فى مظاهرها التى تقدمت فى بيان مزاج الداعية ، حتى لاتكون غامضاً ولانظريا .

واحذر فى تقسيم موضوعك ، أو بيان حقيقة عنصرك ، أن تنحو نحو التقسيمات الفلسفية أو التعمق النظرى ، ففى موضوع مقومات الإنسان الفاضل الذى تنشده لم نذكر لك كل شىء ، وقد يأتى غيرى بغير ذلك ، لأنه لم يكن من همنا الاستقصاء الفلسفى الذى يغوص وراء الفروض والعلل ، وإنما أخذنا ثلاث لمحات أضاءت لنا من محيط الفطرة فى بساطة ووضوح ؛ ولو أننا أردنا الاستقصاء لما فرغنا من البحث إلا بعد عناء ، بل ولا بعد العناء ، فقد لا نخرج إلا بالخلافات التى يضرب بعضها بعضا ، والنظريات التى لم ينته أصحابها من التدليل على صحتها بعد . كان همنا حين الاختيار ، أن نسوق كلاما تقبله فطرة السامع وعقله وكفى ، أما أنه جامع مانع فلا ؛ ومع أننا نقصد أن يكون كذلك ، فهو فى الحقيقة جامع ، لأن الخير فى الإسلام وإن تعددت صوره يرجع إلى معين واحد ، فإذا نشأت طفلا مثلا على فضيلة ما ، ألفيت ذلك يعود بالتربية والتنمية على الفضائل الأخرى ، وذلك من أسرار الله فى شريعته .

(ى) يجب أن يعد عناصر المحاضرة مايفهم منه أن الناس يجنون فى الدنيا — لا فى الآخرة فحسب — ثمر ما يبذلون فى سبيل الإصلاح من عمل صالح ، وتضحيات لوجه الله ، وثبات على المبادىء الفاضلة ، وصبر على مقاومة الفساد . . يجب العناية بإبراز هذا المعنى ، لا لأنه يشرح الصدور ويشحذ العزائم ، ويجدد الآمال والهمم فحسب ، بل لأنه هو منطق الحياة ، وقانون الوجود الذى لا يتخلف ؛ فلكل شىء ثمن ، ولكل عمل أجر ، ولكل جهد بدنى ونفسى ثمر من جنسه فى الدنيا والآخرة ، وهو من قوانين الله التى لا تتخلف فى حياة الأفراد ، ولا فى حياة الجماعات والأمم ؛ والكسل لا يهب إلا الحرمان ، والفوضى لا تورث إلا الخيبة ، والأنانية لا تعقب إلا التنازع والتفكك والفشل .

(هـ) يجب أن يكون غرض الداعية من من كل ذلك إحياء المشاعر الإلهية ، وبث خواطر الخير والتقوى فى القلوب ، فكل موضوع يجب أن يعالج على هذا الأساس ؛ وبعبارة أخرى : يجب أن يكون للداعية فى موقف المحاضرة هدفان أساسيان :

الأول ، علاج موضوعه الخاص ، والثانى ، إحياء هذه المشاعر القلبية إحياء ربانيا ، على أن يكون الغرض الأول مقصودا لذاته ، ومقصوداً كوسيلة للغرض الثانى ؛ ويجب لهذا أن يساق للسامع ما يشعره بأنه مسئول ومحاسب ، وبأن عين الله ساهرة تطلع عليه ، وتحيط بظاهره وخفى سريرته ، وأن الإنسان قادر على أن يجعل ما يدور فى هذه السرائر خيراً محضاً ، يرضى الله ويسعد العباد ، والسعيد من جعل نفسه زكية مطهرة . اجعل ذلك فى عنصر واحد إن اقتضاه المقام ، أو اجعله شائعاً فى العناصر كلها إذا أوجبته المناسبة ، أو اجعله فى بعض العناصر دون بعض . . اخضع فى ذلك لذوق الموضوع ، وذوق عقليتك العملية .

(و) وأرى أن تحدث بينك وبين جمهورك تعارفا عاطفيا ، قبل أن تبدأ فى حديث محاضرتك ؛ فإن مطالعة الجمهور بالموضوع مباشرة تفاجىء مشاعره بأمر لم يتهيأ له . . إن المشاعر بيوت مغلقة ، وقد نهانا القرآن عن أن ندخل بيوتا غير بيوتنا ، حتى نستأنس ونسلم على أهلها .

فلابد من هذا الاستئناس أو التعارف العاطفى كما أسميناه .. ويكون هذا على صورة استفتاح سهل مبسط ، يتناول أمراً هيناً مما تدركه الأذهان فى يسر ، بل مما لايحتاج فى إدراكه إلى أقل جهد عقلى ، كأن يذكر حادثة خاصة وقعت له ، أو رآها وهو فى طريقه ، أو نبأ قرأه أو سمعه ، أو ملاحظة لاحظها فى الحفل أو فى كلمة خطيب سابق إلخ .. على أن يكون هذا كله ذا صلة بالحفل وبالدعوة التى تعمل لها صلة مباشرة أو غير مباشرة ، ثم يعلق على استفتاحه تعليقاً يسيراً ملوناً بلون المزاح إذا اقتضى المقام المزاح ، أو بلون الاستبشار إذا أوجب المقام إزجاء البشرى ، أو بلون آخر من ألوان العواطف والمشاعر التى يقتضيها الحال . . . فإذا أقبلت عليك القلوب ، وتفتحت لك النفوس ، فقد تحول تيارها إليك ، وألقت بأزمتها بين يديك ، فبادر فى الحال بالتقاطها ، وصل خيوطك بخيوطها ، ثم اخلص إلى موضوعك بما لا يغير عليك أنس جمهورك بك ؛ ولا تطالبنى بضرب مثل ، فإن هذا ليس من القواعد التى تعلم ، بل هو من وحى الذوق ، وإلهام الطبع اليقظ . . ويكتفى فيه بالتنبيه إليه .

(ز) وهناك حقيقة يجب الالتفات إليها ، وهى أن المحاضرة لا تنضج فى ذهن الداعية إلا بمرور الزمن وكثرة الإلقاء ، فعليك أن تلقيها مرة ومرة ومرة وعشر مرات أو أكثر من ذلك ، فى أماكن مختلفة ؛ وعليك أن تنقد نفسك عقب كل مرة تلقى فيها محاضرتك ، ووازن بين موقفك فى آخر كل مرة وسابقتها ، فهذا يكسبك ثباتاً وقدرة

هائلة على التوضيح ، وسهولة فى سياق العبارات والألفاظ . . . ثم إن كثرة الترديد على ما ذكرنا ، تعين على اختمار المعانى فيلد بعضها بعضاً ، وتزداد سمواً وقيمة ؛ فلا تخش من نفسك أن تقول لك إن تكرير المحاضرة الواحدة فى الأماكن المتعددة عى وعجز ؛ ولا تظن — إذا صاحبك أحد فى رحلاتك — أن التكرار يوحى إليه بقلة معارفك ، فكل هذا من خواطر الشر ، فإن الحقيقة لا ينقص من قدرها أن تتكرر ، ولا ينقص من قدر صاحبها أن يكررها ؛ فحسب الإنسان أن يكون على حق ، وأن يدعو إلى حق ؛ على أن من مزايا الإعادة أن يزيد الداعية إيماناً ، وتضلعاً ، وتعلقاً بما يقول ... أما إذا أجهد الداعية نفسه فى تحضير المحاضرات الكثيرة المتعددة النواحى ، لكى يقنع غيره بأنه بحر لا ساحل له من المعارف ، يتكلم فى كل بلدة بما لا يتكلم به فى غيرها ، فذلك منهج فى الدعوة لا يثمر ، ولا يفى باقناع الناس بحقيقة من الحقائق ، فضلا عن أنه من إملاء الأنانية والرياء والسمعة ؛ وحسبك أن تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمضى حقبة من عمر رسالته فى مكة ، يقول إذا عرض نفسه على القبائل قولاً واحداً لا يغيره : « أدعو إلى أن تعبدوا الله وحده ، وأن تخلعوا هذه الأوثان التى تعبدونها من دونه ، وأن تمنعونى حتى أبلغ عن ربى » وذلك لأنه إنما يبلغ حقيقة يدعو إليها ، وليس من همه إثارة إعجاب الناس بمواهبه وملكاته العقلية واللسانية .

٢ — الدرس

جرى عرف الوعاظ والدعاة — غالباً — على ن يكون موضوع الدرس آية من كتاب الله عز وجل ، أو حديثاً من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وفى رأيى أن الدرس أشق من المحاضرة ؛ أو بعبارة أحكم ، الدرس أحوج إلى دقة الداعية وحساسيته من المحاضرة . . فالمحاضر يحصر همه فى إقناع الجمهور بموضوع معين ، ولا يعنيه من الآية أو الحديث إلا وجه واحد من وجوه الدلالة ، هو الوجه الذى يتصل بغرضه . . أما المدرس ، فالآية تفرض عليه الدقة وطول التأمل ، والوقوف عند كل كلمة ، بل عند بعض الحروف أحياناً ، وفى كل وقفة من هذه إشارات ومعارف وعلوم إلهية تلتمع أنوارها فى صدر الباحث ! فإذا به ينشرح ويتسع ، ويفرح بفضل الله .

ومن هنا أحب أن أنبه إلى أن الدرس يجب أن يكون أحفل بالرقائق ، التى تحرك القلب ، وتخاطب الوجدان . . . فإذا أفسحت لك الآية بين كلماتها ، وشفت لك عما وراء سطورها ، فاستخرج ما تشاء من المعانى ، ثم رتبه واربط بين بعضه وبعض ،

ثم وسع دائرة الحديث بما يتصل بالمعنى من آيات الكتاب ، وسنة رسول الله وصحابته ، وأخبار الناس قديماً وحديثاً ، وصل ذلك — ما أمكن — بحوادث الحياة وواقعها العملى .

ودرس الحديث كدرس الآية فى كل ما ذكر .

وعندى أن الدرس أكثر فائدة من المحاضرة . . . فالدرس ميسور لك فى كل وقت ؛ فما عليك إلا أن تجلس فى ناديك أو مسجدك لتلقى درسك على من يحضر من خلق الله ، وهذا لا يكون فى المحاضرة .

ذلك أن قلة عدد من يحضر الدرس — عادة — تمكن المدرس من التأثير برقائقه فى قلوب مستمعيه ، ومن إنشاء صلاة روحية ، تعارفية ، عملية بينه وبينهم فيكونون معه غالباً على ما يريد . . أما جمهور المحاضر فقد جاء غالبا « ليسمع » ويقضى وقتا ما . فإذا استولى المحاضر على ألبابهم وإعجابهم كان أثره « وقتيا » لدى الأكثرين ؛ وما أقل من يقع فى يدك من مستمعى المحاضرة ، ليكون جنديا من جنود فكرتك .

ولست بهذا أضع من شأن المحاضرة ، فدعوتنا إنما ذاعت بمحاضرات فضيلة أستاذنا المرشد رحمه الله ؛ لكنى أردت أن ألفت نظر الذين يضيعون كثيراً من الوقت فى انتظار فرص المحاضرات فلا يتكلمون إلا حين يجتمع الناس للمحاضرة .

ولا يكفى أن تكون ذا يقظة تامة لما تقرأ وتعى من كتاب الله وسنة رسوله ؛ لا يكفى ذلك لتؤثر به فى النفوس ، فقد يكون شعور سامعك أقل يقظة من شعورك . فلا بد قبل أن تدلى بمضمون آيتك أو حديثك أن تهيء سامعك تهيئة أنت صاحب السيطرة عليها بذوقك ولباقتك وتجاربك

حدث سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ، فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه فقال : « يا سلمان ألا تسألنى لم أفعل هذا ؟ قلت : لم تفعله ؟ قال : إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحات هذا الورق وقرأ : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » . ألا ترى أن عقولنا وقلوبنا بعد هذا التمهيد العملى الجميل صارت أكثر تقبلا ، بل أكثر حيوية وسروراً بما مازجها من أنوار الآية وحسن توجيهها ؟ وإن أحدنا لن يبلغ من يقظة الشعور والعقل ما بلغه صلى الله عليه وسلم ، ولن يكون قلب أحدنا حيا بالقرآن كما كان قلبه عليه السلام ، ومع ذلك ، رأى

الرسول الكريم أن يكون حسن التأتى فى عرض مواعظ كتاب الله ؛ فنحن إلى هذا المنهج أشد حاجة منه عليه السلام . . . وذلك وحى الفطرة الملهمة ، وفضل العقلية الواقعية اللبقة ، التى بينا ضرورتها للداعية فيما سبق

ويمكن أن يتسنى للانسان الكثير من هذه التمهيدات التى تنبه الذهن وتمهد الطريق . إذا هو أحسن فهم الآية أو الحديث ، وأحاط بالكثير من إشارتها ومراميها ، ثم استخرج من ذلك حكما طريفا يدعو إلى العجب ، أو لطيفة تستشرف النفس إلى معرفة ما تنطوى عليه . . . ومثال ذلك ، أن بعض السلف الصالح سأل أتباعه وسامعيه من منكم يحب أن يستوطن الجنة وهو فى هذه الدنيا ؟ فكلهم استشرف إلى ذلك ورغب فيه أشد الرغبة ، وكان وجه العجب فيه أن الآخرة هى موعدنا بالجنة ، فكيف ندخلها فى الدنيا ؟

فقال السلفى رضى الله عنه : عليكم — إذاً — بالتزام مجالس الذكر والعلم ، فإن كلا منهما روضة من رياض الجنة ؛ ومضى الرجل يستشهد لقوله بما قال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا ؛ قالوا : وما رياض الجنة يارسول الله ؟ قال : حلق العلم »

٣ — الخطبة

تستطيع أن تلمح فروقا اصطلاحية بين المحاضرة والخطبة فيما يأتى :

(ا) يغلب على المحاضرة صبغة تقرير الحقائق ، وتثبيت المعانى . . . أما الخطبة فيغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر .

(ب) عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والأصول والأحكام . . . أما عناصر الخطبة فأشبه بالخواطر العارضة والمعانى الطارئة .

(ج) تحتاج عناصر المحاضرة إلى الشرح والاستشهاد . . . أما الخطبة فشأنها الاسترسال مع ما يحضر من الخواطر والمعانى .

وأرى — شخصيا — أن تكون الخطبة مرتجلة ؛ بل أرى أن تكون دروسك ومحاضراتك كلها مرتجلة . . . أما محاضرة الورقة ، وخطيب الورقة فلا شأن لنا به ، إذ لا حاجة بالنهضات إليه .

نعم قد يحتاج المرء إلى تحضير كلامه فى الورق ، إذا كان المقام يقتضى تحديد معانى

الألفاظ ، وتبين مرامى العبارات ، كهؤلاء السياسيين المسئولين ، أو المفاوضين الذين يضطرون إلى تضمين العبارات وتحميل الألفاظ معانى وإشارات لا يستطيع الارتجال أن يفى بحقها . . فلنسم أمثال هذه الكلمات « بياناً » ، فإذا كان لا بد من تسميتها خطباً ، فهى ليست من النوع المنهض الذى نريده .

ونعنى بالارتجال ، ارتجال الألفاظ فقط ، لا ارتجال المعانى والعناصر ، إذ لا بد للخطيب الذى يحترم نفسه ويقدر واجبه ، أن يعرف ما سيقول . . لا بد أن يعد لموقفه مادته من الأفكار والخواطر المناسبة ، وأن يهيئها فى نفسه ، وأن يجيلها فى ذهنه أكثر من مرة .

وهذا الارتجال المحضر هو ارتجال التركيز والبناء ، والثبوت والدوام . . فإذا وقف الداعية ليتكلم ، وقف وهو رابط الجأش ، ثابت النظرات ، مالك لزمام نفسه وزمام موضوعه ، مستنداً إلى ما أعد من ذخيرة ؛ فإذا فتح له فى موقفه عن جديد من الخواطر والمعانى ، فبها ونعمت ، وإلا فحسبه أنه ينفق مما لديه .

وهناك ارتجال غير محضر ، وهو فى الغالب يعبر عن صدى الحوادث فى نفسه ؛ أو استجابة لحادث ، أو رؤية ، أو سماع أثار مشاعره ؛ فلا يزال يرتجل ويسترسل مع الدواعى الطارئة والحوافز العارضة ، حتى تنحل عقده النفسية ، ويشعر أن قد هدأت ثوائره ، فينتهى عند ذلك ارتجاله .

وهذا النوع ، لإثارة السامعين إثارة وقتية ، أو توجيههم إلى وجهة أو عمل مطلوب لساعته . . أما أنه للتركيز والإنشاء والثبوت فلا .

وهذا الارتجال الذى يقوم على حركة الوجدان ، لا يؤدى مهمة إلا إذا كان صاحبه يتمتع بموهبة أصيلة ، وتجارب سابقة ، درسها وفكر فيها ، فيرتكز عليها كأنها نقط محضرة ؛ وبدون هذا يكون الكلام غالباً غير مرتب ، وقد يعلن لتفاهته وكثرة اضطرابه .

وكثيراً ما نرى خطباء من ذوى الارتجال المرتجل تخونهم ملكاتهم ، فتسمع أحدهم يبدأ لك معنى من المعانى ، ثم لا يلبث أن ينفتح له باب من الاستطراد فيستطرد ، ثم يرسله هذا الاستطراد إلى باب آخر ، وهكذا . . حتى ينسى معناه الأول . . فمن يرضى لنفسه بمثل هذا ؟

حقا إن أحد هؤلاء قد ينجح فى ستر موقفه عن أكثر السامعين ؛ ولكن المسألة ليست مسألة ستر الموقف أو عدم ستره ، فالداعية ليس بهلوانا أو مشعوذاً يموه على الناس ، ويستر عنهم أخطاءه وأكاذيبه .. إنما الداعية بصدد رسالة ذات أهداف ؛ فهل أصاب أهدافه أو لا؟ وهل حقق المهمة التى يدور عليها الكلام ، أو ستر موقفه وسكت ؟

٤ — المقالة

ذكرنا فى باب فقه الدعوة والداعية ، شيئاً عن الكتابة الضرورية للنهضات ، فلا نطيل بإعادة معناه . . ونزيد عليه هنا ، أن يلاحظ الداعية أنه يكتب للناس كافة ، عالمهم وجاهلهم ، الأمى منهم وغير الأمى ؛ وهذا يقتضيه أن ينزل إلى المستوى الذى يألفه الجمهور فى فهم ما يقرأ أو يسمع ، مستوى الألفاظ السهلة والأفكار الواضحة .. وحسب الفكرة وضوحا ، أن تكون نابعة من القلب ؛ فتكون — مثلا — تعبيراً عن عاطفة وطنية ، أو تصويراً لوجدان دينى ، أو عرضا لمثل إنسانى ، أو نقداً توجيهيا لأعمال المجتمع وأحوال الناس . فإذا كانت الفكرة ماضية بروح العاطفة ، فهى لا شك سهلة واضحة .

هذا ووضوح الفكرة لا يغنى عن وضوح اللفظ ، أو عن نزول اللفظ إلى مستوى الجماهير .

سأل أحد الدعاة : ما رأيك فى كتابتى ؟ فقال له صاحبه : إن أسلوبك سما ببضاعتك فوضعها فى شرفات الدور الأعلى ، فرجل الشارع لا يراها ولا يتأثر بها ، وإن كان أهل الطبقة العليا يرونها ويعرفون لها مزاياها . . ولو أنك نزلت ببضاعتك فوضعتها فى معارض الدور الأول ، لرآها الجميع ، وانتفع بها رجل الشارع .. فقال الداعية — وقد أحس لهذا القول مرارة — : إننا مكلفون أن نرفع الجمهور إلى مستوانا ، لا أن ننزل إلى مستوى الجماهير .. فقال له صاحبه : لو أنك أستاذ فى اللغة والأدب ، لحق لك أن تقول هذا ، ولكنك صاحب دعوة ، وقائم على رسالة ، مكلف أن تقابل الجميع ، وأن تكلم الجميع ، وأن تفهم الجميع ؛ فإذا لم تخاطب الناس على قدر عقولهم ، أضعت الوقت ، وأخفقت فى الرسالة .. ألا ترى إلى التاجر ، يحتال فى عرض تجارته ، وتنسيقها تنسيقاً مغرياً بالوقوف عليها أو الشراء منها ؟ .. فأنت كذلك تعرض على الناس تجارة ؛ فانظر كيف تثير أشواقهم وأذواقهم إليها ؟

ونقرر على ما مضى أن الجماهير من حيث الإقبال على القراءة كالطفل الممعود [1] ؛ إذا رأى الطعام أشاح بوجهه ، وانقبضت معدته فى جوفه ، فلا يزال به أبواه يغريانه ، ويلطفانه ، ويثيران شهوته ، ويحتالان لتحبيب الطعام إليه ، لعل أن يأخذ منه شيئاً يقيم به أوده .

نعم ، قد نرى كثيرين من العامة يقرءون ، ولكنهم يقرءون ما لا يسمن ولا يغنى

---

(١) الذى بمعدته مرض .

من جوع ؛ يقرءون كتب التسلية ، وقصص اللهو الفارغ التى يقطعون بها أوقاتهم ، ويرتاحون بها من أنفسهم .

ومن هنا نرى الصحفى اللبق يدرك هذه الحقيقة ، ويأتى إلى الجمهور متطامنا خفيف الخطا ؛ فإذا عرض عليه خبراً ، عرضه — مثلا — فى قصة قصيرة ، أو نكتة لبقة ، أو فيما يشبه هذا . . فهو يحتال على طفله المعود ليعطيه ما يشاء من فنه وفكرته ، فتروج صحيفته ، وتغمر الأسواق ، وتسيطر على الأندية ، وتدخل البيوت ، وتستقر مع القراء فى المخادع .

وعلى الداعية أن يفهم هذا ، وأن يدخل الطفل المعود فى حسابه ، وليس له أن يحتج بأنه لا يستطيع أن يفعل فعل الصحفى ، وأن وقار الدعوة وجلال معانيها ليس مما يعرض هذا العرض ... أقول : ليس له أن يحتج بهذا أو بما يشبهه ، فإنه إذا تحرك ، وحاول ، وجرب ، لا يعدم نتيجة طيبة ، وثمرة مبشرة بخير كثير . . . ليس ضرورياً أن يتبذل الداعية ، ولكن ليس ضرورياً أن يتزمت ! وليس من الحتم أن يجرى كلامه كله عامياً ، ولكن ليس من الحتم أن يجله كله جارياً على ما حوت القواميس من الألفاظ اللغوية الصحيحة ! !

ومما يهون على الداعية مهمته ، أنه لن يكتب للجمهور عن الرق فى الإسلام ، أو كيف سما الإسلام بالمرأة ، أو نحو هذا مما يدخل فى باب الموضوعات العلمية ؛ لن يكتب للجمهور فى هذا ، وإنما سيتحدث إليه عن واقع الحياة اليومية . . وقد قلنا فيما سبق ، إن واقع الحياة اليومية ، هو تاريخ الإنسانية الحاضر ، وهو مستودع أخطائها وصوابها ؛ فإذا أخذ الداعية مادة حديثة من صميم ما يجرى فى هذه الحياة ، وتحدث عن صوابه وخطئه ، وصور كلا فى صورته الطبيعية الدارجة ، وعالجه بروحه الربانى ، ووزنه بميزانه الإلهى ، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة . . وسيجد أن كلامه قد غمر الأسواق ، وسيطر على الأندية ، ودخل البيوت ، واستقر مع القراء فى المخادع ، لأن الحياة تولت حمله إلى كل ذلك . . وليس عليك من حرج بعد هذا أن تكون قد أجريت فى كلامك لفظاً عامياً ، أو عبارة متداولة ، أو مثلا سائراً ، أو نحو هذا مما يخف وقعه على الأسماع ، ويعين على بيان حقيقة المراد .. ولأمر ما كره رسول الله الثرثارين المتفيهقين ، والذين يخاطبون الناس بما لا يفهمون ؛ وكان عليه السلام يدخل فى كلامه ألفاظاً أجنبية ، ويعدل عن لهجته الأصيلة ، ليخاطب وفود القبائل بما يفهمون من اللهجات . . فهل نعتبر ؟ !

٥ — الحديث العادى

إذا أحس الداعية أن له حاجة لدى الجمهور يرجو قضاءها ، فيتلطف فى الحصول عليها ؛ فهو داعية حقا . . . وإذا لم يشعر هذا الشعور ، فهو مغلق لا يصلح لهذا الأمر الخطير .

فهؤلاء الذين يسخطون على الجمهور وينقمون عليه إعراضه ، قوم فاتهم الكثير من فقه مهمة الداعية .

ليس للجمهور حاجة إليك فيتودد لقضائها منك . . . أما أنت فصاحب الحاجة ، فانظر كيف تقبل عليه وتقضيهامنه ... فهل هناك غير الحديث الرقيق والكلام اللين ؟

يقال هذا فى المحاضرة والدرس والخطبة والمقالة . ولكنه فى الحديث العادى ألزم وأظهر ؛ حيث تواجه صاحبك أو أصحابك وجها لوجه ، أو كلمة لكلمة . . . فى الناس شذوذ ، وفيهم تعال وكبرياء ، وفيهم ميل إلى تنقص أصحاب المبادىء وبخسهم أشياءهم ، وفيهم ميل إلى الجدل ورغبة فى الغلبة والانتصار ؛ فعليك أن تذكر هذا كله ؛ وأن تعالجه بعلاجه الحاسم ؛ وما علاجه إلا أن تهمله وتتغاضى عنه ، وتلتزم حديثك الرقيق وكلامك اللين .

ونوصى هنا بثلاث خصال :

الأولى : أن يترك كل رغبة فى الغلبة والانتصار على مناظره ، بل عليه — إذا أحس أن الحديث سيتحول إلى مناظرة جدلية — أن يكف عن المضى فيه ، فى أدب وحكمة ولباقة ... فإذا استطاع بعد ذلك أن يستأنف حديثه الرقيق اللين فى جو هادىء فبها ونعمت ، وإلا فمن الخير أن لا يعود إليه .

ونحن بهذا لا نتقى فقط شر الجدل ، وما يورث القلوب من حقد وفرقة ، وإنما نتقى آفة تحيد بنا عن أسلوب الدعوة الحق ؛ فليس الجدل من أساليب الدعوة فى قليل ولا كثير ، وليست الغلبة والقهر من هذا فى شىء ، أو ليس فى الدعوة غالب ولا مغلوب ؛ ولكن إخوة مؤمنون ، متعاونون على البر والتقوى .

يجب حقاً أن تغلب . . ولكن حذار أن تحمل الشعور بحب الغلبة والقهر ! ويجب حقاً أن تغلب . . . ولكن حذار أن تحمل سلاحاً غير القول اللين ، والكلام الهادىء ، والنفس الراضية الوديعة ؛ فإنه سلاح يغلب الأقوياء ، ويستنزل إليك من اعتصم بذروة الشمم والإباء .

الثانية : أن يترك تحدى الناس بما لدعوته من فضل ، وما لمبادئها من سمو .

ويترك تحديهم بما لرجالها من صلاح وجهاد وفضائل . . ويترك تحديهم بما تزمع الدعوة أن تفعله غداة انتصارها من كيت وكيت .

ليترك هذا وأمثاله ، وليترك التحدى فى جميع صوره ، وليذكر دائماً أنه صاحب حاجة يرجو قضاءها ، فهل يقضها بالتحدى ؟

أنت صائد ، والصيد أمامك تريد أن تقتنصه ؛ فهل تثيره وتهيجه ، حتى يفر منك فلا تدركه ؟ أو يكون لك شأن آخر ؟

بل إننا فوق هذا نشير باللين عندما يظهر التحدى من غيرنا . . . نشير بنسيان التحدى ، ونسيان كل أثر له فى النفس ؛ ولنذكر أن الصيد بدأ يستعد للافلات ، فلنتطامن له فى غير ذلة طبعاً ، ولنظهر له الود الهادىء ، والمسالمة الفطرية — لا المصطنعة — حتى يهدأ ثائره ، ويقر فى مكانه .

إن صاحبك الذى يتحداك ، ليس له مصلحة أدبية أو مادية فى أن يتحداك ويغاضبك فهو إذاً غير مريض ، ومن السهل علاجه برفق ، واقتناصه بسهولة .

أره من نفسك الود ، والتقدير لشخصه ورأيه ، وأشعره — بحركاتك الرزينة وإشاراتك الهادئة — أنك فى حالة طبيعية بسيطة ، وأنك خالى الذهن من تحديه إياك أو تحديك إياه .

ستقول : كيف ؟ فأقول : جربه عمليا ؛ فتجارب الحياة هى التى تشرحه لك ، وتريك أمثلته الكثيرة .

ثالثاً : أن يترك « التعالم والتفاصح » على الناس ، فإن الناس يكرهون من يتحدث عن نفسه ، أو من يتظاهر بالامتياز عنهم بشىء .

عليه بالتواضع ، ونسيان علمه وفصاحته ، وأن يتحدث إليهم فى فصاحة لا كلفة فيها ولا فوارق ، فإنه لا يلبث أن يمتزج بهم ويمتزجوا به .

والويل لمن يشعر بنفسه ، ويحس بمواهبه ! . . قد لا يثور به الناس ، وقد لا يؤذيه أحد ؛ ولكنه لن يقترب منهم ، ولن ينجح فى مهمته .

نقول هذا ليغسل كل منا نفسه ، ويطهرها من هذا الرجس ، وليكون دستوراً عملياً لنا فى خطاب الناس ؛ فإذا خاطب أحدنا غيره ، خاطبه على أنه مثله ونظيره ، وأن ما لديه من علم فالفضل فيه لله لا لأحد آخر .

فلنقبل على الناس بفضل الله ، لا بفضل نفوسنا — يفتح الله لنا ما نشاء من القلوب والعقول ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً كبيرا ؟

فهرس كتاب تذكرة الدعاة

صفحة

